بوغانوف

حياة بطرس الاكبر

ترجمة خيرى الضامن

دار التقدم
موسكو

В. И. Буганов

ПЕТР ВЕЛИКИЙ - ЛИЧНОСТЬ И ЭПОХА

На арабском языке

Б $\frac{0503020200\text{-}108}{014(01)\text{-}90}$ 186-90

ISBN 5-01-002150-1

توطئة

جرت العادة في العلوم التاريخية والاجتماعية الروسية قبل ثورة اكتوبر ١٩١٧ ، ولفترة معينة بعدها ، وفي العلوم الاجنبية حتى الآن احيانا على تقسيم تاريخ روسيا الى مرحلتين : ما قبل بطرس الاكبر وما بعده . وسبب هذا التقسيم هو مدى اعجاب الناس بشخصية امبراطور روسيا الاول ومصلحها العظيم ومدى تقديرهم لاهمية ما انجزه في تاريخ روسيا وللمكانة التي شغلها فيه .

وحتى عندما كان بطرس الاكبر على قيد الحياة نشأ بخصوصه ما يشبه عبادة الفرد وصار الكثيرون ينظرون اليه نظرتهم الى اله دنيوي . وظل هذا الاتجاه سائدا بعد وفاته . كان أ . نارتوف الخراط الشهير آنذاك يحافظ مدى الحياة على الذكرى العاطرة لهذا الرجل العظيم :

— مع ان بطرس العظيم لم يعد بين ظهرانينا ، الا ان روحه تعيش في ارواحنا ، وسنظل نحن الذين حالفنا الحظ في التواجد في حاشية هذا القيصر مخلصين له الدين مدى الحياة ، وسنموت ونحن على حبنا الجم لهذا الاله الدنيوي .

وكان العالم الروسي العظيم لومونوسوف يعتبر بطرس الاكبر انسانا «شبيها بالاله» . وتساءل الشاعر درجافين :

— ألم ينزل الاله فى شخصه من علياء السموات ؟

ما اكثر الشعراء والكتاب والرسامون والنحاتون فى القرن الثامن عشر وبعده ممن مجدوا بطرس الاكبر وكتبوا عنه وصوروا هذا الحاكم–الشغيل العظيم ، ولكن الناس بالطبع لم يكونوا مجمعين فى رأيهم هذا بخصوصه حتى فى ذلك القرن الذى عاش بطرس الاكبر وتوفى فيه . فقد ظهرت اصوات نشاز فى جوقة الثناء والمديح . ومنذ ان كان على قيد الحياة لم يكن الجميع يوافقونه على ما فعل وعلى الاساليب التى ادخل بها مستحدثاته الشهيرة . وفيما بعد ، فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر اعترف البعض ، من امثال المؤرخ الامير شيرباتوف ، بنجاحات بطرس الاكبر فى نشاطه التجديدى ولكنهم اخذوا ينوحون ويندبون على الاعراف والعادات القديمة المتأصلة فى روسيا والتى عفا عليها الزمن فى عهده بسبب نشاطه وتأثيره الكبير ، وعلى تدهور وانحسار البيوتات الارستقراطية وتدنى الاخلاق . وكان البعض الآخر ، من امثال راديشيف ، يعترفون بمكانة بطرس الاكبر المصلح ، لكنهم يلومونه لانه اجتث «آخر خصائص الفطرة الطليقة الحرة لوطنه» .

واستمرت هذه المجادلات فى القرن التاسع عشر ولا تزال مستمرة حتى الان . لقد فكر فى بطرس وتحدث عنه كثير من مشاهير العالم . وصف فولتير فترة حكمه وقال ، فيما قال ، ان ملك السويد كارل الثانى عشر الذى حارب ضد بطرس الاكبر وابدى فى البداية زهوا وتعاليا عليه لا يصلح الا كجندى من جنوده . وقال الشاعر الروس العظيم بوشكين : «روسيا الغضة . . . تصلب عودها بعبقرية بطرس» . وتغنى بوشكين بالقيصر النجار الذى دخلت روسيا فى عهده «ابواب

اوربا كسفينة انزلت الى الماء وسط طرق الفؤوس وهـــدير المدافع» . ويشير الشاعر فى الوقت ذاته الى ان بطرس الاكبر «ألجم روسيا بلجام حديدى» . فالكثير من مراسيمه مكتوبة بالسوط ، ولم يتجرأ احد ان يعترض عليه وارتعد الجميع هلعا امامه .

وقد وردت عن بطرس الاكبر اقوال وآراء متناقضة للغاية فى كتب التاريخ والمؤلفات التى تتناول بالدراسة روسيا فى عهده والمؤلفات المكرسة له نفسه ، وقد تجمع منها حتى الان مكتبة كاملة . وقال مؤرخ البلاط الكاتب المعروف كارامزين بأسف :

— لقد صرنا مواطنين للعالم ، لكننا لم نعد فى بعض الحالات مواطنين لروسيا ، والذنب فى ذلك ذنب بطرس .

قيلت هذه الكلمات فى عصر بوشكين . وبعد نصف قرن او يزيد نعت المؤرخ الروسى المعروف سولوفييف بطرس الاكبر بالثورى الجالس على العرش : فهو الذى قاد الشعب الضعيف الفقير المجهول تقريبا الى مسرح التاريخ «من خلال الحضارة» وبذلك جمع بين نصفى اوربا الشرقى والغربـى بعد ان كانا ممزقين .

تلك امثلة على وجهات النظر المتعارضة عن بطرس الاكبر عند معاصريه واشياعه . وكان الجدل حول شخصية بطرس المعقدة والمتناقضة للغاية ، والبطولية والمأساوية فى الوقت ذاته ، وحول اعماله التى اثارت اعجاب البعـــض وسخط البعض الاخر قد بدأ آنذاك ، فى عهده ، فى خضم نشاطه العاصف وحياته الفوارة .

ومع ذلك فان تاريخ روسيا اطلق على بطرس الاكبر

بالذات بنعت المصلح بكل ما فى هذه الكلمة من معنى . فقد واصل اعمال جده وابيه واخيه وارتقى بها الى مستوى النجاحات المدهشة التى لم يكن سابقوه يحلمون بها .

فى اواخر القرن الثامن عشر ارتفع فى بطرسبورغ ولا يزال قائما فى لينينغراد حتى الان تمثال رائع لامبراطور روسيا الاول من نحت أ . فالكونى . وعلى القاعدة كتابة تقول : «الى بطرس الاكبر من يكاتيرينا الثانية» . كانت الامبراطورة التى حققت روسيا فى عهدها ايضا نجاحات مرموقة فى جميع ميادين الحياة امرأة مغرورة سليطة تعتقد بانها تواصل اعمال بطرس الجليلة . واذا تركنا جانبا الامور الشخصية والحسابات النفعية ، فليست هى موضوع الكلام الآن ، يمكننا ان نقول بان صورة المصلح العظيم الذى يتحدى اعداء روسيا من على ظهر حصانه انما تجسد بافضل شكل جوهر شخصيته وروح عصره .

الطفولة والفتوة

لم يكن اوائل القياصرة من سلالة رومانوف ، شأن الروس عموما فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، من المعمرين . فان مؤسس هذه السلالة ميخائيل فيودوروفيتش عاش خمسين عاما ونيفا ، وعاش ابنه الكسى عمرا فى حدود عمر ابيه . وكان ذلك ايضا من نصيب احد احفاد القيصر ميخائيل ، ونعنى امبراطور روسيا الاول بطرس الاكبر . فقد منحته الاقدار اقل من خمسة عقود ونصف .

كانت عائلة القيصر الكسى ميخائيلوفيتش ، والد بطرس الاكبر ، كبيرة ، فقد رزق باطفال كثيرين ولدوا الواحد بعد الاخر . وفى الستينات بلغ عددهم ثلاثة عشر . ورغم هذا النسل الكبير لم يكن القيصر الاب موفقا جدا من هذة الناحية . بعض الاولاد انتقلوا الى جوار ربهم فى سن مبكرة ، واغلبية الباقين اناث . مات بعض الذكور رضعا ونما البعض الاخر ضعافا الامل فيهم قليل . وكان القيصر «الهادىء» ، كما نعتوه آنذاك ، حزينا كئيبا ، فغهد ابناءه الى اطباء حكماء يسهرون عليهم . لكن ذلك لم يعد عليهم بنفع يذكر . ولم يبق الا الابتهال الى البارى وانتظار المعجزة .

وبعد وفاة القيصرة ماريا ميلوسلافسكايا تزوج الكسى

ميخائيلوفيتش للمرة الثانية . ووقع اختياره هذه المرة على ناتاليا كريمة كيريل ناريشكين وهو رجل من عامة نبلاء سمولينسك الذين لا يعتبرون من الوجهاء . وفي ٣٠ ايار (مايو) ١٦٧٢ ولدت القيصرة الشابة الموفورة الصحة ابنها بطرس ، وكانت آنذاك في الحادية والعشرين ، بينما كان القيصر الكسى يكبرها بمثل عمرها .

وبمناسبة «الفرحة العمومية» ، كما كانوا يقولون آنذاك ، جرى احتفال مهيب بميلاد الطفل الرابع عشر للقيصر الاب . فطوال نهار الثلاثين من ايار دقت مئات النواقيس في جميع كنائس واديرة موسكو واقيمت الصلوات فيها . وفي كاتدرائية اوسبينسكي (العذراء) اقام الصلاة الاب بيتيريم مطران نوفغورود ومطرانان آخران وثلاثة من رؤساء الاساقفة . وبعد الصلاة تقدم بالتهاني الى القيصر رجال الدين والحاشية من البويار* وكبار الموظفين . وزار القيصر مع حاشيته جميع كنائس الكرملين لاداء الصلاة . وعاد الموكب الى القصر ، وهنا ، في صالة الطعام ، منح والد القيصرة الشابة رتبة احد كبار الاعيان . وحاز على نفس هذه الرتبة ارتامون ماتفييف ، الرجل المحنك الهمام الذي كان في الماضي غير البعيد آمرا لاحد افواج القوات الخاصة (ستريلتسي) . وكانت القيصرة الجديدة قد تربت في منزله . وقد جرت العادة من قديم الزمان على ان يرتقي اقرباء القيصرة والمقربون اليها سلم البلاط بسرعة ، ولذا دخل محاسيب القيصر الجدد ، من جهة عقيلته ، مجلس دوما البويار ، اعلى هيئة استشارية في البلاط ،

* الاعيان والوجهاء من كبار الارستقراطيين .

وانضموا الى صفوف ارستقراطية العاصمة .

وفى نفس اليوم قدم القيصر فى صالة الضيافة خمرة الفودكا وانواع النبيذ الغربى مع التفاح والاجاص والكمثرى المنقعة بالدبس . وفى دهليز المدخل قدم مدير الاسلحة بوغدان خيتروفو الشراب لآمرى القوات النظامية الخاصة وقادة العسكر . وبسبب قرب موعد الصوم تأجلت الوليمة الفخمة واكتفوا بغداء متواضع فى الصالة المذهبة العائدة لعقيلة القيصر . ومن جديد قدموا الفودكا والفطائر والتفاح والتين المنقع بالدبس ونقيع الفواكه فى اباريق خزفية .

وفى الاول من حزيران (يونيو) ، وهو اليوم الثالث بعد ميلاد بطرس ، كلف سيمون اوشاكوف افضل رسامى الايقونات فى موسكو باعداد ايقونة الثالوث وبطرس الرسول على لوح من السرو بحجم وليد القيصر الذى شرع الرسام الشهير بالعمل فى اعداد الايقونة تكريما له (وبسبب مرض اوشاكوف انجز الايقونة رسام آخر من الحاشية هو فيودور كوزلوف) .

وبعد شهر ، فى ٢٩ حزيران جرى تعميد بطرس فى كنيسة القديس الكسى فى دير تشودوف (المعجزة) . وفى اليوم التالى اعدت فى صالة «غرانوفيتايا» (المضلعة) «مائدة الوليد» وهى مأدبة احتفالية فخمة تضمنت كل ما لذ وطاب من مأكولات وشراب . ومن ذلك اطباق الحلوى ، حيث وضعت على المائدة فطيرة سكرية بهيئة شعار الدولة الروسية ، وطيور مصبوبة من السكر هى نسران ابيض واحمر وبجعة ووزة وببغاء وحمامة ، ومنحوتة تمثل الكريملين بابراجه ومدافعه والناس فيه وما الى ذلك ، بالاضافة الى عجائب وغرائب اخرى . وكالعادة تقدم المدعوون من كبار رجال الدين والوجهاء ،

وبينهم امير جورجيا وامراء قاسموف وسيبيريا ، والتجار الاثرياء وقادة العساكر وممثلو الحرفيين والباعة بالهدايا الى الوليد كالكؤوس البلورية والخواتم الذهبية والاقداح والصلبان .

وبعد ايام ، فى ٤ تموز (يوليو) اعدت فى نفس الصالة المضلعة «مائدة التعميد» . واقامت القيصرة مثل هاتين الوليمتين فى نفس هذين اليومين فى صالة الطعام المذهبة العائدة لها . وجرى الاحتفال بميلاد بطرس بفخامة وفخفخة ومرح بالغ ، كما هى العادة فى مثل هذه الاحوال . واحاطت بالوليد «حاشية» كاملة تسهر عليه وترعاه وتتكون من كبيرة المربيات الاميرة اوليانا غوليتسينا من البويار ، والمرضعة نينيلا يروفييفا ، ومشرفة على البياضات والثياب ، وخمس نساء لترتيب المهد . وخصصت له غرفتان متميزتان ، جدران احداها ملبسة بجلد ونقوش فضية مجسمة ، وجدران الاخرى مكسوة بجوخ احمر صنع فى هامبورغ . واعد صناع مهرة مهد الوليد وثيابه ، واعدوا له فيما بعد ، حسب تدرجه فى العمر ، مختلف الالعاب كالكراسى والخيول الخشبية ، وبعد ذلك طبول الاطفال والآلات الموسيقية كالكلافيكورد (البيانو البدائى) والسمبال وعربة . وجاء دور «كتب التسلية» المزينة بالرسوم . الا ان الصبى ، كما اشار المحيطون به ، يحب اكثر ما يحب الالعاب ذات الصفة العسكرية — القوس والنشاب ، والسيوف والبنادق والطبول و«الناقوس المسلى» . كان الصبى الحرك النابه يلعب «لعبة الحرب» ، فعنده فوج كامل من الصبيان ، وهم اترابه من ابناء الوجهاء . وقد عودوهم جميعا على الانضباط وعلموهم ودربوهم . واهتم القيصر الاب شخصيا بذلك ، فعين لهذا الغرض احد الاجانب الذين كانوا فى خدمة البلاط ،

وهو الاسكتلندى بافل مينيزيوس ، ذلك الرجل المحنك الشاطر الذى زار فى شبابه عدة بلدان اوربية ، ويجيد عدة لغات مختلفة ، ويتحلى بروح المغامرة . كان يخدم فى بولونيا فأسره الروس . كان من محسوبـى القيصر الكسى الذى كلفه بعدة مهمات دبلوماسية خطيرة ، حيث ارسله ، مثلا ، فى مهمة الى بابا روما . استقر مينيزيوس فى روسيا وتزوج من ارملة اجنبـى آخر هو مارسيليز صاحب مصانع التعدين فى تولا وكاشيرا . وعين مينيزيوس فى منصبه الجديد هذا بعد عودته من روما .

مرت سنى الطفولة الاولى فى دعة ومرح واطمئنان . لكن الغيوم الاولى سرعان ما ظهرت الى الوجود . ففى العام الرابع من الطفولة فقد بطرس اباه الذى قضى نحبه فى ٢٩ كانون الثانى (يناير) ١٦٧٦ . واعتلى العرش فيودور الكسييفيتش قبل ان يبلغ الرابعة عشرة من العمر . وهو فتى عليل لا يكاد يقوى على تحريك قدميه . كان كما قالوا فى قديم الزمان ، «يجرجر رجليه» ، واكد الحكماء من عجائز البلاط والاطباء الاجانب انه مصاب بالاسقربوط .

كان القيصر فيودور واخوه ايفان الذى لم يتجاوز العاشرة من العمر من ابناء القيصر الراحل الكسى من زوجته الاولى ميلوسلافسكايا ، ولذا استلم السلطة اقرباؤها مع اشياعهم الذين كانوا يشكلون فى البلاط ما يشبه «الكتلة» او «العصبة» . وانسحب آل ناريشكين وحلفاؤهم الى الظل . ونفـــى ارتامون ماتفييف مربـى عقيلة القيصر ومستشارها والوزير الاول فى الحكومة فى السنوات الاخيرة من حياة القيصر الكسى ، اما الباقون فقد نحوا من مناصبهم .

الا ان بطرس الصغير ظل يلعب نفس الالعاب فى

الكريملين دون ان يدرك طبعا لماذا تذرف امه الدموع ولماذا يحزن اقرباؤه الآخرون . ظل المربون والمربيات يسهرون عليه كالسابق ، وحلت ماتريونا ليونتيفا وهى من البويار ايضا محل كبيرة المربيات الاميرة غوليتسينا بعد وفاتها .

وظهرت هموم ومشاغل جديدة . فقد قال القيصر فيودور ذات مرة لزوجة ابيه القيصرة ناتاليا :

— حان الوقت يا صاحبة الجلالة لتعليم الصبى .

كان القيصر فيودور اشبينا لبطرس ولذا اهتم به حسب الاصول . وكان بطرس آنذاك فى بداية السادسة من العمر . ووافقت القيصرة على تعليم ابنها ، لكنها طلبت ان يجدوا له معلما متواضعا متسامحا ملما بالكتاب المقدس . وكلف القيصر البويار فيودور سكوفنين بالبحث عن معلم مناسب . والمعروف عن سكوفنين انه متدين من المنشقين المتمسكين بالمذهب القديم ، وكانت بنتاه فيودوسيا موروزوفا التى جسد الرسام الروسى سوريكوف صورتها فى لوحته الشهيرة «موروزوفا» ، والاميرة افدوتيا اوروسوفا قد تجرعتا الموت وصارتا من المعذبين بسبب «الايمان القديم» لتعصبهما للاب اباكوم الذى احرق فى عام ١٦٨٢ . ونصح سوكوفنين باستخدام نيكيتا زوتوف ، وهو موظف صغير فى مديرية العائدات والضرائب . ومثل زوتوف امام القيصر فيودور والقيصرة المترملة ناتاليا . وترسم هذه المقابلة لوحة بليغة للاعراف الروسية القديمة فى ذلك الزمان . فقد رافق سوكوفنين المعلم المتواضع الفاضل وتركه فى صالة الضيافة ودخل على القيصر ليبلغه . وبعد لحظات ظهر احد النبلاء وسأل :

— من منكم نيكيتا زوتوف ؟

فارتبك زوتوف اشد الارتباك وتجمد لا يقوى على تحريك قدميه . امسك السكرتير بمرفقه ، ولكن دون جدوى . فالمعلم الفاضل لم يتزحزح من مكانه واستعطف السكرتير ان يمهله قليلا حتى يستعيد قواه . ظل واقفا برهة ، ثم رسم شارة الصليب ودخل على القيصر وهو يردد اسم المسيح . مد له القيصر يده فقبلها المعلم . وبدأ امتحان القراءة والكتابة بحضور الكاهن البيلوروسي النحرير سيميون بولوتسكي ، الشاعر والكاتب المعروف ومربي فيودور الكسييفيتش نفسه . واستحسنوا معارف زوتوف ، ورافقه سوكوفنين ليقدمه الى القيصرة المترملة ناتاليا . وحظي باعجابها :

— اعرف انك حسن السلوك متضلع في الكتاب المقدس ، ولذا اعهد اليك بوحيدي .

ترقرقت الدموع في عيني زوتوف وركع امام القيصرة :

— انا لا استحق هذا الشرف العظيم يا صاحبة الجلالة .

مدت القيصرة ناتاليا يدها للمعلم راضية على طاعته وتواضعه ، وامرته ان يبدأ دروسه في صباح غد . فنفذ المعلم الامر ، وحضر القيصر والبطريرك الدرس الاول . ادوا الصلاة وبارك البطريرك المعلم ، وانحنى هذا الاخير احتراما لتلميذه الجليل وجلس معه وامامهما كتاب الابجدية . وفي الحال منح البطريرك يواكيم المعلم مائة روبل ، وهو مبلغ كبير في مقاييس ذلك الزمان . كما رفع القيصر فيودور منزلته فصار من النبلاء . وبعثت القيصرة ناتاليا الى زوتوف طقمين من البياضات والثياب الثمينة جدا ليكون «كامل البزة والهندام» . وما ان انصرف القيصر والبطريرك حتى غير المعلم ثيابه وارتدى البدلة الجديدة . ولا احد يدري من كان اكثر سرورا ، هل

هو «الاستاذ» الراشد الذى يتحلى ببساطة الاطفال ام الصبى بطرس وهو يتابع باهتمام كبير فى اغلب الظن معلمه الذى يتودد له ويخشاه بالطبع خشيته من نار حارقة ؟

كان غريغورى كوتوشيخين ، وهو موظف فى مديرية العلاقات الخارجية فر فى حينه الى السويد ، قد كتب فى مؤلفه «روسيا فى عهد القيصر الكسى ميخائيلوفيتش» عن حياة وعادات البلاط فى موسكو ، وقال انهم كانوا يختارون لتعليم ابناء القيصر «معلمين هادئين لا يحبون المسكرات» . وكان زوتوف بالفعل معلما هادئا يخاف الله ، وقد لقن بطرس الطغير مبادئ العلوم المقررة آنذاك ، فاتقن الصبى الابجدية ، اى القراءة والكتابة ، وحفظ عن ظهر قلب كتاب الصلوات والمزامير والانجيل وكتاب الرسل . وفيما بعد ظل يتذكر جيدا نصوص الكتاب المقدس ويستشهد بها ويحب تلاوتها والانشاد فى خورس الكنيسة . واولع بطرس النبيه بالكتب المزينة بالصور والرسوم ، ومنها المؤلفات التاريخية ، وربما هى نصوص السجلات والتواريخ المزينة بالمنمنمات . وبأمر من القيصرة المترملة اخذ رسامو البلاط العاملون فى غرفة الاسلحة فى الكريملين يعدون رسوما لبطرس تصور بالاصباغ واللون الذهبى مدنا وبنايات وسفنا ومعارك واسلحة وجنودا . وكان الصبى يتصفح «الدفاتر المسلية» هذه ، وفيها مختلف القصص والحكايات ، باهتمام بالغ وولع شديد . وعندما يتعب من ذلك يعرض عليه زوتوف الصور بنفسه ويقدم له توضيحات بخصوص احداث عهد فلاديمير الاول القديس والكسندر نيفسكى ودميترى دونسكوى وايفان الرهيب . ووصل فى احاديثه الى عهد والد بطرس ، القيصر الكسى ميخائيلوفيتش ، وقص

عليه احداثا مشهودة هامة فى ذلك العهد . وهكذا تشبع ذهن الصبي النبيه بمعلومات عن ماضى الوطن وامجاد اجداده . باختصار ، بذل زوتوف كل ما فى وسعه لاجل تعليم بطرس المبادئ والاصول ولقنه بما يعرفه هو بنفسه واستخدم كل ما توفر له من وسائل تعليمية او وسائل ايضاح كما نقول الان . وفيما بعد قدر بطرس الاكبر معلمه الاول حق قدره . صحيح ان هذا المعلم لم يكن يتحلى بالصفة الثانية التى اشار اليها كوتوشيخين ، وهى الامتناع عن المسكرات . لكن هذه الخطيئة جاءت فيما بعد ، اثناء «مجمع السكر والعربدة والمرح» الشهير الذى اقامه بطرس الاكبر ، القيصر المرح ومبتدع افانين اللهو والتسلية .

ظلت القيصرة المترملة ناتاليا تقيم مع ابنها فى الكريملين بفضل تعلق القيصر فيودور باخيه الاصغر ، وربما بها ايضا . اما سائر آل ميلوسلافسكى فلم يكونوا يحبون الغريمة زوجة الاب الشابة ، وتجلى نفورهم منها فور وفاة القيصر فيودور فى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٦٨٢ . وورث عرش القيصر الراحل اخواه الاكبر ايفان ، ابن ميلوسلافسكايا ، والاصغر بطرس ، ابن ناريشكينا . اولهما فى السادسة عشرة ، وهو يعانى من خلل عقلى وضعف بدنى ، والثانى فى العاشرة سليم معافى ومرح يدهش الجميع بحيويته ونباهته وكثرة الحركة . وكما هو الحال دوما فى مثل هذه الاوضاع اثارت مسألة السلطة صراعا بين الكتلتين ودوامة من الاحداث الدموية التى لم تكن متوقعة فى الكثير من جوانبها . وتركت تلك الاحداث اثرا نفسانيا عميقا فى ذهن الصبي بطرس لم يتخلص منه مدى الحياة .

وتوافق الصراع الطاحن من اجل السلطة مع انتفاضة افراد القوات الخاصة وجنود حامية موسكو وبعض الفئات الدنيا من اهالى العاصمة . وكان افراد القوات الخاصة المرابطون فى موسكو القوة الرئيسية المحركة للانتفاضة دون شك . كانت هذه القوات جزءا من الجيش الروسى (فى عام ١٦٨١ بلغ عدد افرادها فى البلاد ٥٥ الفا ، منهم فى موسكو ٢٢,٥ الف شخص . وكان الموجودون منهم فعلا فى العاصمة ربيع ١٦٨١ ١٩ فوجا ضمت ١٤١٩٨ شخصا) . وكانت تحرس الكرملين وتحافظ على النظام فى العاصمة وتقمع عند الاقتضاء القلاقل والنضالات الشعبية ضد السلطات والوجهاء . وكان افرادها يستلمون مرتبات لقاء الخدمة ، لكنها مرتبات غير منتظمة ، وقد تقلصت لحد النصف فى اواسط القرن إلسابع عشر . ومن اجل كسب القوت سمحت السلطات لافراد القوات الخاصة بممارسة التجارة والصنائع مما يعود بدخل معين . واعتبارا من منتصف القرن المذكور ارغموا على تسديد الضرائب بعد ان اعفتهم السلطات منها فيما سبق . ومما زاد من سخط افراد القوات الخاصة (وكذلك الجنود والمدفعيين وغيرهم من صغار المستخدمين) التعسف والابتزاز والرشاوى التى دأب عليها موظفو المديريات والقادة .

كان افراد القوات الخاصة قد تشكوا من الآمرين فى الشتاء والربيع ، ولكن دون جدوى . اما الان فقد اتخذت القضية مجرى آخر بسبب استبداد السلطة والصراع بين تكتلات البلاط . وبناء على اقتراح من البطريرك يواكيم وتأييد قسم من البويار نصب بطرس البالغ من العمر عشر سنوات قيصرا لروسيا ، وتزعمت امه بوصفها وصية على العرش عصبة ناريشكين

التى استلمت مقاليد السلطة . لكن ام بطرس لا تتحلى بأية مواهب لادارة دفة الدولة ، ولم يكن يتحلى بتلك المواهب احد من اخوانها واقربائها الاخرين . فهم لا يمتلكون خبرة سياسية ، ولذا اخذوا يستأثرون بالرتب والمناصب دون حساب .

في حين كانت الانتفاضة تختمر فى العاصمة . نفد صبر افراد القوات الخاصة بسبب تدهور احوالهم المعيشية ، فراحوا يلتقون فى اجتماعات سرية وعلنية ويناقشون مطالبهم ويسجلون اسماء الاشخاص الذين تمادوا فى التعسف لينتقموا منهم . وفى ٣٠ ايار (مايو) انذروا الحكومة بان تسلمهم ١٦ قائدا عسكريا لينتقموا منهم . ونزلت الوصية ام القيصر ومساعدوها المرتبكون العاجزون عند هذا الطلب ، فنحى القادة المذكورون من مناصبهم وتعرضوا للجلد بالسياط . وكانت السلطات تأمل بان الامور ستهدأ ، وان ماتفييف الذى اعيد من المنفى على جناح السرعة سيعمل على احلال النظام حالما يصل الى موسكو . وافادت الاشاعات ان ماتفييف هدد فعلا باخماد «قلاقل» القوات الخاصة . وابدى رجالات الحكومة فـــى موسكو ، الامراء من آل دولغوروكى وغيرهم استياءهم وحقدهم على افراد تلك القوات بسبب «عصيانهم» ومطالبهم . لكنهم لم يتمكنوا من اخماد لهيب الانتفاضة . ففى اواسط ايار وصل افراد القوات الخاصة والجنود وفق خطة مرسومة مسبقا الى الكريملين وشرعوا بعمليتهم التنكيلية . وقتل باطبارهم ورماحهم ماتفييف ودولغوروكى الاب والابـــن وعدد مـــن آل ناريشكين ورؤساء القوات الخاصة وموظفى المديريات . وسيطر الثوار على الموقف فى العاصمة واملوا ارادتهم على الحكومة . وبناء على رغبتهم غدا ايفان الكسييفيتش القيصر الاول واخوه

بطرس القيصر الثانى ، وسرعان ما صارت اختهما صوفيا وصية على العرش .

لقد شهدت نهاية ربيع ١٦٨٢ وصيفه وبداية خريفه النفوذ السياسى الكبير الذى كان لافراد القوات الخاصة وانصارهم الثائرين . فقد اطلق على تلك القوات فى موسكو اسم «مشاة البلاط» ، وانشئت مسلة فى الساحة الحمراء تقديرا لخدماتها فى احداث ١٥ — ١٧ ايار (مايو) ، واستلم افرادها رواتبهم المحتجزة من عدة سنين ، ومنحوا الهدايا والهبات ، واستعيدت من الآمرين السابقين ، بالعصى احيانا ، النقود المستقطعة من افراد القوات الخاصة والجنود سابقا (وفق قوائم معدة مسبقا) .

وما كان بوسع الصبى بطرس السريع التأثر الا يتألم لانتقام الثوار الدموى من اشخاص عزيزين عليه . فقد حدث ذلك على مرأى منه وترك اثرا عميقا فى نفسه . ولم يفهم آنذاك ولا فيما بعد عدالة شكوى افراد القوات الخاصة من عذابهم وآلامهم . وظل سنين طويلة يختزن الحقد عليهم بعد ان اجتاح فؤاده وهو فى العاشرة من العمر ، وفى افضل الاحوال اختزن النفور منهم الذى كان يطفو على السطح مرارا ويتخذ احيانا اشكالا قاسية تتجاوز الحدود . وكان معاصروه ، ومنهم الاجانب ، الذين راقبوه فيما بعد يرون ان سورات الغضب واهتزاز الرأس بعصبية تعود بقدر كبير الى هزات تلك السنوات .

واتضح ان ثوار ١٦٨٢ ، رغم قوتهم الكبيرة فى الاسابيع والاشهر الاولى من حركتهم ، ضعفاء جدا من الناحية السياسية ، وكان لا بد ان يتضح ضعفهم . فهم لم يكونوا يطمحون الى السلطة مباشرة ، لانهم لا يجيدون ادارة دفة الحكم .

وكان الاميران خوفانسكى ، الاب والابن ، وهما من آل غيديمينوفيتش (احفاد الامير الليتوانى الكبير غيديمين) قد ترأسا مديرية القوات الخاصة واصبحا بمثابة الزعيمين لافرادها الثائرين. ولذا ظلت المطبوعات لامد طويل تطلق نعت «الخوفانسكية» على الانتفاضة نفسها فى موسكو . وهذا هو ايضا اسم اوبرا موسورغسكى الرائعة . اما فى الواقع فان آل خوفانسكى لم يكونوا بالطبع زعماء للانتفاضة ، لانهم لم يتبنوا اهداف المشاركين فيها من افراد القوات الخاصة بالدرجة الاولى ، وهم من ابناء الشعب البسطاء (الفلاحين والحرفيين والاقنان) . لكن دوامة الاحداث المأساوية العاصفة اجتذبت هذين الاميرين الطامعين فى السلطة والمال والامتيازات ، ولذا شاءت الاقدار ان يكونا فى قارب واحد مع اناس غريبين عليها اجتماعيا وحاولا ان يتعكزا عليهم فى الصراع من اجل السلطة . ولم يحالفها الحظ . فقد كسبت المعركة صوفيا الوصية على العرش واشياعها الشطار من امثال الامير غوليتسين الذى نصبته مستشارا ورئيسا للحكومة ، وكذلك رجل الاعمال النابه النشيط شاكلوفيتى (وكلاهما من احباب الاميرة صوفيا ، الاول فى بداية وصايتها والثانى فى نهايتها) ، وغيرهما . وسيطر هؤلاء على الموقف مستفيدين من هيبة السلطة القيصرية . وقد اتخذوا لهم مقرا فى دير ترويتسا-سرغييف (الثالوث والقديس سيرغى) وبمساعدة قوات النبلاء المتحشدة فى مختلف مدن ضواحى العاصمة ارغموا الثوار على الاستسلام فى خريف ذلك العام . وغدت السلطة الفعلية فى يد صوفيا ابنة القيصر الكسى من زوجته ميلوسلافسكايا ، وهى فتاة ذكية متغطرسة . واستمر حكمها سبع سنوات . وطوال تلك الفترة ظل

بطرس وايفان رسميا قيصرين لروسيا يشاركان فى مراسيم استقبال السفراء والمواكب الكنسية وغيرها . لكن بطرس وامه لم يلعبا اى دور فى الشؤون السياسية . زد على ذلك انهما صارا بمثابة منفيين فى بلدة بريوبراجينسكويه التى غدت مقرا للقيصرة المترملة التى افل نجمها مع ابنها . ويقول الامير كوراكين ذو النباهة وحدة الملاحظة ، الذى غدا فيما بعد من ابـــرز الدبلوماسيين الروس ، انها «عاشت على ما تتفضل به عليها الاميرة صوفيا» ، وكانت تتلقى مساعدات مالية سرية من البطريرك يواكيم الذى اشفق على بطرس وامه ومن مطران روستوف ومن دير الثالوث والقديس سيرغى . وما كان بوسع ناتاليا كيريلوفنا وحاشيتها ان تسكت بالطبع على ضياع السلطة والنفوذ . الا ان الغضب والتذمر فى قصر بريوبراجينسكويه الذى افل نجمه لم يعكرا صفو القيصر الاصغر بطباعه الفوارة . وغالبا ما كانوا يجلبون له من مستودعات الكريملين الـــى بريوبراجينسكويه مسدسات وبنادق وغيرها من الاسلحة وطبولا وغيرها من المصنوعات الحربية والذخيرة (الرصاص والبارود) والرايات . ولم يكن القيصر الفتى يحب الاستقرار فى مكان واحد ، فترك بريوبراجينسكويه الى فوروبيوفو ومنها الــــى كولومينسكويه ، وراح يتردد على دير الثالوث والقديس سيرغى تارة ودير ستوروجيفسكى (القديس سافا) بضواحى زفينيغورود تارة أخرى . وتتنقل معه «مستلزماته الحربية» . وابدى اهتماما بمطبوع بعنوان «كتاب البارود» ، فجلبوه له من غرفة الاسلحة فى الكريملين .

وكان يأتى احيانا الى الكريملين نفسه فيشارك ، مثلا ، فى مراسيم السفراء . ذات مرة ، اثناء حفلة استقبال السفير

السويدى صيف ١٦٨٣ اثار دهشة الاجانب فكتب سكرتير السفارة كيمفر بهذا الخصوص وصفا بليغ الدلالة :

— فى صالة الاستقبال الملبسة بالسجاجيد العثمانية جلس كلا القيصرين تحت الايقونات على عرشين فضيين وهما بكامل بزة القياصرة التى تومض احجارها الكريمة . الاخ الاكبر (ايفان) جلس دون حراك تقريبا ، وهو يحدق فى الارض دون ان ينظر الى احد وقبعته تكاد تغطى عينيه ، والاخ الاصغر (بطرس) يتطلع فى وجوه الجميع مفتح الاسارير جميلا ، ينضح فتوة كلما خاطبه احد . جماله المدهش اذهل جميع الحاضرين ، وحيرت حيويته كبار موظفى موسكو الرزينين . وعندما سلم السفير اوراق اعتماده وكان يليق بكلا القيصرين ان ينهضا فى وقت واحد ليستفسرا منه عن صحة الملك ، لم يترك بطرس وقتا للرجال المكلفين بمساعدته مع اخيه كى ينهضا ، كما تتطلب المراسيم ، بل هرع من مكانه ورفع قبعته القيصرية بنفسه وطرح السؤال المعتاد بلهجة سريعة : كيف حال شقيقنا عاهل السويد ؟ هل هو بخير ؟

الا ان بطرس فى تلك السنين ركز جل اهتمامه على الالعاب العسكرية «المسلية» . وجعل تلك الالعاب موضع اهتمام طائفة كبيرة من اترابه ومن الصبيان الاكبر منه سنا . وقد ترك ابوه الراحل دوائر كاملة لرعاية الخيل والصيد بواسطة الصقور ، فقد كان مولعا جدا بهذه الامور . وانتقلْ لخدمة بطرس مئات من ساسة الخيل والصيادين المهتمين بالقنص بواسطة الصقور والبواشق ممن ظلوا بلا عمل . الا ان بطرس لم يكن يطيق القنص بالصقور ، وهو يفضل الركض على قدميه ولا يحب الجولات المهيبة ، لكنه جمع كل هؤلاء

الصيادين وخدم البلاط وغيرهم فى كتائب «الالعاب» . والى جانب الوجهاء ادرج فى صفوفها الاقنان السابقين وغيرهم من «البسطاء» بشرط ان يكونوا شطارا مرحين يؤدون المطلوب . ونشأ بالنتيجة حشد متنوع تشكلت منه كتيبتان بـ ٣٠٠ شخص تقريبا لكل منهما . ونرى بين سائر افراد كتيبتى «الالعاب» من جهة ، الامير م . غوليتسين الذى صار فيلدمارشالا فيما بعد ، لكنه آنذاك ، فى عام ١٦٨٧ ادرج ضمن «الطبالين» لصغر سنه ، وكذلك بوتورلين وهو من ابناء وجهاء موسكو ، وغيرهما ، ومن جهة اخرى نجد الكثير من الاشخاص ذوى المنحدر الوضيع ، ومنهم اكثرهم توفيقا ، الكسندر مينشيكوف بائع الفطائر الساخنة المتجول وابن سائس خيل البلاط ، «وتلك اوطأ رتبة ، اوطأ من النبيل العادى» على حد تعبير كوراكين ، لكنه حظى برعاية القيصر الذى قربه اليه ، وبدأ من رتبة مراسل حتى وصل منزلة القائد العام للجيش الروسى وحاز على لقب معالى الامير . وبالمناسبة فان هذا «المتسلط الذى يضاهى القيصر» (على حد تعبير بوشكين) غدا فيما بعد من اكبر مختلسى اموال الدولة الروسية .

وراح افراد كتيبتى الالعاب ببزاتهم الحقيقية يتدربون على كل الفنون العسكرية بعين ساهرة من جانب بطرس الذى لا يعرف الكلل . وكان عندهم بلاط خاص بهم وادارة وخزينة . وتدرب بطرس نفسه على كل درجات الفن العسكرى ابتداء من الطبال . وعلى نهر ياوزا ، فى ضواحى بريوبراجينسكويه ، انشئ «معقل» بريسبورغ الذى كان يطوق ويفرض عليه الحصار وفقا لكل قواعد الفن العسكرى .

وفى ضواحى موسكو ، على مقربة من بريوبراجينسكويه ،

يقع حى العجم الذى غدا مستقرا للاجانب من مختلف الصناع والخبراء العسكريين الذين تقاطروا على العاصمة الروسية فى عهد القيصر الراحل الكسى . فالقيصر نفسه وبعض المقربين اليه كانوا يدركون ان روسيا تخلفت كثيرا عن اوربا الغربية فى البناء العسكرى وفى مختلف الحرف والفنون . ولذا استدعوا الخبراء الاجانب مقابل مخصصات كبيرة . وكان بين القادمين طبعا مغامرون من الباحثين عن المال والمناصب . ولكن كان بينهم كثير من الخبراء والضباط الجادين الجيدين . وخدم بعضهم ، وهم ليسوا بالقليلين ، روسيا بدافع من الضمير وليس خوفا من عقاب او طمعا فى ثواب ، فعادوا عليها بنفع عظيم . فالجنرال باتريك غوردون الاسكوتلندى ، مثلا ، كرس للخدمة العسكرية حوالى اربعين عاما فى روسيا التى غدت موطنا ثانيا له . وكان سلوك بطرس يثير احيانا الدهشة والاستياء عند الغيارى على عادات موسكو وتقاليدها ونقاوة دينها ، فقد قرب الاجانب من اللوثريين والكاثوليك الذين كان البطريرك يواكيم وكثيرون غيره ينعتونهم بالزنادقة الممقوتين ، بل الابالسة . اما بطرس فقد بدأ من ذلك الحين بتحطيم التقاليد المتحجرة ، وعين الاجانب ضباطا برتبة عقيد وميجر وكابتن فى كتيبتيه اللتين تحولتا فى بداية التسعينات الى فوجين . واطلق عليهما اسم فوج بريوبراجينسكى وفوج سيميونوفسكى باسم البلدتين اللتين خصصهما لهما القيصر . وفى ١٦٨٤ تدرب بطرس على رماية القذائف ، ودربه على هذا النوع الخطر والضرورى من السلاح مدرب اجنبى هو زومر .

وكانت نباهة بطرس وميله الى المعرفة والمهارات والفن العسكرى قد جعلاه يبحث دوما عن الاشخاص الذين هو

بحاجة اليهم وعن الاعمال والمستلزمات الضرورية . وفى عام ١٦٨٧ استعد الامير ياكوف دولغوروكى للرحيل الى فرنسا كسفير وتكلم مع بطرس الذى كان فى الرابعة عشرة من العمر ، واشار الامير فى حديثه الى الاسطرلاب الذى «يقيس المسافة دون حاجة الى الوصول الى نهايتها» . فقال له القيصر :

— ارنى هذا الجهاز .

— غير موجود يا صاحب الجلالة . سرقوه .

— اشتر من فرنسا !

وافقه الامير ، وعندما عاد من فرنسا فى العام التالى قدم الى بطرس الاسطرلاب بالاضافة الى علبة ادوات هندسية مع مستلزماتها الرياضية . ولكن المشكلة لا احد من حاشية القيصر يستطيع ان يوضح له كيفية استعمال الاسطرلاب . طلبوا من احد الالمان ان يوضح لهم ، لكنه نشر يديه عاجزا . واخيرا بعثوا فى طلب الهولندى فرانس تيميرمان فاوضح كل ما يخص الاسطرلاب والادوات الهندسية . وشعر القيصر بارتياح بالغ ، ومن ذلك الحين قرب الهولندى المذكور واخذ يتعلم على يده الحساب والهندسة وانشاء الحصون . ولم تكن معارف فرانس فى هذه العلوم كبيرة (فقد ظلت محفوظة الدفاتر التى حل فيها المسائل الحسابية ، وهى لا تخلو من اخطاء كثيرة . . .) ، لكن توضيحاته رغم ايجازها الشديد كانت كافية لتجعل تلميذه المجد النابه يتوصل الى حقيقة الامور بنفسه . فمنذ ان انتقل مع امه من الكريملين الى بريوبراجينسكويه فقد معلمه زوتوف . وفيما بعد عندما صار رب اسرة يراقب تعليم بنتيه كان يتأسف كثيرا لتردى مستواه التعليمى . وماذا بوسعه ان يقول اذا كان لم يسمع

بالعمليات الحسابية الاربع الا عندما بلغ الخامسة عشرة من العمر ، وظل حتى آخر ايامه يعانى من صعوبة التعبير عن افكاره على الورق بشكل فصيح . فقد كان يكتب دون ان يفصل دوما بين كلمة واخرى ، وما يكتبه فيه الكثير من الاخطاء الاملائية والنحوية .

ذات مرة كان يتجول مع تيميرمان فى اسماعيلوفو فدخل مستودعا فى معمل الكتان . وفيه كثير من الحاجيات العتيقة المحفوظة من زمان ، وبضمنها حاجيات نيكيتا رومانوف ابن عم القيصر ميخائيل فيودوروفيتش جد بطرس . وهو رجل محب للاستطلاع وكان يعتبر فى حينه من المولعين بالقمصلات والعادات والمعارف الاجنبية . ومعروف ان البطريرك نفسه كان يلومه احيانا لانه يرتدى الثياب الاجنبية ويخرج الى الشارع فيثير دهشة اهالى موسكو بمظهره الغريب . ويبدو ان بطرس الشبيه بابيه من حيث اهتمامه بالشؤون الاجنبية قد ورث عن والد عمه شيئا من ذلك ايضا . وعندما رأى فى المستودع قاربا بين سائر الحاجيات التفت الى تيميرمان :

— ما هذا ؟

— هذا ، يا صاحب الجلالة ، قارب انجليزى ، يستخدم فى السفن الكبرى ، وميزته على القوارب الروسية انه يسير بالاشرعة مع الريح وضدها .

— هل هناك من يستطيع اصلاح هذا القارب ويعرض على سيره .

— نعم يا صاحب الجلالة ، يوجد شخص يستطيع اصلاحه .

كان لا يزال يقيم فى موسكو هولندى آخر اسمه كريستيان

براندت ، وهو من الذين عملوا قبل أكثر من عشرين عاما في بناء السفن بأمر من القيصر الكسى فى قرية ديدينوفو على نهر اوكا . آنذاك بنوا اسطولا صغيرا مكونا من سفينة «اوريل» الكبرى وعدة سفن اخرى اصغر منها . وتم ايصالها الى الفولغا ، وقد احرقت جميعا فى بداية انتفاضة ستيبان رازين (١٦٦٧) . وسرعان ما عثروا على نجار السفن براندت . فقد كان يمارس النجارة فى العاصمة . واستطاع كارشتين ، هكذا حور بطرس اسمه من كريستيان ، ان يرمم القارب وينصب عليه صارية واشرعة . وجرى تجريبه فى نهر ياوزا . الا ان النهر ضيق ، فكان القارب يرتطم بضفتيه . وبأمر من بطرس نقل القارب الى بركة بروسيانوى فى اسماعيلوفو فى بادىء الامر ، ثم الى بحيرة بيرياسلافل شمالى موسكو بعد ان اتضح ان البركة ايضا تضيق به . كانت دائرة البحيرة أكثر من ثلاثين كيلومترا ، وعمقها مناسب . وهنا ، فى مصب نهر تروبيج انشأ بطرس وبراندت حوضا لبناء السفن ، وبدأ العمل فى بناء سفن جديدة .

كان هذا القارب الذى نعته بطرس بالجد المؤسس للاسطول الروسى قد ايقظ فى نفسه ، وهو الفتى البرى ، حبا للملاحة البحرية . ومن ذلك الحين تفهم تقاليد اسلافه وصار يحلم باسطول لم تكن تمتلك مثله روسيا ذلك البلد الشاسع الذى تغسل البحار سواحله من الشمال . وكان ذلك بالمناسبة هو احد اسباب انقطاع الدولة عن البحار من الشمال الغربى والجنوب . وكان الاسلاف فى حينه يمتلكون منافذ الى تلك البحار . . .

ومهما يكن من امر فقد اتقن بطرس على ايدى المعلمين

الاجانب مبادئ الحساب والهندسة وعلوم المدفعية والتحصينات . واطلع على قواعد تشييد القلاع وتمكن من حساب مسار قنبلة المدفع والتحكم بالاسطرلاب . وكان ميله الشديد الى المعارف التقنية والتطبيقات العملية قد تعزز ونما بتأثير الاجانب الذين يتحلون بالجدية والشطارة . وقد افاده ذلك فيما بعد ، وظل يجمع تلك المعارف والمهارات طول عمره القصير ولكن الملئ لحد مدهش بالدراسة والعمل المتواصلين .

والى جانب الابحار على السفن فى الطرق المائية لم يكف بطرس عن «الالعاب المسلية» فى بريوبراجينسكويه وضواحيها . وكانت الحملات على قلعة بريسبورغ الترابيـة باستخدام المدافع والمناورات الحربية فى «سوح القتال» قد ربت الجنود وضباط الصف الروس على اجادة الشؤون العسكرية والرغبة فيها . ومما له دلالته ان بطرس قد عين اغلب ضباطه من الاجانب بوصفهم يتحلون بالخبرة اللازمة ، لكنه اناط منصب القائد العام لفوجى بريوبراجينسكى وسيميونوفسكى بشخص روسى اسمه ارتامون غولوفين ، وهو ، على حد تعبير كوراكين ، «رجل غبـى جدا ، لكنه يجيد تمرين الجنود» . فهذا الامير الساخر الذى يفحم الآخرين كان يعرف ما يقول ، اذ انه خدم بنفسه فى فوج سيميونوفسكى وراقب وسمع مرارا بالطبع كلام ذاك القائد العام .

كانت صوفيا والمقربون اليها ينظرون بعين التسامح والسخرية الى العاب بطرس مع «المشاكسين» ، كما نعتت الاميرة النابهة عادة افراد فوجيه . واعتبرت تلك الالعاب العسكرية من مظاهر البلاهة والطيش عند اخيها القيصر الفتى العصبـى . ثم ان الام المتيمة بابنها بطرس كانت تعتقد هى ايضا انه

مولع بتسلية فارغة تصرفه عن شؤون ومشاغل الدولة . اما صوفيا فقد كانت مرتاحة تماما لان اخاها لا يهتم بشؤون الدولة ، بل يتملص منها رغم مشاركته احيانا فى مراسيم الكريملين السياسية والدينية وتردده مع الحاشية على الاديرة فى ضواحى موسكو لاداء الصلاة . وكان اكثر ما يهمها هو السلطة ، فراحت تحلم بتعزيز مواقعها فى شؤون الحكومة وتتخذ اجراءات كثيرة لهذا الغرض .

فى عهد صوفيا سارت الامور فى موسكو بانتظام لا خلل فيه . فالمديريات تعمل وتقام مراسيم استقبال السفراء ويجرى البت فى القضايا اليومية فى ميدان السياسة الداخلية والخارجية . كانت مديرية العلاقات الخارجية تدير السياسة الخارجية والعلاقات مع الدول الاجنبية . وترأس هذه المديرية محبوب الاميرة الحاكمة الامير فاسيلى غوليتسين . وهو رجل متعلم واسع الاطلاع يتكلم عدة لغات اوربية . وكان يستقبل الاجانب ويتباحث معهم فى داره الواقعة فى اوخوتنى رياد (موسكو) والمؤثثة على الطريقة الاوربية ، ففيها لوحات فنية ومرايا . وافاد اولئك الاجانب فى اقوال غير واضحة تماما وغير موثوق بها انه كان يتطرق الى ضرورة الاصلاحات والتعليم العام ، بل وبلغ حد الكلام عن عتق الفلاحين وتخليصهم من نير القنانة . ويصعب القول بمدى مطابقة هذه الافادات للحقيقة . وعلى اية حال فان هذا الشخص ، شأن غيره من معاصريه الاكبر والاصغر سنا (مثل اوردين—ناشوكين الذى كان لزمن ما «مستشارا» للقيصر الكسى ميخائيلوفيتش ، والمقربين اليه من امثال رتيشيف وغيره) يفهم ان روسيا المتخلفة لدرجة كبيرة عن البلدان المتقدمة فى اوربا الغربية ، بحاجة الى

النهوض وبلوغ ابعاد جديدة واستيعاب ما هو جديد وقيم مما يتوفر فى اوربا الغربية فى الصناعة والتجارة والحرف والفنون والتعليم والعلوم .

وبذل غوليتسين ، وهو من المثقفين الروس فى اواخر القرن السابع عشر ، والساسة الاخرون كل ما فى وسعهم لتوجيه البلاد على الطريق الجديد . وفى عهدهم ، وقبلهم ، بدأت فى روسيا فى الواقع تلك التجديدات والاصلاحات التى لم تكن حازمة ومتواصلة دوما ، لكن بطرس الاكبر استمر فيها بجرأة فيما بعد على نطاق اوسع واشمل بكثير .

وفى عام ١٦٨٦ عقد «الصلح الابدى» مع بولونيا ، ورفع ذلك بشكل ملحوظ منزلة الحكومة الروسية والوصية على العرش . وبعد عام من توقيع الصلح صار اسمها يذكر فى وثائق الدولة الرسمية جنب اسمى القيصرين ايفان وبطرس . وسرت فى البلاد وخارجها اقاويل بان الاميرة تحلم بان تعلن عن نفسها قيصرة . وفى ١٦٨٧ نفذت روسيا التزاماتها كعضو فى الائتلاف المناوئ للامبراطورية العثمانية فشنت حملة كبرى على امارة القرم لاول مرة خلال مائتى عام من العلاقات معها . ونزولا عند رغبة صوفيا قاد غوليتسين الانف الذكر القوات الروسية وتعدادها مائة الف رجل . وشنت تلك القوات الحملة فى ايار (مايو) ، لكن القيظ الشديد الذى اجتاح سهوب اوكرانيا الجنوبية وشحة العلف للخيول وانعدام مياه الشرب وكثرة الحرائق (فقد اشعل اهالى القرم النار فى الهشيم فى مختلف اطراف السهوب) استنزفت واضعفت العساكر الروسية . ولقى الكثيرون منهم حتفهم بسبب المجاعة والعطش والامراض . وبعد عامين كرر غوليتسين الحملة ووصل الى

بيريكوب ، اى الى شبه جزيرة القرم نفسها . وكان استعراض العضلات هذه المرة أكثر تأثيرا ، فقد دحر الروس مرارا فصائل القرم فى السهوب وفى اسفل الدنيبر ، لكن ذلك لم يعد بنتائج جوهرية . ومن جديد سقط عدد كبير من القتلى بين الجند الروس . وعادت القوات الى موسكو بدون نصر يذكر . ومع ذلك ينبغى القول بان الجيوش الروسية شاغلت قوات القرم الكبيرة والحقت بها عدة هزائم ، لكنها غير حاسمة ، وعرضت قدرة روسيا (ففى تلك السنوات كانت الاستانة مذعورة : «الروس قادمون») وساعدت الحلفاء . وحاولت صوفيا ان تصور كلتا الحملتين على انهما نصران مؤزران لمحبوبها ، فانهالت عليه الاوسمة والهبات وتلقى الكثير من الاحجار الكريمة والكؤوس والفراء والثياب ، واقيمت له احتفالات تكريمية ومهرجان بالنصر . ولم يرفض الامير ضيعات جديدة وهبت له مع فلاحيها الاقنان ، رغم ما يقال عن كلامه مع الاجانب بخصوص عتق الفلاحين .

. . . العلاقات بين بطرس وصوفيا تكاد تنفجر من زمان . فالقيصر الذى ترعرع اخذ ينظر الى افعال اخته الكبرى بتذمر سافر وانفعال صريح مع انه كان مشغولا بالتدريب و«الالعاب المسلية» . تلك هى طباعه ، فهو عنيد سليط اللسان معتمد على نفسه . زد على ذلك ان امه التى يحبها ، وكذلك المقربين اليها واليه ، ليس فقط من آل ناريشكين المغضوب عليهم ، كانوا يلفتون انتباه القيصر الى اختلال ازدواجية السلطة فى البلاد والى تسلط الوصية على العرش فى الواقع والى ما تبيته من نوايا خطيرة . وعمل الامير بوريس غوليتسين ، ابن عم محبوب صوفيا ، وهو من أكثر المقربين الى بطرس

ولاء ، وغيره من افراد حاشية القيصر على تأجيج التذمر فى نفسه واستثارة كبريائه وتوجيه تصرفاته .

وفى كانون الثانى (يناير) ١٦٨٩ زوجت والدة بطرس ابنها لتقيد نزواته كما كانت تأمل . وجدوا له خطيبة حسناء اسمها يفدوكيا لوبوخينا . ووفق مفاهيم ذاك الزمان يغدو القيصر ، عندما يتزوج ، رجلا راشدا وحاكما كامل الحقوق ، ولا موجب للوصية على العرش . وفى عشية زفاف بطرس سرت فى موسكو اقاويل عن انتقال زمام السلطة اليه . وفى آذار (مارس) زار مديرية العلاقات الخارجية التى يترأسها غوليتسين وطلب ان يجلبوا له وجبة جديدة من السلاح لفوجى «العابه» . ولم يكن مدير الدبلوماسية الروسية راضيا عن هذه الزيارة . وبعد ثلاثة اشهر اقيم موكب كنائسى شارك فيه كلا القيصرين ، وحملت الايقونة المقدسة . وخرجت صوفيا مع القيصرين . فطلب منها بطرس ان تتركهما ، لان الاعراف لا تسمح للنساء بذلك . فرفضت ، واشتاط بطرس غضبا واسرع على ظهر جواده الى كولومنسكويه .

وسرعان ما عاد غوليتسين من حملة القرم الثانية . وكان يتعين على القيصرين ان يصادقا على بلاغ مكافأة المساهمين فى الحملة . لكن بطرس رفض توقيعه . واقنعوه بشق الانفس بالعدول عن قراره . وعندما وصل غوليتسين ، القائد العسكرى الفاشل ، الى بريوبراجينسكويه ليشكر بطرس على المكافآت رفض هذا الاخير استقباله . وثارت ثائرة «حاكمة عموم روسيا» صوفيا ، كما امرت بان ينعتوها . واختمرت المعركة الحاسمة .

«فالشخصية الثالثة الشائنة» صوفيا ، كما نعتها بطرس ، تدبر فى اغلب الظن انقلابا حكوميا . وافاد بعض المعاصرين

ان مدير القوات الخاصة الجديد شاكلوفيتي ، وهو ، فضلا عن ذلك محبوب صوفيا الجديد ، حاول ان يعتمد على افراد تلك القوات لتنحية بطرس عن السلطة وتنصيب صوفيا على العرش . وقد استدعى آمري افواج القوات الخاصة الى مقره في الضاحية واقترح عليهم ان يكتبوا التماسا بتنصيب الوصية قيصرة . وتردد الآمرون واعتذروا بانهم اميون ، فهم يتذكرون ، ولا بد ، احداث ١٦٨٢ والتنكيل بافراد القوات الخاصة بعد انتهاء «العصيان» . لكن شاكلوفيتي اصر ووضع امامهم التماسا اعده مسبقا باسم جميع اهالي موسكو ، وليس افراد القوات الخاصة وحدهم :

— كتابة الالتماس ليست صعبة

— واذا رفضه بطرس ؟

— اقبضوا على ليف ناريشكين (خال بطرس) وبوريس غوليتسين ، وعند ذاك لن يرفض .

— والبطريرك ، والبويار ؟

— البطريرك يمكن استبداله ، اما البويار فهم شجرة يابسة عفنة .

لم يكن الامرون يميلون الى المؤامرة . فانصرفوا . الا ان بعض افراد القوات الخاصة كانوا ، على العكس ، يميلون الى الاجراءات الحازمة ، فقال احدهم :

— سأدخل على البطريرك واصرخ فيه وسيرتعب اشد الرعب .

واضاف آخر :

— يجدر بنا ان نقتل الدبة ام القيصر ناتاليا .

— سيدافع عنها ابنها بطرس .

— سنلحقه بها . فما الذي يمنعنا ؟

ويقال ان احدهم اقترح القاء عبوة ناسفة على بطرس او وضعها فى زحافته ، واقترح آخر طعنه بالسكين اثناء اطفاء الحريق (فالقيصر يحب كثيرا المشاركة فى اطفاء الحرائق ، وهى كثيرة فى عاصمة كل مبانيها من الخشب) .

وسعت صوفيا و«عصبتها» الى تأليب افراد القوات الخاصة على بطرس وآل ناريشكين . ويقال ان الموظف ماتفى شوشين كان يرتدى قفطانا من الدمقس الابيض ليتخذ هيئة ليف ناريشكين ويتردد فى الليالى على خفراء القوات الخاصة ويضربهم دون رحمة متظاهرا بالثأر «لاقربائه» الذين قتلوا فى عام ١٦٨٢ :

— قتلتم اخوانى ، وانا أثأر لدمائهم منكم .

وكان احد المتآمرين من مرافقى شوشين «يهدئه» قائلا :

— يا ليف كيريلوفيتش ، لماذا تضربهم حتى الموت ؟ فهم مسيحيون على اية حال .

وانتشرت فى العاصمة الاشاعات عن التنكيل الذى يمارسه «اقرباء» بطرس .

وفى ليلة ٧ على ٨ آب (اغسطس) قام فى الكريملين هرج ومرج . فقد وصلت سرا رسالة تقول ان افراد فوجى العاب بطرس قادمون الى موسكو ليقتلوا صوفيا والقيصر ايفان وكثيرين غيرهما . وفى لمح البصر اغلقت كل بوابات الكريملين وهبت احدى فصائل القوات الخاصة حاملة السلاح فى الكريملين ، واستعدت فصيلة اخرى من ٣٠٠ شخص فى حارة لوبيانكا . ولا احد يعرف لماذا . ربما من اجل الحراسة ، وربما لغرض اخر . . .

واسرع اثنان من انصار بطرس السريين فى القوات الخاصة تحت جنح الظلام من موسكو الى بريوبراجينسكويه . فقد

تصورا ان زملاءهما فى موسكو يتأهبون لحملة على بطرس ولم يجتمعوا لمجرد الحراسة . واخبرا القيصر بذلك ، وكان قد نهض من النوم ومن خلال النعاس لم يفهم تماما ما حدث فارتعب اشد الرعب وفر بثيابه الداخلية الى اقرب غـابة . واصاخ السمع متوقعا ان يسمع سنابك خيل افراد القوات الخاصة المعادية . ولم يسمع شيئا . لكن الخوف لم يزايله : فالى اين يهرب ؟ وما العمل ؟ وسرعان ما جلبوا له ثيابه وسرجه وحصانه . وقضى بطرس الليل فى الطريق الى ملجأه — دير الثالوث والقديس سيرغى يرافقه ثـلاثـة اشخـاص . ووصله فى الصباح وهوى على السرير وراح يبلغ الارشمندريت ، والدموع تنهمر من عينيه ، بالخطر الرهيب الذى يتهدده كما تصور ، وطلب منه ان يأويه ويحميه .

يبدو ان القيصر كان صادقا فى افكاره وخوفه وتصرفاته . لكن نبأ حملة القوات الخاصة على بريوبراجينسكويه كان كاذبا . . . كانت هناك بالطبع اقاويل واشاعات ، وربما لعبت فى ذلك الجو المكهرب المتوتر فى تموز (يوليو) وآب (اغسطس) دور فتيل الاشعال فاثارت رد فعل متسلسلا وادت الى الانفجار . ولعل احدا قد مهد لتلك الاحداث واستفاد من الوضع . فليس من قبيل الصدفة ان يفكر البعض آنذاك ويتكلمون عن دهاء الامير بوريس غوليتسين . وثمة مسألة اخرى تلفت الانظار . فان بطرس لم يكن يتميز بالجبن لا فى سن الفتوة ولا فى سن الرشد . فقد شارك فى المعارك وسط ازيز الرصاص ودوى القنابل ، وتشمم البارود كما يقال عادة . واصيب بجراح اكثر من مرة . ولم يكن يخشى اقتحام اللهيب اثناء الحرائق ودخول البحر فى العواصف لانقاذ المستغيثين . اما

في هذه الحادثة فقد ترك امه وزوجته الحامل وجميع اقاربه وافراد فوجيه الذين كان بوسعهم ان يدافعوا عنه ، ترك الجميع وفر بجلده . فماذا يعني ذلك ؟ ربما ادى دوره بحذافيره وفق مخطط وضعه مع مستشار فطين ؟ لكن رعبه في غرفة النوم وفي الاجمة كان حقيقيا . فقد كان بدنه كله يرتعش وهو بالقميص وحده ، والدموع تنهمر من عينيه وهو في حجرة الدير . . .

وفي ٨ آب (اغسطس) بدأ الخوف يزايل بطرس في الدير ، فقابل امه وافراد فوجيه من الجنود وفوج سوخاريف من القوات الخاصة ، وكانت اخته الوصية على العرش تقوم بجولة لتؤدى الصلاة دون ان تعلم بما حدث . وكان يرافقها عدد من افراد القوات الخاصة . فهي لم تكن تنوى مهاجمة اخيها ، وقد فوجئت بخبر فرار بطرس الى الدير ، واثار هذا الخبر قلقها . كما دهش محبوبها شاكلوفيتي وقال عن بطرس :

— جن جنونه وفر هاربا .

وفي تلك الاثناء مارس بطرس نشاطا مسعورا . بعث الى موسكو امرا الى آمرى العساكر والقوات الخاصة بان يحضروا اليه فورا مع افواجهم . وزحفت تلك الافواج الى الدير واخفقت كل محاولات صوفيا وشاكلوفيتي لايقافها . وبعثت صوفيا البطريرك يواكيم الى اخيها لاقناعه وتهدئته ، الا ان البطريرك ظل في الدير عندما وصله . وفعل الشيء ذاته الكثير من البويار والنبلاء .

وتشكت صوفيا الى قادة القوات الخاصة مدركة انها بدأت تفقد زمام الامور :

— ارسلت البطريرك الى اخي لاتفق معه ، لكنه ظل

هناك ولا يريد العودة الى موسكو .

ولم يؤيد قادة القوات الخاصة صوفيا ، فتنازلت عن كبريائها وتوجهت الى بطرس بنفسها . وبلغ الدير نبأ قدومها ، فاستقبلها فى مدخله البويار ترويكوروف ، فالقيصر منعها من دخول الدير . واذا لم تذعن للمنع ستلقى جزاءها . ولم يبق امامها الا العودة الى العاصمة وانتظار ما يخبئه لها المصير .

وسيطر بطرس على الموقف (فقد وصلته كل الافواج تقريبا ، والتزمت جانبه اغلبية النبلاء من العسكريين) . وفرض ارادته بتسليم شاكلوفيتى واشياعه بالدرجة الاولى . فقد بلغ القيصر نبأ الاجتماع السرى الذى عقد عند محبوب صوفيا وتفاصيل المؤامرة التى حيكت فيه . وتوسلت صوفيا من جديد الى افراد القوات الخاصة المتبقين فى العاصمة بان يؤيدوها ولا يسلموا قائدهم . لكنهم لم يؤيدوها هذه المرة ايضا . فاضطرت يائسة على القبول بمطلب اخيها . وجرى فى ٧ ايلول (سبتمبر) نقل شاكلوفيتى والاخرين الى الدير ، وبعد تحقيق وتعذيب اعدموا بعد خمسة ايام . وبعث القيصر المنتصر رسالة الى اخيه ايفان فى موسكو :

— من العار ، ياصاحب الجلالة ، ان تحكم هذه الشائنة الدولة بدلا منا ونحن راشدان .

وسرعان ما وصل بطرس الى موسكو ، وخرج افراد القوات الخاصة من موسكو ورقدوا على امتداد الطريق ووضعوا رؤوسهم على قرم مسالخ غرزت فيها فؤوس . بهذه الطريقة طلبوا الصفح والعفو من القيصر كيلا يعدمهم ، فعفا عنهم . اما صوفيا فقد نحيت عن البلاط فى اواخر ايلول (سبتمبر) وانتقلت الى صومعة فى دير نوفوديفيتشى جنوب موسكو واتخذت لنفسها

اسم الراهبة سوزان .

وبدأ حكم بطرس . وكان حسب الظاهر حكما مشتركا مع اخيه الاكبر ايفان الذى وعد بطرس فى رسالته تلك بان يحترمه احترامه لابيه . الا ان ايفان المختل العقل ظل كالسابق غير مهتم بشؤون الدولة ولا يتدخل فى شيء . وظل الحال على هذه الصورة حتى توفى فى عام ١٦٩٦ . كان اسمه يذكر فى كل الوثائق الرسمية ، وكان يحضر مراسيم الكريملين ولا شيء آخر .

وعندما استلم بطرس السلطة كاملة لم يعرها اهتماما ! فقد ظل كالسابق مولعا «بالعاب مارس» ، وانتقلت الادارة الفعلية فى البلاد من الاخت المخلوعة الى ام القيصر ناتاليا ، والمقربين اليها .

«العاب مارس» وحملتا آزوف

كان بطرس يشارك فى مراسيم استقبال السفراء والمآدب فى الكريملين نزولا عند رغبة امه ، لكنه يتملص منها كلما حانت الفرصة ويتذرع بمختلف الذرائع ليذهب الى اصحابه او الى الاجانب لكى يطلع على شىء ممتع او يصنع شيئا نافعا فى الحال او فيما بعد . وكانت تثقل عليه الواجبات الرسمية المرتبطة بالمراسيم الموسكوبية القديمة الرزينة وبدلات السهرات والخطب الطنانة . ويقول المؤرخ الروسى كلوتشيفسكى : لم يكن «بطرس يطيق اى اثر للتقييد والرسميات . فهـذا الانسان المتسلط الذى تعود على الشعور بالسيادة فى كل مكان وزمان يرتبك ويتحير فى المواقف الاحتفالية وتتعسر انفاسه ويحتقن وجهه ويتصبب العرق منه عندما يقف امام العرش فى حلة القياصرة مضطرا الى سماع هذر رفيع اللهجة من مبعوث يقدم نفسه بحضور الحاشية» .

كان القيصر فى منتهى الحركة والعجلة والنشاط مندفعا بحب الاستطلاع وكأنه يخشى ان يتأخر ويفوت شيئا هاما للغاية . ولذا تراه يسرع على ظهر حصانه الى الاماكن التى يخبرونه فيها بشىء جديد عليه او يصنعون له ما ينفع ويفيد .

ويبدو انه ادرك آنذاك قصور تعليمه فراح يتعلم على يد الجميع في كل مكان . واثار ذلك انتباه معاصريه . بعضهم كان ينظر بخوف وحيرة الى تصرفات القيصر ونوازعه غير المفهومة . فهو بدلا من الحياة الوادعة وفقا للعادات المتبعة منذ القدم وطبقا لقواعد السلوك في بلاط موسكو ، وهي قواعد مهيبة رزينة ، تراه يتراكض كالمهووس ويلتقي باناس ما انزل الله بهم من سلطان ، وخصوصا الزنادقة «اللاتينيين» الاجانب ، ولا يستنكف عن الامساك بالفأس او الطبل بنفسه والمشاركة في بناء سفينة او اطلاق النفير داعيا الى القتال في ساحة العاب مارس او الانتماء الى شلة ممن لا حسب لهم ولا نسب فيحتسي معهم الخمر ويناقش الامور وسط الصخب والضجيج . والبعض الآخر ، من روس واجانب ، يقدرون الحاكم الشاب حق قدره ويحترمون قابلياته ومواهبه وميله الى الجديد وولعه بالاسطول والصنائع ونواياه التي تتجلى في جميع العاب التسلية التي علمت الجنود والضباط على الانضباط والفن العسكري . ولم يكن بطرس مهتما بقضاء اوقات الفراغ فقط واشباع حب الاستطلاع ، بل كان يتعلم من الآخرين ، ويعلمهم في الوقت ذاته ، يعلم الروس بالدرجة الاولى ، ويعدهم للمآثر والافعال المجيدة المنتظرة .

عندما يبدي البعض رأيهم في بطرس الاكبر يقعون احيانا في خطأ مزدوج بشأن وجهة نظره فيما يخص دور مواطنيه والاجانب في كل ما اقدم عليه من اصلاحات . فهم من جهة يقولون بانه اعتمد على الاجانب في كل شيء ووثق بهم وحدهم فيما يخص مخططاته ونواياه . وكان يأخذ عن الغرب كل ما يحتاج اليه دون تفريق — الاسطوات والافكار

والتصاميم . ومن جهة اخرى يقولون ان القيصر كان يستهين بكل ما هو روسى ولا يثق بالروس ويعتبر كل ما هو محلى متحجرا جامدا متخلفا . اما فى الواقع فالامور أكثر تعقيدا من ذلك بكثير . فكل الدلائل تشير الى ان هذا الانسان النشيط الموهوب كان منذ نعومة اظفاره يفكر فى روسيا موطنه ويسعى الى السير بها فى دروب جديدة بمعونة الروس قبل غيرهم ، كان يريد ان يحرك المجتمع الروسى بارادته وطاقاته ، وبالفلقة عند الاقتضاء . كان مستاء من جوانب كثيرة فى هذا المجتمع ، ويريد تصحيح الكثير وتجديده ، ولكنه ما كان ينوى تحويل روسيا الى نسخة مشوهة لبلد آخر مثل السويد او هولندة او فرنسا او بريطانيا . ثم ان ذلك شيء مستحيل لا يمكن تحقيقه لا فى ذلك الزمان ولا قبله ولا بعده . وتلك حقيقة فهمها ايضا الاجانب الذين تعاون معهم بطرس بدرجات متفاوتة . فهو عندما استعان بمعارفهم وخبرتهم التى لا تخلو من الشوائب (حيث جاء الى روسيا كثير من المغامرين والكسالى والطفيليين من الغرب ، ممن نعتهم كلوتشيفسكى «بالمشردين الاعاجم») لم يكن يثق بهم جميعا دون تفريق ، بل كان يأخذ كل ما هو قيم وضرورى ممن يقدرهم رفيع التقدير ، وكان يرغم ابناء جلدته على القيام بالشيء ذاته ويهتم بجعل هؤلاء الاخيرين يتقنون كل ما هو ضرورى وينفعون روسيا ويعتمدون على انفسهم وليس على الاجانب . ومن بين الاجانب الكثيرين الذين عرفهم فى تلك الحقبة كان يقدر أكبر التقدير ويحب ، دون شك ، فرانس ليفورت ، ذلك السويسرى الحيوى المرح الطيب القلب الذى له تأثير كبير على بطرس . فقد قربه القيصر وجعله اميرالا (عندما لم يكن فى البلد اسطول !)

وانعم عليه بالهبات ، لكن ليفورت لم يخيب امل القيصر ولم يعمل ، مثلا ، على تقريب الاجانب والتضييق على الروس . بالعكس ، اوحى للقيصر الشاب انه بحاجة الى معاونين جيدين موهوبين من الروس قبل غيرهم . وكان بطرس في الحقيقة يعمل بهذه النصيحة دوما مع اقباله الشديد على الاستفادة من معارف ومواهب الاسطوات والخبراء والعلماء الاجانب .

وقد استولت هذه الافكار والمطامح على القيصر الشاب الذى تهيأت له اخيرا امكانية تحقيق ما يريد . لكن التحقيق الفعلى لا يزال بعيدا . وهو يتطلب عملا تمهيديا كبيرا . وكان المقيم الهولندى فون كيلر ، وهو احد الدبلوماسيين الاجانب الذين تواجدوا فى موسكو اثناء الايام العاصفة التى حدثت فيها المناوشة السياسية بين بطرس واخته ، يراقب القيصر فى اكتوبر ١٦٨٩ خلال عودته مع حاشية كبيرة من دير ترويتسا الى العاصمة . وسجل هذا الدبلوماسى النابه الشديد الملاحظة فى تقريره الى وطنه : «ان القيصر بطرس يتحلى بذكاء نادر وعين ثاقبة ويتميز فى الوقت ذاته بقدرة على كسب ود الآخرين . ويتحلى بميل شديد الى الشؤون العسكرية ، وينتظر الناس منه اعمالا بطولية ، ولذا يتصورون بانه حان الوقت لكى يحصل التتر على زعيم حقيقى لهم» (يطلق كيلر اسم التتر على جميع الروس من رعايا الدولة الموسكوبية) .

هذا التقييم صائب على العموم . وليس فيه غير تسرع واحد هو ان كيلر يعتقد ان بطرس «كزعيم حقيقى» سيبدأ حالا مع رعاياه «بالاعمال البطولية» . وانطلاقا من خبرة تحليل شخصية واعمال بطرس الاكبر طوال اكثر من قرنين

يقيم المؤرخ الروسى س . سولوفييف قابليات ومواهب القيصر الشاب تقييما اصح : «كان بطرس ، وهو فى السابعة عشرة من العمر ، غير مستعد بعد لادارة الدولة . كان يواصل التعلم والتربية بنفس الوسائل التى عثر عليها بنفسه والتى تناسب طباعه . كان القيصر الشاب لا يزال يفكر بالالعاب ، اما الرجل العظيم فقد ظهر فيما بعد ، وعند ذاك فقط بزغت فى العاب الفتوة بذور الاعمال الجليلة» .

غدا زمام السلطة فى يدى ناتاليا كيريلوفنا ، ام بطرس ، لكنها ، كما يقول كوراكين ، «لا تتحلى بعقل وفير ولا تجيد الحكم» ، ولذا عهدت بالامور الى اقربائها واقرباء ابنها والمقربين اليهما . وغدا شقيقها ليف ناريشكين البالغ من العمر ٢٥ عاما رئيسا لمديرية العلاقات الخارجية وللحكومة فى الواقع . وهو رجل متكبر متهور لا يتحلى بالذكاء ومدمن على المسكرات . وكان الرجل المقرب الآخر هو البويار تيخون ستريشنيف ، وهو ايضا من رجال البلاط الذين لا يتحلون بالذكاء ، بل هو شرير مراوغ من «اصحاب الدسائس» كما يقول كوراكين . وكان من اذكى الحاكمين الجدد الامير بوريس غوليتسين الذى ظل كما كان رئيسا لمديرية قصر قازان يتولى شؤون منطقة الفولغا ، وقد تدهورت الامور فيها حتى كادت تصل الى خراب مطبق . ثم ان كل هذه الشلة التى انضوى تحت لوائها كذلك آل لوبوخين ، اقرباء بطرس من جهة زوجته قد انهمكت فى اختلاس اموال الدولة والناس . وحذا حذوها سائر البويار والنبلاء وموظفى المديريات فى العاصمة والاطراف ، وبدأ «حكم غير نزيه» و«نهب فظيع واختلاس رهيب لاموال الدولة» .

وتحلقت حول بطرس «شلة» خاصة به في بريوبراجينسكويه و«حي العجم» الذى اخذ يتردد عليه اكثر فاكثر . ففيه يقيم الجنرالات والضباط الذين اشركهم في «العاب التسلية» ، بالاضافة الى مختلف الاسطوات والصناع . وكان بطرس معجبا بالجنرال باتريك غوردون الخبير بالشؤون العسكرية وتنظيم الجيوش الاوربية وهو رجل مطواع قليل الكلام ومخلص وامين . وكان القيصر يتردد عليه كثيرا ويتناول طعام الغداء او العشاء في منزله ، ويبيت الليل فيه مع اصحابه . وكان «وزير الولائم واللهو» محبوب القيصر ليفورت مستعدا دوما لاعداد مستلزمات اللهو والتسلية ، حيث يقيم الولائم والحفلات الراقصة وينظم اللقاءات مع آنا مونس ، وهي من نساء «حي العجم» ، امرأة مرحة ذكية ، نشيطة حادة اللسان ، بالاضافة الى ما تتحلى به من جاذبية ، خلافا لسائر الحسناوات الروسيات. ، حتى زوجة بطرس ، اللواتي يتميزن بالتحجر والوساوس والخنوع والملل والحقد والحماقات . وكان ولع القيصر الشديد قد ابعده نهائيا عن زوجته يفدوكيا مع انها ولدت له ابنه الكسي .

وكان مينشيكوف اقرب الروس الى القيصر ، وهو من اصل وضيع ، لكنه شاطر يجيد الخدمة ، ومع انه امي جاهل (لا يجيد حتى كتابة اسمه) فانه مخلص اخلاص الكلب لصاحبه ، وقد بدأ الخدمة من منصب بسيط ، مراسل ضابط ، حتى وصل الى منصب القائد العام للجيش و«الحاكم الذى يضاهي القيصر» . ويأتي بعده ابراكسين الذى صار اميرالا فيما بعد ، وغولوفين قائد «قوات التسلية» ، وغولوفكين الذى صار مستشارا فيما بعد . وشغل مكانة خاصة الامير فيودور رومودانوفسكي القائد العام لفوجي الجند والملقب «بملك

بريسبورغ والقائد العام فريدريك» ، وفيما بعد لقب «بالامير الحاكم» ، وكان بطرس يسميه مازحا «بالسير» ، و«الكونغ» اى الملك ويقدم له تقاريره عن سير الامور بوصفه واحدا من مرؤوسيه . ذات مرة صادف بطرس «الامير الحاكم» فى الطريق ونسى ان يخلع قبعته بحضوره ، ولذا تلقى توبيخا شديدا . استدعى رومودانوفسكى «ومظهره كالغول الرهيب وطباعه طباع الطاغية المستبد» حسب اقوال كوراكين ، القيصر وظل جالسا بحضوره وانهال بالتوبيخ والتقريع على المدفعى بطرس ميخائيلوف (هكذا كانوا يسمون بطرس فى «الشلة») :

— يا الهى ، ما هذه الكبرياء ، منذ متى صار بطرس ميخائيلوف لا يخلع القبعة بحضورى ؟

وبالاضافة الى هذه الواجبات الهزلية كان رومودانوفسكى يؤدى واجبات اخرى اكثر جدية ، فهو رئيس مديرية بريوبراجينسكويه (مقر القيصر فى البداية) ومدير التحريات السياسية . كان «وزير السياط والتعذيب وغياهب السجون» هذا يثير رعب كل الذين تقع عليهم يده ، فهو يحب بنفسه ان يستجوب ويتحرى ويعاقب «العصاة» وهواة الكلام الطليق عن السياسة وشؤون البلاط وسلوك القيصر . وكتب فيبر ، سفير براونشويه فى بلاط موسكو ، عن رومودانوفسكى بانه «كان يعاقب المحكومين دون ان يأخذ رخصة من احد ، ولا جدوى من الشكوى من احكامه» . وكان بطرس يثق به بالكامل فى هذا المجال ايضا لان الامير الحاكم «لا يضاهيه احد فى اخلاصه لصاحب الجلالة» ، زد على ذلك ان نزاهته وصفاء ذمته يميزانه عن سائر الموظفين الفاسدين ومختلسى اموال الخزينة مثل مينشيكوف وغيره من الذين قربهم بطرس واحبهم .

وفي «سوح القتال» في بريوبراجينسكويه كان «القائد العام فريدريك» يواجه آمر افواج القوات الخاصة بوتورلين ، وهو ايضا «قائد عام» و«ملك» لبولونيا تارة وسيميونوفسكويه تارة اخرى (فان مقر قيادته او «عاصمته» في سيميونوفسكويه) . وهو «رجل شرير سكير مرتش» . وكان مع عساكره لا يطيقون جند بريسبورغ . فان مناوراتهم ومعاركهم الاستعراضية التي تستخدم فيها ، بالمناسبة ، البنادق والمدافع والعبوات الناسفة والقنابل ، غالبا ما تتحول الى عراك فعلي . وكان كلا القائدين العامين قبيل المعركة يقفان عادة على ضفتي نهر ياوزا وينهالان على بعضهما البعض بالشتائم والسباب والاهانات «لاجل تأليب» جنودهم واستثارتهم بالشكل اللازم ، وبعد ذلك تبدأ التدريبات العسكرية — تحرك القوات واحتلال المواقع وحفر الخنادق والاخاديد والقصف المدفعي واطلاق نيران البنادق واخيرا الهجوم والاقتحام او المعركة العامة . وينتهي القتال عادة بانتصار جيش «القائد العام فريدريك» وهزيمة القوات الخاصة وتأسير ملك سيميونوفسكويه واقامة مأدبة مشتركة للغالبين والمغلوبين .

كان بطرس من انشط افراد «الشلة» واكثرهم مرحا . وكان يعامل سائر افرادها ببساطة وود بدون ذكر المراتب والالقاب ، ويطالبهم بان يعاملوه بالمثل . كانت حاشية بطرس تتكلم خلط لغات ولهجات . فالى جانب الروسية كانوا يتكلمون ويكتبون بالالمانية والهولندية والفرنسية والانجليزية . وحتى مينشيكوف الذى لا يكاد يجيد كتابة اسمه بالروسية كان يتلفظ بعض الكلمات الاجنبية في مخاطبة بطرس . ثم ان ليفورت الذى يجيد عدة لغات اوربية تعلم الروسية

بعض الشيء وصار يكتب الى القيصر كلمات روسية باحرف فرنسية .

كان القيصر فى حركة دائمة ، فى جده وهزله ، يقيم الاستعراضات وينظم الالعاب العسكرية والالعاب النارية التى يعد متفجراتها بنفسه ، ويشارك فى بناء السفن والقوارب ويقوم بتدشينها وبتجريب المدافع الجديدة ، ويتعلم على ايدى المهندسين والمدفعيين واساتذة الرياضيات والنجارين ، ويستعير الكتب من غوردون وغيره ويبعث فى طلبها من الخارج . وفى الفرص بين الاعمال والدروس يقيم مع شلته مآدب عند غوردون او ليفورت ، او غوليتسين او عند خاله ناريشكين . وامر بانشاء قصر على نهر ياوزا من اجل ليفورت المقرب اليه . وفى هذا القصر كانت الشلة تنزوى ثلاثة ايام ، كما يقول كوراكين المقرب الى القيصر والى الشلة المذكورة ، «لاجل سكر وعربدة يفوقان الوصف حتى ان البعض ماتوا بسببهما» . ويبقى الآخرون يئنون ويتضورون الما عدة ايام ، اما بطرس فكان فى اليوم التالى يمارس اشغاله وكأن شيئا لم يحدث .

وعندما كان بطرس يتحدث ببساطة مع اصدقائه وانصاره المقربين اثناء الولائم لم يكن ينسى ابدا انه قيصر ، واذا تفوه احد افراد «الشلة» بكلمة غير لائقة فانه يشتاط غضبا فى الحال . وعندما تستولى عليه نوبات الغضب يغدو رهيبا بالنسبة للآخرين الذين ينتابهم الرعب فترتعد فرائصهم . وكان يهدئه عادة ليفورت ، ثم ، فيما بعد ، مينشيكوف ويكاترينا زوجته الثانية .

وكان بطرس مولعا اشد الولع بالعاب نبتون (اله البحر) ومارس (اله الحرب) . ولكى يغادر الكريملين ويذهب الى

اصحابه واسطواته كان يتذرع بضرورة الرحيل الى دير ترويتسا لحضور الصلاة (وذلك عذر مشروع فى رأى امه والبطريرك) او يتحجج بحجة اخرى . ذات مرة غادر البلاط وتسبب رحيله فى توتر الوضع . فقد وصل سفير بلاد فارس وكان يتعين على القيصر ان يستقبله ، فى حين لم يكن القيصر هناك . بحثوا عنه حتى وجدوه فى بحيرة بيرياسلافل ، وتوجه الى هناك كل اعضاء الحكومة تقريبا ليقنعوه بالعودة الى العاصمة ، والا سيزعل السفير كما قالوا .

حاولت ناتاليا كيريلوفنا والبطريرك يواكيم وسواهما من الغيارى على الاعراف القديمة ونقاوة الدين ان ينصحوا القيصر بالتعقل ويجعلوه يلازم الكريملين قريبا من الاسرة ويلتزم بالواجبات الرسمية ، ويقنعوه بتقليل الاختلاط مع الاجانب . وفى عام ١٦٩٠ ، فى السنة التالية من تنحية صوفيا ولدت زوجة القيصر يفدوكيا ابنها الكسى ، وبهذه المناسبة اعد الاب الشاب فى الصالة المضلعة فى الكريملين «مأدبة المسرات» ودعا اليها كثيرا من الضيوف ، وبينهم غوردون . وطلب البطريرك بلهجة حادة عدم دعوة هذا «الزنديق» ، فتنازل له بطرس على مضض كيلا يغيظه ويغيظ امه . لكنه اقام فى اليوم التالى وليمة جديدة فى مقره خارج المدينة ، وكانت فى الواقع خصيصا من اجل غوردون ، حيث ابدى القيصر عناية بالغة به .

وفى نفس تلك السنة توفى يواكيم فى اذار (مارس) . وتوسل يواكيم فى وصيته الى القيصرين ، باسم الاله الواحد القهار ، بألا يخالطا الاجانب الزنادقة ولا ينيطا بهما مناصب قيادية فى الجيش الروسى . «ولا يستخدما العادات الاجنبية

ولا يجريا تعديلا على الثياب وفقا للاذواق الاجنبية» . فالبطريرك كان مرتعبا لان هؤلاء الزنادقة الملاعين يأكلون الحشيش «الزلطة مثل الدواب» ويتكلمون بلغات لا يفهمها الارثوذكس (وهذا ما جعل الناس من امثال يواكيم يعتبرون الاجانب الغربيين «اعاجم» لا يجيدون التكلم بلغتهم الروسية) .

ظل بطرس يتحمل هذه الامور لحين من الوقت . لكنه اخذ يتصرف على هواه بالتدريج ويطبق المستحدثات الضرورية بمزيد من السرعة . فى البداية تجلى ذلك فى تصرفاته الخارقة للعادة . كان يقدم عليها تارة ويتنازل عنها تارة اخرى منتهزا الفرصة الملائمة . فبعد شهر من وفاة يواكيم بعث فى طلب بزة اجنبية مريحة فى الحياة المنزلية ، وهى عبارة عن قمصلة المانية وجوارب وحذاء ، بالاضافة الى شعر مستعار وسيف معلق بسير مطرز بالذهب . لكنه كان يرتدى ذلك اثناء التردد على حى العجم فقط .

وسرعان ما دعت الحاجة الى انتخاب بطريرك جديد فى المجمع الكنائسى . وبدأ البحث عن مرشح مناسب . واقترح بطرس ترشيح ماركيل مطران بسكوف ، وهو رجل ذكى متعلم . الا ان والدة القيصر والمقربين اليها اعترضوا على ترشيحه ، وجاء اعتراضهم بروحية يواكيم ، فان ماركيل هذا يتكلم باثنتين من «لغات البرابرة» — اللاتينية والفرنسية ، وهو متعلم للغاية ، زد على ذلك ان لحيته قصيرة جدا . . . وتنازل بطرس هذه المرة ايضا ، فانتخبوا ادريان مطران قازان الذى يتصف بخصال يريدها الغيارى على الاعراف القديمة .

اما فى بريوبراجينسكويه وبحيرة بيرياسلافل فقد جعل بطرس كل الامور تسير على ذوقه وهواه . وكان قد صمم على

اجتياز كل درجات الخدمة العسكرية ابتداء من ادنى الرتب . وشارك فى معارك التسلية وهو فى تلك الرتب . وفى احدى تلك المعارك انفجرت عبوة ناسفة قربه فاصيب وجهه بحروق شديدة .

وفى ٤ ايلول (سبتمبر) ١٦٩٠ وقع فى معركة اخرى عدد كبير من الجرحى . واصيب غوردون هذه المرة بحروق فى الوجه وكدمات فى الساق ، فلازم الفراش حوالى اسبوع . وشارك فى «معارك» ايلول افراد قوات التسلية وخيالة النبلاء من جهة ، وفوج من القوات الخاصة من جهة اخرى . وفى السنة التالية جرى «القتال» بين قوات اكبر ، بين جيشين احدهما من القوات الخاصة والآخر من فوجى التسلية والجند . ووقع «القائد العام» بوتورلين اسيرا فى يد «القائد العام فريدريك» ، وكان عدد الجرحى اكبر ، بل وقتل الامير ايفان دولغوروكى ، وهو من المقربين الى القيصر .

كان غوردون الذى يقدره القيصر رفيع التقدير ، وهو انسان واسع الاطلاع بارد الاعصاب حسن التنفيذ ، ينظر الى «العاب التسلية» بعين ساخرة ، وقد نعتها فى مذكراته بانها باليه عسكرى . لكن المعارك الاستعراضية فى البر ومناورات الاسطول الوليد قد فولذت كوادر الجنود والبحارة والضباط والجنرالات والاميرالات ، وربت المهارات والخصال القتالية .

وفى بحيرة بيرياسلافل انشأ براندت فرقاطتين صغيرتين وثلاثة يخوت ، وبنى بطرس بنفسه فى نهر موسكو سفنا مجذافية غير كبيرة . وفى نهاية صيف ١٦٩١ وضع القيصر فى بحيرة بيرياسلافل اساس بناء اول سفينة حربية روسية . وكلف ببنائها رومودانوفسكى الذى منحه القيصر رتبة الاميرال . ونقلت الى

هناك المواد والاغذية اللازمة . وساهم بطرس بنفسه فى بناء السفينة برغبة كبيرة . وفرغوا من انشاء السفينة وانزلوها الى الماء . الا ان سعة البحيرة لم تكن كافية للمناورات . وفى عام ١٦٩٣ سافر القيصر مع حاشية كبيرة الى ارخانجلسك التى كانت انذاك الميناء البحرى الوحيد فى روسيا . ورأى لاول مرة البحر والسفن الحقيقية الكبرى . فقد كانت فى المرفأ سفن انجليزية وهولندية والمانية جاءت بالجوخ والاصباغ والخردوات . وكانت البضائع الروسية (الاخشاب والفراء والكافيار وتيل القنب والجلود) تشحن الى سفن اخرى . وتفقد بطرس المرفأ باهتمام كبير وسأل عن كل التفاصيل وراح يفكر فى بناء الاسطول الروسى وتوسيع التجارة . وبواسطة ليفورت طلب سفينة كبيرة من الخارج وكلف مدير بلدية امستردام فيتزين بتجهيزها . وبناء على امر القيصر بدأ فى ارخانجلسك انشاء سفينتين . وقام القيصر لاول مرة فى حياته برحلة فى البحر الابيض البارد المكفهر . وعاد الى موسكو فى الخريف .

وفى كانون الثانى (يناير) من العام التالى توفيت والدة القيصر التى يكن لها الحب والحنان والاحترام . وتحمل مصيبته فى وحدة وألم وصمت . ولم يحضر مراسيم التشييع . كما لم يحضر مراسيم دفن ابنه الثانى الكسندر الذى توفى قبل ذلك ولم يتجاوز شهره السابع . ولعل القيصر لا يريد ان يكشف عن ضعفه امام الناس عندما يفقد احدا من اهله الاعزاء عليه . وفى اليوم الثالث بعد الدفن جاء الى قبر امه وبكى عليها وحيدا .

لكن الحياة تسير ، ونرى بطرس يتوجه من جديد الى ارخانجلسك فى نيسان (ابريل) . وقد ارسل الى هناك ذخيرة

وسلاحا ـــ اكثر من ثلاثين الف كيلوغرام من البارود والف بندقية . وكتب الى متصرفه فى ارخانجلسك واصدر اليه الاوامر باسم «القائد العام» و«الاميرال» رومودانوفسكى . ورافقه ٤٠٠ شخص . واستقل السفن النهرية فى دفينا الشمالى وهو يعلل نفسه بالامال وينعتها بالاسطول . واستحدث له علما بثلاثة خطوط احمر وازرق وابيض . وفرح القيصر عندما وجد فى الميناء السفينة جاهزة ، فانزلوها الى الماء فى ٢٠ ايار (مايو) . وبعد شهر انجزوا بناء السفينة الثانية وانزلوها الى الماء ايضا (فى ٢٨ حزيران ـــ يونيو) . وفى ٢١ تموز (يوليو) وصلت من هولندة السفينة التى بنيت حسب طلبه . وركب البحر مرتين ، فى ايار وآب (اغسطس) فى البداية على يخت «القديس بطرس» ثم على السفن . وفى كلتا الحالتين تعرض للخطر بسبب الزوابع وسوء قيادة السفن . لكنه لم يصب بمكروه . ورغم الخوف والمعاناة (فى المرة الاولى استعد بطرس ومرافقوه للموت وقدموا قربان الاسرار امام الشماس الذى رافقهم) احب بطرس البحر والاسطول مدى الحياة . وكان انزال السفينتين الى الماء والنجاة من مخاطر البحر مدعاة لفرحة عامة ، حيث اقيمت الولائم والافراح ، وكان القيصر مغتبطا سعيدا كطفل صغير .

وبعد كل الاختبارات والاحتفالات فى الاسطول الروسى الذى كان فى طور البناء ، ظهر اميرال آخر هو ليفورت ابن سويسرا الرائعة الخالية من البحار . . . وفى الخريف عاد بطرس الى موسكو وغرق فى الاشغال من جديد . ففى قرية كوجوخوفو بضواحى موسكو انشأ استحكامات مع كوى للرماية وحولها سد ترابى بارتفاع ٣,٥ امتار وخندق . واعتصم فيها جيش

القوات الخاصة بقيادة بوتورلين . وحاصرتها واقتحمتها افواج جديدة بقيادة رومودانوفسكي (٧,٥ آلاف شخص) .

وقبل بدء تلك المعركة اقام بطرس استعراضا عسكريا فريدا من نوعه . فقد اجتاز العاصمة بمسيرة احتفالية جيشا رومودانوفسكي وبوتورلين . وقرعت الطبول والنقاريات وتعالت اصوات النايات . ومرت امام «القائد العام فريدريك» سرية بأمرة بهلوان القيصر ياكوف تورغينيف وعلى رايتها صورة عنز ووراءها اقزام . وبين مدفعيي فوج بريوبراجينسكي في الامام يسير القيصر بطرس برتبة جندي اول مدفعية . وقد شارك في المعركة فيما بعد بنفس هذه الرتبة .

واستخدمت كل اساليب خوض الحرب ، واعدت خطتها مسبقا من قبل غوردون وغيره . وكان هناك سجل لمخططات المواقع والقوافل والقتال . في البداية عقدوا جلسة للمجلس الحربي ناقشوا فيها العمليات الحربية المرتقبة . واستمرت تلك العمليات ثلاثة اسابيع وشارك فيها على العموم ، كما افاد كوراكين ، ٣٠ الف شخص ، ١٥ الفا من كل جهة . ويقول هذا المؤرخ ان من المستبعد ان يستطيع احد من ملوك اوربا ان يعد مناورات افضل من مناورات بطرس . واثناء تلك المناورات تفاوض الطرفان وحفر المحاربون خنادق واخاديد الغام وشنوا هجمات عديدة .

. . . وبعد تبادل الشتائم بين «القائدين العامين» الواقفين على ضفتي نهر موسكو ، جرى نزال بين عملاقين من الابطال . وبعد ذلك هجم جيش «فريدريك» واحتل القلعة بسرعة نسبيا . لكن الاحتلال لم يكن حسب الخطة المسبقة ، وسرعان ما سحب الجيش من القلعة ، واستمر حصارها بلا

استعجال وباقرب صورة الى ظروف المعركة الحقيقية . وكان الجند وافراد القوات الخاصة يطلقون النار من المدافع والبنادق ويقذفون العبوات الناسفة ويزرعون الالغام ويفجرونها . باختصار كان الحصار والدفاع حقيقيين . ويقول كوراكين «ان ٢٤ شخصا قتلوا وجرح حوالى خمسين شخصا» اثناء المعارك . وقد ساعدت تلك المناورات على تدريب الجنود والضباط . وفي اعقاب المعركة اجتمع كل المشاركين فيها في وليمة في مخيم رومودانوفسكي دفع تجار موسكو تكاليفها .

. . . وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩١ طلب القيصر ان يجلبوا له ميثاق الكنيسة . فطالع نصه وعمل بعض الوقت في صياغة ميثاق «لشلته» باسم «مجمع السكر والعربدة والمرح» . وقد قلد القوانين والاعراف الكنسية بسخرية بالغة (كان بطرس مؤمنا بالطبع لكنه يكره اشد الكره القساوسة وآباء الكنيسة بما يتميزون به من تحجر ورياء ورجعية) . وجاء «الميثاق» وثيقة هجاء للمراتب الكنسية والقساوسة والكهان وما اعتادو عليه من سكر ونهم وجشع وخشوع مفتعل وغير ذلك من العيوب . لكن بطرس عندما اسس «مجمع السكر والعربدة» ليرص صفوف «شلته» من خلاله قد كرر بشكل ساخر نفس التسلسل الهرمي الكنائسي واستخدم الشكل المطلق الطراز لتنظيم «المجمع» ، وقام بذلك ، كما يفعل احيانا ، بخشونة وتعسف .

وعين معلمه السابق زوتوف رئيسا للمجمع . وترأس زوتوف هذا مجلس الكرادلة المكون من ١٢ كردينالا وجرى في الاول من كانون الثاني (يناير) ١٦٩٢ تنصيبه بمثابة الامير — الاب الروحي — «سماحة الكير ايانيكيتا مطران بريسبورغ وبطريرك عموم ياوزا وعموم حي العجم» . وهكذا جمعت هذه التسمية

الهزلية بين المنظمة الجديدة لاصحاب بطرس فى ياوزا وبين اصدقائه الاجانب فى حى العجم . وعندما ينتسب عضو جديد الى المجمع يسألونه على الطريقة الكنسية («تؤمن بالله ؟») :

— تشرب الخمر ؟

— نعم .

وكانوا يقبلون من يتعاطى المسكرات ويعلنون من لا يتعطاها ويطردونه من الحانات وفقا لميثاق المجمع . وتنص الوصية الرئيسية فى الميثاق على تعاطى المسكرات يوميا ، ويمنع منعا باتا النوم بذهن صاح . وتنتخب كل المناصب فى المجمع وفقا لاجراءات معينة وصارمة للغاية . فبالاضافة الى الامير الاب الروحى والكرادلة توجد مناصب اخرى كالاسقف والارشمندريت وغيرهما . وشغل بطرس مرتبة متواضعة فى سلم «السكر» المعقد . فهو شماس اول المجمع . وهدف المجمع هو تمجيد باخوس بالافراط فى الشراب المتواصل . وكان هناك نظام صارم لتعاطى المسكرات ، «لخدمة باخوص والحرص النزيه على الشراب المسكر» . وكانت هناك كتب خاصة للصلوات والانشاد وثياب خاصة وكذلك قديسات ورئيسات اديرة للهزل والتنكيت .

وقد شاهد اهالى موسكو ، واهالى بطرسبورغ فيما بعد ، حفلات المجون والسكر والعربدة التى اقامها المجمع . ففى فترة الاعياد من ميلاد المسيح حتى التعميد كان مائتا عضو من اعضاء «المجمع» يستقلون عشرات الزحافات ويجوبون شوارع المدينة طول الليل منشدين صافرين ويترددون على المنازل «يباركون» اهاليها الذين يطعمونهم ويسقونهم ويدفعون

لهم النقود مقابل «التبريك» . ويشربون كثيرا . وفى الصوم الكبير ، على العكس ، يقيم الامير — الاب المهرج موكب التوبة ، حيث يمتطى اعضاء «المجمع» الحمير والثيران ويركبون الزحافات التى تجرها الخنازير والماعز والدببة ، ويجوبون الشوارع والساحات فى معاطف فرائية مقلوبة على بطانتها . وكان تحقير الكنيسة بهذه الصورة لا بد وان يثير حفيظة المؤمنين ورجال الدين . وكانت تصرفات القيصر هذه قد خلقت له سمعة سيئة فى انظار الكثيرين ، ومن ذلك الحين انتشرت بين الناس شائعات تقول ان القيصر هو المسيح الدجال . واخذ بعض البويار ورجال الدين ينشرون الاقاويل عن القيصر ويستفظعون اختلاطه بالاجانب ويشجبون مستحدثاته واستهانته بالاعراف والعادات الروسية القديمة . فبعد وفاة امه شارك فى ٨ نيسان (ابريل) فى مراسيم عيد الفصح ، وبعد ذلك لم يره احد فى هذا النوع من المراسيم فى الكريملين . وكان الكثيرون يعتقدون بان «لمجمع المرح» تأثيرا فتاكا على نفسية القيصر وحاشيته ، فهو كفر وارتداد عن الدين ، شأن «مغازلته» للزنادقة من الكاثوليك واللوثريين .

عندما سخر بطرس من عيوب ونواقص رجال الكنيسة «جعل سلطته الشخصية موضوعا للسخرية» على حد تعبير كلوتشيفسكى . وقد اطلق على روموداروفسكى نعت القيصر والملك وصاحب الجلالة ، بينما نعت نفسه «بالعبد الحقير بطرس» . على هذه الصورة كان يمزح القيصر الواثق من نفسه ومن حاشيته ومن سلطته الوطيدة .

كانت تهجمات بطرس على الافكار والشخصيات التى ولى زمانها ، والعاب مارس ونبتون التى كان يمارسها انما

تخفى ، وراء حجاب من التنكيت والحدة والوقاحة الفظة ، نواياه الجادة وافعاله البطولية المرتقبة التى كتب عنها فون كيلر . وفيما بعد تذكر بطرس نفسه آخر لعبة عسكرية ، وهى اطول العابه واوسعها من حيث عدد المشاركين فيها فقال : «عندما كنا آنذاك نمارس العاب مارس فى ضواحى كوجوخوفو لم يكن فى اذهاننا شىء سوى اللهو والتسلية ، لكن تلك الالعاب غدت مقدمة لافعال حقيقية» .

فى تلك الفترة كان القيصر فى الثالثة والعشرين . وقد عرف وجرب الكثير حتى ذلك الحين . عرف وجرب الصالح والطالح معا . دخل معترك الحياة وتفولذ فيه سواء فى عام ١٦٨٢ اثناء الانتفاضة فى موسكو ، او بعد سبع سنوات عندما انتهت المناوشة مع اخته واشياعها بانتصاره عليهم . وقد استفاد من الامكانيات المرتبطة بسلطة القيصر المطلقة (كان القيصر ايفان الذى اقتصر دوره فى الكريملين على حضور المراسيم الرسمية يقضى سنواته الاخيرة بهدوء دون ان يتدخل فى شىء) وانتفع منها بالقدر الكامل لصالحه ولصالح القضية التى كرس نفسه لها دون رجعة ، الا وهى قضية تجديد روسيا وتعزيزها ورفع منزلتها وعظمتها ، ورفع منزلته وعظمته معها . ومما لا شك فيه ان هذا الرجل القوى المتسلط الذى بذل جهده واجهد نفسه فى سبيل وطنه لم يكن يخلـو من الزهو والكبرياء ولا ينفر من بلوغ المجد بين معاصريه واحفاده .

البطل الشاب الذى يلوح امامنا ، عملاقا من حيث البدن والروح ، فى اوصاف معاصريه وصور الرسامين ، يوسع كتفيه ويشرع «بفعل حقيقى» ، لاسيما وان «بذور الافعال الجليلة»

اخذت تنمو وتبزغ . وحان الوقت لرعاية السنابل وجنى المحصول .

. . . فى ارخانجلسك ، اثناء الاحاديث مع ليفورت وغيره من افراد «الشلة» ، ناقش بطرس موضوع البحر وضرورته القصوى بالنسبة لروسيا . وقال اصحاب بطرس ان بحر الشمال غير مناسب تماما للتجارة الواسعة والعلاقات الثقافية مع العالم الغربـى . والطريق اليه بعيد وصعب بسبب طول المسافة والبرد الشديد . وبحر قزوين ، رغم سعته ، ما هو فى الحقيقة والواقع الا بحيرة ليس لها منفذ الى البحار الاخرى والمحيطات . ولم يبق الا بحر البلطيق والبحر الاسود ، مع ان بحر الشمال وقزوين لا يجوز اهمالهما . لكن بطرس فى تلك الفترة ، فى اواسط تسعينات القرن السابع عشر ، قرر ان يؤجل قضية بحر البلطيق . اما البحر الاسود فقد تصوره هو وحاشيته مكانا مناسبا تماما للاعمال الجادة .

كان بطرس فى فتوته قد قرأ «قصة الزمان» ، وهى سجل تاريخى وضعه كاهن من كييف اسمه نسطور فى بداية القرن الثانى عشر . وقد ادهشته واعجبته اخبار حملة الامير اوليغ على تسارغراد (الاستانة) فى بداية القرن العاشر الميلادى فهذا الحاكم بالذات قاتل قبل بطرس منذ ثمانية قرون تقريبا فى تلك الاماكن التى احتلها العثمانيون فيما بعد ، فى اواسط القرن الخامس عشر . وقد عاث هؤلاء مع تتر القرم فسادا فى الارض الروسية . وراح بطرس يفكر فى «الثأر من الاتراك والتتر على كل ما الحقوه من اضرار بروسيا» ويحلم بتكرار مأثرة اوليغ وجنده . والاهم انه ظلت معلقة قضية العلاقات مع امارة القرم التى استولت على الاراضى الروسية العريقة فى سواحل البحر الاسود واستمرت فى غزواتها وحملاتها على الاقضية

الحدودية فى روسيا واوكرانيا . ودأبت عساكر القرم على اقتياد آلاف مؤلفة من الاسرى الروس ، وكانت موسكو ترسل الى باخشى سراى جزية بالمال والفراء . وكانت امارة القرم تعيق تطوير التجارة الروسية فى منطقة البحر الاسود الذى كان يسمى بالبحر الروسى فى قديم الزمان . . .

. . . كان اوار حملتى القرم قد خفت ، والقائد العام غوليتسين الذى لم يعد بالامجاد يرزح فى غياهب المنفى . اما بطرس الذى نفاه الى هناك فهو يخطط لحملة فى نفس ذلك الاتجاه الجنوبـى ، ولكن ليس فى اتجاه القرم مباشرة ، من خلال السهوب المترامية الاطراف ، بل بانحراف نحو اليسار ، على نهر الدون ، الى مصبه ، حيث تقع قلعة آزوف العثمانية . وفى شتاء ١٦٩٤ — ١٦٩٥ كان القيصر ليل نهار يناقش خطة الحملة المرتقبة مع اصدقائه وانصاره . وبالاضافة الى الملابسات المذكورة اعلاه كان القيصر مدفوعا بالمطالب الملحة من جانب النمسا وبولونيا شريكتى روسيا فى «الحلف المقدس» المناهض للاستانة والذى تشكل فى ثمانينات القرن السابع عشر . وكان البطاركة الارثوذكس اليونانيون الذين اضطهدهم العثمانيون ينادون ايضا بمكافحة الكفرة . وكتب بطريـرك اورشليم دوسيفيوس يلوم موسكو قائلا : «التتر زمرة تتباهى باستلام الجزية منكم ، ولما كان التتر من الرعايا العثمانيين ، فانتم ايضا ، والحال هذه ، من الرعايا العثمانيين» .

وترتبط بالحملة على قلعة آزوف العثمانية التى تسد منفذ الدون الى بحر آزوف والبحر الاسود مطامح بطرس الشخصية . فان انتصاره فيها يمكنه ، كما تصور ، من السفر الى بلدان اوربا الغربية مكللا بامجاد النصر الحربـى المؤزر وبهالة القائد

المنتصر . وكان ليفورت يلح عليه دوما بالسفر ، فهو يريد الخير لروسيا ولقيصرها الموهوب الرائع صديقه العزيز . وقد تمكن ليفورت من اقناع القيصر بضرورة السفر الى اوربا ، فقد تحمس بطرس لهذه الفكرة لانه سيرى الكثير مما هو نافع لوطنه وله شخصيا ، كى يستخدم فيما بعد كل ما له قيمة فى الوطن . ولكن هل يجوز ان يسافر خالى الوفاض ؟ سيجد صعوبة والحال هذه فى التعامل مع ذوى الشأن فى اوربا . ثم ان الحملة يجب ان تبين بان العاب مارس فى بريوبراجينسكويه وكوجوخوفو لم تكن دون جدوى ولم ينظمها هو ، قيصر روسيا ، عبثا . لقد حان الوقت لكى يسطر الجيش آيات البطولة فى معارك حقيقية .

وفى ٢٠ كانون الثانى (يناير) ١٦٩٥ صدر لكل العسكريين امر بالتجمع من اجل حملة على القرم بقيادة البويار بوريس شيريميتيف . واعلن ابان هذه الحملة تكرار للطريق التقليدى الذى سلكته العساكر فى عهد صوفيا وغوليتسين . لكن هذا كان مجرد حيلة او ، كما يقال الآن عادة ، مجرد مناورة دعائية لستر الهدف الحقيقى ، وهو الحملة على سعد الاسلام ، وذلك هو الاسم العثمانى لقلعة آزوف . وكان يتعين تدمير معقل السيطرة العثمانية هذا فى مصب الدون .

تحركت عساكر شيريميتيف على امتداد الدنيبر نحو اسفله باتجاه القرم . وكانت لعملياتها اهمية ثانوية ، ومع ذلك استولى شيريميتيف الذى غدا فيلدمارشالا فيما بعد على اربع قلاع عثمانية على الدنيبر ، حيث دمر قلعتين وترك حاميتين روسيتين فى القلعتين الاخريين .

لكن الاحداث الرئيسية جرت شرقى المنطقة ، على نهر

الدون . وقد خصص للحملة على آزوف ٣١ الف رجل من الافواج الروسية المختارة . نصفهم توجهوا من موسكو فى ٣٠ نيسان (ابريل) بالطريق المائى بقيادة غولوفين وليفورت . واستقلت العساكر السفن فى انهار موسكو واوكا والفولغا . ووصلت الى تساريتسين فى ٨ حزيران (يونيو) . ومن هناك سارت ماشية حتى بلدة بانشين القوزاقية على الدون . وحمل الجنود وسحبوا بانفسهم المدافع والذخيرة ، لان الوقت لم يتسع لتحضير العدد الكافى من الخيل . وحدث الشيء ذاته لاحتياطيات الاغذية التى تقرر ان تجمع فى بلدة بانشين . فالمقاولون لم يجلبوا الاغذية فى الموعد المحدد ولم يحضروا بانفسهم ، فدعت الحاجة الى البحث عنهم فى مدن اخرى . ولم يكن هناك ملح طعام . واجتمعت العساكر فى بانشين بعد جهد جهيد . وكان القيصر ينتظر فى هذه البلدة . وانحدرت مع مجرى النهر حتى وصلت آزوف فى ٢٩ حزيران (يونيو) . ووصلت كذلك عساكر غوردون بالطريق البرى . وكانت قد تأخرت كثيرا ، بسبب ضرورة مد جسور على الانهار وقمع عصيان افراد القوات الخاصة .

وبدأ حصار آزوف . استمر الحصار ثلاثة شهور ولم يعد على السلاح الروسى بالامجاد . فان تنظيم الحملة من البداية فيه عيوب خطيرة . كان هناك امام اسوار القلعة العثمانية ثلاثة قادة ، فلم يكن للجيش الروسى قائد واحد . وكان الثلاثة — غولوفين وغوردون وليفورت — على خلاف فيما بينهم . وانعدم التنسيق بنفس الصورة فى العساكر نفسها ، وتجلى ذلك ، مثلا ، فى اختلاف مواعيد عملياتهم اثناء الحصار . ونفد صبر «الجندى اول مدفعية بطرس» كما كان حاله عادة

في العاب ضواحي موسكو . لكن الجيش الروسى يواجه قلعة عثمانية ممتازة وليس قلعة العاب فى بريسبورغ . فالقلعة العثمانية مطوقة بصفين من الاسوار الحجرية وبسد ترابي وخندق . وامامها ، على ضفتي الدون برجان تمتد بينهما ثلاث سلاسل حديدية تمنع الحركة فى مجرى النهر وتقف حاجزا امام السفن . ولم يكن هناك اسطول روسى بالمعنى الحرفى للكلمة اثناء حصار آزوف ، ولذا وصلت الامدادات والاغذية العثمانية عن طريق البحر دون عائق . وقد عـزز العثمانيون حامية القلعة بعد ان عرفوا بالحملة مسبقا . ولم تكن ضربات المدفعية الروسية شديدة . فالقصف الذى شارك فيه جندى المدفعية الاول بطرس ميخائيلوف لم يلحق ضررا يذكر بالعثمانيين وتحصيناتهم . وزرع الروس الغاما تحت تلك التحصينات ، لكن انفجارها الحق بالروس انفسهم اضرارا اكثر مما لحق بالعدو .

صحيح ان الروس استولوا على كلا البرجين . ونظموا هجومين على القلعة فى ٥ آب (اغسطس) وفى اواخر ايلول (سبتمبر) ، لكنهم لم يحققوا نصرا . وتكبدوا خسائر كبيرة . ذات مرة فر الى العثمانيين من المعسكر الروسى بحار هولندى اسمه ياكوب يانسين وحدثهم ، فيما حدثهم ، عن عادة الروس فى النوم بعد الغداء . فدبر العثمانيون اثناء ذلك هجوما على مقر ليفورت وقتلوا عدة مئات من الجنود الروس النائمين ولم ينسحبوا الا بضغط عساكر غوردون الذين وجدوا منفذا من المأزق . وسقط عدد كبير من الخسائر اثناء الهجمات وحفر الانفاق والتفجيرات . بينما كان بطرس يبعث رسائل مهدئة الى موسكو . الا ان سوء التحضير للحملة والاستعجال فى

الهجمات وقلة الحذر وعدم المهارة فى بعض الحالات (فى الاسطول وزرع الالغام وادارة القوات) كل ذلك ارغم بطرس على اصدار امر بالانسحاب فى بداية تشرين الاول (آكتوبر) . واقترن الانسحاب ايضا بخسائر كبيرة بالارواح ، فقد غرق الكثيرون فى فيضان الدون ، ومات آخرون من الجوع والبرد عندما اجتازوا السهب حتى فالويكى ، اول مدينة روسية فى الجنوب . وبدأ الشتاء مبكرا ، ولم يكن الجنود يرتدون بزة الشتاء . وتبدلت لهجة القيصر فى رسائله الى موسكو ، ونعت صراحة الحملة الحربية الفاشلة «بحملة عدم فتح آزوف» .

ومن ذلك الحين لم يكن من عادات بطرس ان ينساق وراء اليأس والقنوط بعد اول هزيمة . فقد تضاعفت طاقاته واتخذ اجراءات فورية ، حيث اناط قيادة القوات البرية بالقائد العام شين ، واناط قيادة الاسطول الذى كان يتعين بناؤه بالاميرال ليفورت . وفى تشرين الثانى (نوفمبر) اعلن عن تجمع المتطوعين من النبلاء ، وفى كانون الثانى (يناير) دعى جميع الراغبين ، بمن فيهم الاقنان من خدم القصور ، الى الانخراط فى الجيش للمشاركة فى الحملة الثانية على آزوف . وحصل هؤلاء الاخيرون على الانعتاق فورا . واستفاد عدد كبير منهم من مرسوم القيصر .

وبعد ذلك انشأ بطرس احواض بناء السفن فى فورونيج وضواحيها . ولم يأت اختياره لهذه الاماكن من قبيل الصدفة . فعلى ضفاف نهرى الدون وفورونا كانوا من قديم الزمان يبنون القوارب النهرية المسطحة القاع ويستخدمونها فى نقل الحبوب وغيرها من الاحتياطيات الى قوزاق الدون ، ويقيمون الاتصالات معهم طوال القرن السابع عشر بكامله . ونمت حول فورونيج

اشجار صنوبر جيدة صالحة لبناء السفن ، لكن الكثير منها قد اقتطع . واستخدمت تلك الاشجار هذه المرة ايضا . وفى الشتاء توجه بطرس الى فورونيج وتابع بناء السفن عدة اشهر واستخدم الفأس بنفسه أكثر من مرة . واقتيد الى هذه المنطقة من المدن القريبة ٢٦ الف نجار . وكان من معوقات البناء صعوبة العمل والاستعجال وبرد الشتاء والحرائق . وفى ٢٩ كانون الثانى (يناير) توفى فجأة القيصر ايفان ، الاخ الاكبر ، فارتحل بطرس لحضور التشييع . لكنه عاد فى الحال ، مع ان قدمه تؤلمه بشدة . واعطت الجهود والالام النتيجة المطلوبة ، ففى مطلع نيسان (ابريل) اخذوا ينزلون السفن الى الماء ، ولم يكن عددها قليلا : ٢٣ زورقا مجذافيا وسفينتين و٤ صنادل اعتراضية و١٣٠٠ قارب مسطح . ووصلت الى فورونيج قوات باربعين الف رجل . وفى ٣ آيار (مايو) تقدمت كوكبة طويلة من السفن هابطة مع مجرى الدون . وركب الزورق المجذافى «برينتسبيوم» الكابتن بطرس ألكسييف (القيصر) الذى بناه بنفسه . وبالاضافة الى قوات بطرس كان من المقرر ان يحارب فى معركة آزوف قوزاق الدون وزابوروجيه .

وفى اواخر ايار (مايو) بلغ الجيش الروسى مواقع العام الفائت . فجددها وبدأ قصف قلعة آزوف . وانهمك ١٢ الف شخص ليل نهار فى تشييد سد ترابى ليكون اعلى من اسوار القلعة . وحاول العثمانيون المحاصرون ان يعيقوا بناء هذا السد الذى اقترح بناءه غوردون ، لكنهم صدوا واعيدوا على اعقابهم . وتم تطويق المدينة من جميع الجهات وفى النهر قاتل الاسيطيل الروسى . فى البداية كان القوزاق فى سفن غير كبيرة يدمرون السفن العثمانية التى تفرغ حمولتها

قرب اسوار القلعة ، ثم خرجت عمارة روسية الى عرض البحر ، حيث تقف سفن عثمانية كبيرة تقل ٤ آلاف من المشاة واحتياطيات الاغذية والذخيرة ، فمنعتها من دخول مصب الدون والوصول الى القلعة المحاصرة .

وكان بطرس يجول ويصول فى كل مكان . فقد رأى الناس «جندى المدفعية الاول» هذا على متون السفن وجنب اسوار القلعة يقصفها بنفسه من المدافع . عرفت شقيقته ناتاليا بذلك وكتبت له عن قلقها عليه فاجابها : «اقول لك اننى شخصيا لا اقترب من القنابل والرصاص ، فهى نفسها تقترب منى ، فاطلبى منها الا تفعل ذلك . ولكن مع انها تقترب منى ، فهى حتى الان تفعل ذلك برفق وتأدب» .

واستسلمت الحامية العثمانية بعد ان يئست من الخلاص . واشترطت قيادتها الحفاظ على حياة جنودها وعوائلهم ومغادرة القلعة بسلاحهم الشخصى . لكن بطرس اصر على تسليم «الخائن ياكوب» يانسين وبعض المنشقين الفارين . وكسب المنتصرون ١٣٦ مدفعا .

وبعد مأدبة فخمة وألعاب نارية بهيجة امر بطرس بترميم القلعة المدمرة التى دخلها الروس فى ١٩ حزيران (يونيو) . وسرعان ما وجدوا مرفأ صالحا للاسطول فى تاغانروغ . وكتب القيصر فرحا الى الامير رومودانوفسكى والحاشية فى موسكو عن انباء النصر . وفى رسالة الى فينيوس اعرب عن رغبته فى اقامة قوس النصر اثناء عودة القوات الى موسكو «لتكريم القائد العام شين وسائر السادة الذين بذلوا جهدا كبيرا للغاية طوال عامين» . وكان ذلك شيئا جديدا على الروس وغير معتاد بالنسبة لهم . اما القيصر فيتدخل فى كل تفاصيل الاحتفالات المرتقبة ،

حيث يقرر بناء قوس النصر ويحدد موقعه وكيفية سير المنتصرين وغير ذلك .

ترك القيصر حامية فى آزوف وغادرها مع قواته فى آب (اغسطس) . لكنه تأخر فى الطريق . فلم يكن مستعجلا ، لان قوس النصر فى العاصمة لم يكتمل بناؤه بعد . كان القيصر يتوقف فى ضيعات اشياعه تارة ، ويزور مصانع التعدين فى تولا تارة اخرى . وفى احد تلك المصانع ، فى الطريق الى فورونيج ، اخذ معه مسدسا اجنبيا رائع الصنع ، لكن ترباسه مكسور ، وبحث عن نيكيتا ديميدوف الذى قيل له انه اسطى ماهر . وتعرف عليه وترك عنده المسدس المكسور. والآن فى طريق العودة الى موسكو جاء بطرس من جديد الى ذاك المصنع وسلمه الاسطى المسدس الانف الذكر . تفحصه القيصر وقال بمنتهى الارتياح :

— ما اروع هذا المسدس ، هل سيطول بى العمر حتى يصنع رعاياى فى روسيا مثله ؟

فاعترض ديميدوف قائلا :

— ربما نحن افضل من الاعاجم .

لم يعجب بطرس بهذا التباهى ، كما ظن ، وصفع الاسطى بشدة :

— فى البداية افهم الحقيقة يا صاحب الجلالة ثم يمكنك ان تتباهى !

— فى البداية افهم الحقيقة ، يا صاحب الجلالة ، ثم يمكنك ان تصفعنى . المسدس الذى فى يد جلالتك من صنعى انا . اما المسدس الاجنبى فهذا هو — ومد يده الى بطرس بالمسدس الاجنبى المكسور .

ـــ اعذرنى يا اخى . ارى انك ماهر حقا .

ومن هذا المشهد المتميز الذى كثيرا ما نصادف مثله فى العلاقات بين الحاكم الروسى المطلق ورعاياه بدأ كما تقول الروايات علو منزلة آل ديميدوف الذين غدوا فيما بعد من اصحاب المصانع فى الاورال ومن اغنى الصناعيين فى روسيا ، ومنحوا القاب البارونات . فبعد ذاك الحديث والصفعة امر بطرس بان يدفعوا الى الاسطى من الخزينة خمسة آلاف روبل لبناء مصنع للسلاح ، وفيما بعد برر ديميدوف الآمال التى علقها عليه القيصر ، فكان على مستوى متطلبات البلد السريع التطور .

. . . وفى اواخر ايلول (سبتمبر) وصل القيصر الى كولومنسكويه بضواحى موسكو ، كما وصلتها القوات المنتصرة . واخبروه بان قوس النصر جاهز ، فدخل جيش بطرس العاصمة ، ولكن ليس وسط رنين نواقيس الكنائس ، كما فى الماضى . سارت الارتال عبر موسكو والكرملين ممتدة كيلومترات عديدة . ومرت تحت قوس النصر الذى يبلغ ارتفاعه عشرة امتار ، وهو مزين بمنحوتات ونصوص فى مواضيع من الادب الاغريقى (مارس وهرقل) ومن الانجيل ، ولوحات وكتابات بخصوص حصار ودخول آزوف . وتقدم الموكب الامير–الاب الروحى نيكيتا زوتوف فى عربة فخمة . وتبعه ليفورت الذى لم يحقق المآثر فى الحملة ، فقد اشتد عليه المرض ولم يترك له مجالا كبيرا للقتال . وقد وصل الى آزوف ، كما لاحظ الجميع ، فى آخر الناس ، وتركها قبل الاخرين . لكن تأييده الاخوى للقيصر ومشاركته وتفاؤله الدائم كل ذلك لا يقل اهمية عما سواه . وسار بطرس نفسه

فى بدلة المانية سوداء وقبعة بريشة بيضاء خلف ليفورت الذى يرتدى اثمن الثياب . واثار بطرس بمظهره هذا دهشة اهالى موسكو . فالروس لم يتعودوا على رؤية قيصرهم بمثل هذه الهيئة قبل اعتلاء بطرس العرش . كانوا يرون القيصر بصورة شخص مهيب يضاهى الاله يخيم عليه الصمت وتحيطه الاسرار . اما الان فالقيصر يسير ماشيا كجندى بسيط .

ثم يأتى الجنود يجرجرون ١٦ راية عثمانية استولوا عليها فى آزوف . وكانوا يقودون عربة مكشوفة عليها ياكوب يانسين بثياب عثمانية وجنبه مشنقة وفأسان مغروزتان فى قرمة . وعلى رقبة الخائن انشوطة ، وعلى صدره رقعة كتب عليها «مجرم» .

انتهت الاحتفالات والولائم . واعدم يانسين على مرأى من الناس . وكان من اللازم تثبيت الانجازات ، فاتخذت الاجراءات لاستيطان آزوف وتاغانروغ . ونزحت الى هناك عوائل بكاملها من بسطاء الناس للاقامة الدائمية ، كما توجه الجنود لتعزيز الحاميات . وعقد القيصر جلسة لمجلس دوما (البويار) فى ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ، وقرر المجلس ارسال ٢٠ الف شخص لبناء تاغانروغ . واصدر المجلس قرارا موجزا وهاما للغاية «ببناء السفن البحرية» . صحيح ان الخزينة خاوية ، ولذا تقرر فى جلسة الدوما فى ٤ تشرين الثانى (نوفمبر) تشكيل شركات من ملاك الاراضى واصحاب الفلاحين ، اى من الاقطاعيين الاهليين والدينيين والتجار الاثرياء . وكان عليهم ان يؤمنوا بصورة مشتركة مستلزمات بناء ٥٢ سفينة حربية فى غضون عامين ، ولا يمكن لروسيا ان تثبت اقدامها عند البحار الا بهذا العدد من السفن .

كان بناء الاسطول المتكامل الكبير الذى يحول روسيا

5*

الى دولة بحرية لا يزال بعيدا ، لكن الاستيلاء على آزوف كان هو البداية ، وها هم الان يواصلون السير بنفس تلك الوتائر السريعة جدا . لقد صدر القرار وبدأ تأسيس الشركات وراحوا يسجلون انتساب الاثرياء والوجهاء اليها . وبعث بطرس طلبيات الى البندقية واماكن بحرية اخرى واخذ اسطوات بناء السفن يتقاطرون منها مندفعين باغراءات الرواتب الضخمة . وبعد عامين ، فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٨ توجه بامر من القيصر الى ايطاليا (البندقية خصوصا) وبريطانيا وهولندة ٦١ شابا روسيا ، عشرون منهم من عوائل الامراء ، لدراسة قيادة السفن «فى حالة القتال وفى الرحلات العادية» . ونصح المتفوقون فى الدراسة والراغبون فى تحقيق المزيد بان يصبحوا كذلك اسطوات فى بناء السفن . وخصص لكل من اولئك الطلبة جندى او عريف يتعين عليه ايضا ان يدرس الشؤون البحرية ويتضلع فيها على حساب الخزينة وليس على حسابه الخاص مثل سيده . وعندما املى القيصر امره تصور طبعا دموع الطلبة وخوف واعتراض الوالدين المفجوعين . ولذا املى بندا خاصا نص على رحيل هؤلاء الاشخاص من كل بد دون اية مماطلة . ويعاقب العاصى بحرمانه من الاراضى والاموال والرتب والالقاب . وتذمر الوجهاء وتذمر بسطاء الناس الذين تقع على كاهلهم بالدرجة الاولى اعباء مستجدات بطرس .

وفى عام ١٦٩٨ دشنت السفن التى نصت على بنائها قرارات الدوما واوامر القيصر . واستمر انشاء مرفأ تاغانروغ . وفكر القيصر بشق قناة تربط بين الفولغا والدون من خلال نهرى ايلوفلا وكاميشينكا . لكن هذا المشروع ظل دون ان ينفذ ، فقد غطت عليه مشاريع وخطط اخرى ، وكان عددها فى

ذهن القيصر بطرس كبيرا جدا . . .

وانخرط عدد متزايد من الناس فى تنفيذ افكار ومبادرات بطرس واشياعه . وبارادة القيصر عمل الآلاف من عامة الناس والكثيرون من ابناء الوجهاء فى مختلف الاماكن داخل البلد الشاسع وخارجه . ولكن كان هناك متذمرون اهتم بتهدئتهم «الغول» روموادانوفسكى وازلامه ورجاله . ولم يقتصر الامر على «الغول» وازلامه ، فقد اضطر القيصر نفسه الى مواجهة هؤلاء العاصين والمتآمرين . ففى بداية عام ١٦٩٧ حرر الراهب العجوز ابراهام ، وهو من رهبان دير اندريفسكى فى ضواحى موسكو ، رسالة انتقد فيها سوء سلوك القيصر وسلمها الى القيصر نفسه . وتناولت الرسالة «العاب القيصر المعظم التى لا موجب لها» ، وعدم سماعه لنصائح امه وزوجته واقاربه والبويار. وطلب الراهب العجوز مقابلة شخصية مع القيصر ليوضح له وجها لوجه تصرفاته الشائنة ويدله على الصراط المستقيم . وبدلا من ذلك وجد العجوز نفسه فى براثن الامير روموادانوفسكى . واعترف تحت التعذيب بانه يجتمع فى حجرته بالدير مع ما يشبه العصبة من المتذمرين الذين يتناولون بالشجب والتحليل احداث البلاط وسلوك القيصر الذى يلتقى بالاجانب ، فى حين لا يليق بالشعب الروسى ان يفعل ذلك . ويقولون ان القيصر يحضر التعذيب ويشارك فيه شخصيا . ويشجب المتذمرون زيارات القيصر الكثيرة الى حى العجم وولعه ببناء السفن ومشاركته فى استعراض القوات . فلا يليق ببطرس ان يفعل ذلك ، فهو قيصر على اية حال . وكانت عقوبة افراد العصبة خفيفة نسبيا ، فقد ضربوهم بالسياط ونفوهم .

وكانت هناك عصبة اخرى من المتذمرين لم يكن نصيب

افرادها عقوبة خفيفة كهذه . وافراد العصبة هذه المرة من المدنيين الذين يحتلون مناصب كبيرة نسبيا . وقد تزعمهم مقدم من القوات الخاصة اسمه تسيكلر ، وهو اجنبي متروس التزم فى احداث ١٦٨٢ جانب صوفيا وآل ميلوسلافسكى ، وبعد سبع سنوات انتقل الى صف بطرس على امل الحصول على ترقية سريعة فى الخدمة . وبالفعل حصل على رتبة عالية وصار آمرا لفوج من القوات الخاصة . وخدم فترة فى قرية سيبيرية نائية ، ثم فى آزوف وفى مشروع بناء مرفأ تاغانروغ . وكان ذلك قليلا على هذا الانسان الطموح الذى يحلم فى ترقية سريعة فى العاصمة . وكان يعتبر تعيينه فى المناصب التى خدم فيها عقوبة . زد على ذلك ان اثنين من ابنائه ارسلوا للدراسة فى الخارج مع سائر الذين ارغموا على ذلك . لكن القيصر على ما يبدو لم ينس صلاته القديمة بآل ميلوسلافسكى ، ولذا فضل ابعاده عن موسكو ، فاضمر تسيكلر غيظا تحول الى حقد على القيصر . وبمر السنين اشتد هذا الحقد فدفعه الى وضع خطة لقتل بطرس . وراح يقنع افراد القوات الخاصة :

— عندما يغادر القيصر مديرية العلاقات الخارجية يمكنكم ان تتربصوا به وتقتلوه .

وبالاضافة الى بعض آمرى القوات الخاصة وممثلى قوزاق الدون الذين يحلمون بالانتفاضة على بويار موسكو شارك فى المؤامرة سوكوفنين ، وهو من انسباء تسيكلر ، والبويار بوشكين وكذلك اقرباؤهما .

وتسرب نبأ المؤامرة الى بريوبراجينسكويه . وكان بطرس يتهيأ للسفر الى الخارج ، فأجل سفره وراح يشارك فى التحريات

وفى استجواب المذنبين الذين تعرضوا لتعذيب لا رحمة فيه على مرأى منه . ويبدو ان ذكريات انتفاضة القوات الخاصة وآل ميلوسلافسكى وآلام عهد الطفولة قد اثارت غضبه . واعدم فى بريوبراجينسكويه المتآمرون الرئيسيون تسيكلر وسوكوفنين وبوشكين واثنان من آمرى القوات الخاصة واحد القوزاق . وصدر حكم مجلس الدوما بهذا الخصوص فى ٢ آذار (مارس) ، ونفذ حكم الاعدام فى اليوم التالى . وقد حدد القيصر نفسه حكم الاعدام وكيفية تنفيذه . فى البداية استخرجوا من القبر تابوت ميلوسلافسكى الذى يعتبره بطرس ، الى جانب صوفيا ، زعيما لعصيان افراد القوات الخاصة فى عام ١٦٨٢ ، كما يعتبره الان ملهما فكريا لمؤامرة تسيكلر . ووضعوا التابوت على زحافة تجرها الخنازير واوصلوه الى بريوبراجينسكويه ووضعوه تحت منصة الاعدام . وسالت دماء المتآمرين على رفات ميلوسلافسكى . وفى اليوم التالى عرضت رؤوسهم مغروزة على اعواد فى العاصمة ليراها الناس وترتعد اوصالهم .

ظل شبح عصيان القوات الخاصة ودسائس صوفيا والخصوم الآخرين يلاحق بطرس امدا طويلا . وظل هذا الرجل الذكى الفذ حتى آخر عمره دون ان يفهم ان هناك فارقا بين اخته المتسلطة واشياعها الوصوليين المتكابرين وبين سائر افراد القوات الخاصة وغيرهم ممن تعرضوا للاهانات ولم تكن لهم ، فى اوضاعهم العصيبة التى لا تطاق احيانا اية صلة بسائر آل ميلوسلافسكى وخوفانسكى وغيرهم من الوجهاء . فان تذمر هؤلاء واولئك من النظام القائم ومن سير الاحداث له اسباب مختلفة مثل اختلاف مطامح ومطالب الطرفين . ان لقوانين السلطة والصراع من اجلها اشكالا خاصة تتجلى فيها وغالبا

ما لا تسر الاخرين . وهذا ما شعر به الروس بالكامل على اختلاف مراتبهم ، من وجهاء و«وضعاء» ، فى بداية عهد بطرس الذى نعته المؤرخ الروسى المعروف م . بوكروفسكى ذات مرة بانه اقسى ابناء آل رومانوف ، كما شعروا به فى السنوات الاخيرة من حكمه .

«البعثة الكبرى»

قال بوشكين في ملحمته «بولتافا» عن بطرس الاكبر انه «فتح نافذة على اوربا» . وكان يقصد معركة بولتافا التى حددت سير حرب الشمال ونتائجها النهائية بالنسبة لروسيا ، اى وصولها الى بحر البلطيق وتوسيع صلاتها مع اوربا الغربية . كل ذلك صحيح . الا ان بطرس حاول ان يفتح هذه «النافذة» من قبل . ويمكن حساب البداية من العاب مارس ونبتون وحملتى آزوف (فقد كان هدفها هى الاخرى «فتح النافذة» والوصول الى البحار ، الى اوربا نفسها فى آخر المطاف) ، وكذلك «البعثة الكبرى» الشهيرة فى ١٦٩٧ — ١٦٩٨ . كان التحضير لها بشكل او بآخر قد بدأ من زمان فى الاحاديث مع الاصدقاء الروس والاجانب فى البداية . ويمكن الافتراض بان الكلام عنها دار مرارا فى حى العجم . الذى هو عبارة عن اوربا الغربية مصغرة على ضفة ياوزا فى ضواحى موسكو . وكان ليفورت من اكثر المتحمسين لفكرة رحلات القيصر الى البلدان الاوربية الاكثر تقدما من اجل الاطلاع عليها شخصيا لصالح روسيا . وكان بطرس يحب الخوض معه فى هذا الموضوع . والمهم هنا ليس فقط نوايا القيصر الشخصية ، مع انها لعبت دورا جوهريا . المهم هو الحاجات الموضوعية لروسيا . وكان

يدرك هذه الحقيقة الكثيرون من اسلاف بطرس ، مثل والده الكسى ومعاونيه رتيشيف واوردين–ناشوكين وماتفييف ، وكذلك فيودور شقيق بطرس واخته صوفيا والامير فاسيلى غوليتسين وغيره من ذوى السمعة والنفوذ . كانت براعم الجديد قبل بطرس تنبجس من خلال طبقات العادات والمعتقدات الروسية القديمة . فقد كان فى روسيا قبله اناس لا يعانون من التعصب القومى . فبين عامة الروس الذين يتهمون احيانا بشكل اعتباطى خاطئ بالنزعة الظلامية المحافظة كثير من المهتمين بالعادات والمنجزات الاجنبية .

ووفق النظام المتبع من زمان كان قد وضع فى مديرية العلاقات الخارجية توجيه الى السفراء تضمن بمنتهى التفصيل القواعد التى يتعين على الدبلوماسيين الروس ان يلتزموا بها اثناء المفاوضات مع الممثلين الاجانب ، وتلزمهم تلك القواعد بان يتذكروا متى وكيف يدخلون ، وينحنون تحية ويقفون او يجلسون ويخلعون القبعة او يرتدونها ويذكرون ألقابهم ومراتبهم وألقاب ومراتب المسؤولين الاجانب . وقد جرت العادة على اتباع تلك القواعد دوما ليس فى روسيا وحدها ، بل وفى البلدان الاخرى ايضا ، بما فيها بلدان اوربا الغربيـــة . اما بطرس الذى حطم التقاليد والعادات المتبعة فقد وضع توجيها خاصا به ، وهو توجيه موجز وعملى يتضمن عـــدد العسكريين — الضباط البحريين والبحارة — الذين ينبغى استئجارهم من اوربا الغربية ، وبعد ذلك تأتى قائمة الاسلحة والمواد المستخدمة فى صنع السلاح وغير ذلك من المستلزمات الى حد اعلام السفن البحرية .

وفى ٦ كانون الاول (ديسمبر) امر بطرس بان يترأس

البعثة الكبرى الجنرال الاميرال ليفورت بوصفه رجلا مهذبا مؤدبا مطلعا على العادات الاوربية ، والجنرال المفوض غولوفين رئيس مديرية العلاقات الخارجية ، وهو دبلوماسي محنك رهيف يتحلى بالحكمة وحسن المعاشرة ، واخيرا عضو مجلس الدوما فوزنيتسين ، وهو ايضا من كبار المسؤولين في مديرية العلاقات الخارجية ، ويتحلى بسعة الاطلاع والحكمة والتمرس الوظيفي . واضطلع الاول بدور الشخصية المرموقة الممثلة للبعثة ، وكان الثاني هو مدير البعثة ، والثالث معاونه الرئيسي . وكان غولوفين قد تشرف باجراء المفاوضات مع الصين وتوقيع معاهدة نرتشينسك ١٦٨٩ . وقام فوزنيتسين بعدة مهمات دبلوماسية في الخارج (الامبراطورية العثمانية والبندقية والنمسا وبولونيا) . وكان هؤلاء الزعماء الثلاثة يتحلون بقابليات وطباع مختلفة فيكملون بعضهم بعضا . وقال عنهم احد الدبلوماسيين البولونيين : «ان هؤلاء السفراء اذكياء للغاية ومطلعون جيدا على الاحوال في اوربا ويتميزون بمنتهى التهذيب» .

وبمرسوم صدر في ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) من العام نفسه الغى بطرس لقب القيصر المستفيض الطويل وغير المفهوم تماما والمستخدم في الوثائق الدبلوماسية . فهو يتضمن عرضا تفصيليا للمعتقدات المسيحية ومفاهيم الخالق وسلطته وجبروته . وبدلا من ذاك اللقب صاروا يستخدمون صيغة موجزة : «الحاكم باسم الله» .

وفي ٢ آذار (مارس) ١٦٩٧ غادرت موسكو المجموعة الاولى من البعثة ، وبعد اسبوع غادرتها المجموعة الاساسية ، وهي تضم الحاشية والخدم (الاطباء والقسس والطباخين والخدم والمهرجين الاقزام وغيرهم) ويتجاوز عددهم مائتين وخمسين

شخصا ، منهم ٣٥ طالبا ، وبين طلبة البعثة بطرس ميخائيلوف العريف فى فوج بريوبراجينسكى ، وهو القيصر بطرس الاكبر نفسه ، حيث قرر السفر مع البعثة خفية . وكما هو حال الطلبة الآخرين كان عليه ان يدرس شؤون بناء السفن والعلوم البحرية فى الغرب . وكان فى الواقع يدير البعثة من البداية حتى النهاية ويوجه كل اعمالها .

ولاول مرة فى التاريخ توجه قيصر روسيا الى بلدان اجنبية . والهدف الرسمي من البعثة ، كما قال الموظف فى مديرية العلاقات الخارجية اوكراينتسيف ، هو «تأكيد الصداقة القديمة والتمسك بالقضايا المشتركة للمسيحية كلها واضعاف اعداء الصليب المقدس والسلطان العثمانى وخان القرم وجميع جحافل الكفرة» ، اى تأكيد التحالف المناوئ للاستانة والقرم التابعة لها . وفى اواخر كانون الثانى (يناير) ١٦٩٦ تمكن كوزما نيفيمونوف المبعوث الروسى الذى اجرى مباحثات طويلة صعبة فى فينا والبندقية من توقيع معاهدة التحالف الدفاعى والهجومى لمدة ثلاث سنوات بين روسيا والامبراطورية الرومانية المقدسة والبندقية ضد الباب العالى . وفى بولونيا توفى الملك يان سوبيسكى فى صيف العام ذاته وبدأ عهد «غياب الملك» وما يلازمه عادة من صراع بين الجماعات والتكتلات ، ومن فوضى واضطراب . ولذا لم يكن مقررا زيارة بولونيا لتوقيع معاهدة مماثلة . ولم يكن بالامكان طبعا استمالة فرنسا ، حليفة الامبراطورية العثمانية آنذاك ، الى مقاومة الباب العالى . وابدت بريطانيا وهولندة اهتماما بالتجارة مع الاستانة . زد على ذلك ان هذه البلدان الثلاثة كانت تستعد للحرب من اجل التركة الاسبانية . ذلك هو الموقف فى ميدان السياسة

الخارجية ، وهو يوضح السبب الذى يجعل الاهداف الدبلوماسية ثانوية فى نشاط بعثة بطرس الكبرى . وقال شافيروف الدبلوماسى المعروف فى «تأملاته» فى اسباب حرب الشمال (وكان بطرس قد قرأ «تأملاته» واضاف عليها) ـــ قال عن تلك الاهداف بوضوح لا لبس فيه : الاطلاع على الحياة السياسية فى اوربا وبناء الانظمة العسكرية والسياسية فى روسيا على النمط الاوربــى وحث رعايا بطرس ، بقدوته الشخصية ، على زيارة البلدان الاجنبية لدراسة اللغات والاخلاق الطيبة ومختلف المهارات والصنائع والفن العسكرى . ويبدو ان القيصر انطلق من القاعدة المعروفة : الرؤية مرة افضل من السماع مائة مرة .

وانطلقت البعثة من موسكو الى ريغا ممتدة عدة كيلومترات . الزحافات تحمل احتياطى الاطعمة والاشربة وكثيرا من النقود والفراء الثمينة ، وهذه الاخيرة هدايا «للمسؤولين» (كانت «طرق التعامل» هذه تستخدم على نطاق واسع فى الدبلوماسية العالمية آنذاك) . وكان القيصر ينام فى الزحافة وهى سائرة ، او يسبق القافلة الضخمة . كانت تحدوه الآمال والمشاريع المنشودة . وقد اخذ معه ختما من الشمع كتب عليه «انا طالب ابحث عن معلمين» . ولم يكن القيصر يخشى القول صراحة بانه شخصيا والبلد الذى يتزعمه قد تخلفا كثيرا عن البلدان المتقدمة فى اوربا ويريدان ان يتعلما منها ويلحقا بها . ولاسباب تاريخية خطيرة (وبالدرجة الاولى النير المغولى الذى استمر حوالى قرنين ونصف) لم تتمكن روسيا من تحقيق منجزات كالتى حققتها اوربا الغربية فى الميادين الاقتصادى والسياسى والثقافى . كان الانتاج الرأسمالى يتطور بسرعة هناك . وقامت ثورتان برجوازيتان فى هولندة وبريطانيا . واسفر عصر

النهضة عن كوكبة من العمالقة والعباقرة فى الادب والفن . وكان يعمل العلماء الفيزياويون والفلاسفة العظام ، وازدهر الفكر السياسى . اما فى روسيا فلم يكن فيها شيء من هذا القبيل ، مع ان النهضة الثقافية بدأت من اواخر القرن الرابع عشر ، من عهد معركة كوليكوفو ، واستمرت فى القرن الخامس عشر (لوحات فيوفان غريك واندرى روبليف ، ولوحات ديونيسى وغيره بعد مائة عام ، والسجلات الضخمة والقصص والحكايات وسير القديسين والمعابد والاديرة والفكر السياسى الذى انتعش فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وهلمجرا) . الا ان ازدهارها كان سيأتى فى القرن الثامن عشر ، وخصوصا فى القرن التاسع عشر .

وفى بداية عهد بطرس وقبله بقليل ولدت فى روسيا المانوفاتورات ، وارتسمت بعض التطورات فى الميدان الثقافى (تأسيس الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية فى عهد القيصر فيودور الكسييفيتش ، والميل الى الكتب واللغات الاجنبية فى الاوساط العليا من المجتمع) لكن تلك كانت هى الخطوات الخجولة الاولى ، والمسافة حتى اوربا الغربية هائلة . . .

وفى أواخر آذار (مارس) اجتازت قافلة البعثة حدود الدولة ، ودخل الروس الممتلكات السويدية فى البلطيق والتى اخفق والد بطرس القيصر الكسى ميخائيلوفيتش فى تثبيت اقدام الروس فيها . وبدأ تحرك الجليد وذوبانه فى نهر دفينا الغربى ، واضطر بطرس ومرافقوه الى الانتظار ١١ يوما ليدخلوا ريغا . واستقبل السويديون هناك البعثة ببرود وارتياب رغم اطلاق التحية المدفعية اثناء وصولها ومغادرتها . ومنعوا القيصر ومرافقيه حتى من تفقد القلعة ، اذ هددهم الخفراء بالسلاح عندما

اقتربوا من اسوارها . ودهش الروس لان تجار ريغا المتزنين المحترمين حسب الظاهر ابدوا طمعا كبيرا فى المال عندما واجه الروس صعوبات وعرضوا زحافاتهم للبيع (فقد بدأ الربيع) وطلبوا شراء عربات ، فقد خدعوهم فى هذه الصفقة . ورغب بطرس فى الذهاب الى المرفأ الذى تقف فيه سفن هولندية ، لكن السويديين لم يسمحوا له بالذهاب الى هناك . وكتب القيصر الى موسكو صادقا «عشنا هنا كالعبيد ولم نشبع الا من النظر . والتجار هنا فى احسن ثياب وهم حقانيون جدا حسب الظاهر ، لكنهم عندما بعنا لهم زحافاتنا اخذوا يتشاتمون مع حوذيتنا ، ويبيعون علينا باغلى الاثمان» .

ترك القيصر ريغا التى لم تستقبله بحسن ضيافة ، وقد حزر اهلها بسره . وفى ٨ نيسان (ابريل) وصل الى ميتاوا عاصمة دوقية كورلانديا ، وهى دوقية تابعة الى الدولة البولونية . واستقبلوه هنا بحفاوة وترحاب . فظل فى ضيافة الدوق فريدريك–كازيمير حتى ٢ ايار (مايو) . وتقابل الدوق المهذب المضياف مع بطرس اثناء المراسيم الرسمية واثناء اللقاءات الشخصية . وبالمناسبة فلم تجر بينهما مباحثات سياسية جدية .

وفى ٢ آيار استقل بطرس السفينة «القديس غيورغى» الى كينيغسبيرغ ، ورأى لاول مرة بحر البلطيق الذى شغل باله بعد عدة سنين . وبعد خمسة ايام وصل طلبة البعثة وبضمنهم القيصر الى كينيغسبيرغ . اما باقى اعضائها فقد ساروا برا ولحقوا بالقيصر بعد عشرة ايام . وبعد يومين من وصول القيصر الروسى التقاه فريدريك الثالث ، حاكم براندينبورغ وبروسيا الذى له مصلحة فى التقارب مع روسيا ، وابدى منتهى الحفاوة به . فقد توالت الولائم المهيبة والسهرات وحفلات التسلية .

لكن القيصر لم ينس امرا آخر . فقد استعان بكبير اخصائيي براندينبورغ في المدفعية فون شتيرنفيلد فتعلم على يده ليزيد من معارفه في هذا الميدان ، وادهشه بقابلياته وحصل منه على شهادة تفيد بان القيصر العريف مدفعي ماهر .

وجرت مباحثات في الوقت ذاته . كان فريدريك الثالث ، وهو من سلالة الهوهنسوليرن التي حكمت براندينبورغ من عام ١٤١٥ ، يسعى ، شأن اسلافه ، من وراء الدبلوماسية الماهرة وغير المبدئية الى توسيع ممتلكاته وتعزيز دولته التي انضمت اليها بروسيا ، بعد ان كانت تابعة لبولونيا ، في اعقاب الحرب الليفونية (١٥٥٨ — ١٥٨٣) التي خسرتها روسيا . وكان حاكم براندينبورغ بحاجة الى تأييد روسيا لسياسته التوسعية ، ولذا حاول ان يترك انطباعا حسنا عند بطرس من خلال التحية المدفعية والالعاب النارية والولائم الضخمة والمعانقة والود . وتقبل بطرس ومبعوثوه حسن الضيافة وشكروا الحاكم على ارسال المهندسين والضباط الذين كانت روسيا بأمس الحاجة اليهم في الحرب ضد العثمانيين أثناء حملتي آزوف . لكن المبعوثين رفضوا تقبيل يد الحاكم ، اى رفضوا تقديم آيات الاحترام التي تقدم للملوك . واكد الطرفان على «الصداقة القديمة» بين الدولتين وعلى هدفهما المشترك — الكفاح ضد العثمانيين (وكان فريدريك الثالث يستخدم هذا الكفاح لاضعاف جارته بولونيا) .

وفي ٢٤ آيار (مايو) استلم المبعوثون الروس مسودة معاهدة التحالف . لم يعترضوا على اربع مواد منها ، وهي المواد الخاصة بتأكيد الصداقة الابدية وتسليم العصاة ووصول الروس للدراسة وحق تجار براندينبورغ في السفر من خلال روسيا الى

بلدان الشرق لبيع الكهرمان . لكن المواد الثلاث المتبقية قوبلت بموقف مغاير تماما . فقد تناولت المادة الثانية من المسودة عقد تحالف دفاعي بين الدولتين وتبادل المساعدة اثناء الاعتداء على كل منهما . وتناولت المادة الثالثة الضمانات الروسية لسلطة حاكم براندينبورغ في بروسيا . فالموافقة على هاتين الصيغتين تدفع روسيا الى الصدام مع بولونيا والسويد . ونصت المادة السابعة على استقبال مبعوثى فريدريك الثالث على مستوى مبعوثى الملوك (شأن مبعوثى النمسا وفرنسا والسويد وغيرها) ، الامر الذى يمكن ان يثير سخط فينا عاصمة الامبراطورية الرومانية المقدسة التى تضم براندينبورغ وبروسيا . وكان هذا الحاكم ينافس فى الواقع حليفه الاعلى — الامبراطور . وهذا امر لا يمكن ان يحظى طبعا بتأييد بطرس ودبلوماسييه الذين ينطلقون من كون الامبراطورية المذكورة هى حليفة روسيا فى الحرب ضد الاستانة . ولذا رفض الروس هذه المواد الثلاث . ومع ذلك اتفق بطرس مع حاكم براندينبورغ اثناء المباحثات فى ٩ حزيران (يونيو) على اتفاقية التحالف والتعاون ضد الخصوم ، ولكن بشكل غير تحريرى . ووثق كلا الحاكمين هذا الاتفاق الشفوى بان تصافحا واقسما وتبادلا القبل . وانطلق القيصر من ان الضمانة الوحيدة للالتزام بالاتفاقيات هى ضمير الحاكمين ، ولا احد ، سوى الخالق ، يستطيع ان يحكم على تصرفاتهما ، بما فيها توقيع المعاهدات والحنث بها او فسخها . وقد اعرب بطرس الاكبر عن رأيه هذا الى فريدريك الثالث .

وعندما اقدم بطرس على هذه الخطوة كان يحس بالريبة والتردد ، ومن تلك الفترة ، على ما يبدو ، مهد التربة لتغيير

وجهة السياسة الخارجية فى روسيا وتوجيه الاهتمام والجهود من الجنوب نحو الشمال الغربـى . تكرم بطرس على حاكم براندينبورغ بياقوتة ضخمة وغادر فى ٢٢ حزيران (يــــونيو) الى ميناء بيلاو حيث يتعين عليه ان يبحر الى هولندة مشغول البال بتلك الافكار والمخططات . لكنه تأخر فى الرحيل . ففى الجارة بولونيا ، وهى ثانى دولة فى اوربا بعد روسيا من حيث المساحة ، يجرى منذ عام كامل الصراع على عرش الملك . وتفوقت فى هذا الصراع مجموعة الاقطاعيين والماليين والموالين لفرنسا ، فان مرشحها الامير دى كونتى كان يمكن ان يغدو ملكا لبولونيا . ويعنى ذلك ان بولونيا ، الحليفة الحالية لروسيا فى الرابطة المناهضة للاستانة ، ستخرج من هذه الرابطة وتحذو حذو فرنسا حليفة الباب العالى . وقد اثار سير الاحداث هذا قلق روسيا ، وكذلك النمسا . فقد ارسل الامبراطور ليوبولد الاول ومستشاره الدوق كينسكى الى بولونيا مبعوثا مع مبلغ كبير من النقود لشراء الذمم ، ونصحا القيصر الروسى ان يفعل الشىء ذاته ويستخدم الوسيلة المجربة : «فالبولونيون يحبون فراء السمور المسكوبية اكثر من النقود» .

وتصرف بطرس بمزيد من الحزم وبعث الى حدود بولونيا قوات الامير روموادانوفسكى (وكان دى كونتى قد اعتمد هو الآخر على قوات بلاده) ودعم ترشيح حاكم سكسونيا فريدريك-اغسطس الاول ملكا لبولونيا . كما بعث القيصر رسالة الى مجلس السيم فى بولونيا اكد فيها ان انتخاب دى كونتى يؤدى الى الاخلال بالتزاماتها كحليف لروسيا والنمسا والبندقية : «ولذا فنحن اذ نكن لدولتكم مشاعر الصداقة الدائمة لا نرغب فى رؤية مثل هذا الملك الموالى لفرنسا وللاستانة فى بولونيا ،

بل نتمنى ان تختاروا لانفسكم ملكا من اى قوم على الا يكون من الجهة المعادية ، بل يكون فى صداقة طيبة وتحالف وثيق معنا ومع الامبراطور الرومانى ضد خصوم الصليب المقدس المشتركين» .

وتأزم الموقف فى بولونيا . فقد التزم كبير الكرادلة جانب دى كونتى ، وهدد انصاره المقيم الروسى نيكيتين بالقتل ، كما هدد قادتهم بمحاربة روسيا : «حالما يأتى الامير ستتقدم لاحتلال سمولينسك» . الا ان وصول رسالة بطرس الاولى والثانية ونشرهما قد اثر على امزجة الوجهاء البولونيين ، وتفوقت كتلتهم الموالية لروسيا ، وانتخب اغسطس ملكا ، فوصل الى بولونيا مع قوات سكسونية واعتنق الكاثوليكية . ووعد الملك الجديد القيصر بطرس الذى هنأه بانتخابه بان ينفذ التزامات التحالف ازاء روسيا وسائر اعضاء الحلف المناهض للاستانة .

وهدأ روع بطرس من تسوية الوضع فى بولونيا ، فشد الرحال الى هولندة بحرا . لكنه اضطر الى قطع رحلته البحرية ، اذ ظهر قراصنة استأجرهم الفرنسيون . فنزل القيصر فى المانيا ليواصل رحلته برا . سارت البعثة بسرعة ، لكنها توقفت فى قرية كوبنبروغه فى ضواحى هانوفر ، لان صوفيا—شارلوتا عقيلة حاكم براندينبورغ وبروسيا رغبت فى رؤية قيصر موسكو ومرافقيه «الهمج» ولم تتمكن من رؤيتهم عندما كانوا فى كينيغسبيرغ ، لانها كانت فى برلين . ولم يعرج بطرس على عاصمة براندينبورغ . ولذا فان هذه المرأة المتعلمة ، تلميذة ليبنتز الشهير والتى اقامت عدة سنوات فى فرساى قد اسرعت الى قصر امها صوفيا عقيلة حاكم هانوفر . وفى هذا القصر ، غير بعيد عن كوبنبروغه ، التقت المرأتان الرفيعتا المنزلة ببطرس اثناء العشاء . وكانوا قد صرفوا اكثر من ساعة لاقناعه بقبول

هذا اللقاء . واستمرت المأدبة والاحاديث اكثر من اربع ساعات .

ودهشت المرأتان لعدم تكلف القيصر الروسى وصراحته ولاحاديثه عن نفسه وعن عاداته واهتماماته . وقد انهالتا عليه بوابل من الاسئلة والاستفسارات . وقالت الابنة : «جلس وراء الطاولة بينى وبين امى ، وكنا نتجاذب معه اطـــراف الحديث . وكان يجيب بنفسه تارة وبمساعدة اثنين مــن المترجمين تارة اخرى ، واؤكد لكم انه كان يتكلم فى صلب الموضوع فى كل الامور التى تطرق اليها الحديث . وطرحت عليه ماما بحيوية اسئلة كثيرة اجاب عليها بنفس الحيوية ، وقد ادهشنى انه لم يتعب من الحديث لان هذه الاحاديث ، كما يقال ، ليست من عادات اهل بلاده . اما تعابير وجهه فكنت اتصورها اسوأ مما رأيتها ، وهو لا يستطيع ان يسيطر على بعضها . وواضح كذلك انهم لم يعودوه على تناول الطعام بعناية (فالقيصر لم يكن يجيد استخدام فوطة الطعام — **ملاحظة المؤلف**) ، لكن ما اعجبنى فيه هو صراحته وعدم تكلفه ، فقد تصرف وكأنه فى بيته» .

وكررت الام ما قالته ابنتها واضافت : «القيصر طويل القامة جدا ، ووجهه جميل للغاية ، وقامته معتدلة تماما . ويتحلى بذهن ثاقب ، واحكامه ومحاججاته سريعة وصائبة ، ولكن الى جانب الخصال الممتازة التى منحته اياه الطبيعة ، حبذا لو كان ذوقه اقل خشونة . . . وقد شعرنا بارتياح كبير اثناء التحدث معه . فهو انسان غير عادى اطلاقا . ومن المستحيل وصفه بل وحتى اخذ فكرة عنه غيابيا . . . واخبرنا بانه يعمل شخصيا فى بناء السفن وعرض علينا يديه الجاسئتين بسبب العمل وجعلنا نلمسهما لنتأكد من ذلك» . وكتبت

فى رسالة اخرى تقول : «هذا القيصر رجل طيب للغاية وشرير جدا فى الوقت ذاته ، وطباعه نسخة طبق الاصل من طباع بلاده . ولو كان قد حصل على تربية افضل لكان انسانا رائعا لانه يتحلى بكثير من الخصال وبذكاء طبيعى لا نهاية له» .

لقد ترك بطرس فى الاوربيين المتعلمين انطباعا مزدوجا ، لكنه على العموم انطباع جيد . وفى الطريق عبر المانيا كان يتراسل مع موسكو . فقد كتب ، مثلا ، فى رسائله الى أ . فينيوس الذى يترأس مديرية سيبيريا بالاضافة الى مديريات اخرى عن استئجار اخصائيى التعدين من اوربا . ففى الاورال اكتشفوا قبل رحيل القيصر فلزات حديد جيدة ، وكان القيصر مشغول البال ببناء الافران وصهر الفلزات وصب المدافع وغير ذلك . وكتب بطرس الى فينيوس يقول : «حالما نصل الى هولندة نتخذ الاجراءات لاستخدام الاخصائيين الذين نحن بحاجة اليهم» .

كان بطرس يريد الوصول الى هولندة باسرع ما يمكن . فامتنع عن لقاء آخر مع عقيلة وابنة حاكم هانوفر ، ولم يخجل من الاعتراف بانه لا يحب الموسيقى والصيد ويفضل بناء السفن . وهناك ، فى هولندة ، كانت تنتظره الاعمال فى احواض بناء السفن واللقاءات مع الاخصائيين الذين يعرفهم منذ ان كانوا فى موسكو . زد على ذلك ان اللغة الوحيدة التى يعرفها بطرس على اية حال هى الهولندية .

هولندة بلد ذو صناعة متطورة ، وهى دولة بحرية واستعمارية وتجارية عظيمة . وفيها صناعات مانوفاتورية واسطول تجارى هائل (١٦ الف سفينة ـــ اربعة اخماس الاسطول التجارى العالمى) وليس فيها من السكان سوى مليونين . ولكنها كانت

اغنى بلد فى اوربا . ففى ذلك الزمان ظهرت فيها البنوك البرجوازية الطراز وبورصات العملة وشركات التأمين . وكان غليوم او ولهلم الثالث الاورانى حاكم هولندة فى الوقت ذاته ملكا لبريطانيا (من عام ١٦٨٨) . وكان رئيسا لائتلافى الدول الاوربية (رابطة اوغسبورغ وحلف فينا الكبير) المناهضين لتوسع فرنسا ولاطماع «ملك الشمس» لويس الرابع عشر . وواجهت هولندة الصغيرة بنجاح اقوى جيش فى اوربا هو الجيش الفرنسى بقيادة تورين وكوندى .

فى مدينة ريسويك الهولندية ، قريبا من لاهاى ، اجتمع دبلوماسيو هولندة وحلفاؤها فى مفاوضات الصلح مع ممثلى فرنسا . وكان بطرس مع ١٨ طالبا من طلبة البعثة يقترب من هولندة فى تلك الفترة عن طريق الراين وقنواته : وفى ٧ آب (اغسطس) ١٦٩٧ وصلوا الى امستردام . ولم تكن البعثة قد وصلت بعد . فترك بطرس ١٢ شخصا فى المدينة واسرع مع باقى الطلبة الى البحر . وفى اليوم التالى وصل الى ساردام ، وهى بلدة صغيرة على ساحل البحر . وهنا التقى بحداد يعرفه ممن عملوا فى روسيا ، ودهش الحداد عندما رأى القيصر الروسى . وحذره بطرس بانه وصل خفية ، ونزل مع رفاقه فى منزل الحداد الصغير . وفى الحال ارتدى القيصر الثياب المحلية واشتغل اجيرا فى حوض بناء السفن . اقتنى الادوات اللازمة وحمل فأسه وبدأ يتعلم مهارات بناء السفن . وكما هو شأن سائر الصناع ارتدى قمصلة حمراء من البازة وسروالا قطنيا وراح يعمل بالفأس بمهارة . وكان يقود اليخت بنفس المهارة . ويقول شاهد عيان هولندى : «كان فى كل مكان يبدى حب استطلاع غير معتاد وغالبا ما يسأل عن امور تفوق

مستوى معارف الذين يسأل منهم . كان حاد الملاحظة يتمتع بموهبة نادرة للفهم ، كما يتمتع بنفس القدر بذاكرة فائقة . كان الكثيرون يدهشون لمهارته فى العمل ، فهو يتفوق احيانا حتى على أكثر العاملين حنكة . ويقال انه زار معملا للورق وتفقد كل ما يثير اهتمامه ثم اخذ قالبا من يد احد الاسطوات ، كان هذا الاخير يغترف به معجون الورق ، وصب ورقة رائعة لا يستطيع احد ان يصب افضل منها» .

الا ان المشاكل بدأت . فسرعان ما عرف الجميع ان القيصر الروسى يعمل فى حوض بناء السفن ، وصارت حشود الفضوليين تضايقه . وجاء للتفرج عليه ليس اهالى ساردام فقط ، بل وكثير من الاشخاص الذين وصلوا خصيصا من مدن اخرى . ثم ان بطرس فهم رأسا ان ساردام ليست المركز الرئيسى لبناء السفن كما أكد له الهولنديون فى موسكو . فهنا تبنى فقط سفن للتجارة وقوارب صغيرة ، اما السفن الكبيرة فتبنى فى امستردام . ولذا رغب فى الرحيل اليها .

وفى تلك الاثناء وصلت البعثة الكبرى الى هولندة . وفى ١٦ آب (اغسطس) استقبلت رسميا في امستردام . وكان بين الحاشية بطرس الذى وصل من ساردام فى قفطان وقميص احمر وقبعة لبادية . واستقبلت البعثة بتحية مدفعية ، ووقفت القوات وحشود المتفرجين على طول طريقها . وخصص لها افضل فندق فى المدينة .

وفى اليوم ذاته تعرف بطرس على نيكولاى فيتزين محافظ امستردام ، وهو احد مدراء شركة الهند الشرقية . وكان قد زار روسيا سابقا وتعلم اللغة الروسية ، وله مؤلفات عن روسيا ودراسات فى بناء السفن . وغدا هذا الادارى والعالم الكبير

بمثابة الوصى على البعثة الكبرى . فقد هيأ لبطرس وسائر الطلبة عملا فى حوض بناء السفن التابع لشركة الهند الشرقية ، وقرر مدراء الشركة وضع اساس بناء سفينة جديدة «لتتمكن الشخصية البارزة التى وصلت الى هنا خفية» من دراسة جميع مراحل بنائها وتجهيزها . وعرف بطرس بذلك فى المأدبة التى اقيمت تكريما للبعثة . حل الظلام ، لكن الليل لم يمنع القيصر من السفر فورا الى ساردام ليجلب حاجياته وادواته وينقلها الى حوض بناء السفن فى امستردام ، ولم يفلح الآخرون فى اقناعه بالعدول عن ذلك . ودعت الحاجة ليلا الى طلب المفاتيح من خفر الميناء وانزال الجسر المفتوح وايقاظ اهل المنزل الذى كان يقيم فيه القيصر . وفى ساعة مبكرة من صباح ٢٠ آب (اغسطس) عاد من ساردام فى قارب شراعى صغير وتوجه فى الحال الى حوض الشركة ليباشر عمله . واقام هنا فى منزل اسطة الحبال مع عشرة من الطلبة الروس .

وفى اليوم التالى ، يوم الاحد ، اقامت السلطات استعراضا حربيا بحريا تكريما للبعثة . وشاركت فيه ٤٠ سفينة حربية . وانساق بطرس وراء الاحداث اثناء القتال حتى اخذ على عاتقه قيادة يخت حربى .

ووجه جل اهتمامه لواجبات نجار السفن . وفى ٩ ايلول (سبتمبر) ارسى القيصر والطلبة اساس بناء فرقاطة ليبنوها بانفسهم بالكامل تحت اشراف الاسطى الهولندى بول . كان ذلك العمل صعبا جدا ، لكن بطرس لم يلتفت الى الصعوبات ، فهو متواضع فى اللباس والطعام ولا يهتم بوسائل الراحة . ويمكن قول الشيء ذاته عن مينشيكوف وغولوفكين والآخرين . الا ان باقى الطلبة لم يكونوا كهؤلاء ، فالبعض منهم لم

يتحملوا توتر العمل وسرعته وحاولوا ان يعودوا الى الوطن ولاموا القيصر لانه يعمل بنفسه فى حوض بناء السفن . وبلغ بطرس هذا الخبر فأمر دون تردد بتقييدهم بالسلاسل لاعدامهم فيما بعد بقطع رقابهم . الا ان محافظ امستردام تدخل واوضح للقيصر الروسى ان اعدام المرء فى هذا البلد بدون محاكمة غير جائز ، ولذا رأف بطرس بالطلبة العاصين ، وبدلا من الاعدام امر بنفيهم الى المستعمرات الهولندية .

ظل بطرس يعمل فى حوض بناء السفن ويوجه اعمال البعثة الكبرى فى الوقت ذاته ، ويتابع نشاط مؤتمر ريسويك والاحداث فى بولونيا ويطالب معاونيه بانباء تلك الاحداث . ويقول المقيم النمساوى بلير : «ان القيصر يوجه كل شىء على هواه» . وفى الاول من ايلول (سبتمبر) التقى مع ولهلم . كان هذا السياسى الذكى القوى البعيد النظر قد اقترح منذ دخول البعثة الكبرى الى هولندة تنظيم لقاء مع قيصر روسيا دون ان يعلم بان القيصر موجود فى هولندة يعمل بالفأس فى حوض بناء السفن . تباحثا وجها لوجه دون شـــهـــود . ولا احد يعلم بمضمون الحديث الذى دار بينهما . واهم ما فى الامر ان كلا الحاكمين تعرفا على بعضهما البعض شخصيا . فقد رأى بطرس اخيرا ذلك الحاكم الذى يحترمه اشد الاحترام ، ويعتبره بطلا استنادا الى احاديث الاجانب فى حى العجم فى موسكو . اما الحاكم الهولندى المحنك والبارد الاعصاب فقد تطلع باهتمام ، فى اغلب الظن ، الى الحاكم الشاب المتحمس ، قيصر موسكو «البربرية» .

وكان بطرس ودبلوماسيوه يتلقون التقارير من نيكيتين فى بولونيا ، حيث كان الصراع لا يزال مستمرا بين انصار اغسطس

ودى كونتى ، ويتراسلون مع ملكى الدانمرك والسويد اللذين ايدا ترشيح اغسطس ملكا على بولونيا . وفى هولندة تصدر جرائد منتظمة يشتريها الروس ويقرأونها بحذافيرها .

واقترن العمل فى حوض بناء السفن والمراسلة الدبلوماسية بزيارة المتاحف والمسرح وحديقة النبات ومختبر التشريح والمانوفاتورات وهلمجرا . وتعاقد الروس مع اخصائيين فى مختلف الميادين وبعثوهم الى روسيا .

وفى ١٧ ايلول (سبتمبر) جرى الاحتفال بدخول البعثة الكبرى الى لاهاى ، حيث تتواجد هيئات السلطة العليا ، بما فيها الهيئات العامة للجمهورية ونوابها المنتخبون . ولم يكن المبعوثون الروس يفهمون تماما خصائص النظام الجمهورى ووظائف النواب . وهذا واضح على الاقل من كون المبعوثين الكبار قد طالبوا ، وفقا للاصول الدبلوماسية الموسكوبية ، بان يستقبلهم النواب ، اثناء المقابلة الرسمية ، وقوفا عند ابواب العربات . واوضح لهم فيتزين ان النواب ليسوا خدما للملك . . . (فهم مستقلون وهم اصحاب السلطة العليا) .

وفى ٢٥ ايلول (سبتمبر) جرت المقابلة الرسمية . والقى المبعوثون الكبار خطبا وسلموا الهدايا ـــ فراء السمور الثمينة . ورد رئيس الهيئات العامة بكلمة جوابية ووقف بطرس بين حاشية البعثة يراقب المراسيم . وفى الايام التالية ، بعد مراسيم افتتاح الممثلية او السفارة ، زاره رسميا سفراء بريطانيا وبراندينبورغ والدانمرك والسويد وبلدان اخرى . ولم يحضر السفير الفرنسى ، وهذا مفهوم ، لان السفارة الروسية تجاهلته كممثل لبلد معاد لروسيا وصديق للعثمانيين .

وكانت نهاية ايلول (سبتمبر) ومنتصف تشرين الاول (اكتوبر)

فترة اللقاءات والمباحثات بين المبعوثين الروس واللجنة الخاصة التى عينتها الهيئات العامة . وتابع بطرس باهتمام سير الاعمال وحرر التوجيهات اللازمة . وطرح الجانب الروسى مسألة المساعدة الهولندية لروسيا فى حربها ضد الاستانة بالعتاد وذخيرة السفن وبالاموال لبناء الاسطول . وعرض على الهولنديين حق المتاجرة مع بلاد فارس وبلدان الشرق الاخرى من خلال روسيا . لكن المندوبين الهولنديين رفضوا ذلك كله . فليس لهولندة مصلحة كبيرة فى المتاجرة مع روسيا ، فالتجارة معها تشكل اقل من ١ ٪ من التداول التجارى الخارجى العام للبلاد . وبعد توقيع الصلح مع فرنسا لم تعد هولندة راغبة فى تأزيم العلاقات معها بتقديم المساعدة الى بلد يحارب العثمانيين . زد على ذلك ان السلطات المحلية مهتمة بحالة التجارة فى البحر الابيض المتوسط ، ويمكن للعثمانيين ان يعيقوا تلك التجارة .

بهذه الصورة دفعت روسيا ثمن تخلفها وعدم وجود اسطول وتجارة متطورة على نطاق واسع . اما اقوال المبعوثين الروس بشأن ضرورة توحيد جهود الدول المسيحية فى مكافحة الباب العالى الاسلامى فقد بدت فى انظار الساسة المحنكين النفعيين فى اوربا الغربية ساذجة تماما . فان اختلاف المعتقدات الدينية لم يمنع نشوء مختلف الائتلافات والاتحادات والكيانات السياسية الخارجية مثل الائتلاف المعادى لفرنسا الكاثوليكية والذى دخلته الدول البروتستانتية (بريطانيا وهولندة والسويد) بل وكذلك الدول الكاثوليكية (النمسا واسبانيا وبافاريا) وتحالف فرنسا المسيحية مع تركيا الاسلامية .

وبعد المقابلة التوديعية وتقديم الهدايا من الحلى الذهبية

(وكان ثمنها يطابق تماما قيمة الهدايا التى قدمها الجانب الروسى فى المقابلة الاولى) انتهت المهمة الرسمية للبعثة الكبرى فى هولندة . وانفقت الهيئات المسؤولة الهولندية على البعثة مبلغا كبيرا هو ١٠٠ الف غولدين ، اى اكثر مما انفقته على اية بعثة اخرى . ودعت الحاجة الى توضيح سبب هذا السخاء للمندوبين الاجانب : ففى البعثة الروسية ثلاثة نواب عن القيصر ، وفى الحاشية ربما كان القيصر نفسه موجودا . . .

ظل المبعوثون الروس فى امستردام يمارسون اعمالهم ويمرحون وكأنما هم فى موسكو . ومع ان الهيئات المسؤولة لم تعد تنفق عليهم فان المبانى التى شغلوها ظلت تحت تصرفهم . وكانوا احيانا يتصرفون بمنتهى الحرية ، لكنهم لم يقترفوا خطايا خطيرة ، فسارت الامور على ما يرام . وفى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) قابل بطرس الاكبر ولهلم من جديد . ففى نهاية مكوث بطرس فى هولندة دعى لحضور «تسلية» فريدة هى اعدام مجرمين . واعدت مدرجات خاصة بهذه المناسبة .

وفى اثناء ذلك لم يعد العمل فى حوض بناء السفن التابع لشركة الهند الشرقية يرضى بطرس . فبعد ان اتقن المهارات العملية فى هذا المجال صار يحلم بالتضلع فى نظرية بناء السفن . الا ان الاسطوات الهولنديين الذين يطلب العون منهم لا يستطيعون ان يعينوه بهذا الخصوص . وتشكى القيصر من ذلك ذات مرة فى منزل التاجر يان تيسينغ وكان فى ضيافته . وجرى بين صاحب البيت وضيفه حديث كالآتى :

— ما الذى يحزنك ؟

— يؤسفنى جدا انى قطعت طريقا طويلا ولم احصل على النتيجة المنشودة .

وحضر الحديث رجل انجليزى عقب قائلا :

— فى بريطانيا هذه الامور متطورة جدا ، ويمكن تعلمها باقصر وقت .

فانتعش بطرس واستعاد حماسه وتكلم مع ولهلم الثالث بهذا الخصوص فدعاه هذا الاخير الى بريطانيا .

وفى ٢٣ تشرين الثانى (نوفمبر) وصلت من لندن على عنوان ليفورت رسالة من الاميرال اللورد كارمارتن افاد فيها ان ملك بريطانيا اهدى لقيصر روسيا يخت «ترانسبورت رويال» الذى فرغوا من بنائه توا حسب تصميم كارمارتن نفسه . وقدم اللورد كابتنا لقيادة اليخت . وارتاح بطرس اشد الارتياح للهدية الثمينة واراد ان يراها بأسرع وقت . وبعث الميجر ادام فيدى الى لندن ليبلغ الملك بانتصار روسيا على الاتراك فى معركة تاوان على الدنيبر . ولمح الملك الى ان موقفه من بطرس لا يزال طيبا رغم فشل المباحثات فى هولندة .

وفى اواخر العام المذكور بذل افراد البعثة الكبرى قصارى الجهود للتعاقد مع اخصائيى الاسطول وصنع السلاح والتطبيب والخ لارسالهم للخدمة فى روسيا . وتمكنوا من استئجار اكثر من ٨٠٠ شخص من الهولنديين والانجليز والالمان واهالى البندقية واليونانيين من ضباط وبحارة ومهندسين واطباء وغيرهم . وبعثوا الى روسيا عشرات الآلاف من البنادق الجديدة وكميات من المواد العسكرية والاجهزة البحرية . وظل بطرس ومبعوثوه مهتمين بالوضع فى بولونيا . فلا يزال قائما هناك الصراع بين اغسطس ودى كونتى . وكان هذا الاخير يعتمد على قوات من ١١ الفا . وطلب السفير البولونى بوزى ، وهو سكسونى الاصل ، من بطرس ان يقيم استعراضا عسكريا ، والح

في الطلب حتى اشار بطرس في آخر المطاف على روموداتوفسكي بان ينجد ملك بولونيا ، اذا طلب النجدة ، في الصراع ضد دي كونتي وضد المستشار اللتواني سابيغا وعصبة الوجهاء البولونيين الموالين لفرنسا . وطلب بطرس من الدانمرك الا تسمح للاسطول الفرنسي بالمرور الى البلطيق لنجدة دي كونتي .

وفي ٢٦ كانون الاول (ديسمبر) عاد فيدي ترافقه ، بأمر من الملك ثلاث سفن ويختان من بريطانيا لايصال بطرس وطلبته الى لندن . وبدأت التحضيرات العاجلة للسفر — خياطة بزة جديدة واقامة مأدبة توديعية عند ليفورت . وفي ٩ كانون الثاني (يناير) ١٦٩٨ توجه بطرس مع الطلبة الى الجزر البريطانية ، بينما ظلت البعثة الكبرى في امستردام .

استمرت الرحلة ثلاثة ايام في بحر مضطرب بارد . وفي صباح ١١ كانون الثاني (يناير) وصل بطرس الى لندن . كان معه ٢٧ شخصا (من طلبة البعثة والخدم) . وفي الطريق صرف القيصر اكثر وقته على متن السفينة وهو في بزة ملاح هولندي . وانهال على الاميرال ميتشيل الذي رافقه بوابل من الاسئلة بخصوص الملاحة وتصميم السفن . ذات مرة صعد الى الصارية ودعا الاميرال ليتبعه . لكن هذا الاخير اعتذر بأدب متحججا ببدانته .

وتحدث ولهلم الثالث بارتياح مع رجال بلاطه والدبلوماسيين الاجانب عن القيصر الروسي الغريب الاطوار . ويقول المقيم النمساوي هوفمان : «بالاضافة الى هذه التفاصيل عن مكوث بطرس هنا قال الملك ان هذا القيصر لا يتسلى الا بالسفن والملاحة البحرية ، وهو لا يهتم مطلقا بجمال الطبيعة وبالمباني الرائعة والحدائق المدهشة ، وهو لا يتكلم ولا يفهم بالهولندية

الا ما يتعلق بالملاحة البحرية» .

ووصل القيصر الروسى الى مدينة من أكبر مدن العالم ، يبلغ سكانها ٧٠٠ الف نسمة . وهى ميناء عالمى زارتـه فى عام ١٦٩٨ ، اى فى سنة وجود بطرس هناك ، ١٣٤٤٤ سفينة . كانت بريطانيا بلدا متقدما يسير بسرعة على طريق التطور البرجوازى ، وفيها انتاج صناعى وتجارة ينموان بشكل عاصف . وقد تركزت فيها اعظم القيم الثقافية والمؤسسات العلمية التى يعمل فيها علماء طبقت شهرتهم الآفاق . ويمكن ان نتصور مشاعر التفوق والسخرية التى احس بها الملك ولهلم الثالث اثناء لقاءاته بحاكم روسيا الشاب . فهذا الاخير كان يتكلم بحماس ، على الاغلب ، عن مخططاته لبناء اسطول والوصول الى البحار . وكانت اوربا الغربية قد استقبلت هذه التصريحات بارتياب واستهانة وسخرية . وكان بطرس يحاول بشق الانفس ان يخفى انفعاله وحياءه فى الحديث مع الاجانب . ولم يرغمهم على تغيير موقفهم من روسيا وبطرس الا الانتصارات التى احرزها الروس برا وبحرا بعد عشرة او خمسة عشر عاما .

كان ملك بريطانيا يعامل بطرس ، مثلما فى هولندة ، بمنتهى الاهتمام واللياقة . وكلف غوتفريد كيلر ، تلميذ رمبرانت بان يرسم صورة نصفية للقيصر ، فجلس هذا الاخير فى الهيئة المطلوبة ، ورسم الرسام صورة رائعة للحاكم الشاب بوجه يتحلى بالرجولة والالهام والانفة والاعتداد بالنفس والثقة بالمستقبل . وقال احد معاصريه الذى رآه فى تلك السنة : «كان القيصر بطرس بن الكسى فارع القامة اقرب الى النحافة ، شعره قصير كثيف كستنائى غامق ، عيناه واسعتان ، سوداوان بأهداب طويلة ، وفمه معتدل ، الا ان شفته السفلى فيها

عيب طفيف ، تعابير وجهه رائعة ، تجعل الرائى يحترمه من اول نظرة . وبسبب طول قامته خيل الى ان ساقيه رقيقتان ، ورأسه غالبا ما يهتز متشنجا نحو اليمين» .

كان القيصر يصرف القسم الاكبر من الوقت الذى قضاه فى بريطانيا (اربعة اشهر) فى احواض بناء السفن وهو يدرس النظرية . ففى ديبتفورد بضواحى لندن تلقى منهجا نظريا فى بناء السفن باشراف مفتش الاسطول الملوكى السير انطونى دين . كما ساعده اللورد كارمارتن الذى ربطته به علاقة صداقة . فهذا اللورد رجل مرح واسع الاطلاع ، فشعر القيصر بالارتياح من مخالطته . وتلبية لدعوة الملك وصل بطرس الى بورتسموث القاعدة الرئيسية للاسطول البريطانى . وراقب مناورات السفن الحربية التى هى اضخم السفن فى العالم آنذاك . وقد اقيمت المناورات له خصيصا ، ولذا فلم يخف اعجابه ودهشته :

— حياة الاميرال فى بريطانيا اكثر مرحا بكثير من حياة القيصر فى روسيا .

لكن اهتمام بطرس لم يقتصر على شؤون الاسطول . فقد اطلع على امور كثيرة اخرى . وقد تقابل بطرس مرارا مع الاسقف غلبرت بارنيت وتحدث معه عن شؤون الكنيسة . وكان هذا المسؤول فى الكنيسة الانجليكانية الذى بعثه اسقف كنتربرى نفسه للتحدث مع بطرس يتصور على ما يبدو فى فترة ما ان بالامكان استمالة القيصر الروسى وبلاده الى اعتناق البروتستانتية بشكلها الانجليكانى . فقد وصلت الى اوربا الغربية اخبار استهانة بطرس بالكنيسة الارثوذكسية فى روسيا . وبعد عدة محادثات طويلة نسبيا مع القيصر اخذ عنه الاسقف

انطباعا جيدا : فالقيصر «يتحلى بمستوى من المعارف لم اكن اتوقعه لديه . . . فهو اما ان يهلك او ان يغدو رجلا عظيما» . لكن بارنيت سرعان ما فهم بان آماله فى استمالة بطرس والدولة الموسكوبية الى جانبه لا مبرر لها . فقد اهتم القيصر بنقطتين فى الكنيسة الانجليكانية ضروريتين له فى روسيا : العلاقة بينها وبين سلطة الملك الدنيوية واوضاعها المادية . وكان لا بد وان يعجب بما عرفه بهذا الخصوص : فالكنيسة الانجليكانية خاضعة بالكامل للدولة وليست لديها ممتلكات عقارية . اما فى روسيا فالكنيسة بشخص رجالها (البطاركة وغيرهم) غالبا ما تعارض السلطة الدنيوية . ويكفى ان نتذكر هنا البطريرك نيكون الذى كافحه القيصر الكسى والد بطرس ، او البطريرك يواكيم الذى عارض بشدة الاختلاط بالاجانب . والاهم ان الكنيسة الروسية تمتلك عقارات كبيرة مع الكثير من الفلاحين الاقنان ، مما يشكل اساسا اقتصاديا لادعاءاتها وطموحاتها السياسية . ولم يخف بطرس موقفه السلبى من الرهبان الروس الطفيليين .

وعندما فهم بارنيت ان الحاكم الروسى لا يميل اطلاقا الى اعتناق الى البروتستانتية غير موقفه منه بصورة جوهرية . فقد اشار الى خشونته وقساوته وغير ذلك من صفات «الموسكوبى البربرى» . والحال فان بطرس ، بالاضافة الى الاطلاع على الكنيسة الانجليكانية زار باهتمام واضح ، فى ديبتفورد نفسها ، مصليات الكواكر ، وفى ٣ نيسان (ابريل) ١٦٩٨ تقابل وتحدث مع وليم بان ، الشخصية المعروفة فى حركة الكواكر ومؤسس مستوطناتهم فى اميركا الشمالية . (وتدل على ذلك تسمية احدى ولايات الشمال الشرقى فى اميركا التى ظلت باقية حتى

7—672

الان) . واعجب القيصر ببعض جوانب تعاليم الكواكر — الدعوة للوئام والاخوة الشاملة وطهارة الانسان الاخلاقية ورفض الطقوس الكنسية . وقال بطرس بعد مرور ١٦ عاما ، فى اعقاب زيارة لمصلى الكواكر فى هولشتين (شمال المانيا) : «من يعش وفقا لهذه التعاليم يذق طعم السعادة» .

واهتم بطرس بالنظام البرلمانى البريطانى . ففى ٢ نيسان (ابريل) زار مبنى البرلمان ، لكنه رفض حضور جلسته . فقد استمع من كوة السقف الى المناقشات فى الجلسة المشتركة لمجلس اللوردات ومجلس العموم . ولم يبق ذلك سرا . فقد قال احد الدبلوماسيين «ان ذلك قدم الحجة لشخص ما كى يقول انه رأى اندر حالة فى الدنيا ، رأى ملكا على العرش وامبراطورا على السطح» .

ويبدو ان القيصر اهتم بكون اعضاء البرلمان يعربون عن آرائهم بحرية بحضور الملك : «من المفرح ان تسمع الرعايا يقولون الحقيقة لملكهم صراحة . وهذا ما يتعين ان نتعلمه من الانجليز» . وكان القيصر قد طبق هذه القاعدة فى «شلته» ، حيث كان افرادها يعربون للقيصر بجرأة احيانا عما يفكرون فيه . فان رومودانوفسكى ، مثلا ، لامه فى رسالة بعثها الى لندن على التشويش فى قضية ما . وفيما بعد ، عندما شكل القيصر مجلس السينات (الشيوخ) والهيئات التى حلت محل المديريات ، طبق فى عملها مبادئ المناقشة العامة الصريحة لجميع المسائل والشؤون واتخاذ القرارات بشأنها . الا ان ذلك كله كان بعيدا جدا عن النظام البرلمانى والديمقراطية بالمعنى الاوربى الغربى للكلمة . فقد ظل بطرس طوال حياته حاكما مطلقا مستبدا ، قاسيا لا يعرف الرحمة احيانا . ويقول

كلوتشيفسكى : «كان بطرس طيبا بالفطرة كانسان ، لكنه قاس كقيصر» .

وامضى الضيف الروسى الكبير وقتا طويلا فى المعامل ، وزار الجمعية الملوكية البريطانية وجامعة اوكسفورد . وزار مرارا مرصد غرينويتش ودار سك النقود . وربما تكلم مع اسحق نيوتن الشهير الذى كان آنذاك يدير دار سك النقود . واسفر اللقاء مع العالم الرياضى فيرغارسن عن اتفاق حول مجيئه الى روسيا . وفيما بعد لعب هذا العالم دورا هاما فى تدريس الرياضيات فى مدرسة الملاحة والاكاديمية البحرية فى روسيا . وزار القيصر ذات مرة ورشة الساعاتى الشهير كارتيه ، واولع بعمله لدرجة جعلته ينشغل فى تركيب وتفكيك الساعات .

كانت البعثة الكبرى قد انفقت كل نقودها وهى فى هولندة . فان نفقات المعيشة والتعاقد مع الاخصائيين وارسالهم الى روسيا وشراء الكثير من الادوات والمواد الضرورية قد ابتلعت اموال البعثة بسرعة . واقترض القيصر اموالا من التجار الانجليز للصرف على البعثة ، وتكبل بالديون . وخرج من الورطة بصفقة التبغ . فاللورد المرح الماجن كارمارتن الذى اعجب به القيصر الروسى اشد الاعجاب كان رجلا عمليا للغاية . فبناء على اقتراحه منحه بطرس حق احتكار تجارة التبغ فى السوق الروسية ، وهى المادة التى اعتبرها بطريرك روسيا وغيره من الملتزمين بالاعراف القديمة من «العقاقير الممقوتة من الخالق» . وكان البطريرك ادريان الذى حل محل يواكيم فى رئاسة الكنيسة الارثوذكسية الروسية قد اصدر قبيل رحيل بطرس الى اوربا الغربية لعنة (يخشاها الروس اكثر من الاعدام) على التجار وابنائهم واحفادهم بسبب المتاجرة بالتبغ . اما مجموعة قوانين

١٦٤٩ فقد نصت على عقوبة بسبب التدخين للمرة الاولى هى تعذيب المذنب وجلده بالسوط ، وللمرة الثانية جدع انفه . ولم يمض على صدور تلك القوانين سوى خمسين عاما ، اما ابن واضع تلك القواعد الصارمة (القيصر الكسى ميخائيلوفيتش والد بطرس) فقد تغاضى عن المدخنين بل ودخن بنفسه . والاكثر من ذلك ان ملاحقة مستخدمـــى «العقاقير الممقوتة من الخالق» توقفت واعتبرت تجارة التبغ احتكارا للخزينة . وحصل على هذا الحق كذلك التجـــار الروس الذين عادوا على الخزينة بارباح غير قليلة . اما الآن فقد ازدادت الارباح ثلاث مرات دفعة واحدة بتسليم احتكار التبغ الى اللورد كارمارتن . زد على ذلك ان القيصر استلم من اللورد سلفة قدرها ١٢ الف جنيه وسدد ديونه واقتنـــى مشتريات جديدة .

وكان من اللازم ان تصاغ صفقة التبغ فى عقد . وما كان يحق لبطرس نفسه ان يوقع العقد لانه مجرد «طالب بعثة» . فارسل نص العقد الى المبعوثين الكبار فى هولندة ومنعهم منعا باتا من فتح الظرف الا بعد ان يحتسوا ثلاث كؤوس من النبيذ . ونفذ الثلاثة امر القيصر المعظم بمنتهـى الارتياح . ثم فتحوا ظرف الرسالة وقرأوا العقد وفرحوا اشد الفرح . فلا بد من الترحيب بهذه الصفقة الرابحة الكاسبة كما قال فوزنيتسين ، وهو رجل يخاف الله وقد تربـى على التقاليد القديمة . ولذا تناول كل من المبعوثين ثلاث كؤوس اخرى من النبيذ حتى «ألمّ بهم السكر اكثر» كما اعتـــرف المبعوث الثانى غولوفين فيما بعد . كان المبعوثون الثلاثة راضين مسرورين فلم يبدوا اى اعتراض على الوثيقة المقترحة ، وتوجه

غولوفين من امستردام الى لندن لتوقيع عقد التبغ .

وفى ١٨ نيسان (ابريل) قام بطرس وغولوفين بزيارة وداعية الى الملك . واهدى له القيصر الروسى ماسة عظيمة فى ختام اللقاء والحديث ، وفى ختام المكوث فى بريطانيا المضيافة . وبعد اسبوع غادر بطرس هذا البلد .

وقد عرضوا على بطرس فى الغالب كل ما كان مهتما به ، فامضى الوقت هنا بنفع كبير له ولروسيا . وكتب احد معاصريه بهذا الخصوص يقول : «كان ميل القيصر الشديد الى الامور الجدية يبعده دوما عن المسرات والتسلية المعروفة . وكان يتحاشاها بشطارة رغم كل جهود حسناوات البلاط اللواتى حاولن اثارة اعجابه وكن على استعداد لمنح الحب كله للقيصر العظيم الذى وصل من بلد بعيد . وبالمناسبة ، يقال ان احدى الحسناوات استطاعت ان تبلغ هدفها» . كان شغف القيصر بالممثلة ليتيتسيا كروس قصيرا جدا ، وقد فارقها ومنحها ٥٠٠ جنيه . سلمها المبلغ مينشيكوف بتكليف من القيصر . وابلغ مينشيكوف القيصر بان المعشوقة لم تكن راضية على هذه الهبة . فاعترض بطرس قائلا :

— تتصور يا مينشيكوف انى مبذر مثلك ؟ مقابل خمسمائة جنيه يخدمنى شيوخ اذكى وافضل . اما هذه فقد خدمتنى اسوأ منهم .

— الاجرة على قدر العمل (وافقه مينشيكوف) .

وفى معرض تقييم زيارة بطرس الاكبر الى بريطانيا قال ماكولى المؤرخ الانجليزى المعروف فى القرن التاسع عشر : «ان رحلته حقبة كاملة ليس فى تاريخ بلاده فقط ، بل وفى تاريخنا وتاريخ البشرية جمعاء» . ويخص هذا القول

الجانب الايجابـي النافع الذى عرفه ودرسه بطرس فى بريطانيا ، وكذلك الجوانب السلبية التى رافقت مكوثه فى الجزر البريطانية الغائمة . فلم يكن جو رحلته تلك صافيا دوما . كتب السفير النمساوى فى لندن اويرسبيرغ الى الامبراطور ليوبولد الاول بخصوص زيارة بطرس الوداعية الى الملك : «انحنى القيصر الملك ولهلم وعبر له برقة عن صداقته الدائمة . الا انه عرف بان سكرتير اللورد باجيت (السفير البريطانى فى الاستانة — **ملاحظة المؤلف**) وصل حاملا بعض اقتراحات الصلح فعبر عن استيائه لان الملك لم يخبره بذلك . ويرى القيصر ان اوان الصلح لم يحن بعد ، وسيعارض توقيعه فى الاغلب عندما يصل الى بلاط جلالتكم» .

والمقصود هنا هو الحلف المقدس بين النمسا وبولونيا والبندقية وروسيا ضد الباب العالى والقرم والذى تهدده الخطر ، كما علم بطرس ومبعوثوه الكبار على حين غرة . فمن وراء ظهر روسيا اجرت النمسا بتأييد من بريطانيا والبلدين الآخرين مفاوضات مع الباب العالى بشأن الصلح . ولم يخبروا بطرس بذلك اطلاقا ، وهو مشغول بسفنه ومونوفاتوراته . وكان واضحا ان مكانة روسيا فى المسرح الدبلوماسى الاوربـى ليســت رفيعة . . .

وكان يتعين على بطرس ان يتعلم كثيرا فى هذا الميدان ايضا . عليه ان يتعلم النفعية واسرار الاحابيل الدبلوماسية والحساب الدقيق . وقد عرف غدر وكذب ورياء الدبلوماسيين المحنكين . وارتسم فى اوربا توزيع جديد للقوى ، وكانت حرب جديدة تقترب ، هى الحرب لاقتسام التركة الاسبانية . وانتهت الحرب بين فرنسا ورابطة اوغسبورغ التى ضمت بريطانيا

وهولندة واسبانيا والامبراطورية الرومانية المقدسة والسويد وسافوى والامارات الايطالية والالمانية الصغيرة . وسجلت معاهدة صلح ريسويك تنازل فرنسا عن جزء من الاراضى التى احتلتها فى اسبانيا والمانيا وجنوب هولندة . الا ان قرب وفاة الملك الاسبانى كارل الثانى الذى لم ينجب اطفالا قد قرب الصراع من اجل اقتسام ممتلكاته الشاسعة جدا ، وهى اضخم الممتلكات فى عالم ذلك الزمان . فبالاضافة الى اسبانيا ضمت دولته قسما كبيرا من ايطاليا وجنوب هولندة ومساحات شاسعة فى اميركا الجنوبية والوسطى وقسما من اميركا الشمالية ، وفى افريقيا وفى البحار والمحيطات (الفليبين ، جزر الكنارى ، جزر الانتيل ، جزر كارولين) .

ولم تكن فرنسا والنمسا تستنكف من قبول هذه التركة الغنية . كان لويس الرابع عشر متزوجا من مارى — تيريزا ، اخت كارل الثانى الكبرى ، اما امبراطور النمسا ليوبولد الاول فهو متزوج من اخت كارل الثانى الاخرى مارغريت — تيريزا ، ولدى كل منهما ابناء ادعوا بعرش خالهم الاسبانى . وكانت فى بلاط كارل الثانى عصبتان احداهما موالية لفرنسا والاخرى للنمسا . واقترن الصراع بين الهبزبورغ والبوربون من اجل عرش اسبانيا بمناوشات من اجل مستعمرات الدولتين البحريتين بريطانيا وهولندة . ولما كان الصراع الدبلوماسى المعقد دائرا ادرك بطرس واعوانه اثناء وجودهم فى هولندة وبريطانيا مغزى الاحداث الجارية امام انظارهم . وفى رسالة الى أ . فينيوس فى ٢٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٧ قيم القيصر بدقة كبيرة المعاهدة التى وقعت توا فى ريسويك وما كان سيعقبها : «تم توقيع الصلح مع الفرنسيين ، وجرى الاحتفال به فى

لاهاى قبل ثلاثة ايام بألعاب نارية . الحمقى فرحون جدا ، والاذكياء يتوجسون خيفة من ان الفرنسيين خدعوهم ويتوقعون حربا جديدة فى القريب العاجل ، وسأكتب عن ذلك بمزيد من التفصيل» .

كان بطرس فى ذلك الموقف مهتما بالقضية الرئيسية بالنسبة لروسيا آنذاك ، وهى مواصلة الحرب ضد الاستانة والانتصار فيها . وقبل بداية البعثة الكبرى بقليل ، فى كانون الثانى (يناير) ١٦٩٧ ، أكدت روسيا والنمسا والبندقية شروط تحالفها . الا ان كل ذلك مهدد بالخطر الآن . فالبلدان الاوربية ، بما فيها النمسا والبندقية حليفتا روسيا ، وكذلك حكام بريطانيا وهولندة الذين استقبلوا بطرس بحفاوة وترحاب ، مارسوا من خلف ظهره لعبة دبلوماسية نشيطة موجهة فى الواقع ضد روسيا ، فقد ارادوا ان يتركوها تواجه لوحدها الاستانة لتشاغل قواتها الحربية ، حتى يستطيع جيش النمسا ان ينتقل بالكامل لمقاتلة فرنسا من اجل الاستئثار بالتركة الاسبانية . وهذا هو سبب «الوساطة السلمية» لبريطانيا وهولندة من اجل وقف الحرب بين النمسا والعثمانيين . ولم تسفر مقاومة فرنسا فى الاستانة عن نتيجة .

لقد عرفت البعثة الكبرى بالاحبولة التى خصص لروسيا فيها دور البيدق لا أكثر فى كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٧ فى امستردام . فان مخبرا سريا من فينا فضح نية السلطان العثمانى فى ارسال مبعوثين لمفاوضات الصلح مع الامبراطور . واخذ بطرس يتابع تطور الاحداث ، وفهم بان اتجاه تلك الاحداث يحكم بالفشل مسبقا على محاولاته لعرقلتها والتأثير عليها . ولذا ظل يدرس نظرية بناء السفن وغير ذلك من

الامور الضرورية . ففيما بعد ستنفعه هذه المعارف وتنفع روسيا لدرجة كبيرة في بلوغ اهدافها ، بما في ذلك اهداف السياسة الخارجية .

وفي ٢٥ ابريل (نيسان) غادر بريطانيا . كان البحر مضطربا ، والسفن تتقاذفها الامواج . وكانت تنتظره في هولندة امور هامة ونافعة كثيرة . فقد تفقد القيصر مع ليفورت قصر آل اوران وجامعة ليدن ، ومختبر التشريح فيها . وعرض ليفينغوك عليه مجهرا اثار دهشة اوربا كلها . واشبع بطرس فضوله وتوقه الى المعرفة ، لكن اخبارا غير سارة ازعجته كثيرا .

فقد بلغه من روسيا نبأ انتفاضة افراد القوات الخاصة ، خصومه القدامى كما كان يتصور . كانت افواج القوات الخاصة في موسكو قد شاركت في كلتا حملتي آزوف ، وساهمت في الهجوم وحفر اسوار المدينة ــ القلعة ودخولها . ولعبت في جميع العمليات الحربية دورا كبيرا وتكبدت خسائر جسيمة . وبعد دخول آزوف ظل قسم من الافواج هناك في خدمة الحامية . وكان افرادها يحلمون بالعودة الى الديار ، الى عوائلهم وتجارتهم وصنائعهم التي كانت تساعد في اطعام زوجاتهم واطفالهم ، فالرواتب قليلة . وفي خريف ١٦٩٧ وصل امر بترك آزوف ، ولكن ليس الى موسكو ، بل الى الحدود اللتوانية . فقد ادرجت القوات الخاصة ضمن جيش رومودانوفسكي الذي تحرك صوب حدود بولونيا بسبب انتخاب الملك الجديد . وفي الطريق ، في اوحال الطرق والبرد الشديد عانت تلك القوات من بؤس فظيع ، فقد كان افرادها يموتون جوعا ويسحبون المدافع بانفسهم (فقد نفقت الخيول لانعدام العلف) . وبلغ بهم الامر الى حد الاستجداء وتوسل الصدقة في قرى

وضواحى فيليكيه لوكى . وقد تأخرت رواتبهم فلم يستلموها فى الوقت اللازم .

وفى ربيع العام التالى جاء الى العاصمة عنوة ١٧٥ شخصا يمثلون افواج القوات الخاصة . قدموا الشكاوى وطالبوا بانقاذهم من الموت جوعا . وارادوا ان يلتقوا بعوائلهم . وبدأ غليان فى موسكو . فالمتذمرون بين اهاليها كثيرون . وبعد عدة مناوشات اتخذت السلطات الاجراءات اللازمة بسرعة ، حيث دفعت رواتب افراد القوات الخاصة واخرجتهم من المدينة . فعادوا الى افواجهم وهدأت الامور حسب الظاهر .. الا ان اشاعات انتشرت فى العاصمة وفى البلاد وزعمت بان القيصر بطرس قتل فى الخارج ولا تصل اية اخبار عنه . . . .

وكان التفسير بسيطا للغاية . فالبريد من امستردام الى موسكو يستغرق امدا طويلا ، اكثر من شهر ونصف . وبعث رومودانوفسكى تقريرا الى بطرس عن قلاقل القوات الخاصة فى ٨ نيسان (ابريل) ، واستلم القيصر التقرير فى ٢٥ ايار (مايو) . وكان تأخر وصول اخبار القيصر يثير البلبلة والحيرة حتى عند الذين تركهم بطرس فى العاصمة لتصريف شؤون الدولة . واستاء القيصر اشد الاستياء من سير الامور على هذا النحو فكتب الى الامير رومودانفسكى يلومه فى الحال :

— كفاكم تفكيرا باننا هلكنا (لتأخر وصول البريد) ، فانتم بسبب خوفكم لا تباشرون العمل . . . ولا ادرى من اين جاءكم هذا الخوف الذى يلازم النساء .

لقد لام بطرس دون تردد معاونيه الموسكوبيين واتهمهم بالارتباك والجبن . وفى رسالة اخرى بعثها الى فينيوس ، وهو رجل محنك ، كما يتصور بطرس ، ومطلع على العادات

الاجنبية وعلى امور البريد (فهو مدير دائرة البريد اضافة الى دوائر اخرى) قال القيصر مؤنبا :

ـــ كنت آمل بانك ستقنع الآخرين بالعدول عن رأيهم انطلاقا من معرفتك بالامور ، بينما تقودهم انت الى الهلاك . سنرحل غدا من هنا الى فينا .

وبعد ان بت القيصر ، باوامر تحريرية فقط ، فى قضية مؤذية هى «عصيان القوات الخاصة» انتقل الى قضية اخرى لعلها آكثر ايلاما من الاولى ، ونعنى تقوض التحالف المناهض لتركيا . ففى ١٥ آيار (مايو) ، فى المقابلة الوداعية مع الممثلين الرسميين الهولنديين ، بعد تبادل المجاملات ، لم يتمالك بطرس نفسه ، كما فى لندن ، فقال ان الهولنديين الذين هنأوه بالانتصارات فى الحرب ضد العثمانيين يجهدون لشق تحالف الدول الذى يضم روسيا ايضا . واجابوه بانهم لا يعرفون شيئا عن ذلك . وكان واضحا ان هذا الجواب حيلة لا اكثر . وفى اليوم التالى توجهت البعثة عائدة . ترك بطرس رفاقه يمخرون القنوات والانهار وتقدم بسرعة فى البر . وسرعان ما وصل الى درزدن ، الى اغسطس الاول حاكم سكسونيا الذى صار ملكا لبولونيا بمساعدة بطرس . وبدأت الاحتفالات والمراسيم من جديد . وتفقد الضيف القلاع وترسانات الاسلحة ومجموعات التحف الغنية فى درزدن . واهتم خصوصا بادوات العلوم الرياضية وتجهيزات الحرف ودار الصهر . وادهش القيصر الخبراء من جديد بمعارفه فى ميدان المدفعية .

واسرع بطرس فى طريقه الى فينا مستخدما جياد البريد . امضى القيصر النهار والليل فى الطريق . وكان حماسه ونفاد

صبره امرا مفهوما . فان مفاوضات الصلح جارية بين فينا والاستانة . وهو يفهم طبعا انه لا امل فى تصحيح الاوضاع وتغيير الموقف . فهو عصيب للغاية ، ولا امل فيه بالنسبة لروسيا وللقيصر . الا ان طبيعة بطرس تنطوى على واحدة من الخصائص الرئيسية ، الا وهى عدم الانسياق وراء اليأس والقنوط حتى فى الحالات التى لا مخرج منها ، وحتى بعد الهزائم الماحقة . ولذا بدأ يعمل بشكل عنيد محموم وبنفاد صبر .

وفى ١١ حزيران (يونيو) اقترب من فينا . وجرى اول لقاء مع ممثلى النمسا فى شتوكيراو ، وهى بلدة بضواحى فينا . ولم يتمالك بطرس نفسه بسبب المماطلة والرسميات وصغائر المراسيم الدبلوماسية ، والاكثر من ذلك بسبب الاستهانة بالمبعوثين الروس . فطلب لقاء شخصيا مع الامبراطور . ومن جديد جرت مباحثات مملة بشأن مراسيم اللقاء والترتيبات الدبلوماسية . وفى ١٩ حزيران (يونيو) تقابل ليوبولد الاول ، حاكم الامبراطورية المترامية الاطراف البالغ الثامنة والخمسين ، وهو رجل محنك حذر متباه متمهل ، مع القيصر الروسى النشيط المتحمس البالغ السادسة والعشرين من العمر . بطرس يرتدى قفطانا هولنديا قاتما وربطة عنق مستهلكـــة . وبدأ الامبراطور ومستشاره الدوق كينسكى الذى يشبه سيده فى كل شىء حديثهما مع بطرس بتخوف وحذر .

ورغم مخاوف الامبراطور ابدى بطرس احتراما وتأدبا فى الحديث مع «اعظم حاكم للعالم المسيحى» (هكذا نعت القيصر محدثه) . وبعد الحديث تنفس ليوبولد الاول الصعداء ، فقد سمع الكثير عن غرابة اطوار بطرس وتصرفاته غير المعتادة .

اما بطرس فقد كلفته رباطة الجأش والهدوء غاليا . وبعد المقابلة التى استغرقت ربع ساعة ودع بطرس الامبراطور وخرج الى المنتزه ورأى زورقا فى البركة فقفز اليه في الحال والتقط المجذافين واخذ يجذف نترا وبسرعة . وهدأت اعصابه بعد عدة دورات فى الماء . فقد وجد اخيرا منفذا للطاقة التى قيدها طويلا حتى طفحت كأسها .

ولم يبق مسلك القيصر المتأدب اثناء الاستقبالات الرسمية دون ان يلاحظه احد . فقد افاد مبعوث اسبانيا فى بلاط فينا ان بطرس «لم يبد هنا ابدا مثلما يصفونه في البلاطات الاخرى ، بل هو أكثر تمدنا وتعقّلا وتأدبا وتواضعا» .

استمرت المفاوضات بين الحلفاء والاستانة ، علما بانهم ابعدوا روسيا عنها بوقاحة واستهانوا بمصالحها . وحاول بطرس ان يؤثر على سيرها ويطرح على بلاط فينا مسألة الالتزام بمعاهدة التحالف . وانطلق فى ذلك من مبادىء العدالة والعقل والحق الاخلاقى . ولم يراع بطرس بالقدر الكافى فى خطواته الدبلوماسية النزعة النفعية فى الدبلوماسية الاوربية . . .

وطرح بطرس فى التذكرة التى بعثها الى المستشار كينسكى ثلاثة اسئلة :

— ما الذى ينوى الامبراطور ان يفعله : هل سيواصل الحرب ضد العثمانيين ام يقدم على الصلح ؟

— اذا وقع الصلح فما هى شروطه بالنسبة للامبراطور ؟

— ما هى الشروط التى يطرحها السلطان العثمانى على الامبراطور والحلفاء ؟

وفى ٢٤ حزيران (يونيو) ، فى اليوم التالى بعد استلام تذكرة بطرس ، سلمه كينسكى جوابا خطيا جاء فيه ان

الامبراطور يفضل «السلام المشرف الوطيد» ، وان الطرفين يحتفظان بالاراضى التى تحتلها قواتهما حتى اليوم . ومع الجواب نسخة من رسالة الصدر الاعظم العثمانى والرد على الاستانة بتوقيع كينسكى وروذزينى سفير البندقية فى فينا (تاريخ الرد مزور وكأنما ارسل قبل وصول البعثة الروسية الكبرى) .

لقد فهم بطرس كل تلك الاحابيل وتحدث مع كينسكى وطالبه بمواصلة الحرب ضد الباب العالى حتى نهاية مدة التحالف (ثلاثة اعوام ، اى حتى عام ١٧٠١) ، لكى تتمكن روسيا من تأمين سلامتها بشكل افضل دون الهجمات العثمانية وهجمات عساكر القرم ، ولذا فهى بحاجة الى قلعة كيرتش فى المضيق الواقع بين بحر آزوف والبحر الاسود . وردا على ذلك اعلن الحليف عن نيته الثابتة فى توقيع الصلح ، اما كيرتش «فمن الاسهل اقناع» الاستانة بالتنازل عنها لروسيا «عندما تحتلها القوات الروسية» . وبعد الانتصارات الرائعة التى حققها الامير اوجين القائد النمساوى وحاكم سافوى على العثمانيين صار بوسع بلاط فينا ان يسمح لنفسه بمثل هذه النصيحة التى هى تحرش لا اكثر . اما بطرس فقد احتاج الى عشر سنوات اخرى ليشعر بالثقة اللازمة .

وانتهت خطوات بطرس الدبلوماسية بالفشل عموما . لكنه فهم امورا كثيرة . فان الاتصالات مع البلاطات الاوربية وقادتها المحنكين ومع الدبلوماسيين المتفننين قد اسهمت بقسط كبير فى تعليم بطرس واشياعه .

وظلت هناك البندقية حليفة روسيا الاخرى ، وهى ايضا حليفة غير امينة تماما . ومع ذلك . . . فلربما يتمكن بطرس من القيام بشىء هناك ، او تغيير شىء . او على اية حال قد

يتمكن من القيام بمحاولة . زد على ذلك ان بناء السفن متطور فى هذه الجمهورية ، وتوجد فيها ترسانات للسلاح واسطول مجذافي كبير . ويمكن الاطلاع على ذلك والاستفادة منه . ومن هناك يمكن الرحيل الى روما والى فرنسا . . .

. . . فى الخامس عشر من تموز (يوليو) استعد بطرس لركوب العربة كى يسافر الى البندقية . الا ان رسالة جديدة وصلته من الامير الحاكم رومودانوفسكى فى موسكو وشوشت عليه خططه . فقد كتب الامير عن عصيان اربعة افواج من القوات الخاصة فى موسكو . فى الربيع جاء الـــى موسكو ١٧٥ من «مشعلى الفتن» اما الآن ، فى الصيف ، فان اربعة افواج كاملة توجهت اليها «متمردة» . ودارت فى رأس بطرس كالعاصفة ذكريات احداث ١٦٨٢ و١٦٨٩ ، فثارت ثائرته وانفعل اشد الانفعال . ولم يعد يطيق المماطلات الدبلوماسية ومجادلات دبلوماسيـــي فينا وموسكو بشأن تفاصيل مراسيم المقابلة الوداعية التى كادت تخفق . وجرى بعدها تبادل الزيارات بين الامبراطور وبطرس ، وفى ١٩ تموز (يوليو) استقبل القيصر ولى العهد النمساوى ، وبعد ظهر ذلك اليوم استقل مع حاشيته خمس عربات اسرعت بهم الى روسيا وليس الى البندقية ، فاثار بذلك دهشة فينا كلها .

العربات تنهب الدرب ليل نهار فى اراضى بولونيا صوب الحدود الروسية . وبعد كراكوف لحق بالقيصر رسول جاء من فينا واخبره بدحر القوات الخاصة المتمردة عند نهر ايسترا غربـى موسكو ، جنب دير فوسكريسينسكى (القيامة) فى نوفواورشليم (اورشليم الجديدة) . وخفف بطرس من سرعته . وسار موكبه دون استعجال . وفى رافا روسكايا تقابل بطرس مع اغسطس حاكم

سكسونيا وملك بولونيا . ومكث هنا فترة طويلة . كان الحاكمان يشبهان بعضهما البعض . فهما شابان ضخمان بقامة فارعة وطاقات نشيطة ومبادرات لا تنضب . الا ان اغسطس يفضل اللهو والمجون . كان يتحلى بجاذبية كبيرة خلافا للدب الروسى الذى بوسعه طبعا ان يتحلى بالتأدب واللياقة لو اراد ، لكنه لا يجيد اصول السلوك الاوربية الرهيفة .

واستهوى بطرس الجو الخالى من التكلف الذى يستطيع اغسطس ان يهيئه وعدم التحجر وانعدام المراسيم الخانقة . كانت حفلات اللهو والمجون تتوالى الواحدة فى اثر الاخرى . وجرى استعراض القوات ، كما اجريت مباحثات تجارية . ذات مرة عرض بطرس مهارته فى قرع الطبول «فقرع عليها مختلف الانغام التى لا يضاهيه فى قرعها احد» (افادة شاهد عيان) .

وفى الاحاديث الانفرادية بين الحاكمين اللذين ربطتهما عرى الصداقة صاغا تحالفا ضد السويد واقسما على صيانته . الا ان تلك الصياغة جاءت شفوية فقط . ولما كان التحالف الجنوبى ضد الامبراطورية العثمانية قد تقوض ، فقد حول بطرس انظاره الى الشمال ، الى البلطيق . وظهرت بواكير حلف الشمال المرتقب . وعزز الحاكمان هذا الاتفاق باسلوب فريد . حيث تبادل الملك والقيصر قميصيهما وقبعتيهما وسيفيهما . وافترقا راضيين على بعضهما البعض .

وعاد بطرس الى موسكو فى ٢٥ أب (اغسطس) . وكانت تنتظره اعمال لا تقبل التأجيل . فمن فينا ارسل الى الامير رومودانوفسكى رسالة موجزة غاضبة : «السيد الامير ، استلمت رسالتك التى حررتها فى ١٧ حزيران (يونيو) والتى تقول فيها

سماحتك ان بذور ايفان ميلوسلافسكى تنمو ، وارجوكم ان تكونوا اقوياء ، فلا شىء عدا القوة يصلح لاطفاء هذا اللهيب . ومع اننا آسفون اشد الاسف على ترك القضية النافعة الحالية ، لكننا لهذا السبب سنعود اليكم باسرع مما تتوقعون» . هذه الرسالة تجسيد لنفسية بطرس الجاد المنفعل الذى يستطيع ان يصب جام غضبه على الذين يتصورهم مذنبين . وها هو يستعد لانزال عقاب دموى لا يرحم بافراد القوات الخاصة الذين تمردوا ، والقيصر واثق من ذلك ، بتأليب من آل ميلوسلافسكى الذين يحقد عليهم اشد الحقد ، ومن اخته صوفيا ، وهذا واضح من لهجة الرسالة («بذور ميلوسلافسكى تنمو» ، اى تتصاعد وتعطى براعم اخرى بشكل مؤامرات وفتن ضده) .

انتفاضة القوات الخاصة .
الاصلاحات الاولى

حالما وصل بطرس الاكبر الى العاصمة في ٢٥ آب (اغسطس) بشكل متخف تقريبا ، بدون استقبالات واحتفالات ، اطلع على تفاصيل الاحداث التي شغلت باله في الخارج اكثر من اى شيء آخر ، ونعني انتفاضة القوات الخاصة (الستريلتسى) . استمع الى كل ما حدثوه وبلغوه به . وقرأ مواد التحريات والتحقيق — افادات المشاركين في الانتفاضة والتي انتزعت منهم فور دحرها قرب اسوار دير فوسكريسينسكي . واستمر الاطلاع على مواد القضية حوالي ثلاثة اسابيع . ومارس بطرس شؤونا اخرى الى جانبها .

ما ان عاد القيصر الى موسكو حتى قام بزيارة الى باتريك غوردون . ثم جاء الى آنا مونس ، محبوبته في حي العجم . ويبدو انه اشتاق اليها . وبعد ذلك توجه الى بريوبراجينسكويه دون ان يعرج على زوجته ، فما كان يريد ان يراها .

انتعشت الحياة السياسية في العاصمة بمجيء القيصر الشاب النشيط ، وانتقل مركز ثقلها الى هذه القرية في ضواحي موسكو . اخذ البويار يتقاطرون الى هنا . فما رأوه في اللقاء الاول مع القيصر ادهشهم هم ومعاصريهم حتى ظلوا سنين طويلة يحدثون ابناءهم واحفادهم عما حدث في ذلك اليوم المشهود . استقبل

بطرس البويار وامر بان يجلبوا له مقصا استخدمه فى الحال . وتناثرت على الارضية اللحى التى حلقها القيصر . وتعرض لهذه العملية اكثر الرجال نفوذا انذاك — القائد العام شين والامير الحاكم رومودانوفسكي وغيرهما ممن صعقوا وذهلوا لهذا التصرف لكنهم اضطروا الى الاذعان . لا سيما وان القيصر لم يكتف بذلك ، بل ظل يواصل حلق اللحى باصرار . وبعد ايام فى مأدبة عند شين الذى لم يعد ملتحيا ، استمر مهرج القيصر بحلق لحى الحاضرين ممن كانت هذه الحلية الروسية القديمة تزين وجوههم. بهذه الصورة الحازمة الاستبدادية الفظة اخذ بطرس ، على طريقته المعتادة ، يصفى مخلفات الماضى فى الحياة المعيشية . صحيح ان بعض الشجعان حلقوا لحاهم قبله . لكنهم تعرضوا لوابل من السخرية من جانب الاخرين وللعنات من جانب القساوسة . وكان البطريرك ادريان يسلط اللعنات فى مواعظه على ذوى الذقون الحليقة واعتبر فعلتهم خطيئة لا تغتفر وشبههم بالقطط والكلاب والقردة .

ولم يعبأ بطرس بتذمر البويار ورجال الدين فاعلن فى مراسيمه ان جميع رعاياه يجب ان يحلقوا لحاهم . وفارق الوجهاء لحاهم بسرعة وسهولة نسبيا . اما عامة الناس فقد ردوا على ذلك بتذمر خافت ومقاومة . وعند ذاك فرضت السلطات ضريبة على الملتحين : ١٠٠ روبل سنويا على التجار الاثرياء (وهذا مبلغ هائل فى مقاييس ذاك الزمان) و٦٠ روبلا على النبلاء والموظفين و٣٠ روبلا على اهالى المدن ، وكوبيك واحد على الفلاحين كلما دخلوا المدينة او خرجوا منها . ولم يعف من الضريبة الجديدة سوى رجال الدين . وبالنتيجة كسبت الخزينة وتضرر المصرون على الالتحاء ، وبينهم كثير ممن قابلوا مستجدات بطرس

8*

وتصرفاته باستنكار وغضب ونادوا بالابقاء على تقاليد وعادات الاجداد .

وفي الوقت ذاته انكب القيصر على حل مهمة اقضت مضجعه ، وكان يريد حلها قبل الرحيل الى الخارج . ونعنى طلاق زوجته . فعندما توجه الى ريغا طلب من الحكام الذين ظلوا فى موسكو ان يقنعوا يفدوكيا بان تلتحق بالدير حسب قراره . لكن زوجته لم توافق على ذلك مع علمها بانه لا يحبها . واستحث الزوج عندما كان فى الخارج ستريشنيف ورومودانونسكى واعرب عن استيائه من التباطؤ فى هذه المسألة .

. . . وفى اليوم التالى بعد العودة من الخارج قابل بطرس زوجته . واستمر الحديث بينهما اربع ساعات ، وكان على ما يبدو صعبا على الطرفين . ولا احد يعلم بما تناوله الحديث . لكن جوهره هو ذاته ــ القطيعة وانزواء يفدوكيا كراهبة فى الدير . وكان المرتأى ان يجرى توديعها ، اذا وافقت ، من موسكو الى الدير بتكريم مهيب . وطالما رفضت جرى كل شيء ببساطة دون فخفخة . بعد ثلاثة اسابيع غادرت الكريملين عربة صغيرة ، هى عربة عقيلة القيصر ، بدون حاشية . وسرعان ما استقبلت حجرات دير بوكروفسكى (الغطاء) فى سوزدال راهبة جديدة باسم يلينا .

وكان بطرس طوال هذه الايام يمارس اعماله او يحضر المآدب ، ويمعن الفكر فى ملابسات انتفاضة افراد القوات الخاصة الذين لا يعتبرهم محاربين بل مشاغبين . كان فى محاججاته السابقة والحالية على خطأ فى نقاط كثيرة . فقد عتم عليه وعكر صفو ذهنه حقده الشديد القديم عليهم وعلى صوفيا وعلى آل ميلوسلافسكى . وقد جمعهم القيصر مجازا فى

حضيرة واحدة . فهم جميعا ، فى تصوراتـه الخاطئـة ، يشكلون معسكرا واحدا هو معسكر خصومه ومناوئى التحويلات والتجديدات التى ينوى القيام بها وبدأ بتطبيقها . ولم يكن ، مع الاسف ، يعير اهتماما لاحوال افراد القوات الخاصة الفعلية ، ولآلامهم وحرمانهم . فى حين ان تلك الآلام والحرمان هى سبب الانتفاضة . زد على ذلك ان افراد تلك القوات اثبتوا جدارتهم الحربية مرارا منذ ان ظهروا فى قوام العساكر الروسية .

بعد الاستيلاء على آزوف امر بطرس والسلطات الحاكمة باعادة تسعة افواج من القوات الخاصة الى موسكو ولكنهم تركوا لاجل تطهير المدينة وانشاء التحصينات اربعة افواج من القوات الخاصة الموسكوبية فقط وستة افواج من الجنود . وقاد الافواج الاربعة المقدمون كولزاكوف وتشيورنى وتشوباروف وغوندرتمارك . واعرب افراد تلك القوات صراحة عن استيائهم من الخدمة الطويلة ومصاعب الحملات والخسائر والامراض والابتعاد الطويل عن الاهل وسوء معاملة الرؤساء .

وفى صيف ١٦٩٧ وصل امر الى الافواج الاربعة بترك آزوف والتوجه الى الشمال ، ولكن ليس الى موسكو ، والى الاهل والزوجات والاطفال ، بل الى منطقة فيليكيه لوكى . فهنا ينبغى على تلك الافواج ان تنخرط فى جيش رومودانوفسكى المكون من نبلاء نوفغورود وسمولينسك وبيلسك وروسلافل ، وكذلك جنود وخيالة ثقيلة من سمولينسك . وبعد خسائر معركة آزوف كانت الافواج الاربعة تضم حوالى ٢٧٠٠ شخص من ضمنهم ٣٨ آمرا .

ومما اثار تذمر وحقد افراد القوات الخاصة انهم اقتيدوا الى الحدود اللتوانية بعيدا عن موسكو رغم الخسائر الكبيرة التى

تكبدوها فى حصار ودخول آزوف . وفى الطريق الى الحدود عانوا من حرمان شديد . كانوا يسحبون السفن النهرية المحملة بالسلاح والذخيرة ، وكانوا يجرون المدافع بدلا من الخيل ، والطقس لا اسوأ منه . فى البداية عانوا من اوحال الخريف ، وبعدها حل الصقيع المبكر . كانوا جياعا (يتسولون فى الطريق ويتوسلون الصدقة فى القرى) يعانون من البرد ويسيرون الى مكان الخدمة الجديد ، على حد تعبيرهم ، «ليل نهار فى اشد درجات البؤس والفاقة ، فى اوحال الخريف حتى كادت الارواح تزهق فى الاخير» .

وبعد الخدمة على الحدود ، حيث رابطوا وسط الغابات فى الزمهرير والصقيع ، نقلوا الى فيليكيه لوكى وتوروبيتس . واستمرت الآلام . وكان الجوع اشدها . فى تلك السنة اصابت المجاعة جماهير كبيرة فى روسيا باجمعها . وكتب جيليابوجسكى ، احد المعاصرين ، فى مذكراته ان افراد القوات الخاصة جاءوا فى ربيع ١٦٩٨ الى موسكو يتشكون «من الجوع» . وتمكنت السلطات آنذاك من الحيلولة دون اندلاع انتفاضتهم السافرة ، فقد سددت لهم رواتبهم فغادروا العاصمة بعد بعض القلاقل .

وآنذاك ، فى آذار (مارس) طرح اكثرهم نشاطا ــ توما وبروسكورياكوف وتشورين ونعوموف وغيرهم ــ خطة الانتقام من «الظالمين» من بويار موسكو والاجانب المتنفذين الذين حرموهم من الرواتب وتركوهم فى بؤس وحرمان .

وعندما تأخرت اخبار بطرس سرت شائعات حول وفاته فى الخارج . وفى هذا الوضع الغامض المضطرب عاد افراد القوات الخاصة الى الكلام مجددا عن ضرورة الحاكم الجديد «الطيب القلب» الذى يخفف عليهم آلامهم ويزيح البويار «الاشرار» من

امثال روموادانوفسكى وستريشنيف وترويكوروف وغيرهم ممن يظلمون افراد تلك القوات ويضطهدونهم .

وكتبت الاميرة مارفا فى تذكرة الى اختها صوفيا فى دير نوفوديفيتشيه تقول :

— وصلت القوات الخاصة الى موسكو .

واجابتها صوفيا (فى تذكرة مماثلة مخبأة «فى الطعام») :

— ماذا سيفعلون بهم ؟

— سيقطعون رقابهم .

— مساكين . اسفى عليهم .

قدم افراد القوات الخاصة عريضة الى الاميرتين اشتكوا فيها مما يعانونه من آلام وحرمان . واعربوا عن رغبتهم فى رؤية صوفيا على العرش . ثم جاء جواب صوفيا الذى تلاه توما على الملأ فى حى اربات . وكانت هذه الرسالة التى انكرتها الاميرة صوفيا فيما بعد ، عندما استجوبها بطرس ، تدعو افراد القوات الخاصة الى التوجه الى موسكو بافواجهم الاربعة ليخيموا امام دير نوفوديفيتشيه ويطلبوا منها ان «تستلم زمام الدولة» . ويبدو ان افراد القوات الخاصة كانوا يؤملون ويعتقدون بان عودة الاميرة صوفيا الى السلطة ، وهى حاكمة «طيبة» فى تصوراتهم ، ستخفف عليهم مصائبهم . ومن المحتمل تماما ان يكون ما يسمى برسالة صوفيا وسيلة ابتدعوها ليستنهضوا باقى افراد القوات الخاصة للانتفاضة .

فى البداية عبأت السلطات قوات كبيرة ضد الفارين الـ١٧٥ وانصارهم المحتملين . فقد توزع حوالى الف جندى على الكريملين وعلى بوابات المدينة البيضاء المحيطة به ، وارسل ٧٥٠ جنديا وفردا من القوات الخاصة الى حارات تلك القوات

التى يتواجد فيها الفارون ال١٧٥ ، وكان على اهبة الاستعداد جنود كثيرون آخرون من افواجهم .

وفى الطريق من موسكو الى فيليكيه لوكى استلم «الفارون» «رسالة صوفيا» الثانية .

— انتم الآن فى حال سيئة ، وستكونون فيما بعد فى حال اسوأ . توجهوا الى موسكو . لماذا توقفتم ؟ اخبار القيصر مقطوعة .

وعاد «الفارون» الى افواجهم وبدأت فورا الاجتماعات ومناقشات خطط الحملة على موسكو . ووجدت «رسالتا صوفيا» واخبار الشائعات المنتشرة فى موسكو تربة صالحة . ودعا توما وبروسكورياكوف وماسلوف وزورين وغيرهم الى الافعال الحازمة . وصاح الكثيرون فى الاجتماعات ، وخصوصا الشباب :

— ما اتعس مصيرنا . نعانى من البويار ، ونتسكع بسببهم للعام الثالث .

— فلنذهب الى موسكو .

— سنحصل على نقود كثيرة .

ولم يوافق قدامى افراد القوات الخاصة والقساوسة ، وقالوا ان الحملة خطرة ولا جدوى منها . واستمرت المجادلات والخلافات فى الاجتماعات زهاء شهر ونصف .

وفى اواخر آيار (مايو) نقلت الافواج الاربعة من فيليكيه لوكى الى تورويبتس . وظهر امل فى الحصول على اجازة للذهاب الى موسكو . ولكن فى ٢ حزيران (يونيو) اعلن للقوات الخاصة ان الافواج الاربعة سترسل الى مدن مختلفة . وامرت السلطات بالاضافة الى تفريق افراد القوات الخاصة ، بنفى الذين جاءوا الى موسكو للشكوى فى اذار (مارس) وارسالهم «للاقامة الدائمية» مع عوائلهم فى مختلف مدن اوكرانيا .

وحاول سيكولين ، وهو من نبلاء موسكو ، ان يلقى القبض على «الفارين» . وتخلص بعضهم بالهراوات والعصى من الخيالة الذين حاولوا اعتقالهم بينما تمكن الخيالة من القبض على خمسين او ستين شخصيا ، واقتادهم الضباط القوزاق الى القلعة . الا ان جمهورا من افراد القوات الخاصة الآخرين اطلقوا سراحهم فى الطريق الى القلعة . ولاحقوا بالعصى الضباط القوزاق والمقدم كولزاكوف .

واجتمع افراد القوات الخاصة امام دار المقدم تشوباروف . وتليت عليهم وثيقة بعثتها السلطات الموسكوبية . لكنهم لم يصدقوها .

— كتبها البويار ، اما القيصر فلا احد يعرف اين هو الآن .

ودعا اكثرهم جسارة الى الانتفاضة :

— فلنذهب الى موسكو .

— سنموت فى سبيل بعضنا البعض . سنقتل البويار ونبيد الاجانب .

— عندما نصل الى موسكو ستؤيدنا عامة الناس .

وحدث الشيء ذاته امام دوائر ادارة شؤون القوات الخاصة . وخرج القائد العام رومودانوفسكى مع افواج النبلاء الى الحقل المتاخم لطريق موسكو وطلب بان يتوجه افراد القوات الخاصة للخدمة فى المدن التى خصصت لهم وان يسلموا رفاقهم الفارين . ومضى افراد القوات الخاصة على مضض ، لكنهم لم يسمحوا باعتقال «العصاة» .

وفى ٦ حزيران (يونيو) التقت افواج القوات الخاصة عند نهر دفينا الغربى . وفى الطريق الى النهر ، وعنده ، واصل توما وسائر القادة الرئيسيين الدعوة الى الحملة على موسكو .

وازداد عدد انصارهم . وتلا ارتيمى ماسلوف ، وهو من افراد فوج تشوباروف ، «رسالة صوفيا» التى زادت الطين بلة . لكنها لم تحظ بموافقة الجميع . وكان من الرافضين كارب يروفييف الذى عبر عن ارتيابه فرد عليه فاسيلى توما قائلا :

— لماذا لا تذهب معنا يا احمق ؟ عندى رسالة الاميرة صوفيا وهى تدعونا للذهاب الى موسكو .

وايدت الاغلبية الساحقة الانتفاضة . ونحى افراد القوات الخاصة آمريهم وانتخبوا لكل فوج اربعة مندوبين للقيادة وتسيير الامور . ولعب المندوبون دور المنظمين فى افواجهم . اما الزعماء الرئيسيون فى الحركة فهم من «الفارين» الـ١٧٥ — توما وبروسكورياكوف وزورين وماسلوف وأيغناتييف واوبروسيموف وغيرهم . وكان زورين من المشاركين فى انتفاضة موسكو عام ١٦٨٢ . وقد اعلن صراحة الآن بانه مستعد لمواصلة القضية التى بدأها هو والآخرون قبل ١٦ عاما .

— وقرر افراد القوات الخاصة ان يتوجهوا الى موسكو . وحرر زورين عريضة ، كما حرر ماسلوف الرسالة التى ينبغى ان تسلم الى السلطات . واستعرضا فيهما كل المصائب التى وقعت على كاهل افراد القوات الخاصة وطالبا بتخفيف تلك المصائب .

ونظم الثوار دوريات الحراسة وناقشوا خطط التنكيل بالبويار والاجانب واستبدال السلطة . وظلت الخلافات باقية كالسابق . فالبعض لم يصدقوا بنجاح الانتفاضة ودعوا الى عدم التوجه الى موسكو «متمردين» . اما البعض الآخر فقد دعوا رفاقهم بجرأة للتوجه الى موسكو . فان فوسكوبوينيكوف من فوج تشوباروف لم يخف حقده على حكام موسكو :

— عندما نأتى نقطع ايدى بعض البويار ونسحلهم بالحبال .

وقال رجل آخر اسمه كلوكين :

— كلنا نعانى من البويار .

لكن براسولوف اعترض قائلا :

— لا داعى للذهاب الى هناك . سيعدموننا جميعا .

وكان الاختلاف يهدد الحركة من بدايتها ، وقرر المندوبون :

— من يرفض الذهاب الى موسكو نغرز رمحا فى دبره .

وكان لاجراءات القادة الحازمة تأثيرها . وتحرك كل افراد القوات الخاصة صوب موسكو (كان عددهم آنذاك ٢٢٠٠ شخص) . وكان الهدف هو قتل البويار والاجانب الممقوتين ، وبالدرجة الاولى الضباط ، ونهب مساكن الوجهاء وتنصيب صوفيا على العرش او شخص آخر (اذا رفضت) يعاملهم «بطيبة» من امثال الاميرات الاخريات او الامير الكسى او الامير فاسيلى غوليتسين (المنفى منذ عام ١٦٨٩) او الامير تشيركاسكى الذى يتمتع بسمعة جيدة عند العامة . وتدل فكرة رفض صوفيا استسلام السلطة وتسليمها الى اشخاص آخرين دلالة واضحة على ان «رسالتى صوفيا» اللتين تحتويان دعوتها الى الزحف على موسكو وتنصيبها على العرش مجرد ابتداعات دعائية من جانب الثوار ، وعلى الاصح من جانب زعمائهم توما وبروسكورياكوف وزورين وماسلوف .

وكان الثوار يؤملون فى تأييد عامة الناس فى موسكو . فالمعاصرون يقولون ان بسطاء الناس مضطربون فى تلك الفترة ومتذمرون من غلاء المعيشة وخصوصا الاطعمة . وكان الثوار يعولون على معونة من القوات الخاصة فى مدن اخرى ومن قوزاق الدون والجنود .

ومما له دلالته ان فكرة اختمرت بين الثوار ومفادها الانتقام

من القيصر بطرس نفسه واستبداله بشخص آخر وتغيير سلالة القياصرة . لكن ذلك ينتظر فى حالة نجاح الانتفاضة . وفى الوقت ذاته كان الذين يرفضون الانتفاضة والذين يؤمنون بها ويدعون اليها يدركون جميعا انها يمكن ان تمنى بالفشل . فان قواهم قليلة واملهم بمساعدة العامة والجنود والقوزاق والقوات الخاصة الاخرى كان مجرد امل (وقد بقى املا لا اكثر) . كانوا يتوقعون مثل هذه النهاية فيخاطبون بعضهم بعضا لشد العزيمة :

— سنذهب الى موسكو من كل بد واذا عذبونا لن نشى ببعضنا البعض حتى الموت .

وبعد «الاجتماع الكبير» عند نهر دفينا تحركت الافواج الاربعة صوب موسكو . ومن جديد فتت الخلافات فى عضد افراد القوات الخاصة وفرقت صفوفهم ، سواء البسطاء من المشاركين فى الحركة ام قادتها . فعندما وصلوا من الغرب ، على مسافة ٢٠ كيلومترا او يزيد عن دير فوسكريسينسكى امر الزعماء بتلاوة «رسالة صوفيا» من جديد . وقرأها ماسلوف على الملأ . وفى هذه الاماكن صادف افراد القوات الخاصة الشماس قسطنطين سوخاريف . فحكى لهم انباء موسكو :

— البويار يتوقعون وصول القوات الخاصة ، وقد امـــروا خدمهم بخزن احتياطى لستة اسابيع والانسحاب الى داخل المدينة البيضاء . واذا بعثوا اليكم من موسكو رسولا يغريكم بالنقود كيلا تدخلوها فلا تغريكم النقود وادخلوا موسكو .

واثارت كلمات الرجل حماس الثوار وخصوصا المترددين منهم . اما سوخاريف نفسه فقد تكلم بهذه الصورة لانه ، كما اعترف فيما بعد ، كان يأمل فى انتصار افراد القوات الخاصة

وينتظر منهم «كل النعم والهبات» .

اثار نبأ تحرك افواج القوات الخاصة هرجا ومرجا بين البويار الحاكمين فى موسكو . اجتمع مجلس الدوما مرارا واتخذ قرارا بارسال عدة افواج من النبلاء والجنود وسواهم (جمعوا حتى المتقاعدين وسائسى الخيل ومن لم يبلغوا سن التجنيد) لمقاتلة القوات الخاصة . وبلغ عددهم ، كما افاد كورب ، ٨ آلاف شخص مع ٢٥ مدفعا . وقاد تلك القوات البويار شين والجنرال غوردون والجنرال الملازم الامير كولتسوف ــ موسالسكى .

وتحرك جند القيصر بمنتهى السرعة . وفى مساء ١٧ حزيران (يونيو) بلغوا دير فوسكريسينسكى فى نوفواورشليم . موقع الدير باسواره المتينة العالية وابراجه ممتاز ، فهــو ينتصب على مرتفع يطل على نهر ايسترا . وينبسط امـــامـــه واد فسيح . ووصل افراد القوات الخاصة ايضا الى تلك المنطقة ، لكنهم لم يتمكنوا من احتلال الدير بعد . فقد جعلتهــم الخلافات يتباطأون .

شغلت افواج ومدفعية الحكومة الروابى القريبة من الدير على الضفة اليمنى للنهر . ورابطت القوات الخاصة التى وصلت من جهة الغرب على الضفة اليسرى للنهر . وفى الليل اخذ الجانبان قسطا من الراحة . وفى ١٨ حزيران بدأت المفاوضات بينهما . حاول غوردون وكولتسوف–موسالسكى وغيرهما ان يقنعوا الثوار بوضع السلاح ، بينما قدم اولئك العريضة والرسالة الى شين والبويار الآخرين . وطلبوا السماح لهم بدخول موسكو ليلتقوا بعوائلهم ، وبعد ذلك سيلتحقون بالخدمة ، كما قالوا . وعرضوا مطالبهم وشكاواهم .

لم ينصت الثوار الى حجج الاقناع ، واصروا على مطالبهم .

واذا لم يسمح لهم بدخول موسكو سيشقون طريقهم بقوة السلاح . واتخذ الطرفان مواقع القتال . وتليت الصلوات في كلا المعسكرين . وصاح كلوكين في صف الثوار :

— اصمدوا يا اخواني ، مهما قدر لنا الله .

وسرعان ما جاء الى الثوار رجيفسكي على ظهر حصان ، وبلغهم بمطلب شين بان يغادروا المعسكر ويضعوا السلاح ويستعطفوا بطرس ويعترفوا بذنبهم لكي يسامحهم . وهددهم بقصف المدافع . لكنهم واجهوه بالرفض :

— لا نخاف القصف .

— رأينا مدافع اقوى وافظع .

وانتهت المفاوضات . وتكلمت المدافع . ولم توقع الصلية الاولى من ٢٥ مدفعا خسائر بالقوات الخاصة ، لان الطلقات خلب (وتفيد معلومات اخرى ان المدافع اخطأت الهدف عمدا ومرقت القنابل من فوق الرؤوس) . ونشر الثوار راياتهم واطلقوا نيران المدافع والبنادق وجرحوا اربعة اشخاص . وفي اثر ذلك اخذت مدافع المقدم غراغه تحصد صفوف الثوار بتصويب دقيق ، فاضطربوا وارتبكوا . وحاولت خمس او ست سرايا من قواتهم ان تختبىء في المنخفض وراء الربايا القريبة ، لكن تلك الربايا كانت محتلة ، وقد تقدم من جهتها جنود فوجي ليفورت وبوتيرسكي وارغموا تلك السرايا على الانسحاب . وبعد الصلية الثالثة هجم الثوار على الجنود ، لكن الصلية التالية دمرتهم نهائيا فاطلق البعض سيقانهم للريح واستسلم البعض الآخر للأسر .

وقتل في المعركة القصيرة ما بين ١٥ او ٢٠ من افراد القوات الخاصة وجرح حوالى ٤٠ شخصا . وتم القبض على اغلبية الباقين وزج بهم في دير فوسكريسينسكي تحت الحراسة .

واثناء التحقيق الذى جرى بأمر من بويار موسكو طلب شين ان يفرزوا من بين جميع العصاة «المندوبين» و«الفارين» الى موسكو (فى آذار من العام نفسه) و«غيرهم من المحرضين» اى انشط رجال الانتفاضة وزعماءها . وبلغ عدد هؤلاء ٢٥٤ شخصا . وبعد الاستجواب الذى وشوا فيه على بعضهم البعض ونسوا العهد الذى قطعوه على انفسهم امر شين بشنق ٥٦ من «انشط المحرضين» ، وبينهم الزعماء الرئيسيون توما وغيره . وجرى اعدامهم شنقا فى ٢٢ و٢٨ حزيران (يونيو) . وبناء على قرار من بويار موسكو جرى بنفس الطريقة فى ٢ تموز (يوليو) اعدام ٧٤ من «الفارين» الى موسكو . وبلغ مجموع القتلى ١٣٠ شخصا . وتجرعوا الموت بصمت راسمين شارة الصليب . وبالاضافة الى ذلك عوقب بالجلد والنفى ١٤٠ شخصا من انشط اعضاء الحركة . وترك زورين وعدد آخر من افراد القوات الخاصة فى دير فوسكريسينسكى لمواصلة التحقيق . ونفى الباقون (١٩٦٥ شخصا) الى مختلف المدن والاديرة ، لكنهم لم يصرفوا هناك وقتا طويلا ، شهرين ونيفا لا غير .

فعندما وصل بطرس من الخارج لم يخف استياءه البالغ من تحقيقات شين فى دير فوسكريسينسكى . فقد جرى التحقيق ، فى رأيه ، باستعجال دون ان يكشف عن جذور «الفتنة» (اى «بذور» ميلوسلافسكى التى كتب عنها الى موسكو من الخارج) ، فى حين لم تتلق اغلبية المشاركين فيها سوى عقوبات خفيفة للغاية . ويعتقد بطرس ان مدبرى الفتنة اعدموا بسرعة بالغة دون ان تستحصل منهم المعلومات الضرورية الهامة . وتجلى استياء القيصر على مرأى من الناس باشكال وحشية منفلتة .

فى اثر وصول بطرس جمع ليفورت فى قصره علية القوم

من وجهاء موسكو وبويارها والجنرالات والدبلوماسيين الاجانب . حوالى ٥٠٠ شخص . ووصل بطرس ايضا . وانفجر اول حادث عندما جلس الضيوف الى المائدة الطويلة . فقد تجادل السفير الدانمركى مع السفير البولونى بسبب المقعد فلم يتحمل بطرس وصاح بهما :

— حمقى !

وجلس الجميع اخيرا . وهدأ روع بطرس حسب الظاهر . وتكلم مع الدبلوماسى البولونى الذى قرعه قبل قليل :

— سمنت فى فينا لكثرة الطعام ، اما بولونيا المسكينة فقد اخذت منى سمنتى .

— كيف يجوز ذلك يا صاحب الجلالة ؟ انا نفسى ولدت فى بولونيا وترعرعت وبقيت سمينا بدينا مثلما كنت .

— لقد شبعت من الطعام هنا فى موسكو وليس هناك .

لم تكن كلمات القيصر هذه تخلو من الخشونة ، ناهيك عن الاستهانة باللياقة الدبلوماسية . ومع ذلك كانت اخف من كلمة «حمقى» . وسرعان ما انفجر بطرس ثانية ، فهو فى اشد سورات الانفعال . بدأ حديثه مع شين وسار به الى حد الشجار . اتهمه باستلام الرشاوى مقابل منح مراتب الضباط . ثم هرع الى الشارع ، الى الخفراء من جنود الحراسة ، فسألهم عن عدد الجنود الذين منحوا ترقية وصاروا ضباطا ، وما ان حصل على الجواب حتى دخل القاعة راكضا وسيفه مشرع بيده . وانهال على المائدة بضربات السيف وبالصراخ على شين :

— هكذا ساقصم ظهر فوجك وانزع جلدك .

اسرع ليفورت وروموادانوفسكى وزوتوف الى القيصر ليهدئوه . فتلقى معلمه السابق زوتوف ضربة بالسيف على رأسه ، وتلقى الامير روموادانوفسكى ضربة على يده (فجرحت اصابعه) وتلقى

وزير التسلية والافراح ليفورت ضربة على الظهر . واخيرا تمكن مينشيكوف من تخفيف حدة غلوائه .

ولم يكن سبب هذا المشهد الوحشى رشاوى شين ، بل تسرعه فى التحقيق مع المتمردين . واعلن القيصر عن استئناف التحقيق ، واشرف عليه بنفسه . وقال مخاطبا غوردون الذى شارك هو الآخر فى التحقيق :

— سأستجوبهم بأشد منكم .

وبأمر من القيصر اعيد الى موسكو اكثر من الف ثائر من القوات الخاصة . وفى ١٧ ايلول (سبتمبر) ١٦٩٨ بدأ التحقيق الفظيع الذى ادهش المعاصرين والاحفاد وترك ابشع انطباع لدى الكثيرين من الروس من حيث قساوته المرعبة التى تجاوزت كل الحدود . وبينت اولى التحقيقات التى اجريت للنشطاء من المشاركين فى الحركة ، ومنهم زورين وزعماؤها الآخرون ، انهم بدأوها بسبب مصائبهم وفقرهم ، وارادوا ان يطلبوا من صوفيا ان تستلم السلطة فى حالة نجاح الحركة .

كانت جريمة افراد القوات الخاصة ومصيرها واضحين فى رأى بطرس «فهم يستحقون الموت لمجرد العصيان ومقاتلة الفوج الكبير» ، اى مقاتلة قوات شين . ولم يكن القيصر فى الواقع مهتما بجريرة كل منهم على انفراد . فالأهم من ذلك ، فى تصوراته ، هو ايضاح اسباب الحركة ، والاهم هو اتصالات المشاركين فيها مع صوفيا الممقوتة واشياعها . وغدت هاتان النقطتان اللتان اتضحتا من التحقيقات الاولية اساسا للاسئلة الخمسة التى وضعها بطرس نفسه ، دون ريب ، وسلمت الى المحققين فى ١٩ ايلول (سبتمبر) .

وشرعت عشر لجان تحقيقية بالعمل منذ ١٩ ايلول . وترأسها

اكثر الوجهاء نفوذا ، من امثال الامير روмودانوفسكي مدير مديرية بريوبراجينسكويه المتفنن الرئيسي في الجلد والتعذيب ، والبويار الامراء تشيركاسكي ودولغوروكي وبروزوروفسكي وترويكوروف وبوريس غوليتسين وغيرهم . وتوضحت تفاصيل الانتفاضة واهدافها بالتدريج . واضيف الى الاسئلة الخمسة في ٢٢ ايلول سؤال سادس بشأن «رسالة صوفيا» . وفي ٣٠ ايلول (بعد التحقيق الاول في ١٩ — ٢٢ منه) اعدم ٢٠١ من افراد القوات الخاصة ، وفي ١١ تشرين الاول (اكتوبر) اعدم ١٤٤ (بدون استجواب) .

وفي ١٢ و١٤ و١٥ تشرين الاول (اكتوبر) اجرى التحقيق الثاني الكبير الذي عملت فيه ١٤ لجنة وليس ١٠ . وبعد يوم او يومين اعدم ١٧٦ شخصا . جرى الاعدام شنقا وبقطع الرقاب في اماكن مختلفة — في بريوبراجينسكويه وفي العاصمة وفي بواباتها وفي مقرات قيادة الافواج وفي الساحة الحمراء وقرب اسوار دير نوفوديفيتشيه . ونصبت مشنقة تحت نوافذ الراهبة سوزان (الاميرة صوفيا) يتدلى منها ثلاثة من افـــراد القوات الخاصة تمسك ايديهم المتجلدة بعرائض حول «الحكم القيصري» . . . .

وتجول بطرس وحاشيته في اماكن الاعدام . وقد صور احد هذه المشاهد الرسام سوريكوف في لوحته المعروفة «صباح اعدام الستريلتسي» . ويفيد شهود عيان ان القيصر لم يخجل من تلويث يديه فقطع بالفأس رقاب اولئك التعساء ، وارغم البويار ايضا على القيام بذلك . ويقول كورب ان بطرس قطع رقاب خمسة من اولئك التعساء في بريوبراجينسكويه . ويورد هذا المؤلف الرواية التالية : اثناء التحقيق سأل القيصر من احد افراد القوات الخاصة : ماذا كنت ستفعل لو انك

قبضت على او على ليفوريت ؟ فرد الرجل على بطرس :

— لماذا تسأل عن ذلك ؟ يمكنك ان تتصوره افضل مني بكثير . لو لم يلازمنا النحس والحظ المنكود ، ولو استولينا على موسكو لما طرحنا مثل هذه الاسئلة ولانتقمنا من البويار حتى يكونوا عبرة لمن يعتبر .

ذات مرة ، فى مأدبة عند غوردون «تشكى القيصر بمرارة من عناد وتعنت المذنبين» وتحدث بغضب قائلا ان احدهم ابدى تشبثا وعنادا لدرجة جعلته يخاطبه ، هو ظل الله فى الارض بحدة وجسارة وهو يهم بالرقاد على النطع :

— ابتعد يا صاحب الجلالة ، فانا الذى يجب ان ارقد هنا وليس انت .

واستمرت التحقيقات والاعدامات فيما بعد ايضا ، فى ١٦٩٩ — ١٧٠٠ . واعدم آخر المذنبين (وبينهم ماسلوف والاشخاص الذين وشى بهم فيما يخص «رسالة صوفيا») فى ٢٧ آيار (مايو) ١٧٠٧ . وفى شباط (فبراير) ١٦٩٩ نقلت من موسكو جثث القتلى التى ظلت حتى ذلك الحين متروكة فى اماكن الاعدام . وبلغ عددها ١٠٩١ جثة . ودفنت على طول الطرق على بعد ثلاثة كيلومترات ونيف عن موسكو . وامر بطرس ان تغرز هنا اوتاد حجرية مربعة ملبسة بالواح معدنية كتبت عليها قائمة جرائم افراد القوات الخاصة التعساء .

وفى ايلول — تشرين الاول (سبتمبر — اكتوبر) ١٦٩٨ جرى ، بالاضافة الى افراد القوات الخاصة ، التحقيق مع الاميرتين صوفيا ومارفا والمقربين اليهما . وقد تعرض الاخيرون للتعذيب ، لكن القيصر حقق مع شقيقتيه بنفسه وخلصهما من التعذيب . ظل بطرس يتكلم مع صوفيا ويستجوبها عدة ساعات .

فقد اصطدمت شخصيتان فذتان ، لامعتان كل منهما تكره الاخرى . وانكرت صوفيا علاقتها بافراد القوات الخاصة . اما الدعوة لاستلام السلطة فقد قاموا بها ، على حد تعبيرها ، لانهم يتذكرون وصايتها فى ١٦٨٢ — ١٦٨٩ . وجاء فى بروتوكول التحقيق قولها بالحرف الواحد :

— لم ارسل الى افواج القوات الخاصة الرسالة التى ورد ذكرها فى التحقيق . اما قول افراد تلك القوات بانهم جاءوا الى موسكو لدعوتى من جديد الى الحكومة فانه ليس نتيجة لرسالة منى ، بل لاننى كنت فى الحكومة من عام ١٦٨٢ .

ولهذا نظم بطرس الذى استجوب اخته فى دير نوفوديفيتشيه مقابلة وجها لوجه مع اثنين من افراد القوات الخاصة افادا بوجود «الرسالة» ، وهما ماسلوف واغناتيف . وهنا ايضا ابدت صوفيا صلابة واصرت على رأيها :

— لم اسلم الى توما تلك الرسالة بواسطة المتسولة ، وانا لا اعرفه ولا اعرف ماسلوف واغناتيف .

وانكرت مارفا الكسيفنا كل شيء ايضا . ولم تعترف الا بابلاغ صوفيا بوصول الفارين من القوات الخاصة الى موسكو . وكانت عقوبة الاميرة صوفيا يسيرة نسبيا ، وهى الترهب باسم سوزان فى دير نوفوديفيتشيه نفسه حيث بقيت حتى وافاها الأجل .

اما مصير افراد القوات الخاصة فلم يكن يسيرا ، كما اسلفنا . فان اكثر من الف شخص لقوا حتفهم على النطع وعلى اعواد المشانق . ونفى الآخرون . وامر بطرس بحل ١٦ فوجا من القوات الخاصة فى موسكو . ونفى افرادها مع عوائلهم الى مختلف المدن حيث اعتبروا هناك من الحرفيين والباعة . ونعت الناس هذه العملية بـ«خراب القوات الخاصة» . وكان القيصر ينوى حل جميع

افواجها الاخرى . لكن حرب الشمال اندلعت آنذاك ، وسرعان ما تشكلت افواج جديدة من القوات الخاصة الموسكوبيـــة السابقة . وابلى افرادها بلاء حسنا فى معركة بولتافا ١٧٠٩ وفى العمليات الحربية الاخرى . لكنه جرى تحويلهم تدريجيا الى جنود عاديين . وانتهى وجود القوات الخاصة الموسكوبية نهائيا فى عام ١٧١٣ . اما القوات الخاصة الاخرى فلم يجر حلها الا فى الربع الثانى من القرن الثامن عشر ، اى بعد بطرس الاكبر .

كانت سنوات «التحقيق فى فتنة القوات الخاصة» مشحونة باحداث كثيرة اخرى فى حياة بطرس وروسيا . ولم يقتصر الامر على مكافحة الملتحين من المتمسكين بالاعراف القديمة . فهذا الاصلاح مس فى آخر المطاف كبار فئات المجتمع الروسى بالدرجة الاولى ، اما عامة الفلاحين واهالى المدن فقد تخلصوا من حلق اللحى على الطريقة الغربية بدفع الضرائب . لقد ادخلت مستحدثات القيصر هذه جوانب جديدة كبيرة الاهمية فى حياة الرعايا الروس ودفعتهم الى اشكال معيشية اكثر حيوية وتمدنا . ويمكن قول الشيء ذاته عن الحفلات الساهرة وتعليم الشبان ، بل والاكبر منهم سنا فى بعض الاحيان خارج البلاد ، على مختلف العلوم ومبادئ السلوك والآداب .

فى الثانى عشر من شباط (فبراير) ١٦٩٩ دعا ليفورت كثيرا من وجهاء موسكو الى وليمة فى قصره الجديد . وشارك بطرس مع الجميع فى تبريكه بشكل يتسم بالهزل والمرح كما هى العادة فى تلك السنين . وكان هناك كثير من النبيـــذ والمسليات . واستخدم القيصر المقص هنا ايضا . ووقعت ضحية له هذه المرة اردان القفطانات الروسية الطويلة العريضة . وكان يقول وهو يقص الاردان :

ـــ انها تعيق الانسان ، فهو دوما يتوقع حادثا بسببها ، فاما ان يكسر الزجاج او يغط فى الحساء بسبب قلة الحذر . ويمكنك ان تخيط من هذا جزمة ـــ وعرض بطرس قطعة من الردن المقصوص على الشخص المتضرر .

وكما هو الحال مع اللحى تخلص الاعيان بسرعة وسهولة من البدلات ذات الاذيال الطويلة والاردان العريضة . وسرعان ما صاروا يتبخترون ، شأن القيصر نفسه ، بقفطانـــات اوربية الطراز قصيرة ومريحة ، علما بانها من الجوخ وليس من اقمشة الدمقس والقطيفة والحرير الغالية الثمن ، كما فى السابق . ولم يكن هذا المستحدث جديدا تماما . ففى عهد القيصر فيودور ، شقيق بطرس ، جرت العادة فى البلاط على ارتداء الثياب البولونية والمجرية الطراز . اما الآن فقد غدا الزى الجديد بمثابة البزة الرسمية العامة . فقد صدر مرسوم فى ٤ كانون الثانى (يناير) ١٧٠٠ ألزم جميع النبلاء فى روسيا وجميع الحرفيين والباعة واقنان البويار فى موسكو والمدن الاخرى بارتداء القفطانات المجرية . وفى ٢٠ آب (اغسطس) كرروا مرسوم كانون الثانى لان التنفيذ تأخر . فقد ظهرت صعوبات كثيرة امام الخياطين بسبب كثرة العمل وعدم الاطلاع على التفصيل الجديد .

ونظرا لان الروس ، كما يبدو ، تعودوا على عدم التنفيذ الا بعد تذكير للمرة الثالثة ، تكرر فى عام ١٧٠١ من جديد المرسوم الخاص بالزى الجديد . واشار المرسوم بمزيد من التفصيل الى ما يتعين ان يرتديه الناس : «بدلات سكسونية وفرنسية وتحتها قمصان وسراويل ، والجزمات والاحذية والقبعات المانية الطراز» . وفرضت غرامة على من يخرق المرسوم هى روبلان للفارس الراكب و٤٠ كوبيكا للراجل .

وكما هو شأن حلق اللحى لم ينفذ مرسوم الثياب بالسرعة التى ارادها بطرس . ومع ذلك تعود المجتمع الروسى بالتدريج على حلاقة الذقن والزى الجديد .

وتتسم بأهمية اكبر المستحدثات الاخرى التى طبقت فى عامى ١٦٩٩ ـــ ١٧٠٠ . فان البدء ببناء السفن والملاحة البحرية والمدفعية وانشاء القلاع طرح بحدة ضرورة وجود المهندسين والفنيين والاسطواث المطلعين على الرياضيات والذين يجيدون قراءة الخرائط واستخدام الادوات والاجهزة المعقدة . واستدعت الضرورة وجود مستشفيات فى افواج الجيش ، اى وجود ذوى المهن الطبية ودراسة الطب . ودعت الحاجة الى التفكير فى الكثير من الامور الاخرى المستعجلة التى لا تقبل التأجيل . بديهى ان الروس تعاقدوا مع اخصائيين اجانب مقابل اموال كبيرة . لكن بطرس الذى رأى فى الخارج اكاديميات العلوم والجامعات والمراصد والمدارس وكثيرا غيرها قد فهم تماما ان روسيا بحاجة الى مثل هذه المؤسسات والدوائر . وعندما كان فى بريطانيا كلف ف . بروس بان يدرس نظام التعليم الانجليزى ويقدم تقريرا عنه .

وحالما وصل الى روسيا اتخذ اجراءات عملية . ففى ٤ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٩ زار البطريرك ادريان ، وكان مريضا ، وتشكى من جهل رعاة الكنائس . وقال القيصر : ينبغى ارسال زهاء عشرة اشخاص الى مدارس كييف . الاحوال سيئة فى الاكاديمية السلافية اليونانية اللاتينية التى اسسها الاخوان ليخود من اليونانيين فى عام ١٦٨٥ . فالتلاميذ (وعددهم ١٥٠) يعانون من الفقر . والمبنى مهدم ، والمعلمون لا يتحلون بمستوى ثقافى . ويجب تأسيس مدرسة جديدة ، يدرس فيها بالطبع

الانجيل بوصفه نور العيون و«تعاليم الخالق» ، هذا بالدرجة الاولى ، ولكن يجب الا يقتصر التعليم على ذلك . فالتلاميذ ينبغي ان يحصلوا على معارف فى الشؤون العسكرية والهندسة والطب . فالروس ، على حد قول القيصر ، تواقون الى ذلك :

— الكثيرون يرغبون فى تعليم ابنائهم العلوم الحرة .

وكان يقصد «بالعلوم الحرة» آنذاك فى اوربا الغربية وفى روسيا علوم الكلام (قواعد اللغة والديالكتيك والخطابة) والرياضيات (الحساب والهندسة والفلك) والموسيقى . وحاول بطرس ان يقنع البطريرك ، رئيس الكنيسة الارثوذكسية الروسية ، بضرورة تلك العلوم للرعايا الروس الذين «سيتعلمون كل الفضائل فى مدارسنا اذا توفر التعليم الماهر الواسع الاطلاع» . واكد القيصر على الفكرة القائلة بان الايمان بدون عمل لا جدوى منه ، كذلك العمل بدون ايمان .

كان البطريرك الضعيف الذى سرعان ما قضى نحبه من المحافظين الغيارى على الماضى فى كل شيء . وقد استمع بارتياب ، فى اغلب الظن ، الى القيصر الشاب الجسور . فالافكار التى اعرب عنها تقارب الزندقة فى مفاهيم ذلك الزمان . فاللوغارثمات التى انتقلت من زمان الى اوربا الغربية من آسيا الوسطى (عن الخوارزمى وغيره) كانت تعتبر فى روسيا «كتابا اسود» يغوى الانسان فى التواطؤ مع الشيطان . وكانوا يقولون آنذاك «كل من يحب الهندسة مكروه عند الله» .

وكان بطرس يدرك طبعا عواقب ما اقدم عليه . وقد اقدم على هذا العمل ، شأن الاعمال الاخرى ، بجرأة وحزم . كانت روسيا بحاجة الى مدارس ذات برنامج تعليمى واسع ، وكانت بحاجة الى جامعة واكاديمية . وقد تصرف بطرس على

هواه رغم محاولته لاقناع البطريرك المريض وتمسكه بما يشبه الاصول الدبلوماسية وان بصورة شكلية تظاهرية . فقبل هذا الحديث ، عندما كان بطرس فى بريطانيا دعا للسفر الى روسيا البروفسور هنرى فاروارسن ، ووصل البروفسور المذكور مع اثنين من رفاقه الى موسكو قبيل حديث بطرس مع البطريرك ادريان . وفى عام ١٧٠١ بدأ هؤلاء الاساتذة بتدريس الرياضيات فى مدرسة الملاحة . وبعدها ظهرت مدارس اخرى للرياضيات .

فى عام ١٦٩٩ جلبوا الى موسكو مطبعة جديدة كان مقررا ان تطبع فيها ليس بالاحرف السلافية الكنسية ، بل بالاحرف المدنية كتب ذات مضمون علمانى فى الهندسة والمدفعية والميكانيكا وكذلك التاريخ والتقاويم . هذا ما ورد عن المطبعة المذكورة فى كتاب «تاريخ الحرب السويدية» الذى وضع فى عشرينات القرن الثامن عشر وشارك فى تأليفه بطرس الاكبر . صحيح ان اولى الكتب التى صدرت باللغة الروسية فى ١٦٩٩ — ١٧٠١ كانت قد طبعت فى امستردام . وكانت مكرسة لمواضيع علمانية فى التاريخ والحساب والفلك والملاحة وعلم اللغة والادب . وكانت تلك بداية الانعطاف من المطبوعات الكنسية الصرف الى المعرفة العلمية . وبعد ذلك بدأت الطباعة فى موسكو .

وكانت الخطوة الهامة التالية هى استخدام التقويم الجديد . ففى ١٩ كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٩ اعلن مرسوم صادر عن بطرس الاكبر ان التقويم فى روسيا من الآن فصاعدا يبدأ ، كما فى سائر بلدان اوربا ، ليس من «الخليقة» ، بل من ميلاد عيسى المسيح . وفى اليوم التالى صدر مرسوم آخر ببدء السنة الجديدة ليس فى ١ ايلول (سبتمبر) كما هى العادة حتى ذلك الحين ، بل من ١ كانون الثانى (يناير) . وكيلا يشعر شعب روسيا

الارثوذكسى بالريبة والقلق اخبروه بان هذا النظام لحساب الزمن موجود من زمان ليس فقط فى العديد من بلدان اوربا الغربية ، بل وكذلك عند الشعوب الصقلبية (السلافية) — الصرب والبلغار وكذلك الفولوخ (الرومانيين) والمولدافيين والدالماتينيين بل وحتى عند الاغريق (اليونانيين) التى تبنت روسيا فى حينه الديانة المسيحية على ايديهم . وارسلت وثيقة رسمية الى مختلف انحاء البلاد ، بالاضافة الى المرسوم ، سمحت باستخدام التقويمين فى الوثائق . الا ان التقويم الجديد سرى بسرعة فى تحرير الوثائق الرسمية وفى المراسلات الشخصية .

ووفقا لاوامر القيصر اقيمت فى الاول من كانون الثانى (يناير) ١٧٠٠ فى الكنائس صلوات مهيبة بمناسبة العام الجديد . واصطفت فى الساحة الحمراء افواج الجنود الذين اطلقوا نيران المدافع والبنادق . كما احتفل بهذه المناسبة بالالعاب النارية والتزيينات بالانوار والاقواس المزركشة على ابواب منازل الوجهاء . وزينت المنازل نفسها بالخضرة . واستمرت الاحتفالات ستة ايام .

ومن ذلك الحين سمح لجميع الراغبين من الرعايا بالسفر الى الخارج لغرض الدراسة . وكانت هذه الرحلات ممنوعة فى السابق . والاكثر من ذلك ان القيصر ، كما رأينا ، بذل قصارى جهده لارسال الشبان الروس الى اوربا الغربية طلبا للعلم والمعرفة ، وارغمهم على الرحيل .

وبموجب مرسوم ١٠ آذار (مارس) ١٦٩٩ استحدث ، على غرار اوربا ، وسام القديس اندرى بيرفوزفانى . وادهش بطرس ابناء جلدته عندما اخذ منذ تلك الآونة ، خلافا لاسلافه من القياصرة الروس ، يوقع بنفسه الوثائق ذات الطابع الدولى ،

ويصادق عليها . وصار يجرى بنفسه ، فى جلسات مغلقة ، مباحثات مع المندوبين الاجانب فى موسكو .

وفى كانون الثانى (يناير) من عام ١٦٩٩ اعلن بطرس مرسوم اصلاح المدن . فتشكلت هيئات الادارة الذاتية للمدن (المجالس البلدية) ، مثل هيئة راتوشا فى موسكو ومجالس الزيمستفو فى المدن الاخرى . وفى عهد القيصر الكسى ميخائيلوفيتش ، والد بطرس ، حاول الدبلوماسى البارز اوردين - ناشوكين المقرب اليه ان يجرى مثل هذا الاصلاح فى بسكوف التى كان متصرفا فيها بعض الوقت . وكان هدف هذا الاصلاح تأسيس دائرة تحمى التجار وتصونهم من تعسف المتصرفين . وبدأ المتصرف بتطبيق هذا الاصلاح الذى استقبله اهالى بسكوف بارتياح . وكان المفروض ان تنتشر هذه التجربة الاولى فى سائر مدن روسيا . الا ان دسائس البويار الذين يمقتون محبوب القيصر وعدم رغبة المتصرفين انفسهم الذين اثروا فى مدن روسيا ومخاوف السلطات من مبادرات اهالى المدن ومشاغباتهم - كل ذلك قاد الاصلاح الى الفشل .

اما الآن ، بعد ثلاثة عقود ، فقد طبق بطرس واعوانه بحزم الانظمة الجديدة غير المعتادة بالنسبة للحرفيين والباعة الروس . ومن جديد اشار مرسوم بطرس ، مثلما فى عهد ابيه واوردين - ناشوكين ، الى هدف الاصلاح ، وهو حماية التجار من الكثير من مماطلات الدوائر ومن الافلاس . صحيح ان السلطات عندما منحت المدن ادارة ذاتية وخلصتها من رقابة المتصرفين طالبت الحرفيين والباعة بتسديد ضرائب مضاعفة . وكان ذلك هو ثمن الاصلاح . الا ان الحرفيين والباعة رفضوا دفع الثمن ولم يوافقوا على الشرط الوارد فى المرسوم . وتخلت الحكومة عن

فكرة منح الادارة الذاتية فقط للمدن التي تدفع ضرائب مضاعفة. وظلت الضرائب على حالها ، وشمل الاصلاح كل المدن .

وكلفت الراتوشا ومديريات الزيمستفو بجباية الرسوم الجمركية وعائدات الحانات . ومن تلك الفترة لم يعد ذلك من وظائف المتصرفين ، بل من واجب المنتخبين من التجار . وبالاضافة الى ذلك كانت الحكومة تأمل في الحصول على منفعة اخرى هي انعاش الحرف والصناعة والتجارة .

ومن ذلك الحين بدأت اولى التحويلات الادارية . كانت آلة الدولة التي ورثها بطرس ثقيلة خرقاء تعاني من التشويش في وظائف الدوائر . وكان اصلاحها الجذري ينتظر ، ففي تلك الفترة جرت التجارب الجزئية الاولى في هذا المجال . وبالاضافة الى اصلاح المدن الذي استحدث دوائر جديدة اهتم بطرس واعوانه بمعالجة الدوائر القديمة .

كانت مجالس الزيمستفو العامة — هيئات ممثلي مراتب المجتمع التي اتسم نشاطها بطابع تشريعي — في طي الماضي من زمان . وظل مجلس دوما البويار بمثابة الهيئة الاستشارية التشريعية والقضائية العليا . ويتكون مجلس الدوما من كبار البويار والنبلاء . وفي بداية تسعينات القرن السابع عشر كان عددهم ١٨٢ ، وفي نهاية القرن المذكور كان العدد ١١٢ شخصا. وقد توفي اعضاء الدوما الطاعنون في السن ولم يعين آخرون تقريبا بدلا عنهم . واخذ مجلس الدوما ينقرض بصورة طبيعية . وفي الاول من كانون الثاني (يناير) ١٧٠٢ لم يبق فيه سوى ٨٦ عضوا . ففي غضون عقد واحد تقلص عدد اعضاء مجلس الدوما الى اقل من النصف . ثم انهم لم يكونوا جميعا يحضرون جلسات المجلس . فلا يحضرها عادة سوى ٣٠ — ٤٠ شخصا .

بعضهم يتجول فى البلاد بمهمات معينة ، وبعضهم لا يتلقى دعوة لحضور الجلسات . والأهم هو ان المجلس يبت فى مسائل ثانوية (مثل تسجيل الفلاحين ضمن التجار وجباية الضرائب اثناء عقد الصفقات وما الى ذلك) . فالقضايا الهامة ينظر ويبت فيها القيصر . وتذيعها المراسيم الصادرة باسمه . وقد ظهرت فى مجلس الدوما نفسه مستحدثات لم تكن موجودة قبل ذلك . فبأمر من القيصر ترأس جلسات الدوما الامير رومودانوفسكى الذى لم يكن عضوا رسميا فيه .

والدرجة الثانية فى ادارة شؤون الدولة هى البريكاز (المديرية) ، وهى بمثابة وزارة القرن السابع عشر . كان نظام المديريات معقدا ومتشعبا للغاية . ففى الأول من ايلول (سبتمبر) ١٦٩٩ تجاوز عددها الاربعين : تشرف مديرية العلاقات الخارجية على الشؤون الخارجية والدبلوماسية ، وتشرف مديرية الخدمة على التعيينات وعلى متطوعة النبلاء ، كما تؤمن مديرية الضياع قطع الاراضى للبويار والنبلاء ، وتدير مديرية الستريلتسى شؤون القوات الخاصة ، وتشرف مديرية الخيالة على الخيالة وتؤمن مديرية القصر الكبير مستلزمات معيشة اسرة القيصر وهلمجرا . لكن المشكلة هى عدم تحديد وظائف تلك المديريات بشكل دقيق . فان مديرية العلاقات الخارجية مثلا لم تقتصر على معالجة قضايا السياسة الخارجية (اجراء المفاوضات وتوقيع الوثائق الدبلوماسية وسواها) ، بل كانت تشرف على المدن الحدودية من كل النواحى ، بما فيها القضائية والمالية . وكانت جباية الضرائب والعائدات المباشرة وغير المباشرة من صلاحية عدة مديريات . والى جانب المديريات العامة بالنسبة لروسيا باجمعها كانت هناك مديريات تشرف على مناطق معينة ، مثل مديرية سيبيريا ومديرية قصر قازان (منطقة الفولغا)

ومديرية روسيا الصغرى (اوكرانيا الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر والتى انضمت الى روسيا منذ عام ١٦٥٤) وهلمجرا.

وفى عهد الكسى ميخائيلوفيتش جرت محاولات لتنظيم سير هذه الآلة الضخمة . فقد تشكلت مديرية التحريات التى تسلطت على كل المديريات الاخرى ، وكلف شخص واحد بادارة مجموعة من المديريات . وجرت تغييرات مماثلة فى عهد ابنائه .

وفى عهد بطرس ، فى اواخر القرن السابع عشر ، كانت هناك ايضا مديريات موحدة من حيث تقارب موقعها وتجانس مهماتها والخ . فان مجموعة المديريات التى تترأسها مديرية العلاقات الخارجية تضم ، مثلا ، مديرية روسيا الكبرى ومديريات روسيا الصغرى وامارات سمولينسك ونوفغورود وغاليتش وفلاديمير واوستيوغ . وكانت هناك مجموعة من المديريات لشؤون البلاط — مديرية القصر الكبير السالفة الذكر ، ومديرية دعاوى البلاط ومديرية الحجريات (البناء) ومديرية الاسطبلات (الخيل والاسطبلات والعربات والزحافات ، اى وسائط النقل الخاصة بالبلاط) . وفى اواخر القرن السابع عشر كانت مديريات القوات الاوربية الطراز والخيالة الثقيلة والقوات الخاصة خاضعة لشخص واحد هو الامير اوروسوف ، ثم البويار شين . وبالاضافة الى مجموعة المديريات الخاضعة لمديرية العلاقات الخارجية كان غولوفين يدير مجموعة اخرى هى مديريات الاسلحة ومصوغات الذهب والفضة (وهى من مديريات البلاط التى تشرف على صنع السلاح والحلى الذهبية والفضية «لاستعمال القياصرة») ، ثم مديرية البريد واخيرا مديرية الشؤون البحرية الحربية التى استحدثت فى ١١ كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٨ لادارة شؤون اخصائيى

الاسطول الاجانب القادمين من الخارج .

واغلقت مديرية الزيمستفو التى تشرف على البوليس في موسكو واحيلت وظائفها الى مديرية القوات الخاصة التى فقدت هذا القسم من صلاحياتها بعد حل افواج القوات الخاصة الموسكوبية ، واحتفظت بوظائفها الاخرى (مثل اطفاء الحريق) واضيفت اليها المهمات البوليسية العامة . ولذا تبدل اسمها الى مديرية شؤون الزيمستفو .

واندمجت غرفتا المصوغات الذهبية والفضية ، وكذلك مديرية الماسورات الخاصة مع غرفة الاسلحة (مرسوم ١٩ كانون الثانى — يناير ١٧٠٠) . وفى شباط (فبراير) من العام ذاته جرى توحيد مديريتى الخيالة الثقيلة والقوات الاوربية الطراز ، وترأس المديرية الجديدة الامير دولغوروكى الذى منح رتبة «المفوض الاقدم» ، ولذا سميت فى المكاتبات «بالمفوضية» ، وفيما بعد بمديرية الشؤون الحربية . وفى تلك الفترة اغلقت مديرية الحجريات وظهرت بدلا منها مصلحة «المؤن العامة» باشراف يازيكوف (وكانت تمارس جمع احتياطى الحبوب فى الدولة كلها وتوزيعها على القوات المسلحة) . واعتبارا من عام ١٧١٧ صارت تسمى «بمديرية المؤونة» . وفى ١٩ ايار (مايو) عهد بمديرية المدافع الى «الجنرال المدفعى» ولى عهد دولة اميريتيا (جورجيا) الكسندر ارتشيلوفيتش (وكان اثناء تواجده فى الخارج مع «البعثة الكبرى» قد درس المدفعية جيدا فى لاهاى) ، ومن بداية ١٧٠١ صارت دائرته تسمى «بمديرية المدفعية» (واحيانا باسمها القديم : مديرية المدافع) .

وفى ٢٤ آب (اغسطس) ١٧٠٠ تأسست مديرية جديدة هى مديرية التنقيب المعدنى لتنظيم اعمال البحث عن فلزات

«الذهب والفضة وغيرها» .

واختفت تلقائيا مديريات روسيا الكبرى (التى كانت تعين متصرفى المدن فى روسيا) وفلاديمير وكوستروما .

وكانت كل هذه التغييرات الادارية نتيجة مباشرة لمبادرة بطرس الاكبر . فهو من جهة قد قام بما قام به اسلافه وحاول ان يركز ويعمم ويبسط الادارة . ومن جهة اخرى استحدث دوائر جديدة ، للادارة العسكرية بالدرجة الاولى . وهذا شىء مفهوم . فقد اندلعت حرب الشمال من اجل الحصول على منفذ الى بحر البلطيق . وتقلص العدد الاجمالى للمديريات من ٤٤ الى ٣٤ مديرية .

ولم ينس بطرس الكنيسة . فكما هو شأن اسلافه ، ابتداء من ايفان الثالث فى نهاية القرن الخامس عشر وايفان الرهيب فى منتصف القرن التالى ، وكما هو شأن والد بطرس سعى القيصر الشاب الى اضعاف نفوذها وقطع دابر ادعاءاتها فى الاولوية بالنسبة للسلطة الدنيوية ، والى زعزعة مواقعها الاقتصادية . وكان بطرس قد اعرب فى الماضى ايضا عن موقفه السلبى من الطفيليين الاثرياء البدناء ، اى الرهبان الروس . وعندما كانت امه على قيد الحياة تمالك نفسه ، لكنه لم يكن يحترم رجال الدين دوما . وقد اختلط بالاجانب ومارس اعمالا لا تليق بالقيصر آنذاك (الالعاب العسكرية فى البر والماء ومشاركته الشخصية النشيطة فيها وعدم حضور الكثير من المراسيم الرسمية) . وبعد وفاة امه ناتاليا اكتسب سلوكه هذا فى انظار رجال الدين طابعا اهوج اشد من السابق — استخدام الاجانب والسفر الى الخارج وتدخين التبغ وحلق اللحى وارتداء الثياب الاجنبية . واشتاط الكثيرون غضبا ، وخصوصا رجال الدين .

الا ان بطرس سار هنا الى ابعد من ذلك . فالحملات الحربية تتطلب نفقات جديدة متزايدة ، ولذا وجه انظاره الثاقبة الى الكنيسة بعد دخول آزوف . واخذ يحاسبها بالواردات والنفقات ويرغمها على بناء السفن باموالها ويمنع انشاء اجنحة جديدة فى الاديرة ودفع الرواتب الى كبار القساوسة .

فى عام ١٧٠٠ توفى البطريرك ادريان . ولم يعين البطريرك الذى انتظره المؤمنون . وبدلا عنه استحدث بطرس منصبا جديدا هو سادن كرسى البطريركية الذى يؤدى فقط وظائف راعى الكنيسة ، فى حين تنتقل اموال الكنيسة الى مديرية الاديرة برئاسة موسين–بوشكين ، وهو رجل مدنى . وترد عائدات هذه المديرية الى خزينة الدولة (اكثر من مليون روبل خلال السنوات ١٧٠١ — ١٧١٠) . وقد اجرى بطرس فى الواقع انتزاع ملكية الكنيسة جزئيا ، وواصل محاولات اسلافه ومهد لانتزاع ملكيتها النهائى الذى اعلنته يكاترينا الثانية فى عام ١٧٦٤ .

وبعد استحداث مجلس الراتوشا ومديريات الزيمستفو قيد بطرس وظائف متصرفى المدن ، وقيد بالتالى (وفقا للفكرة التى استند اليها المرسوم على الاقل) تعسفهم ورشاواهم من الباعة والحرفيين فى المدن ومن فلاحى الدولة (من غير الاقنان) فى الريف .

بديهى ان التبدلات الادارية لم تلغ تداخل الوظائف وضخامة الجهاز ، لكن بطرس وحكومته قاما بخطوة جديدة الى الامام وواصلا وطورا ما تحقق من قبل وارسيا اساس التغيير الاكثر حزما لنظام ادارة الدولة المركزية والمحلية ، وهو التغيير الذى اجرياه فيما بعد ، ابان حرب الشمال .

وفى الميدان المالى كان اصلاح المدن الاجراء الاهم .

فعائدات الضرائب الاساسية صارت تتوارد على الراتوشا وليس على مديرية الخزينة الكبرى القديمة . وبلغت واردات الراتوشا فى عام ١٧٠١ ١,٢٦٨ مليون روبل وواردات المديرية ٧١٧,٧ الف روبل . وساعد اجراءان آخران على بلوغ نفس هذا الهدف ، اى زيادة واردات الخزينة ، وهما استحداث رسوم على الاوراق المدموغة (صدر مرسوم بهذا الخصوص فى عـــام ١٦٩٩) وتنظيم جباية رسوم الاختام التى تستحصل لقاء المصادقة على جميع الوثائق بختم جديد خاص هو «ختم النسر» (ختم عليه صورة النسر يحمله الموظف بشريط على ياقته) . وكان الختم واحدا للجميع ما عدا مديرية العلاقات الخارجية والراتوشا اللتين لهما ختمان خاصان (مرسوم ٥ كانون الاول ـــ ديسمبر من العام ذاته) . ولا تعتبر الوثائق المكتوبة على ورق غير مدموغ وغير المصدقة بالختم سارية المفعول .

وقد استحدث بطرس الورق المدموغ بناء على توصية من الكسى كورباتوف ذلك الرجل الداهية كبير خدم قصر الوجيه شيريميتيف . فقد كان مع سيده فى الخارج ، ولاحظ ، فيما لاحظ ، هناك ان الوثائق التجارية وغيرها تكتب فى المؤسسات على ورق خاص مدموغ بدمغة معينة ويباع من قبل الخزينة فقط . وعندما عاد كورباتوف الفطين الى روسيا قدم مشروعا باستحداث مثل هذا الورق فى روسيا . ولم يذيل كورباتوف المشروع بتوقيعه تحوطا لاى طارئ . وعندما علم بان القيصر استحسن اقتراحه اعلن عن اسمه . واستحدث ورق الدمغة ، ومن ذلك الحين ارتفع نجم كبير الخدم ، فقد عينه بطرس مفتشا اداريا اقدم فى الراتوشا ومنحه ضيعة . وبهذه الصورة صار من النبلاء بعد ان هيأ الامكانية لزيادة عائدات خزينة الدولة وارسى البداية لكوكبة

موظفى بطرس «المربحين» السيئى الصيت ، وهم الموظفون الذين كلفوا بابتداع ضرائب ورسوم جديدة لملأ برميل الخزينة الذى لا قعر له . وقد بذل هؤلاء الموظفون فيما بعد ، ابان حرب الشمال ، قصارى جهدهم مقتدين بالمفتش الاقدم ومندفعين بتشجيع بطرس ومتعرضين لسخط رعاياه .

واعلن مرسوم بطرس فى ١١ آذار (مارس) ١٧٠٠ عن اصلاح النقود . وبموجب هذا الاصلاح اخذوا يسكون الى جانب القطع النقدية الفضية قطعا نحاسية من فئات صغيرة متنوعة : نصف كوبيك وربع كوبيك وثمن كوبيك . وكان التداول قبل ذلك بأمس الحاجة الى الفراطة . ولذا كان الناس يكسرون الكوبيك الفضى الى جزئين او ثلاثة ، وظهرت فى بعض الأماكن بدائل اعتباطية مثل «نصف الكوبيك» الجلدى وغيره . ونظرا لفشل الاصلاح النقدى النحاسى فى ١٦٥٤ — ١٦٦١ ، حيث غص السوق بكميات هائلة من النقود النحاسية التى انخفضت قيمتها تدريجيا ١٠ — ١٥ مرة بالمقارنة مع النقود الفضية صاروا يسكون الآن الكمية اللازمة فقط من النقود النحاسية الصغيرة الفئات والجيدة النوعية .

وقام بطرس بمحاولة فى ميدان التشريع القانونى . ففى ١٩ شباط (فبراير) وقع مرسوما حول مجموعة القوانين الجديدة . فقد وضعت مجاميع القوانين فى روسيا قبله عدة مرات . فبالاضافة الى «الحقيقة الروسية» بصيغها المختلفة (من آثار القرنين الحادى عشر والثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر) ومجاميع القوانين المحلية فى عهد التجزئة الاقطاعية فى روسيا (تشريعات محاكم بسكوف وتشريعات محاكم دفينا وغيرها) وضعت فى الدولة الروسية المركزية اعتبارا من اواخر القرن الخامس عشر عدة مجاميع للقوانين ،

مثل قوانين المحاكمات لعام ١٤٩٧ ولعام ١٥٥٠ . وفى عام ١٦٤٩ صدرت مجموعة قوانين مجمع الزيمستفو (الذى شارك فيه مجلس الدوما وكبار رجال الدين وممثلو النبلاء والحرفيين والباعة والفلاحين الاحرار) . وكان قد مر نصف قرن على قوانين القيصر الكسى ميخائيلوفيتش . وتجمع الكثير من التشريعات الجديدة . وكانت الفوضى تسود التشريعات القانونية مثلما تسود النظام الادارى . فالكثير من مراسيم القياصرة واحكام مجلس الدوما تتعارض مع مواد مجموعة القوانين لعام ١٦٤٩ ، اما القوانين الاخرى فلم يكن الحكام والاداريون يعرفونها بشكل مقبول . وفيما بعد ، فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ، شكلت هذه المواد الجديدة ثلاثة مجلدات ضخمة هى «مجموعة القوانين الكاملة» . وقبل ذلك لم تكن هذه القوانين مصنفة .

وكان مرسوم بطرس يستهدف تصحيح هذا الوضع وتصنيف تلك القوانين . وكان على اللجنة القانونية الخاصة التى تشكلت بموجب المرسوم ان تدرس هذه المواد الجديدة وتقارنها مع قوانين مجمع الزيمستفو لعام ١٦٤٩ وتضع القوانين الجديدة .

وضمت هذه اللجنة القانونية اثنى عشر شخصا من مجلس الدوما . وكانت لبعضهم خبرة فى صياغة القوانين ، لانهم كانوا فى حينه من اعضاء لجنة العقوبات التى عملت فى مجلس الدوما فى الفترة ١٦٨١ — ١٦٩٤ . وبالاضافة الى ذلك شارك فى اعمال اللجنة موظفون من خارج الدوما وعددهم ٥٠ شخصا ، وكذلك ثلاثة من نبلاء موسكو . ومارس وظيفة الكتبة ستة من الموظفين الاقدم وعدد من الموظفين الصغار من مختلف المديريات .

وظلت اللجنة تعقد جلساتها من ٢٧ شباط (فبراير) ١٧٠٠

حتى ١٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧٠٣ . وكانت اجتماعاتها غير كاملة النصاب . ويستمع اعضاؤها الى فهرست قوانين مجمع الزيمستفو ، ثم نصوص فصولها وموادها طبقا للفهرست ، ثم نصوص «المواد الجديدة» فى المسائل المتشابهة . وعقدت اللجنة عموما ١٩٣ جلسة . وكانت ثمرة عملها هى وضع مشروع القوانين الجديدة . لكن المشروع لم يحظ بالمصادقة ابدا لسبب مجهول . ربما لم يعجب بطرس بالعمل الذى قامت به اللجنة . وربما اعاقته حرب الشمال . فالقيصر فى تلك الفترة كان مشغول البال بامور عاجلة اكثر اهمية .

وفى بداية القرن الثامن عشر اجرى بطرس اصلاحات فى ميادين التعليم والعلوم والثقافة والحياة المعيشية . وكانت لتلك الاصلاحات اهمية بالغة حيث دشنت عهدا جديدا . وظهرت فى روسيا جرائد ومسرح ومدارس وثانويات مدنية واكاديمية فرعية (بحرية) واخرى عامة (اكاديمية العلوم التى اتخذ مجلس السينات بحضور بطرس قرارا بافتتاحها فى ٢٢ كانون الثانى (يناير) ١٧٢٤ واقر مشروع تأسيسها الذى وضع بتكليف من بطرس نفسه ، وافتتحت الاكاديمية فى آب (اغسطس) ١٧٢٥ بعد وفاته) ، وحفلات للرقص والحديث ودور جديدة وثياب عصرية . وصدر عدد كبير من الكتب ابتداء من الكتب الدراسية فى مختلف ميادين المعرفة وانتهاء بالبحوث فى التاريخ والحقوق والتحصينات والمدفعية والنتاجات الادبية . وظهر فى روسيا كثير من الاخصائيين المثقفين ليس فقط فى الشؤون العسكرية والبحرية ، بل وفى ميادين التعدين وبناء السفن والجيولوجيا وعلم المعادن والجغرافية والتاريخ وادارة الدولة والحقوق . ووسعت البعثات التى نظمها واعدها بطرس واعوانه الى مختلف ارجاء البلد الشاسع المعارف الجغرافية

وادت الى تطور علم الخرائط . وشملت تلك البعثات مناطق الاورال وسيبيريا والشرق الاقصى ، بما فيه كامتشاتكا ، وبحر الخزر وبحر آرال ومنطقتى آزوف وبوموريه .

واتسمت التحويلات الاخرى بمثل هذه الاهمية البالغة . فبمبادرة من بطرس جرى تدشين عشرات المؤسسات الصناعية مثل مانوفاتورات صهر الحديد والزهر والنحاس وغيرها . وتطورت الصناعة فى الاورال بشكل عاصف . وحتى نهاية عهد بطرس الاكبر كانت هناك ۲۰۰ مؤسسة (بينما كان عددها فى اواخر القرن السابع عشر حوالى الثلاثين) . وكانت تلك طفرة فى الانتاج الصناعى . وتلقى دافعا شديدا تطور التجارة الداخلية والخارجية والانتاج الزراعى وحياة المدن .

واجرى بطرس تغييرا جذريا فى كيان ادارة الدولة جمعاء . وبدلا من مجلس دوما البويار القديم جاء مجلس السينات (الشيوخ) فى ۱۷۱۱ ، وهو الهيئة الحكومية العليا التى عهد اليها القيصر مراقبة وتفتيش سائر دوائر الدولة . وكان هذا المجلس يتمتع بالسلطة القضائية والادارية ، واحيانا التشريعية . وكان يراقب نشاط مجلس الشيوخ نفسه مفتش عام صار فيما بعد يسمى بالمدعى العام .

وبدلا من المديريات القديمة ، وكان عددها بضع عشرات لا تحديد للوظائف فيما بينها ، استحدثت الهيئات التى هى باكورة الوزارات ، وعددها ۱۱ ، ووظائفها محددة تماما : هيئات الشؤون الخارجية ، والعسكرية ، والبحرية ، والعائدات ، والنفقات ، والتفتيش (مراقبة جباية وصرف اموال الخزينة) ، والقضاء ، والتعدين والصناعة الخفيفة ، والتجارة ، والعقارية .

واضيف اليها السيندوس ، الهيئة الدينية العليا التى حلت

محل البطريرك الذى الغى بطرس رتبته ومنصبه ، والهيئة الرئيسية لادارة المدن .

وبالاضافة الى تقسيم البلاد الى اقضية (بلغ عددها العشرات) قسمت كذلك الى الوية (ثمانية فى البداية ثم احد عشر لواء) .

ومنح الاصلاح العسكرى (استحداث التجنيد الاجبارى وتدريب الجنود وهلمجرا) روسيا جيشا نظاميا ممتازا . وانشأ بطرس الاكبر فى الوقت ذاته اسطولا قويا . وافتتح المدارس العسكرية . ونظم تعليم الجنود والضباط وتزويد الجيش والاسطول بكل ما يحتاجانه . وعاد ذلك كله بثمار رائعة فى سنوات حرب الشمال .

التحضير لحرب الشمال

اتضح خلال «البعثة الكبرى» ان الاتجاه الجنوبي للسياسة الخارجية الروسية قد استنفد . فالحرب ضد الامبراطورية العثمانية تقترب من نهايتها . لكنها كانت مستمرة وان بحدة اقل من المطلوب عندما عاد بطرس من الخارج . وكانوا يبنون السفن فى فورونيج ، وكان الاسطول البحرى الحربى الروسى فى طور الميلاد . وبالاضافة الى الاشغال الاخرى اهتم القيصر بهذه الامور وراح يوجه المؤسسات العسكرية والدبلوماسية وبناء السفن ويشارك فيها بنفسه مشاركة نشيطة .

فى ٢٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٨ ، بعد «التحقيق الكبير» ، اى بعد الجولة الثانية من التحقيق فى قضية القوات الخاصة ، توجه الى فورونيج . وكان العمل على قدم وساق فى احواض بناء السفن . ويدير كل الاعمال هنا فيودور ابراكسين المقرب الى القيصر . وقد نقل من مدينة ارخانجلسك الشمالية البعيدة الى مدينة فورونيج الناعسة الساكنة فى اواسط روسيا ، فتحولت الى مركز صاخب لبناء السفن . آلاف الروس والكثير من الاجانب الذين وصلوا من مختلف بلدان اوربا يمارسون قطع الاشجار ونجارة الاخشاب وبناء السفن .

بعد اسبوع وصل بطرس الى فورونيج . فى البداية فرح لكل ما

رآه . فارسى اساس بناء سفينة جديدة ، والتقط القيصر–النجار فأسه وشرع بالعمل .

الا ان فرحته سرعان ما تعكرت . فقد بلغه نبأ فرار اعداد كبيرة من الاسطوات والفلاحين تخلصا من برد الخريف وزمهرير الشتاء والمجاعة والامراض وانعدام المأوى . وامر القيصر بتعبئة عاملين آخرين . لكن اشاعات انتشرت فى كل مكان بشأن الاعمال الشاقة التى يمارسها شغيلة بطرس فى فورونيج وضواحيها ، ففر الكثيرون الى الغابات رافضين العمل فى احواض بناء السفن وقطع الاشجار .

وتخلف انجاز بناء السفن عن المواعيد المقررة . زد على ذلك ان الاعمال جرت باستعجال ولم تكن هناك خطة مدروسة لتخزين الاحتياطيات والمعدات وبناء السفن نفسه . ولم يكن عدد الاسطوات المحنكين كافيا . وفى كانون الاول (ديسمبر) تشكى بطرس قائلا :

— الحقيقة ، لا معين لى هنا .

ولم يكن مظهر السفن المبنية يبعث على السرور . فقد بنيت من اخشاب طرية ، وبدلا من المسامير الحديدية استخدمت المسامير الخشبية . وكانت هياكل السفن ، مع الاسف ، اسوأ بكثير من تلك التى شاهدها بطرس فى بريطانيا وهولندة . فان متونها وسطوحها مرتفعة جدا او طويلة جدا ، و«ضيقة للغاية» ، مما ادى الى تدهور خاصية هامة من خصائص السفن هى الاستقرار والثبات . وامر بطرس باعادة بناء بعض السفن ، وراح يتهدد ويتوعد ويلوم المقصرين . ورغم كل الصعاب والنواقص دشنت اولى سفن الاسطول الروسى . وشكل ابراكسين طواقم تلك السفن من البحارة هذه المرة وليس من الجنود كما فى السابق .

وسيقدم هذا الاسطول خدمة شأن الموانىء والمرافىء التى بناها بطرس على البحر الاسود . فهدفه هو الملاحة الحرة فى هذا البحر وعبر مضيقيه الى البحر الابيض المتوسط ، ومنه الى الرحاب المائية التى تغسل سواحل اوربا من الغرب .

وبينت تجربة «البعثة الكبرى» ان من اللازم تغيير الوجهة الجنوبية للسياسة الخارجية . فالكفاح من اجل بحر البلطيق تمليه اعتبارات كثيرة . فى مقدمتها ضرورة استعادة الاراضى الروسية العريقة عند الخليج الفنلندى ، بالاضافة الى الحاجات الموضوعية لتنمية اقتصاد البلاد وتطوير سوقها التى هى بأمس الحاجة الى توسيع الصلات الخارجية . فى حين كانت القوات السويدية تعترض هذا الطريق . كان الملك غوستاف-ادولف قد اعلن فى البرلمان عام ١٦١٧ : «حرمت روسيا من منافذ البحر وسيكون من الصعب عليها ، والحمد لله ، ان تذلل كل هذه العوائق» . ثم ان انعدام منافذ البحر وعدم وجود اسطول ومرافىء يهددان بتوسع الدول البحرية الكبرى وبضياع الاستقلال الوطنى فى المستقبل . وقد ادرك بطرس ذلك واتخذ اجراءات نشيطة عاجلة — عسكرية وبحرية ودبلوماسية وادارية . فان «العاب التسلية» المبكرة فى البر والماء ورحلته الى الخارج والمراسيم الكثيرة جدا التى اصدرها فى اعقاب تلك الرحلة والتحويلات التى بدأت فى الجهاز الادارى والجيش وبناء اولى السفن والبحث عن الفلزات فى الاورال — كل ذلك كان فى الواقع يستهدف تقوية البلاد وقدرتها الاقتصادية والعسكرية ، وبالتالى حل المهمات الوطنية العاجلة : حماية سيادة روسيا فى الصراع المرتقب بين القوى العالمية وتأمين منافذ الى البحر وتوسيع الاتصالات مع اوربا وتحويل البلاد الى دولة عالمية .

وقد اشير مرارا من زمان الى ان التحويلات الاولى توالت الواحد اثر الآخر بدون نظام ظاهر ولا تعاقب او منطق . واساس كل تلك التحويلات هو ارادة القيصر واهواؤه وتعسفه . فى هذه الاقوال شيء من الحقيقة . ففى افعال بطرس نجد الاندفاع العاطفى والحماس النفسانى والطاقة المنفلتة ونفاد الصبر والتحكم المطلق لقيصر لا رقيب عليه . كل ذلك صحيح . الا ان المراسيم والافعال الاولى بمجملها نابعة من رغبة ملحة متعصبة حدت بهذا الانسان العبقرى طول حياته الى تأمين منفعة روسيا ومصالح الدولة فى الحاضر والمستقبل .

عندما كان بطرس فى فينا وبلغه نبأ الانتفاضة الجديدة لافراد القوات الخاصة ، فاسرع عائدا الى روسيا اختمرت فى ذهنه فكرة حل افواج تلك القوات ، وهذا ما فعله جزئيا (للقوات الخاصة فى موسكو) فى سياق التحقيقات المرعبة فى تلك القضية . وبدلا من تلك القوات بدأ بتشكيل افواج الجيش النظامى . فقد نص مرسوم ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٦٩٩ على تشكيل ٣٠ فوجا للمشاة من المجندين عن عدد معين من العوائل ومن الفلاحين والخدم ، وكذلك من الاحرار (من غير الفلاحين الاقنان) . وكان ذلك «جيشا نظاميا مباشرا» فى رأى القيصر ، وكان تشكيله بتلك الهمة والسرعة البالغة قد ادهش البعض واثار ريبة البعض الآخر . فان المقيم السويدى كنيبر مثلا «تساءل عن تجنيد الافواج النظامية بلهجة حادة : ما الداعى لتشكيل مثل هذه الافواج النظامية المنقطعة النظير ؟ وكيف تصونون السلام مع جميع الجيران والحال هذه ؟ وردوا عليه بان الدولة بعد حل القوات الخاصة لم تبق لديها اية مشاة ولا يجوز لها ان تبقى بدون مشاة» .

كان كنيبر مصيبا فى شعوره بالخطر الناجم عن استبدال القوات الخاصة بافواج المشاة النظامية الجديدة . فمع ان الروس قالوا له ان التجنيد سببه «المخاوف من الحرب العثمانية» (فالحرب ضد تركيا كانت قائمة رسميا) ، الا ان مثل هذه الاقوال لم تضلل احدا . فان السويد التى يمثلها هذا الرجل فى روسيا تمتلك جيشا نظاميا ممتازا فى مقاييس ذاك الزمان . وفى الصدام المتوقع (بدأ الكلام فى اوربا عن اختمار الحرب بين روسيا والسويد من فترة «البعثة الكبرى») يسهل على السويد ، كما قال الساسة والجنرالات السويديون بحق ، ان تواجه القوات الخاصة وليس الوحدات النظامية التى تمتهن الشؤون العسكرية وتتخصص فيها وحدها . ولم تكن فى روسيا حتى ذلك الحين افواج نظامية فى الواقع سوى فوجى بريوبراجينسكى وسيميونوفسكى للحرس ، وكذلك فوج ليفورت وفوج بوتيرسكى (بقيادة غوردون) المتدربين عسكريا ولديهما خدمة نظامية دائمة . اما باقى الافواج — الجنود والخيالة الخفيفة والثقيلة ، فمع انها منظمة على الطراز الاجنبى الا انها تمارس الخدمة اثناء الحملات فقط . وفى الفترات بين الحملات يطلق سراح افرادها فيعودون الى منازلهم ويمارسون الزراعة . اما جنود الافواج النظامية فيجب ان يخدموا ويتدربوا على الدوام . وكان الجند الوقتيون يتحولون الى عسكريين دائميين .

وجرى فى بريوبراجينسكويه ، مقر القيصر المحبب ، جمع المجندين وتشكيل الافواج منهم . واخذ بطرس يتفقدهم ويتأكد بنفسه من صلاحهم للخدمة . كان القيصر قد كلف فى عام ١٦٩٧ فيدي بدراسة تنظيم جيش الامبراطورية الرومانية المقدسة . وفى العام التالى وضع فيدي «الميثاق العسكرى» الذى عين

المناصب العسكرية فى القوات الروسية وفقا لترتيبها فى الجيش الامبراطورى ، كما تضمن قواعد تدريب الجنود . وفى صيف ١٦٩٩ وضع فيدي «التوصيات الى الجنود» و«لائحة العقوبات العسكرية» . وعندما كان بطرس فى الجنوب درس باهتمام المواثيق ومجموعة قوانين العقوبات الجنائية العسكرية واجرى تعديلات عليها .

وخصص لجنود الجيش الجديد راتب سنوى قدره ١١ روبلا ، بالاضافة الى مؤونة من الاطعمة والنبيذ بنفس المقادير المطبقة فى فوج بريوبراجينسكى .

وراح بطرس واعوانه (الجنرال غولوفين والجنرال فيدى والعقيد الامير ريبنين وغيرهم) يتابعون كيفية تدريب الجنود على القتال الصحيح واستخدام البنادق والغدارات وقواعد رماية المفارز ، وكذلك رماية الصف الخلفى بانبطاح الصف الامامى . وكان التدريب معقدا جدا . فلكى يعبىء الجندى ، مثلا ، الغدارة الصوانية ويطلق النار منها يجب عليه ان يؤدى ١٦ مهمة . واستخدم القيصر فى مجال التسليح مستحدثات من الجيش السويدى ـــ كالحربة الشبيهة بالفأس . ولكنه ، خلافا للعديد من الجيوش الاوربية التى كان جنودها يرتدون بزات زاهية ملونة ، استخدم فى جيشه بزة بسيطة ومريحة .

وكانت هناك صعوبات فى هذه القضية التى طبقت باستعجال ، بل وبصورة غير ناجحة تماما ، كما بينت التجربة لاحقا . كانت الاغلبية الساحقة من الافواج الجديدة افواج مشاة (٢٧ فوجا) ، واثنان منها فقط للخيالة الخفيفة . وظلت الخيالة كالسابق تتكون من هجانة النبلاء القديمة التى تخلت عنها اوربا الغربية من زمان . واتضح ان العديد من الضباط

الاجانب الذين اختيروا كيفما اتفق لم يكونوا صالحين ، وجرى استبدالهم بضباط روس على جناح السرعة . وكتب غولوفين الى بطرس يقول : «الافضل ان نعلمهم هم وليس الاجانب» .

وتشكلت من تلك الافواج ثلاث فرق بقيادة غولوفين وفيدى وريبنين انفسهم . وكان المقدمون وصغار الضباط من الاجانب فقط ، من البولونيين والسويديين وغيرهم . وفى سياق التدريب نحى الكثيرون منهم واستبدلوا برجال البلاط وبالمقربين الى القيصر ، ممن اوفدوا معه الى الخارج ضمن «البعثة الكبرى» . وجرى تدريبهم بهمة ونشاط فى ربيع وصيف ۱۷۰۰ . ومن الناحية الادارية صار هذا الجيش خاضعا للمصالح الثلاث الجديدة المذكورة اعلاه ــ المفوضية العامة والمؤن العامة والمدفعية العامة .

وانقضت تلك الاعوام الثلاثة العاصفة فى مشاغل كثيرة واستعجال بالغ وتوتر لجميع القوى . وتم تحقيق الكثير فى ميدان الاستمرار بالخبرات القديمة ومبادرات الاسلاف ، وفى ميدان الجديد الهام جدا للاعمال المرتقبة . وكانت هناك اخطاء غير قليلة وشكوك مبعثها الاستعجال المتشنج والخوف من التأخر وتفويت الفرصة . وكان بطرس يستعجل ويستحث اعوانه ونفسه والبلد كله ، ويلاحظ الاخطاء ويصححها حيثما امكن وحيثما يتسنى له ذلك ، ويتشكى الى اصدقائه والى من يكاتبهم ويراسلهم ويعاقب المقصرين ويشد آلة الدولة بمزيد من السرعة ويرتقى ذرى جديدة . كان فى فورونيج يبنى السفن ويصحح الاخطاء فى هياكلها ويلوم الاسطوات وغيرهم من العاملين ويشتاط غضبا لاختلال النظام والتسيب والسرقات (التى كان لمسؤول بناء الاسطول بروتاسيف ضلع فيها) . وقد كتب من

هناك الى فينيوس ، اكثر مستشاريه تعلما واطلاعا ، وارفعهم منزلة فى نظره ، يعرض عليه تأملاته المريرة : «لا تزال سحابة الشكوك تحجب بصيرتنا . . . فليساعدنا الرب والقديس بولص» فيما سيأتى .

ولكن لا يليق بالقيصر ان يطيل الاكتئاب والتأمل الحزين . فيجب اداء الاعمال ، بل يجب اداؤها بشكل افضل واسرع . واهم ما يشغل باله القضايا الدبلوماسية والسياسة الخارجية . وطالما لم يوفق فى الجنوب فيجب ان ينقل مركز الثقل الى الشمال . روسيا لا تقوى على القتال فى جبهتين . ولكى تفرغ من قضايا الجنوب يجب توقيع الصلح او الهدنة ، على الاقل ، مع الباب العالى . اما الموقف فى اوربا فهو معقد للغاية . ويقول كلوتشيفسكى ان الصراع ضد «الدول العدوانية الثلاث» فرنسا والسويد وتركيا دفع البلدان الاخرى الى الائتلاف . وفى آخر القرن السابع عشر ارتسمت ابعاد جديدة للتحالف بين الدول . فالحرب المختمرة من اجل التركة الاسبانية (١٧٠١ — ١٧١٣) حملت النمسا على التصالح مع الاستانة . وبذلت بريطانيا وهولندة قصارى الجهود لبلوغ هذا الصلح . واضطرت روسيا الى الاذعان لتحول الاحداث على هذا النوع ، والاكثر من ذلك انها اضطرت الى المشاركة فى مفاوضات الصلح مع الباب العالى .

كان فينيوس ، مراسل بطرس ومخبره الدائم (حيث يبلغه بالمعلومات المستقاة من الجرائد الاوربية التى يطالعها دوما) قد اخبره بالتحضير لمؤتمر فى كارلوفيتسى بضواحي بلغراد . واجتمع ممثلو الامبراطورية الرومانية المقدسة والبندقية وبولونيا وروسيا هناك للتفاوض مع الباب العالى . ارسل بطرس الى هناك

فوزنيتسين الذى كان من موفدى «البعثة الكبرى» واحد مندوبيها الثلاثة الى اوربا فى ١٦٩٧ — ١٦٩٨ . وعلم القيصر من فينيوس ان كارل الثانى ، ملك اسبانيا ، حى يرزق ، بينما كانت اوربا كلها تنتظر وفاته . لكن فرنسا اعدت جيشا من ١٠٠ الف شخص على اهبة الاستعداد تحوطا للطوارئ . وكانت هذه المعلومات فى منتهى الاهمية بالنسبة لبطرس ، فعليها يتوقف البدء بالحرب ضد السويد ام لا . وكتب بطرس الى فينيوس من فورونيج عن النطاق الواسع لبناء السفن وعن انتظار الاخبار الطيبة التى يتوقع ان تضع حدا للمجهول والغموض فى مسألة تركيا والسويد .

ولم يقتصر «التحويل العظيم» على فورونيج وضواحيها ، بل شمل روسيا كلها ، نظامها الداخلى وسياستها الخارجية وثقافتها وحياتها المعيشية . ووافقت بداية التحويل تغير وجهة الجهود الدبلوماسية والعسكرية للدولة . وادى الى تعزيزها من جميع الوجوه . واضافة الى الاجراءات المذكورة اعلاه يجدر بنا ان نذكر اجراءات بطرس الحازمة فى بناء الصناعة . ففى عام ١٦٩٧ بدأ بأمر منه بناء افران الصهر وورشات صب المدافع فى الاورال . وفى العام التالى ارسى فى نيفيانسك اساس اول مصنع للتعدين . وبعد ثلاثة اعوام انتج اول كمية من الحديد الزهر . ثم ظهرت مانوفاتورات اخرى للتعدين والجوخ واقمشة الاشرعة والبارود والحبال والجلود وسواها . وبلغ عددها ٤٠ مؤسسة فى غضون بضع سنوات . بديهى ان الورشات الحرفية والمانوفاتورات كانت موجودة قبل بطرس . فهنا ايضا واصل اعمال اسلافه . فطوال القرن السابع عشر كانت هناك بضع عشرات من المانوفاتورات فى مختلف الميادين (كانت تظهر وتحتجب ثم تعمل من جديد) . وعملت عشرات الآلاف من الاجراء الاحرار

فى المانوفاتورات والصنائع (انتاج الملح والبوتاس والاسماك وهلمجرا) وفى النقل النهرى وبالعربات (كان هناك حتى اواخر القرن المذكور اكثر من ٢٠٠ الف شغيل) . الا ان بطرس الاكبر هيأ لتطور الصناعة نطاقا لا مثيل له وسار به شوطا بعيدا الى الامام . ولا تقتصر القضية هنا على ارادة القيصر الشخصية وطاقاته ورغباته هو ومستشاريه الروس والاجانب ، لا تقتصر عليها وحدها ، بل هى كذلك فى سير الامور الموضوعى وحاجات البلاد .

كل جهود بطرس التى استعرضناها فى هذا الفصل والفصول السابقة اعطت ثمارا هى ثمارها الاولى غير الناضجة تماما فى بعض الاحيان . ودعت الحاجة فيما بعد الى تصحيح امور كثيرة واكمالها وتغييرها من قبل القيصر واعوانه من الروس والاجانب . وينبغى القول ان بطرس فى هذه السنوات ، وخصوصا فى السنوات التى اعقبتها لم يكن يستخدم الاجانب ويعتمد عليهم فى تطبيق سياسة التحويلات اعتمادا عشوائيا دون روية او تفكير . لكننا نصادف احيانا فى الدراسات الاجنبية الحديثة مزاعم تؤكد ان روسيا وبطرس مدينان بكل منجزاتهما ونجاحاتهما الى الاخصائيين الاجانب ـــ العسكريين والاسطوات والاداريين . وذلك تطرف صرف . وهناك تطرف آخر يتجلى فى الفكرة التى يؤيدها مثلا المتعصبون الروس للنزعة الصقلبية فى القرن التاسع عشر وبعض المتعصبين المحدثين والقائلة بان بطرس الحق الضرر بروسيا ولم ينفعها اطلاقا بمحاكاته العبودية الهوجاء لكل ما هو اجنبى . فاولئك وهؤلاء يجانبون الصواب . فان بطرس ، رغم اندفاعاته المتطرفة واخطائه ، قد تصرف بشكل صائب بل وحكيم عندما استدعى الاجانب واستفاد من خبرتهم ومعارفهم

وقدر رفيع التقدير اولئك الذين اخلصوا له ولروسيا فى الخدمة والولاء . فى آذار (مارس) ١٦٩٩ عندما توفى صديقه المرح فرانس ليفورت الذى ايده بفطنة وتأدب فى كل مبادراته الجيدة بكى بطرس بصدق ومرارة عند جثمانه . وحزن بنفس الصورة فى تشرين الثانى (نوفمبر) من العام ذاته بعد وفاة الجنرال الباسل الصارم باتريك غوردون . وقد استحقا كلاهما حب واحترام بطرس والعديد من الروس الآخرين ، وتركا ذكرى طيبة عاطرة . ويمكن قول الشيء ذاته عن بعض الاخصائيين الاجانب الآخرين ولو بقدر اقل . فان احدا ، على ما يبدو ، لم يحظ بثقة وحب بطرس وميله الروحى بقدر ما حظى به ليفورت وغوردون مع ان القيصر ظل كالسابق يقدر الكثيرين . لكن بطرس عندما كان نصيراه المحبوبان على قيد الحياة وبعد مماتهما لم يكن يتغاضى ابدا عن النواقص الواضحة لدى الكثيرين من الاجانب من المغامرين والوصوليين . ولم يتوان فى تقييم اعمالهم بصراحة وتنحيتهم عن الاعمال الموكلة اليهم ومعاقبتهم كما يفعل فى معاملة ابناء جلدته .

اشار الاخصائى الفرنسى المعاصر المعروف فى الشؤون الروسية البروفسور روجيه بورتال بحق ، فيما يخص النقطة موضوع البحث ، الى «ان روسيا سارت نحو التقدم ببطء وبصورة مستقلة . وكان دور الاجانب الذى لا ينفصل عن سياسة بطرس الاكبر يشكل قسطا ثانويا ، فيما جدا فى بعض الاحيان ، عجل فى هذا التقدم لكنه لم يكن حاسما» .

فالعامل الحاسم هو تطور روسيا وعمل الشعب ونشاط قادته السياسيين والاداريين والعسكريين . وقد لعبت جهود القيصر الروسى دورا كبيرا فى نهاية القرن السابع عشر . فلا احد يضاهيه من

حيث تعمقه فى ادراك كل جوانب حياة البلاد وسياستها الداخلية والخارجية ، وفى ادارة دفة سفينة الدولة فى المجرى المطلوب . وتجلى تأثير ذلك ايجابا فى كل شىء ، بما فيه الشؤون الدولية والدبلوماسية الروسية التى قدر لها ان تلعب دورا كبيرا فى مصير البلاد فى السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر .

كان بطرس فى تلك السنوات مشغول البال خصوصا بقضية صعبة لا تقبل التأجيل ، وهى كيف ينهى الحرب ضد الامبراطورية العثمانية فى جو متغير دوما وغير ملائم لروسيا ابدا . فالدول الغربية البارزة ــ النمسا وفرنسا وبريطانيا وهولندة والسويد وغيرها تستحث الاستانة على مواصلة الحرب ضد روسيا . وتسعى جميعها ، وهى تنتظر حربا من اجل اقتسام التركة الاسبانية ، الى تأمين سلامة اجنحتها الشرقية وتفرغ قواتها ومواردها لاجل تلك الحرب و«الهاء» روسيا والامبراطورية العثمانية فى مقاتلة بعضهما البعض .

كان فوزنيتسين يناسب تماما الدور الذى اناطه به القيصر . فهو رجل محنك متمرس صلب العود وبيروقراطى متزمت بدأ يمارس نشاطه الدبلوماسى فى عهد اوردين-ناشوكين . وكان قد اجرى فى حينه مفاوضات فى الاستانة ، وعمل سنين عديدة مقيما دبلوماسيا فى وارشو . وعندما اوفد كواحد من رؤساء «البعثة الكبرى» الثلاثة اطلع عن كثب على طباع وتصرفات القيصر الشاب وتفهم آراءه فيما يخص السياسة الخارجية . وراح ينفذ تكليفات القيصر بدقة بالغة ويطبق نهجه الدبلوماسى دون قيد او شرط .

وصل فوزنيتسين بأمر من القيصر الى كارلوفيتسى . كان فى معطف طويل من فرو السمور الرمادى ، وعلى رقبته قلادة من ست او سبع لفات ، وليس من لفتة او لفتين . واصابعه مزينة

بخواتم براقة ، وقبعته مطعمة بالماس الثمين . كان بدينا ضخما ، رزينا متكابرا ، متأنيا صامدا كالصخر . ويبدو ان هذا الدبلوماسي الروسي ترك لدى الحاضرين انطباع الوجيه الشرقي الذي لا نهاية لثرائه . ومع ذلك كانت صلابة هذا الموظف الروسي الكبير تقترن مع مرونة الدبلوماسي العصامي المحنك المكتسبة . فان تواجده سنين طويلة في البلاطات الاجنبية واتصالاته مع الحكام والوزراء عادت عليه بنفع كبير . وكان بروكوبي فوزنيتسين يجيد العثور على مخرج من اصعب المواقف ، ويبدي في مثل هذه الاحوال سماحة عشائرية ودهاء كبيرا ، فيمزج بين التحايل الشرقي والشطارة الاوربية مع ان مظهره لا يدل على اصله الاوربي الا من بعيد .

وكان بلده في عزلة في مؤتمر كارلوفيتسي . فقد هبت ضد روسيا الاستانة ، وهذا في طبيعة الاشياء ، وكذلك حلفاؤها بهذا القدر او ذاك — النمسا والبندقية وبولونيا ، والدولتان الوسيطتان بريطانيا وهولندة . وينبغي ان نضيف اليها فرنسا التي اسندت الامبراطورية العثمانية رغم عدم اشتراكها في المؤتمر . ولما كانت فرنسا والنمسا وبريطانيا وهولندة قد اتفقت بموجب اتفاقية ١٦٩٨ على تقسيم ممتلكات اسبانيا بعد وفاة كارل الثاني فان الحرب يمكن الا تنشب بينها . وكان على بطرس ودبلوماسيه ان يأخذوا بعين الاعتبار هذا الاحتمال ، شأن دسائس من يسمون بحلفاء روسيا في الائتلاف المناهض للعثمانيين . وكان الجميع — «الاصدقاء» والاعداء والوسطاء — يسعون الى بلوغ اهدافهم على حساب الامبراطورية العثمانية وروسيا .

ولم تعقد في كارلوفيتسي جلسات عامة لكل مندوبي المؤتمر ، بل جرت مفاوضات ثنائية بين ممثلي الباب العالي

من جهة وخصومهم من الائتلاف المناهض للعثمانيين من جهة اخرى . وبغض النظر عن موقف روسيا ومصالحها وقعت النمسا والبندقية مع الاستانة اتفاقيتين سلميتين انفراديتين وحصلتا على مكتسبات كبيرة ، حيث كسبت النمسا ترانسلفانيا والمجر العثمانية وسلافونيا ، وكسبت البندقية موريا في اليونان . ولم يرغب الباب العالي ابدا في التنازل لروسيا عن الاراضي التي احتلتها هذه الاخيرة في اسفل الدون والدنيبر ومنطقتي آزوف والبحر الاسود . ولم يوفق فوزنيتسين في المرحلة الاولى ولم تنفعه معاطف السمور التي استلمها منه الدبلوماسيون العثمانيون بارتياح ولا تلميحاته الى احتمال انتصار الاستانة على النمسا اذا شنت هذه الاخيرة الحرب على فرنسا من اجل التركة الاسبانية .

كانت الامبراطورية العثمانية التي استنزفتها الحرب وتكبدت فيها الهزيمة تلو الهزيمة تتعطش الى السلام . وهذا امر يفهمه الجميع تمام الفهم ، ومنهم فوزنيتسين ، ولذا راح يساوم بعناد ولامد طويل . علما بانه بدأ بمطالب واقتراحات مبالغ فيها ؛ بل وليست واقعية . ولم تنجح التلميحات الى حرب العثمانيين ضد النمسا ، وهذا شيء طبيعي ، ولذا تحرك فوزنيتسين من جديد مقترحا على العثمانيين مشروع اتفاقية سلمية فيها بنود لا يمكنهم قبولها طبعا . فقد نص المشروع على تسليم آزوف ومدن اسفل الدنيبر (كيزيكيرمين وغيرها) الى روسيا بالاضافة الى كيرتش وحرية الملاحة للسفن الروسية في البحر الاسود وعبر مضيقيه ، والاعتراف بالحماية الروسية للصقالبة المسيحيين المقيمين في الاراضي العثمانية وتسليم «العتبات المقدسة» في فلسطين الى روسيا . ويمكن الافتراض بان الروس حتى قبل بطرس كانوا يفكرون في هذه الامور ويحلمون بها . لكنها غير قابلة للتحقيق

لا آنذاك ولا الآن ، فى عهد بطرس . ولم تتحول بعض هذه القضايا الى واقع عملي الا فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر وفى القرن التاسع عشر . اما الآن ، فان فوزنيتسين الذى يدرك بالطبع تمام الادراك عدم واقعية اغلبية بنود المشروع قد تخلى فى سياق المفاوضات السرية مع العثمانيين عن عدد من المطالب واقدم على تنازلات الغرض منها كسب تنازلات اخرى من الجانب المقابل . فقد تنازل عن كيرتش ، بينما تنازل العثمانيون عن آزوف . لكن ذلك جرى ببطء وبصعوبة فى مجادلات وملامات . وكان الجدال من اجل آزوف التى طالب العثمانيون فى البداية باعادتها مطالبة مسعورة قد اتخذ احيانا اشكال المأساة والملهاة معا . فالعثمانيون ذكروا ان القيصر الروسى ميخائيل ، جد بطرس ، سلم الى الاستانة فى ١٦٤٢ آزوف التى احتلها قوزاق الدون قبل ذلك بخمس سنوات . ورد فوزنيتسين بهدوء وطيبة نفس :

— اعطونا ، اذن ، كيرتش واوتشاكوف .

وقد كتب الدبلوماسى الروسى عن ذلك كله فى احد تقاريره ، واختتم وصف هذا المشهد بسذاجة وطيبة ظاهريين ، ولكن بتهكم وانتصار خفيين :

— استمع المندوبون الاتراك الى ذلك ودهشوا اشد الدهشة وتغيرت ملامح وجوههم وتبادلوا النظرات حيث احتقنت تلك الوجوه الى اقصى حد .

ويبدو ان ذلك تكرر اكثر من مرة ، وفى الحالات التى حضر المفاوضات فيها الوسطاء شاهد هؤلاء صدامات من هذا النوع . ذات مرة رفض فوزنيتسين تنفيذ مطلب مهين جديد تقدم به العثمانيون . فهو متمسك بمصالح روسيا تمسكا ثابتا

ومهتم اكبر الاهتمام بالحفاظ على كرامة قيصرها . وكان السفير البريطاني اللورد باجيت حاضرا ، وهو رجل رزين بارد الاعصاب . لكنه ، على حد تعبير فوزنيتسين ، ظل صامتا محتقن الوجه تارة ، ومصفرا تارة اخرى . واخيرا فقد صبره فصاح :

— تجاوزتم كل الحدود .

وعندما رأى فوزنيتسين «وقاحته وعرقلته للقضية» طلب من السفير الهولندى ان يتدخل :

— هدئ من روعه .

واسفرت المساومة العنيدة عن نجاح وان كان غير كامل . فاستطاع فوزنيتسين ان يحتفظ بآزوف دون ان يتنازل عن مدائن الدنيبر . ولعلمه بان بطرس يطالب مطالبة حازمة بتوقيع الصلح مع الباب العالى سار فوزنيتسين بالامور الى حد التهديد بمواصلة الحرب ، ولم يكن ذلك من قبيل الاعتداد بالنفس او النزعة المغامرة ، بل كان حسابا بعيد النظر وتصلبا هادفا . وبالنتيجة خرج مظفرا من معركة دبلوماسية عسيرة . فقد تنازل العثمانيون ووافقوا على هدنة لمدة عامين حتى بدون تسليم مدائن الدنيبر لهم مع ان بطرس كان مستعدا للموافقة على تسليمها .

وفى ١٤ كانون الثانى (يناير) ١٦٩٩ وقعت الهدنة اخيرا . وشعر بطرس بالارتياح عندما استلم فى آخر الشهر هذا النبأ الذى انتظره طويلا . ونشط بطرس المفاوضات مع الذين يمكن ان يصبحوا حلفاء فى الحرب القادمة ضد السويد — حاكم براندينبورغ ، وملك بولونيا حاكم سكسونيا ، وملك الدانمرك . وقد تصرف بحذر انطلاقا من كون الجبهة الجنوبية لم تحقق السلام بعد ، فالاتفاقية مع تركيا مجرد هدنة . وكانت مباحثات الصلح والسلام لا تزال معلقة . وكان مندوبو السويد يتابعون

سير الامور باهتمام وحذر .

وكان في بلاط موسكو آنذاك السفراء والمقيمون : غفارينت ممثلا عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وهينس عن الدانمرك ، وكنيبر عن السويد ، وبوكى عن بولونيا ، والجنرال كارلوفيتش ممثلا عن اغسطس الثاني . وكان هناك مقيمون آخرون رسميون وسريون . وغالبا ما يترك بطرس المراسيم الموسكوبية القديمة ويجرى بنفسه المباحثات معهم ، ويشرك فيها غولوفين احيانا ، ويجريها وحده احيانا اخرى . وتقابل معهم سرا (في منازل الوجهاء ، مثلا) وفي حفلات الاستقبال الرسمية . وعندما تستدعى الضرورة يوافق على مراسيم احتفالية فخمة يجرى فيها استعراض القوات ومقابلة السفراء والاحتفاء بهم والقاء الخطب الرسمية وهلمجرا . على هذه الصورة استقبل مبعوث براندينبورغ الفون برينسين في كانون الثاني (يناير) ١٦٩٩ . وكان بطرس في بداية «البعثة الكبرى» قد عقد مع حاكم براندينبورغ فريدريك الثالث معاهدة صداقة واتفاقية شفوية للتحالف ضد السويد . وكان حاكم براندينبورغ من المعجبين جدا بالحفلات الفخمة ، ولذا استجاب له القيصر الروسي ، حيث استعرضت الدورية العسكرية والخيول البيضاء وغيرها اثناء استقبال الفون برينسين . لكن بطرس رفض كالسابق ادعاءات حاكم براندينبورغ بلقب الملك .

كان بطرس منذ عدة سنين يمارس التحضير الدبلوماسي للحرب ضد السويد من اجل البلطيق . وكانت الامور تجرى على ما يرام حسب الظاهر . فالهدنة مع الباب العالي وقعت . والحرب الداهمة في سبيل التركة الاسبانية حرمت السويد من الحلفاء المرتقبين . واخذت بعض بلدان البلطيق تبحث عن سبل للتحالف مع روسيا ضد السويد . وكانت الدانمرك اول

تلك البلدان . فلديها اسباب كثيرة تجعلها تتذمر من جارتها الشمالية (السويد) . فهى التى جعلتها منذ اواسط القرن السابع عشر تفقد حقها المطلق فى السيطرة على مضيق زوند ، كما ان جارتها الجنوبية دوقية شليزفيغ-هولشتين التى ادعى ملك الدانمرك بملكيتها قد تحالفت مع السويد . وفى تلك الفترة اعتلى عرش السويد الملك كارل (شارل) الثانى عشر البالغ الخامسة عشرة من العمر ، وهو فتى اهوج كثير الفضائح . وكان بلاط الملك والنبلاء الارستقراطيون فى عداء وتناحر . ومن اسباب تأزم الموقف تكرر القحط وما يرتبط به من صعوبات اقتصادية . وبدا الموقف ملائما لكوبنهاغن ، فبعثت فى صيف ١٦٩٧ الى موسكو رسولا يمثل الملك . وكانت مهمته استمالة روسيا للتحالف مع الدانمرك . كان بطرس غائبا ، ولذا جرت مع المبعوث الدانمركى هينس مباحثات تمهيدية . وفى نهاية ذلك العام استلم القيصر فى امستردام مذكرة تضمنت هذا الاقتراح . كان الموقف غامضا ، فاخبر موظفو مديرية العلاقات الخارجية هينس برغبة القيصر فى ان ينتظر عودته فى موسكو . وعندما عاد بطرس الى موسكو ابدى ميلا واضحا الى المبعوث الدانمركى . وذات مرة جاءه الى منزله . فقد ولد للمبعوث الدانمركى طفل ، ونزولا عند رغبة هينس غدا القيصر اشبينا له ، وحضر مراسيم التعميد ، كما حضر مأدبة الغداء التى اقامها المبعوث بهذه المناسبة . واستغرق الغداء والاحاديث وقتا طويلا ، لكن احدا لم يتطرق الى التحالف المذكور . فان بطرس لا يريد ان يعد بشىء ما لم تصل انباء سارة من كارلوفيتسى . لكنه وعد هينس بالتحدث فى الموضوع فى لقاء غير رسمى .

وتم هذا اللقاء فى ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) ١٦٩٨ فى

منزل المقيم الدانمركي بوتينانت فون روزينبوش الذى عاش فى موسكو امدا طويلا (وترك وصفا هاما وقيما لانتفاضة ١٦٨٢ فى موسكو) . وهو شخص يعرفه بطرس جيدا . وردا على التفاصيل التى بدأ هينس بايرادها طلب منه القيصر ان يترك التفاصيل ويحدثه بايجاز عن جوهر الامر ويقدم مسودة المعاهدة لاجراء المفاوضات لاحقا بعد دراستها . ولم يعرض بطرس خبر هذا اللقاء والحديث على معاونيه ، ومنهم خاله ناريشكين الذى ظل كالسابق من الناحية الرسمية مديرا لدائرة السياسة الخارجية ، لكنه لم يعد يلعب دورا يستحق الذكر . وطلب بطرس من هينس الا يكشف عن سر اللقاء ولا يدخل فى مفاوضات مع احد سواه .

وطلب هينس تعليمات من حكومته فمنحه الملك كريستيان الخامس صلاحية تقديم مشروع المعاهدة الى بطرس بحيث يستطيع ان يجرى عليها اية تعديلات بشرط ان يبقى على البند الخاص بالتعاون المتبادل بين الطرفين . وفى ٢٧ كانون الثانى (يناير) ١٦٩٩ ابلغ المبعوث القيصر باستعداده لتقديم مشروع المعاهدة . وسلمها فى ٢ شباط (فبراير) فى لقاء سرى مماثل فى منزل روزينبوش نفسه . اطلع بطرس على نص المعاهدة ، وفى ١٩ شباط (فبراير) دعا هينس الى فورونيج حيث كان القيصر يقلفط السفن . وكان يريد لهذه الوثيقة ان تكون اكثر اختصارا ودقة . فهو يحب الايجاز والوضوح . وقد وافق عموما على مضمونها ، لكنه اقترح ان يدرج ضمنها بند جديد حول دخول روسيا الحرب بعد توقيع الصلح الدائم مع الاستانة وليس قبله .

واتخذ بطرس اجراءات اخرى فى هذا الاتجاه وهو فى فورونيج . ففى ٢ نيسان (ابريل) وقع مرسوما بتعيين اوكراينتسيف

الرجل المحنك الذى ترأس مديرية العلاقات الخارجية فى حينه عشر سنين سفيرا فوق العادة فى الاستانة لاجراء مفاوضات بشأن السلام الدائم مع الاستانة . وفى ختام الاعمال فى كارلوفيتسى قدم فوزنيتسين الى بطرس ، فيما قدم ، نصيحتين قيمتين هما ارسال شخص ذكى من غير الوجهاء الى الاستانة لاجراء المفاوضات ، على ان يذهب الى هناك ليس برا كما هى العادة ، بل بحرا ، على سفينة حربية لتبين روسيا للعدو ان لديها اسطولا قادرا على القتال فى البحر الاسود . وتقبل القيصر كلتا التوصيتين . ووضع مع غولوفين فى فورونيج نفسها امرا تفصيليا هو عبارة عن توجيه الى اوكراينتسيف الرجل الذكى الذى لا ينحدر من الوجهاء . وجرى اعداد سفينة له تحمل اسم «القلعة» . زد على ذلك ان الاسطول الذى بنى فى فورونيج وخصص للحرب ضد الامبراطورية العثمانية (وضعت خطة هذه الحرب من قبل بطرس عندما كان فى امستردام) كان يجب ان يرافق بأجمعه سفينة السفير حتى مدينة كيرتش . وبدلا من العمليات الحربية ينبغى للاسطول ان يبدأ استعراضا دبلوماسيا .

وبعد اسبوع ، فى ٩ نيسان (ابريل) عين بطرس سفيرا فى هولندة هو أ . أ . ماتفييف اول ممثل دبلوماسى دائم لروسيا فى الخارج . وقد خدم فى اوربا حتى عام ١٧١٥ . وهو ابن ماتفييف الذى ترأس مديرية العلاقات الخارجية فى السنوات الاخيرة من حياة القيصر الكسى . وبفضل عناية الاب حصل ماتفييف الابن على تعليم جيد واتقن لغات اجنبية . وربما ساعد على دراسة تلك اللغات نفى الاب مع ابنه سنين طويلة (من ١٦٧٦ ، بعد وفاة القيصر الكسى حتى ايار (مايو) ١٦٨٢ حيث اعتلى الصبى بطرس العرش) . وقد كلف بطرس هذا الرجل

المتعلم ، الذى غدا فيما بعد دبلوماسيا بارزا ، بمهمات مسؤولة هى حث هولندة على العمل من اجل توقيع الصلح بين روسيا والباب العالى واستمالة هولندة الى صف روسيا فى الحرب من اجل البلطيق او الحيلولة دون تحالفها مع السويد فى حالة اخفاق روسيا .

وفى ٢٧ نيسان (ابريل) ابحرت من فورونيج الى آزوف عمارة من ١٢ سفينة كبيرة ترافقها سفن مساعدة كثيرة . كل ربابنة السفن اجانب ، ما عدا ربانا روسيا واحدا هو بطرس ميخائيلوف ، اى القيصر نفسه . وعلى رأس العمارة الاميرال غولوفين . وكان القيصر فى الواقع هو الذى يدير حملة كيرتش السلمية .

واستمر بطرس ، مع غولوفين وفوزنيتسين فى تجهيز بعثة اوكراينتسيف . وكانت مديرية العلاقات الخارجية تطلع بطرس من موسكو على الاخبار الدولية . وقد شغلت باله خصوصا «القضية الفرنسية» اى احتمالات الحرب من اجل التركة الاسبانية . وصادق على وثيقتين هما توجيهان للسفير ، احدهما خاص بالبروتوكولات الرسمية ، والاخر سرى يستعرض بايجاز ودقة كيفية اجراء المفاوضات مع العثمانيين . واستعرض التوجيه السرى اسئلة الجانب العثمانى المحتملة واجوبة الجانب الروسى وأكد ان السفير هناك ، فى الاستانة ، يجب ان يعتمد على نفسه ويجد مخرجا «ويتصرف على هواه» و«يفعل ما يراه لازما بشرط ان ينفذ المهمة» وهلمجرا .

ووصلت العمارة الى آزوف . وتوقفت هناك امدا طويلا نسبيا ، لان منسوب مياه الدون لم يكن عاليا . وانتظروا حتى يرتفع مستوى المياه . واخرج بطرس السفن الى البحر . وفى ٥ آب (اغسطس) توقفت العمارة فى مرفأ كيرتش . وكتب الاميرال

كرويس ، المشارك فى الحملة او على الاصح الاستعراض الدبلوماسى عن مشاعر الدهشة والرعب التى استولت على العثمانيين المرابطين فى كيرتش : «كان الرعب باديا على وجوه الاتراك من هذه الزيارة غير المتوقعة لعمارة مسلحة بهذا القدر . ولم يصدق الاتراك الا بعد جهد جهيد بان هذه السفن بنيت فى روسيا وان الروس على متونها» .

وهكذا كان ظهور الاسطول الروسى فى البحر الاسود الذى يعتبره العثمانيون عثمانيا مفاجأة تامة غير مريحة لهم . وحاولوا اقناع الروس بالعدول عن ارسال أوكراينتسيف الى الاستانة بحرا ، فالبحر مضطرب جدا ، والسفر برا اسهل . لم يوافق بطرس على ذلك . فاذعن العثمانيون ، لكنهم اشترطوا ان ترافق سفنهم سفينة «القلعة» الروسية . ولم يستعجلوا فى تخصيص سفن لهذا الغرض . ظلوا يماطلون . ونفد صبر بطرس وغولوفين فاعلنا للاميرالاى حسان باشا قائلين :

— سنرافق سفيرنا والحال هذه بعمارتنا كلها .

واثر هذا القول فى العثمانيين . وتوجهت «القلعة» ذات المدافع الـ٤٦ الى الاستانة ، كما يسمى العثمانيون الاستانة البيزنطية التى استولوا عليها فى عام ١٤٥٣ . وعاد بطرس الى فورونيج ومنها الى موسكو .

وكانت تنتظر القيصر فى العاصمة اعمال ومشاغل جديدة . فمنذ شهر وصلت الى موسكو بعثة سويدية بمناسبة اعتلاء كارل الثانى عشر العرش . وعشية الحرب من اجل التركة الاسبانية كانت السويد راغبة جدا فى تأمين سلامة حدودها الشرقية . ولهذا الغرض كان على البعثة ان تحصل على تأكيدات لشروط معاهدة صلح كارديس ١٦٦١ التى استعرضت حصيلة احداث

الحرب الروسية السويدية ١٦٥٨ — ١٦٦١ الفاشلة بالنسبة لروسيا . فقد نصت المعاهدة على بقاء ساحل البلطيق في حوزة السويد .

ولم يكن تأكيد شروط صلح ١٦٦١ امرا مرغوبا فيه بالنسبة لبطرس لان اهداف روسيا والسويد في مسألة البلطيق متعارضة . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى يكشف رفض التأكيد عن نوايا روسيا العدائية ، وليس ذلك من الحكمة بشيء الان . وقد عثر بطرس على مخرج . استقبل السويديين (وعددهم ١٥٠ شخصا تقريبا) في حفاوة بالغة ، حيث اصطفت العساكر على امتداد الطريق واقيمت حفلة استقبال في صالة الطعام في الكريملين . صحيح ان بطرس لم يرتد ثياب قياصرة موسكو الثمينة بل اكتفى بقفطان بسيط ، ولم يرغب في سماع خطبة المبعوث الطويلة فلمح الى ان الاختصار افضل . واثناء اللقاءات العملية الستة دار الكلام عن مراسيم تأكيد المعاهدة . ورفض القيصر قسم اليمين على الانجيل وتقبيل الصليب . واتفق الطرفان على ان يتبادلا وثيقتي تأكيد معاهدة كارديس بشرط ان تتوجه بعثة روسية الى استوكهولم لهذا الغرض .

وفي الوقت ذاته اجرى بطرس مباحثات مع الجنرال كارلوفيتش الممثل الشخصي لاغسطس الثاني حاكم سكسونيا والذي وصل سرا باسم كيندلر . ولم تكن القضية بسيطة . فالذي حصل هو ان سكسونيا وحدها تحالفت مع روسيا ضد السويد . ومع ان اغسطس الثاني هو في الوقت ذاته ملك بولونيا فان هذه الاخيرة «لم تحضر» المفاوضات مع كارلوفيتش . وكان يمثلها في موسكو بوكي صنيعة الارستقراطية البولونية الميالة الى فرنسا والنمسا وتركيا . وكان بطرس يعامله ببرود سافر .

ولمح اغسطس الثاني الى ان بولونيا ستنضم الى التحالف

الروسى السكسونى بعد قيامه . الا ان ذلك كله بدا مشكوكا فيه . زد على ذلك ان بطرس واعوانه فهموا اللعبة المشينة التى يلعبها ملك لم يصبح ملكا بقدر كبير الا بفضل القيصر الروسى . وقد استعار اغسطس الثانى فى حساباته السياسية ريشة يوهان باتكول ، المغامر الاوربى المعروف فى ذاك الزمان . وكان هذا النبيل الليفلاندى فى حينه قد عارض ما يسمى «بالمصادرة» التى طبقها كارل الحادى عشر ملك السويد التى تعود لها ليفلانديا (ليفونيا) . وكان ذاك الملك قد اثار سخطا شديدا لـــدى الاقطاعيين الليفونيين ، ومنهم باتكول ، عندما قرر مصادرة الاراضى الاميرية التى استولوا عليها . وكان باتكول يتميز بطاقات هائلة وقابليات تنظيمية وخطابية مدهشة . فتزعم حركـة الاقطاعيين ضد المصادرة وصور هذه الحركة على انها حركة وطنية . واخيرا حكم على هذا «الوطنى» بالاعدام . ففر مـن بلاده وراح يتنقل بين البلدان ويجرب قواه فى العلوم والآداب . وقبل الاحداث المذكورة اعلاه بعدة شهور التحق بخدمة اغسطس الثانى حيث صار بارادته ضابطا برتبة مقدم وتجنس بالجنسية السكسونية . واغوى رئيسه الجديد باحتمال ضم ليفونيا الى ممتلكاته بمساعدة روسيا القوية . فان جيشها بالذات ينبغى ، فى رأى باتكول ، ان يدحر السويد حتى يمكن تقديم الثمرة المنشودة ــ ليفونيا ــ على مائدة اغسطس الثانى . وقد عرض كل هذه الافكار فى مذكرة قدمها الى الملك . وصاغ بعض تلك الافكار بشكل فريد وصريح جدا :

ــ يجب استحصال التزام من القيصر بمساعدة جلالته بالمال وبالقوات ، وخصوصا المشاة القادرين جدا على العمل فى الخنادق والموت بنيران العدو ، وبذلك تحقن دماء قوات

صاحب الجلالة التى يمكن ان تستخدم لحماية ممرات التوصيل فقط .

ثم يقول بنفس اللهجة :

— ينبغى ربط يدى هذا الحليف القوى بشدة كيلا يلتهم على مرأى منا قطعة اللحم التى قليناها ، كيلا يستولى على ليفلانديا .

وباختصار : فليمت الجنود الروس فى سبيل ليفلانديا البولونية او السكسونية فيما بعد . والاكثر من ذلك ان ليفلانديا يجب ان تكون «معقلا ضد السويد وموسكو» فى المستقبل . ويستطيع بطرس بعد الانتصار على كارل الثانى عشر ان يأخذ ، حسبما تقول المذكرة ، انجرمانلانديا (وهى اراض على ساحل الخليج الفنلندى) وكاريليا . كما ان قواته ، بعد كسب ليفونيا وتسليمها الى اغسطس ، يجب ان ترابط شرقى خط نارفا — بحيرة تشودسكويه .

هذا هو مستشار الملك البولونى . وبالمناسبة ، فقد وافق شن طبقة . وقد عرض كارلوفيتش افكارهما وامانيهما المشتركة على بطرس . وافاض كارلوفيتش فى الحديث عن مشاعر «الحب الخالص والصداقة المتينة» التى يكنها الملك للقيصر وسلمه مذكرة مشحونة بالوعود بان الملك سيتحمل كل ثقل الحرب ضد السويديين . وكان يراد لذلك «ان يبعد اى خطر من جانب قوات» روسيا اذا تحالفت مع سكسونيا ، ومع بولونيا فيما بعد . وتغص بنفس هذا القدر من الاعتداد الطائش الفارغ مسودة معاهدة التحالف التى وضعها ، فى اغلب الظن ، باتكول نفسه .

وادرك بطرس نوايا اغسطس الثانى . ولكن لا حيلة فى الامر . فتلك هى القسمة والنصيب ، طالما ليس هناك حليف

آخر . لكن القيصر غير مستعجل ، خلافا للملك الذى اصر على بدء العمليات الحربية ضد السويد فى كانون الاول (ديسمبر) ١٦٩٩ . وكانت المذكرة تصر على ذلك :

ـــ الشرط الاول فى هذه القضية هو البدء الان ، او عدم البدء اطلاقا .

ووافق القيصر على نص المعاهدة ، بل وحتى على البند الخاص بكاريليا وانجرمانلانديا (اى انتقالهما الى روسيا بعد النصر) وتسليم ثلاث مقاطعات (كورلانديا وليفلانديا وايستلانديا) الى اغسطس الثانى . لكنه اشترط نفس الشرط الذى طرحه فى المفاوضات مع الدانمرك : روسيا لن تبدأ الحرب الا بعد توقيع معاهدة الصلح مع الباب العالى . ووعد الملك بان يشرك فى الحرب بولونيا بالاضافة الى سكسونيا . ولم يكن عموما يبخل بالوعود السخية (تأمين سلامة القوات الروسية فـــــى انجرمانلانديا وكاريليا وحماية مصالح القيصر فى البلدان الاوربية وهلمجرا) . وكان اغسطس مستعجلا جدا . فاصدر امرا ببدء العمليات الحربية فورا ليغوى بطرس بتنفيذ الوعود حتى يفعل هذا الاخير الشىء ذاته . الا ان القيصر اضاف الى نص المعاهدة المادة الثالثة عشرة بشأن ضرورة الصلح مع العثمانيين بالنسبة لروسيا .

اجرى بطرس مباحثاته مع كارلوفيتش سرا فى بريوبراجينسكويه . وشارك فيها غولوفين والمترجم شافيروف ، وهو بائع من اليهود المتنصرين اعجب به القيصر ذات مرة . وهو رجل ذكى ومثقف ومطلع على اللغات الاوربية . وبناء على اقتراح من بطرس حضر المباحثات المبعوث الدانمركى هينس . وفى تلك الاثناء كانت مديرية العلاقات الخارجية فى موسكو تتباحث مع البعثة السويدية .

كانت هذه اللعبة المزدوجة غالبا ما تستخدم فى الدبلوماسية الاوربية ، ولذا طبق بطرس اساليب جربت قرونا .

وفى ١١ تشرين الثانى (نوفمبر) وقع بطرس المعاهدة ، وكان قد وقعها اغسطس الثانى قبله ، عندما ارسل كارلوفيتش الى موسكو . وفى ٢٣ تشرين الثانى ابرمت المعاهدة الروسية الدانمركية التى وقعت بالاحرف الاولى فى ٢١ نيسان (ابريل) ، اى ان الابرام جاء بعد تبادل النصين الموقعين . وكانت المعاهدتان اول وثيقتين فى القانون الدولى وقعهما القيصر الروسى شخصيا . فان اسلاف بطرس لم يفعلوا ذلك مطلقا . كانوا يكتفون بابرام المعاهدات او تصديقها شفويا ، حيث يعدون على رؤوس الاشهاد بالالتزام بها ويقبلون الصليب . ويتركون للسفراء تذييلها بالتواقيع . وقد اخل بطرس بهذا التقليد السائر منذ عهد دولة كييف الروسية . ولما كان توقيع بطرس يعنى الابرام فى الوقت ذاته ، فقد حصل تبسيط فى اجراءات ابرام المعاهدة وارتفعت قيمتها .

واسفر عن كلتا المعاهدتين تشكيل الحلف الشمالى بين روسيا والدانمرك وسكسونيا فى الحرب المرتقبة ضد السويد . لكن الصلح مع الاستانة لم يتحقق بعد . وكان اوكراينتسيف يسعى اليه .

. . . فى ٢٨ آب (اغسطس) القت السفينة الروسية «القلعة» مرساتها فى مرفأ الاستانة مقابل سراى السلطان . وقد دهش السلطان نفسه ورعاياه ، فلم يصدقوا بان الروس يجيدون بناء مثل هذه السفن ويمخرون بها البحر الاسود . وتفضل سماحته بالصعود الى متن سفينة الكفرة ليتأكد بنفسه من ان هذا الحادث الخارق قد حدث بالفعل . واقتفى اثره آخرون من الوجهاء

العثمانيين والدبلوماسيين الاجانب ، وكانوا يتأوهون عجبا واستغرابا . وعندما امر ربان «القلعة» بامبورغ باطلاق المدافع ليلا اثارت طلقات التحية الرعب والهرج والمرج بين اهالى الاستانة . فقد ظنوا ان عمارة روسية كاملة وصلت بالاضافة الى سفينة السفير .

لم تكن مهمة اوكراينتسيف يسيرة بسيطة ، فهى اصعب حتى من مهمة فوزنيتسين فى كارلوفيتسى . وعندما وصل الى الاستانة كان الوضع فى اوربا متأزما . فلئن كانت بريطانيا وهولندة وفرنسا قد وقعت فى ايلول (سبتمبر) ١٦٩٨ اتفاقية اقتسام التركة الاسبانية سلميا ، فقد اعدت نفس تلك الدول فى صيف العام التالى معاهدة جديدة حول الشىء ذاته ، لان ملك اسبانيا كارل الثانى توفى . وبدلا من التوقعات السلمية حلت حتمية الحرب . فان اسبانيا غير راضية على المعاهدة الجديدة ، لانها لا تريد الاذعان لتقسيم ممتلكاتها . ورفضت النمسا عموما الالتزام بها . فقد كانت مع بريطانيا وهولندة تريد توريط الامبراطورية العثمانية فى الحرب . فالجميع يمدون ايديهم الى الكعكة الكبيرة اللذيذة التى تركها ملك اسبانيا الراحل . وكانت تلك الدول تريد ، شأن فرنسا ، ان تشرك فيها السويد . كل يريدها فى معسكره . ولهذا الغرض وقع البلاط الفرنسى معاهدة مع البلاط السويدى فى صيف ١٦٩٨ . وفعلت بريطانيا وهولندة الشىء ذاته فى ايار (مايو) من العام التالى ، وفى كانون الثانى (يناير) ابرمت المعاهدة . واثارت الاشاعات التى سرت بشأن الحرب المحتملة بين السويد وروسيا قلق حكام هذه الدول ، فطلبوا من دبلوماسييهم الحيلولة دون توقيع الصلح الروسى العثمانى واندلاع الحرب الروسية السويدية . فليواصل بطرس حربه ضد العثمانيين ، وهو لا يقوى على القتال فى جبهتين .

كان القيصر يفهم جيدا ان روسيا لا تقوى على حربين . فحاول هو وسفيره ماتفييف ان يتخذا الاجراءات اللازمة . طلبا من ملك بريطانيا وحاكم هولندة وملك الدانمرك وملك بولونيا التوسط في توقيع الصلح مع الاستانة . ووافقت بريطانيا وهولندة على الوساطة لكنهما لم تفعلا شيئا بالطبع . والاكثر من ذلك ان دبلوماسييهما في الاستانة اخذوا يألبون السلطان على القيصر . وهذا ما فعله ايضا سفير بولونيا . فقد اقترح على الباب العالى ، باسم الاقطاعيين البولونيين والليتوانيين الذين لا يحترمون ملكهم ، ان يتحالف معهم ضد روسيا . وكانوا من زمان يركضون دوما وراء سراب وآمال وهمية في استعادة كييف ومناطق اوكرانيا الواقعة على الضفة اليسرى من الدنيبر التي خسروها في عهد بوغدان خميلنيتسكي والكسى ميخائيلوفيتش وبطرس الاكبر (في شبابه) (ابان الحرب الروسية البولونية ١٦٥٤ ـــ ١٦٦٧ وبموجب صلح اندروسوفو ١٦٦٧ ، و«السلام الدائم» ١٦٨٦) . وكان نفس هذا السفير قد اعلن للعثمانيين دون خوف او وجل ان ملكا مثل اغسطس الثاني ، صديق القيصر الروسي ، لا حاجة للاقطاعيين البولونيين به ، وانهم سيطيحون به من كل بد .

كان بطرس واعوانه قد تعودوا على مثل هذه الاحابيل الدبلوماسية . ولم يفت في عضدهم لا رياء الدبلوماسيين الغربيين ولا دسائس السفير البولوني ولا الخطر الذي يتهدد اوكراينتسيف دوما في ان تطبق عليه سراديب القصر ذي الابراج السبعة بامر من السلطان الذي هو «ظل الله» في ارض الكبائر . استمر اوكراينتسيف في المفاوضات سبعة شهور . وكان قد تسلح بالصبر مسبقا وتزود بالنقود وفراء السمور وغير ذلك من «الحجج الدامغة» لغواية الوجهاء والدبلوماسيين العثمانيين .

وفى ١٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٦٩٩ قدم سفير بطرس مذكرة الى العثمانيين ، تضمنت ١٦ مادة اهم بنودها : توقيع الصلح مع احتفاظ الطرفين المتحاربين بما يسيطران عليه حتى الان ، وحرية الملاحة للسفن الروسية فى البحر الاسود وتوقف روسيا عن دفع الجزية الى خان القرم (وهى فى الحقيقة بقية من تقاليد قديمة تعود جذورها الى عصر تبعية روسيا للتتر والمغول من اواسط القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر) ، وتوقف غزوات عساكر القرم على الاطراف الجنوبية لروسيا ، وتبادل الاسرى ، واعادة العتبات المقدسة فى اورشليم القدس الى حوزة الكنيسة الارثوذكسية الاغريقية وتخليصها من سيطرة الكاثوليك .

وكما هى العادة وضعت المطالب الروسية «باحتياطى» يزيد على المطلوب ، نظرا لاحتمال المساومة والجدل والتنازلات من جانب الطرفين . ورفض العثمانيون رأسا البند الخاص بالعتبات المقدسة ، ولم يجادلهم اوكراينتسيف كثيرا فى هذا الموضوع . وردوا عليه بالشىء ذاته فيما يخص حرية الملاحة فى البحر الاسود ، واعلنوا له باسم السلطان الكريم الحكيم :

— الباب العالى العثمانى يصون البحر الاسود كفتاة طاهرة عذراء لا يحق لاحد ان يمسها .

ولم يكن الروس بالطبع يرفضون ود تلك الفتاة العذراء . لكنهم تنازلوا هذه المرة ايضا . فلا بد من التنازل عن شىء . لا سيما وان الاسطول الروسى ليس كبيرا بعد ، وليس لديه فى البحر الاسود لا موانئ ومرافئ ولا مداخل ومنافذ الى الموانئ . صحيح ان القوات الروسية استولت على كازيكيرمين وثلاث مدائن اخرى فى اسفل الدنيبر . وبالاعتماد عليها يمكن السيطرة

على مصب الدنيبر وبالتالى على منفذ مرغوب فيه الى البحر الاسود.
لكن العثمانيين تعنتوا ورفضوا بصورة قاطعة . وكان اهون الشرين بالنسبة لهم هو الاذعان لضياع مدينة آزوف . فان مصب الدون ضحل ، وهو يؤدى الى بحر آزوف فقط . اما الطريق الى البحر الاسود فان كيرتش مفتاحه . ولم يكن العثمانيون راغبين اطلاقا فى التنازل عن مدائن الدنيبر .

واتسمت الخلافات احيانا بطابع فاجع شديد ، بلغ حد القطيعة . واستخدم اوكراينتسيف كل ما فى جعبته من دهاء وخبرة دبلوماسية . لكن الطرف الاخر اصر وعاند . وفى شباط (فبراير) ١٧٠٠ سرت اشاعات عن استعدادات عثمانية لشن العمليات الحربية ضد روسيا . ووصل بطرس الى فورونيج من جديد لينظم شؤون الاسطول . وجرى الشيء ذاته ، بأمر منه ، فى آزوف . وظهر مبعوثوه فى استوكهولم ليؤكدوا للملك ان روسيا تطمح الى السلم مع السويد .

ومع ذلك سارت الامور فى الاستانة صوب الصلح . تركيا لم تكن راغبة فى مواصلة الحرب . فان استعراض الاسطول الروسى اثر فيها ، وهذا ما كان بطرس يأمل فيه . والاهم ان بطرس البعيد النظر امر بالتنازل عن مدائن الدنيبر ، لانه لم يكن يأمل فى انتصار كبير جدى فى البحر الاسود . واتفق الطرفان على طمر تلك المدائن الصغيرة وبقاء المنطقة الواقعة بين سهب زابوروجيه ومصب الدنيبر خالية . وبذلك عرضت روسيا بوضوح انها لن تفكر فى الحصول على منفذ الى البحر الاسود . ومقابل هذا التنازل احتفظت روسيا بآزوف والمدن المبنية على سواحل بحر آزوف (تاغانروغ وميوس وبافلوفسك) . ورفضت روسيا تقديم الجزية الى خان القرم ، وحصل رعاياها على حق

الحجيج الى العتبات المقدسة فى فلسطين . ووقعت هدنة لمدة ٣٠ عاما . ولم تكن صلحا . واهم ما حصل عليه بطرس هو اطلاق يديه للعمل فى الشمال . وذلك مكسب استراتيجى اتسم بأهمية بالغة كما بين الزمن .

وفى تلك الاثناء كان بطرس ينتظر تنفيذ وعود اغسطس الثانى ومستشاريه باتكول وكارلوفيتش . وقد ابلغوا بطرس بانهم اعدوا خطة لاقتحام ريغا واحتلالها . وكما هو المتوقع اتضح ان تلك الخطة وليدة الخيال الجامح والصلف والوقاحة والنفعية التافهة والغدر وخيانة مصالح الحلفاء . وبدأ ذلك عندما ترك الجنرال فليمينغ ، القائد العام للجيش السكسونى ، جيشه وعاد الى منزله ليتزوج . وكان سيده اغسطس الثانى ، كعادته دوما ، مشغولا جدا بشؤونه الخاصة . فان مجونه خلق اساطير كثيرة تتحدث احداها عن ٣٦٥ طفلا غير شرعى تركهم الملك الفاسق . وبعد ان تزوج فليمينغ تفضل وعاد الى القوات وتحرك بها صوب ريغا . وعلى مقربة منها احتل قلعة كوبيرشانتس الصغيرة جدا . وبذلك انتهت انتصارات العساكر السكسونية المظفرة وقادتها . وغضب بطرس على المكشوف ، وقال فى حديث مع هينس :

— هل يجوز استحسان تصرف ملك بولونيا اذا كان قد بقى فى سكسونيا يتسلى مع الغوانى ويغرق فى الملذات بدلا من حضور عملية على هذا القدر من الاهمية ؟

وما كان بوسع السفير الدانمركى ان يفند هذه الحجة الدامغة . وعندما شجب القيصر تصرف اغسطس الثانى لم يخف قلقه :

— اخشى ان يوقع الملك صلحا انفراديا ويترك حلفاءه بعد ان يورطهم فى الحرب . فلا موجب لتوقيع المعاهدات واستنهاض الحلفاء دون اداء المطلوب .

ورغم ان بطرس كان يدرك الثمن الحقيقى لاقوال ونوايا اغسطس الثانى فقد ظل آسفا . وبعد قليل عرف ان السكسونيين احتلوا قلعة ديناميوندى الواقعة على دفينا الغربى ، اسفل ريغا ، عند منفذ بحر البلطيق . كان هذا الخبر افضل من غيره . وفى اواخر حزيران (يونيو) وصل الملك اخيرا الى القوات قرب ريغا وترك غوانيه الحسان كئيبات فى سكسونيا . واخفق حصار المدينة . فالقوات قليلة . ولم ترغب بولونيا فى دخول الحرب ، فهى تطمح الى استعادة كييف وليس الى القتال من اجل ريغا . ولم تلحق القنابل السكسونية اى ضرر بالمدينة . وفى ايلول (سبتمبر) غضب الملك ووعد مهددا انه يقوى على اطلاق نيران المدافع . الا ان الدهاة من اهالى ريغا يعرفون مع من يتعاملون ، فاعطوه رشوة بـ١,٥ مليون تالر . استلم الملك الرشوة دون تردد ، ورفع الحصار عن ريغا وسحب قواته بعيدا عنها ، رغم الوعود التى قطعها مؤخرا للقيصر بانه سيتحمل العبء الرئيسى من الحرب على كتفيه المتينتين .

وما حدث فيما بعد ادهى وأمر . فالدانمرك ، الحليفة التى كانت حسب الظاهر اكثر جدية ، تقوضت كبيت من ورق بعد اول هبة من الريح . صحيح ان قواتها احرزت بعض النجاح فى هولشتين التى فر حاكمها الى الشمال ، الى حليفتها السويد . وكان الملك السويدى الشاب ، العربيد المغوار ، قد انزل فى الحال فيلقا من ١٥ الف شخص واقترب من كوبنهاغن . ودعم الانزال الاسطولان البريطانى والهولندى . فاستسلمت الدانمرك . وفى ٨ آب (اغسطس) ١٧٠٠ خرجت من الحلف الشمالى بموجب صلح ترافيندال (قرب لوبيك) والتزمت باحترام استقلال حاكم هولشتين ودفع غرامة له بمبلغ ٢٦٠ الف تالر . وكانت

اتفاقية ترافيندال نهاية لعزلة السويد وثغرة فى الحلف الشمالى . ولم يعد الاسطول الدانمركى ، وهو اسطول كبير نسبيا ، بقادر على دعم الحلفاء كما كان ينتظر منه بطرس . وعندما بطش كارل الثانى عشر باحد خصومه صار بوسعه ان يوجه قـواته ضد الاخرين ، الى شرق البلطيق . وهذا ما اقدم عليـه بالفعل .

كان مصير الدانمرك قد اعاد حاكم براندينبورغ الى رشده . وكان هذا الاخير قد آكد لبطرس مشاعر الود الخالص ونعته «بالصديق والاخ والحليف» فى ١٦٩٧ عندما تقابل مع «بطرس ميخائيلوف» الموفد ضمن طلبة «البعثة الكبرى» ، ودعاه بنفسه الى التحالف ضد السويد . اما الان ، بعد صلح ترافيندال ، فقد خف حماسه . واعلن لمبعوث بطرس الامير ترويبتسكوى الذى وصل الى برلين فى صيف ١٧٠٠ ، وقال صراحة بعد تبادل المجاملات ان ما حصل للدانمرك يثير قلقه ويحيره جدا . . .

واخفق ماتفييف هو الاخر فى مهمته فى الولايات الهولندية ، حيث كان يتوخى الحصول على مساعدة من هولندة وبريطانيا او الحيلولة دون مساعدتهما لملك السويد . فقد حددا موقفهما دون لبس والتزما جانب السويد . صحيح ان السفير ماتفييف كان يبعث بانتظام اخبارا عما يجرى فى اوربا ، ومن ذلك رياء اغسطس الثانى ونشاط اوكراينتسيف فى الاستانة . واتضح ان ملك بولونيا يفكر فى صلح انفرادى مع كارل الثانى عشر .

ومن جديد اضطر بطرس الى اتخاذ القرارات فى جو غامض للغاية تلبدت فيه الغيوم . حلف الشمال بدا وكأنه يحتضر ولم يكن بطرس يعرف على وجه التحديد ماذا يجرى فى الاستانة

وهل سيتمكن اوكراينتسيف من الحيلولة دون استئناف العمليات الحربية فى الجنوب .

الا ان القيصر لا ينساق للذعر والشكوك . فالاستعدادات جارية على قدم وساق للحرب فى البلطيق ، من اجل البلطيق ، لكنها لحد الان حرب برية بالنسبة لروسيا . فان روسيا لا تمتلك اسطولا هنا . ولم يكن سهلا اعداد كل مستلزمات القتال ضد الجيش السويدى الممتاز . ووفقا للخطة التى وضعها بطرس ومستشاروه ينبغى للجيش الروسى ان يتوجه صوب نارفا ونوتيبورغ (مدينة اوريشيك الروسية العريقة) ، وهما قلعتان سويديتان على نهرى ناروفا ونيفا . وارسل بطرس الى القلعتين فاسيلى كورتشمين احد ضباط فوج بريوبراجينسكى . وكان كورتشمين قد حصل على التعليم الهندسى فى الخارج ، وهو يفهم فى شؤون التحصينات . وفى ٢ آذار (مارس) ١٧٠٠ كتب بطرس الى غولوفين بخصوص ارسال كورتشمين الى نارفا فى البداية بحجة شراء مدافع سويدية للروس ثم الى نوتيبورغ :

— ليزر اوريشيك اذا وجد سببا لذلك . واذا تعذرت زيارتها فعلى مقربة منها على الاقل . ثمة مكان هام جدا : رافد من بحيرة لادوجسكويه (انظر الخريطة) . والرجل ، على ما يبدو ، ذكى يحافظ على الاسرار . والمهم الا يعرف كنيبر بالزيارة ، فهو يدرى ان كورتشمين من المتعلمين .

وجرى تدريب المجندين الجدد على جناح السرعة . وولد على مرأى من الجميع جيش جديد ترك ، كما يبدو ، انطباعا لا بأس به فى انظار شهود العيان ، حتى ان السفير الدانمركى هينس اعجب بدربة الجنود :

— الافواج الجديدة رائعة . وهى جيدة بنفس القدر فى

التدريبات وفى الاستعراضات .

وقد نعت هذا السفير المدفعية الروسية بانها «نموذجية» ، و«افضل مدفعية فى العالم» ، كما نعت المشاة «بخيرة القوات الملتزمة باقصى درجات الانضباط» . ولعل بطرس قد سمع مثل هذا التقييم مرارا . وشعر بالارتياح . وكان ينتظر بفارغ الصبر اخبار الاستانة ويتحرق شوقا الى تحريك قواته ضد السويديين والانضمام الى الحلفاء :

— انا رجل يمكن الاعتماد على اقواله ، ولن الجأ الى الاطناب ، فان حلفاءى سيرون عمليا كيف انفذ التزاماتى واقوم باكثر مما انا ملزم بالقيام به .

كان بطرس مفعما بالتوقعات والامال البهيجة . واخيرا ، فى ٨ آب (اغسطس) ١٧٠٠ وصله الخبر الذى طال انتظاره . فقد تم توقيع الاتفاقية مع الاستانة ، ولم تعد روسيا مقيدة اليدين فى الجنوب . وفى اليوم التالى اعلنت الحرب على السويد «بسبب الجور السويدى الكثير» ، ومنه الاهانة البشعة التى صدرت عن السويديين فى ١٦٩٧ اثناء تواجد «البعثة الكبرى» فى ريغا «لجلالة القيصر نفسه» ، مع ان القيصر الروسى لا يعتبر رسميا من موفدى البعثة .

وكان هذا التبرير اعترافا بفضل الدبلوماسية الموسكوبية القديمة وغيظها بسبب الاهانات الفعلية والوهمية للقيصر والتطاول على كرامته وبالتالى على كرامة روسيا . وكان دبلوماسيو البلدان الاخرى فى ذاك الزمان يهتمون بهذه الامور اهتماما كبيرا .

وفى ٢٢ آب (اغسطس) تحرك الجيش الروسى فى حملته . وبدأت حرب الشمال . كتب المؤرخ كلوتشيفسكى الذى لا يحب بطرس مستخفا به فيما يخص نتائج عمليته الجنوبية : «وجد

القيصر نفسه في موقف حرج» فالاسطول الذى بنى بذلك العذاب والحرمان «ظل يتعفن فى مرافئ آزوف» ، واخفق القيصر فى تثبيت قدميه فى القرم ، واهملت القناة التى بدأوا بحفرها بامر من بطرس بين الفولغا والدون ، وتأجل كذلك كل ما يتعلق «بالمسألة الشرقية» (تأمين السلامة من غزوات القرم وتوقعات مسيحيى البلقان) ، وحول بطرس انظاره بسرعة من الجنوب صوب الشمال «فالموقف العابر الجديد فى اوربا نقله ، ككرة اللعب ، من مصب الدون الى ناروفا ونيفا حيث لم يكن لديه اى شيء جاهز . وبعد ان صرف وقتا طويلا فى الاستعداد ليكون من بحارة البحر الاسود ، مع كل ما كسبه من معارف فى الملاحة فى بيرياسلافل والبحر الابيض وبريطانيا وهولندة ، اضطر الى خوض حرب برية سنين طويلة ليصل الى بحر جديد غريب» .

هذا المؤرخ يبالغ كثيرا بالطبع . ولا يشاطر القيصر فى اجراءاته المحمومة وبحثه التواق ، ولا يقدر تلك الاجراءات حق قدرها . ومع ذلك فهو لا يجانب الحقيقة كثيرا . فان بطرس نفسه سرعان ما عاد الى رشده من آماله الوردية او الوردية الباهتة على اقل تقدير فى ربيع وصيف ١٧٠٠ عندما اسرع الى القتال متحمسا كما يفعل الشباب وهو يأمل فى انتصارات سريعة باهرة . واتضح ان نارفا ليست آزوف ولا كازيكيرمين . لكنه آنذاك لم يكن يعرف شيئا عن النتائج المترتبة على تصرفاته . كان مندفعا يفكر فى المخططات ليستنشق بملء رئتيه هواء البلطيق المالح . . .

بدء الحرب . نارفا : من الهزيمة الى النصر

قبيل وصول نبأ توقيع معاهدة الاستانة وعد بطرس ملك بولونيا وحاكم سكسونيا اغسطس الثانى قائلا :

ـــ اذا استلمت نبأ الصلح اليوم ساحرك قواتى غدا ضد السويديين .

وبالفعل اعلنت روسيا الحرب على السويد فى ٩ آب (اغسطس) . ويقول كلوتشيفسكي : «كانت هذه الحرب قد باغتت حتى روسيا بسوء التحضير لها وتخطيطها» . فقد بدأوها فى جو انهيار حلف الشمال ودسائس اغسطس الثانى والمغامر باتكول وسوء تصرف الحلفاء . ولا تجانب هذه الكلمات الصواب . فان استعجال القيصر وسوء التحضير اللذين سرعان ما بدت آثارهما كانا نتيجة لحسابات وهفوات معينة . كان الموقف الدولى بالنسبة لروسيا ليس سيئا حسب الظاهر ـــ انشغال الدول الاوربية الاساسية بالتحضير للحرب من اجل التركة الاسبانية ، وانشغال الملك السويدى بمقاتلة الدانمرك وسكسونيا وبولونيا حلفاء روسيا ، وتخلص هذه الاخيرة مما كان يقيدها فى الجنوب . زد على ذلك ان القيصر اتخذ بعض الاجراءات العاجلة لاعداد البلاد والجيش للعمليات الحربية فى منطقة ساحل البلطيق (التجنيد واعداد الذخيرة وتأسيس مانوفاتورات جديدة واتخاذ اجراءات

ادارية جديدة وهلمجرا) . الا ان ذلك لم يكن كافيا بالطبع .

وفيما بعد ، اعترف الامبراطور والقائد المجيد بطرس الاكبر ، في آخر ايام حياته (وكانت الحرب المظفرة ضد السويد قد انقضت من زمان) انه بدأ تلك الحرب كالاعمى دون ان يعرف مدى قوة العدو وحالة قواته . الا ان احداث عام ١٧٠٠ كانت لا تزال بعيدة جدا عن هذا الاستنتاج الجرىء المفعم بالانتقاد الذاتى . وكانت لا تزال تنتظر روسيا مرارة الهزيمة والكدمات والرضوض التى سيتضح نفعها فيما بعد .

بدأت الاخفاقات من البداية . ففى ٨ آب (اغسطس) ، اى فى يوم وصول النبأ من اوكراينتسيف فى الاستانة ، بلغ بطرس خبر استسلام الدانمرك ومساعدة الانجليز لملك السويد ، حيث نقلت سفنهم قوات الانزال السويدية عبر المضيق الى الدانمرك . ولم يثبط ذلك من عزيمة القيصر فتحركت قواته فى ٢٢ آب من موسكو باتجاه الشمال الغربى الى نارفا القلعة السويدية على الحدود الشرقية لممتلكات كارل الثانى عشر فى البلطيق . ونقلت عشرة آلاف عربة المدفعية والمؤن وسواها . ورافق بطرس جيشه برتبة كابتن سرية المدفعية فى فوج بريوبراجينسكى .

وفى مدينة تفير استلم القيصر نبأ مقلقا جديدا : خصمه الملك كارل الثانى عشر ينوى المجىء الى البلطيق بجيش من ١٨ الف شخص . وقال بطرس مرتابا :

— فكرت في ذلك مرارا ، هل الخبر صحيح ام هو خدعة؟ واذا كان صحيحا فان ملك الدانمرك بالطبع اندحر امام القوافل الموحدة .

لقد فهم القيصر الامر بشكل صائب . فاذا كانت الاخبار

عن مخططات السويديين صحيحة فان ملكهم وصل من بلاده عبر المضيق بمساعدة «القوافل الموحدة» ، بمساعدة بريطانيا وهولندة والسويد نفسها . لكن بطرس ظل يتقدم الى الامام دون ان يلتفت الى المعلومات الجديدة التى استلمها توا ، لا سيما وان جنوده اكثر من جنود ملك السويد .

وفى ٢٣ ايلول (سبتمبر) ، بعد شهر واحد ، بلغت افواجه اسوار نارفا . وكانت الحملة بطيئة مرهقة ، حيث عرقلت اوحال الخريف سير القوات وخصوصا العربات والمدافع والذخيرة . ولم تصل القوات بكاملها الا فى اواسط تشرين الاول (اكتوبر) . وقاد القيصر نفسه الحصار ، فحدد مواقع البطاريات ووجه عمليات المدفعية . الا ان البارود والقنابل لم تكف الا لاسبوعين ، فالقصف لم يلحق ضررا ملموسا بالمحاصرين . ولم تصل كميات جديدة من الذخيرة بسبب سوء الطرق .

استمر الحال على هذا المنوال اكثر من شهر الى ان وصلت بصورة مباغتة ، كما فى الدانمرك ، قوات «المتهور الاسكندينافى» (على حد تعبير كلوتشيفسكى) ــ ملك السويد . ويبدو ان بطرس لم يعر ذلك اهتماما كبيرا . فان قواته على اية حال تفوق قوات العدو ثلاث مرات (٣٥ ــ ٤٠ الف روسى مقابل ٨ ــ ١٢ الف سويدى) . واتضح ان اعتماده على خبرة الضباط الاجانب الذين قادوا جيشه لم يكن له ما يبرره . وكان قد نصب على رأس جيشه الفيلدمارشال الكونت شارل ديكروا الذى انتقل للخدمة عند اغسطس الثانى بعد ان اخفق فى الخدمة فى النمسا (منى بهزيمة فى ساحة القتال) . وكان اغسطس الثانى قد ارسله الى «صديقه وحليفه» بطرس ، بينما دأب ديكروا على ارسال رسائل سرية الى الملك اغسطس الثانى مكتوبة

بالشفرة كيلا يفهم الروس فحواها . وترأس اغلبية الافواج ضباط اجانب كان موقفهم من القضية ومن الجنود قد اثار شكوك وحقد هؤلاء الاخيرين . ثم ان القسم الاغلب من الجيش مكون من افواج القوات الخاصة السابقة والمتطوعين النبلاء وافراد جدد لكنهم من المجندين حديثا . ولم يبد قدرة كفاحية حقيقية في القتال اللاحق مع جيش يعتبر من افضل الجيوش الاوربية الا فوجا حرس بريوبراجينسكي وسيميونوفسكي وفوج ليفورتوفسكي .

ووصل السويديون الى نارفا في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) . وارتحل بطرس الى نوفغورود ليستحث الافواج التي تخلفت . وفي اليوم التالي ، ١٩ تشرين الثاني ، اقترب كارل الثاني عشر بجيشه من المواقع الروسية الممتدة على طول سبعة كيلومترات ونيف وفقا لتوزيع قوات الحصار . وثارت عاصفة ثلجية اتخذها السويديون ستارا لهجوم حازم جريء جعل فوجي شيريميتيف وغولوفين يفران هاربين في ذعر شديد . عبر افراد فوج شيريميتيف نهر ناروفا سباحة من ضفته الغربية الى ضفته الشرقية ، بينما فر افراد فوج غولوفين باضطراب على الجسر الذي هوى رأسا . وقتل وغرق آلاف الجنود . الا ان فوجي الحرس وفوج ليفورتوفسكي صمدت ببسالة وصدت هجمات السويديين المتكررة .

انتصر كارل الثاني عشر بسرعة وسهولة ، وكان مع ذلك يخشى ضربة الروس من المؤخرة ويراعي تفوقهم العددي . ولذا امر بترميم الجسر المحطم مع حلول الظلام لكي تتمكن الافواج الروسية المتبقية على الضفة الغربية من عبور النهر . فالغالب خائف من المغلوبين . لكن هؤلاء الاخيرين ما كانوا يفكرون في الانتقام فالذعر والارتباك وخيانة الآمرين الاجانب (ديكروا وغيره من الضباط الاجانب استسلموا للاسر من بداية المعركة) وسوء التنظيم

عموما ــ كل ذلك قد فعل فعله . وادى التنظيم العسكرى القديم والارتباك ، والجبن وخيانة قادة الجيش الاجانب والاخطاء فى اعداد الحملة الى هزيمة ماحقة .

وفى الليل بدأت المفاوضات وانتهت باستسلام الجيش الروسى . ووافق الملك على ان يغادر هذا الجيش مواقعه فى نارفا بكامل سلاحه ويترك المدفعية فقط . ولكن السويديين اخلوا بالاتفاق عندما عبر فوجا الحرس الى الضفة الشرقية على الجسر الذى اعيد بناؤه ، فقد اوقفوا الافواج الاخرى وجردوا الجنود من السلاح وأسروا الضباط .

وسرعان ما بلغ بطرس النبأ المرير ، نبأ هزيمة جيشه الماحقة المشينة . فبالاضافة الى ١٣٥ مدفعا التى غنمها العدو فقد الروس ٦ آلاف شخص بين قتيل وغريق . ووقع جميع الضباط تقريبا فى الاسر او قتلوا .

وانتشر فى اوربا كلها خبر الانتصار الباهر الذى حققه الملك الشاب وهزيمة القيصر الروسى «الهمجى» . وسك السويديون مدالية بمناسبة النصر ، على احد جانبيها صورة بطرس والمدافع الروسية وكتابة تقول : «انتهى بطرس» . وعلى الجانب الثانى بطرس وجنوده يفرون من نارفا . القيصر حاسر الرأس ، سيفه على الارض ، وهو يبكى بمرارة ويمسح دموعه بمنديل . وكتابة تقول بمزيد من التهكم : «اطلق ساقيه للريح منتحبا» .

وسرعان ما وصلت من المبعوثين الروس فى البلاطات الاوربية رسائل مستعجلة تتحدث عن الاستهانة والسخرية من جانب الحكام والوجهاء هناك فيما يخص الجيش الروسى والقيصر نفسه . وكتب ماتفييف ، مثلا ، من لاهاى يقول :

ـــ السفير السويدى يفرط فى الشتائم ويتجول بين الوزارات

ولا يكتفى بمسبة قواتكم بل يتعرض لشخصكم بفاحش الكلام زاعما بانكم ارتعبتم من مجيء مليكه وتركتم القوات وارتحلتم الى موسكو قبل يومين من وصول السويديين الى نارفا واندلاع القتال .

ووصلت الافواج الروسية بصعوبة الى نوفغورود تجرجر اقدامها جائعة ممزقة بالاسمال . وبدلا من ان يطاردها كارل الثانى عشر وينقل العمليات الحربية الى اراضى روسيا ويرغمها على توقيع صلح مربح بالنسبة له ، وجه قواته وجهة اخرى — نحو الجنوب ضد بولونيا واغسطس الثانى الذى يكرهه جدا لانه هو المبادر الى تشكيل حلف الشمال . هكذا يتصور هو على الاقل . وكان يحتقر بطرس ويستصغر شأنه بعد النصر السهل فى نارفا . وتصور ملك السويد نفسه ، على ظهر الحصان الابيض ، بانه الاسكندر المقدونى الجديد . ولم يخف مشاعره ازاء ملك بولونيا فقال :

— سلوكه شائن معيب يستحق عقاب الله والاحتقار من جانب جميع ذوى العقل السليم .

واخذ ملك السويد ، كما يقول كلوتشيفسكى ، يساعد بطرس على قدر الامكان بملاحقة اغسطس الثانى . فاستفاد القيصر بالكامل من فترة الهدوء التى وفرها له بذلك كارل الثانى عشر . وقد فهم فى الحال اصل وجوهر ما حدث فى معركة نارفا . وفيما بعد جاء فى «تاريخ الحرب السويدية» بمنتهى الصواب :

— . . . انتصر السويديون على قواتنا . لا جدال فى ذلك . ولكن تجدر الاشارة الى نوعية القوات التى انتصروا عليها . كان بينها فوج قديم واحد فقط هو فوج ليفورتوفسكى (الذى اطلق عليه اسم فوج شيبيليف قبيل ذلك) . اما فوجا الحرس فقد

شاركا فى حملتى آزوف فقط ولم يشاركا فى المعارك الميدانية ، اى لم يقاتلا ضد القوات النظامية ابدا . اما سائر الافواج ، ما عدا بعض المقدمين ، فهى مجندة حديثا سواء ضباطها وجنودها . . . ثم ان المجاعة الكبيرة حلت لامد طويل ، لان الاوحال الشديدة حالت دون ايصال المؤن . باختصار ، كل ما حدث كان كلعبة الاطفال ، وفن القتال اوطأ من المطلوب . فلا غرابة اذا حقق جيش قديم مدرب جيدا ومجرب كثيرا على عساكر غير متفننة فى القتال . . . ولكن عندما وقعت تلك المصيبة (ورب ضارة نافعة) طردت العبودية الكسل والتهاون وعودتنا على حب العمل وفن القتال ليل نهار .

هذا هو رأى القيصر الصريح فى كارثة معركة نارفا . وبالمناسبة فان نطاق الكارثة مبالغ فيه كثيرا من قبل بطرس نفسه ومعاصريه من الروس والاجانب ، وكذلك من قبل المؤرخين المحدثين . الا انها اثارت دهشة الجميع لدرجة جعلتهم فى كل مكان فى اوربا ، يسخرون من روسيا ومن بطرس . وبعد عام او عامين بدأ الروس بضرب السويديين وخسر العدو فى المعارك آلاف القتلى ، خسر احيانا اكثر مما خسره الروس فى واقعة نارفا ، لكن احدا لم يبد اهتماما كبيرا بذلك . فقد ظلت هزيمة «الموسكوبيين» فى معركة نارفا امدا طويلا ، حوالى عشر سنوات ، تثير دهشة واعجاب اوربا وخصوصا الحاقدين على روسيا وبطرس .

فقد قالوا وكتبوا عن القيصر الروسى فى اعقاب الهزيمة ولامد طويل بعدها انه جبن وفر من ساحة المعركة قبل اندلاعها . ولا يمكن الموافقة على هذا الرأى . فقد اوردنا اعلاه ملابسات واسباب رحيله من نارفا . زد على ذلك ان القيصر قبل معركة

نارفا ، اثناء حملتى آزوف مثلا ، وبعدها ، فى معركة بولتافا برا وفي معركة هانكو بحرا وفى العديد من المعارك الاخرى ابدى بسالة منقطعة النظير وتعرض لاخطار جسيمة شأن الجندى الحقيقى . ولا احد ينكر عليه ذلك . لكنه عندما يتطلب الموقف يعهد بقيادة الجيش والعمليات الحربية الى جنرالاته ويمارس اعمالا اخرى ، وما اكثر تلك الاعمال فى الشؤون العسكرية وغيرها . ومع ان كلوتشيفسكى لا يفوت فرصة ليغمز بالقيصر فانه يقدره حق قدره ويقول : «كلف بطرس جنرالاته واميرالاته بادارة العمليات فى الجبهة واخذ على عاتقة الجانب التقنى من الحرب ، اى الجانب الاقل وضوحا . كان عادة يبقى خلف جيشه ، ينظم مؤخرته ويعبئ المجندين ويضع خطط العمليات الحربية ويبنى السفن والمصانع الحربية ويهيئ العدة والعتاد والمؤن ، ويختزن كل الاحتياطيات ويستحث الجميع ويقرعهم ويشتمهم ويتشاجر معهم ويعدم بعضهم ويتنقل بين ارجاء الدولة ، فكان بمثابة آمر المدفعية العام ومدير المؤونة العام وكبير بناة السفن» .

وكان من نقاط الضعف بالنسبة لبطرس فى حرب الشمال حلفاؤه الخائرون الذين لا يكنون له الود ولا تروق لهم اعماله . وكانوا فى الواقع يسيرون بالامور الى احباط مخططات بطرس العسكرية ، مع ان اغسطس الثانى كان يعيد ويكرر ، بمناسبة وغير مناسبة ، مودته له . وكان ذلك هو السبب فى خيانة ديكروا وعشرات من الضباط الاجانب الاخرين فى موقعة نارفا وانهاء حصار ريغا ومفاوضات السكسونيين الانفرادية مع السويديين وغير ذلك من الدسائس . كان القيصر يرتاب فى بعض الامور ، لكنه لا يعرف الحقيقة كاملة (فهو لا يعرف ، مثلا ، بالرسائل السرية

التى بعثها ديكروا الى الملك اغسطس الثانى ، ولا يعرف بنوايا الملك نفسه ومستشاره المغامر باتكول) ، ولذا ظل يثق بالحليف المزعوم . وعندما اضطر بغتة الى مواجهة جيش نظامى حسن التدريب ، بدلا من حامية القلعة وحدها ، كانت النتائج مؤسفة جدا بالنسبة له ومفرحة بالنسبة للسويديين . فليس من قبيل الصدفة ان انتشى ملكهم وتصور نفسه اعظم من الاسكندر المقدونى . وليس من قبيل الصدفة انه نقد القائد العام الروسى الذى انتقل الى معسكره مجللا بالعار ١٥٠٠٠ روبل واجلسه لتناول الطعام على مائدة الملك .

ويتصور بعض المؤرخين المعاصرين بحق ان جيش بطرس الجديد لم يهزم فى واقعة نارفا لسبب بسيط هو ان هذا الجيش لم يكتمل بعد بشكل حقيقى وان سلك الضباط الذى تشكل على عجل مكون من مرتزقة مأجورين من حثالات الجيوش الاوربية . وكانت ثقة بطرس بهؤلاء الاشخاص الذين اتضح جبنهم وخيانتهم فى المواقف العصيبة خطأ فاحشا من جانبه بالطبع .

لقد غدت الهزيمة فى نارفا امتحانا قاسيا . فكان يجب تصحيح الاخطاء على جناح السرعة . وعمل القيصر بحزم وسرعة وبلا رحمة . وانتقلت عدوى نشاطه الى الاخريـــــــن ، فتحرك الجميع . ومن حسن الحظ ان الملك السويدى المغرور قد وفر له الوقت الذى هو بأمس الحاجة اليه لحل المهمات الصغيرة والكبيرة التى لا نهاية لها .

وتلقى الامير ريبنين امرا صارما من القيصر باعادة الامور الى نصابها فى الفيالق التى تضررت فى معركة نارفا . ونفذ ريبنين الامر . فان ٢٣ الف جندى تحولوا الى جيش متمكن

من القتال . وبأمر من القيصر ايضا جرى تعزيز نوفغورود وبسكوف وديربيتشيرسكي (على الحدود مع استلانديا ، شمال غربي بسكوف) وتحويلها الى قلاع . فان بطرس يخشى هجوما من السويديين (وبالمناسبة فقد اتضح عاجلا ان تلك المخاوف لا موجب لها) . واشرف بطرس بنفسه على انشاء الاستحكامات في نوفغورود وبسكوف . وبالاضافة الى الجنود والخيالة اشرك بطرس في هذا العمل حتى الرهبان والقساوسة «كل مراتب سدنة الكنائس من رجال ونساء» ، وقد الغيت الصلوات في كنائس الابرشيات خلال تلك الفترة .

واعلن عن تجنيد وجبة جديدة في موسكو . وجرى تجنيد الجميع ، حتى الاقنان . وعجل بطرس في بناء المصانع في الاورال ، اذ كان لا بد من صنع المدافع بسرعة . واذيع على الملأ المرسوم الشهير الخاص بصهر نواقيس الكنائس وصنع المدافع منها . وصار هذا النشاط المحموم يعود بثمار سريعة . فقد ازداد عدد الافواج وتزودت باكثر من ٣٠٠ مدفع . وفي اواخر كانون الثاني (يناير) ١٧٠١ ، بعد عام ونيف من هزيمة نارفا ، كتب بلير سفير الامبراطورية في موسكو الى عاهله بان الجيش الروسي صار اقوى من السابق ثلاث مرات .

ونجد بطرس في كل مكان ، يتنقل من عربة الى اخرى ، وينام ويتناول الطعام وهو في الطريق ، ويرهق قواه وقوى البلد كله ، ويؤمن مستلزمات النصر المنشود . ويراه المرء تارة في موسكو وفورونيج وتارة في نوفغورود وبسكوف وتارة في ارخانجلسك وبيرجي العائدة الى بولونيا .

ولم يكن كارل الثاني يرى شيئا من ذلك او انه لا يريد ان يراه . فقد اسكره الانتصار في نارفا والانتصارات الاخرى

اثناء غزواته لساحل البلطيق الجنوبى ، ففارقه نهائيا التقييم الواقعى للموقف . وهو يرى ان الجيش الروسى لا يستحق اهتمام قائد عظيم مثله :

ـــ لا اجد لذة فى محاربة الروس ، لانهم يفرون ولا يقاومون كالاخرين .

لكن الاخرين لا يشاطرونه رأيه هذا . فحتى الجنـــرال ستينبوك ، وهو من اقرب معاونيه ، يقول عن سيده بقلق :

ـــ الملك لا يفكر بشىء غير الحرب . ولم يعد ينصت الى نصائح الغير ، ويتظاهر بان الخالق يلهمه رأسا بما ينبغى عليه ان يفعله .

كان الكثيرون فى اوربا ينظرون الى الاحداث المرتبطة بالحرب بين روسيا والسويد بمنظار كارل الثانى . ويبذل حكام بريطانيا وهولندة وفرنسا قصارى جهدهم لكسب ود الملك والتحالف معه ويعبرون عن اعجابهم بانتصاراته ويبالغون فى تقدير مواهبه الحربية . وتتعالى فى جوقة المديح اصوات القائدين العظيمين الانجليزى الدوق مالبرو والنمساوى اوجين حاكم سافوى . وصاروا يتذكرون غوستاف-ادولف والد جد الملك السويدى ، القائد المظفر الحاقد على روسيا .

كان المشرفون على الدبلوماسية السويدية ، والاوربية عموما ، يعتقدون ان روسيا المغلوبة يجب ان تركع امام الملك الغالب . وكتب ماتفييف الى بطرس من هولندة : «ان الاسياد هنا ينتظرون الصلح لان افضل قواتكم قد دحرت . . . وليس بالامكان تدريب الجيش اللازم فى القريب العاجل» . وكان بطرس يعرف بعض خصائص هذه الدبلوماسية . فـ«البعثة الكبرى» فتحت عينيه على امور كثيرة عندما كان لا يزال دبلوماسيا غريرا سريع التصديق .

وقد كسب الخبرة فى تسيير الدبلوماسية التى تميزت بالحسابات المصلحية السافرة والغدر والدسائس وما الى ذلك . واستوعب بطرس بعض تلك الطرائق بوصفه نفعيا ، لكنه ظل احيانا على نفس الثقة الساذجة ، حيث التزم بابسط قواعد اللياقة وبالمبادئ الحقوقية التى اخل بها الاخرون . فعندما اندلعت الحرب ضد السويد سمح بطرس لممثليها الدبلوماسيين بالعودة الى وطنهم . بينما تصرف كارل الثانى عشر على نحو آخر ، فبأمر منه سجن السفير الروسى خيلكوف والعاملون معه ، وكذلك جميع التجار الروس .

وبدأت ابرز الدول الاوربية — بريطانيا وهولندة والنمسا وفرنسا الحرب من اجل التركة الاسبانية . ففى الاول من تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧٠٠ توفى كارل الثانى ملك اسبانيا ، وبموجب وصيته عين فيليب الخامس دوق انجوى وحفيد لويس الرابع عشر حاكما جديدا لاسبانيا . وكان لويس الرابع عشر يميل الى اعتبار اسبانيا وممتلكاتها الشاسعة جزءا من مملكته :

— لم تعد البرنيه موجودة بعد الآن .

كانت هذه الكلمات التى تناقلتها الاسطورة تجسد السياسة التوسعية «للملك—الشمس» واستمرارها فى مطلع القرن الجديد . وقد قوبلت طبعا بالرفض من جانب الجيران والحلفاء . ففى ٧ ايلول (سبتمبر) ١٧٠١ ظهر الحلف الكبير المكون من النمسا وبريطانيا وهولندة . وفى ايار (مايو) وايلول (سبتمبر) من العام التالى اعلنت هذه الدول الثلاث الحرب على فرنسا .

وفى هذا الموقف المعقد حاول بطرس ودبلوماسيوه ان يجسوا النبض ويتأكدوا من امكانية التصالح بين روسيا والسويد ليبينوا بالدرجة الاولى لاوربا ان بطرس لا يعتبر نفسه مغلوبا . وقام غوليتسين فى فينا بمحاولة من هذا النوع الا ان اللقاء مع

الامبراطور ليوبولد الاول والمفاوضات مع رئيس الـــوزراء كاونيتس لم تعط اية نتيجة . فالدبلوماسيون الاوربيون لا يعيرون اهتماما لبطرس وروسيا ، ويحتقرون الدبلوماسيين الروس ويسخرون منهم فى السر والعلانية . وكتب غوليتسين عن ذلك الى بطرس يقول :

— الوزير الاول كاونيتس الذى يتوقف عليه كل شيء لا يريد ان يتكلم معى . ولا يمكن التعويل على الاخرين ، فهم يسخرون منا .

وتشكى غوليتسين الى مدير العلاقات الخارجية غولوفين من عدم وجود الاموال للرشوة (اموال الخزينة فى روسيا لا تكاد تكفى للتحضير للحرب ، او على الاصح للاستمرار فيها) :

— انت تعرف الناس هنا . زوجات الوزراء ، وليس الوزراء انفسهم ، يأخذن الهدايا دون حياء . الجميع هنا يهدون مختلف الحاجيات ، ما عداى انا ، فليس عندى غير الخطـب الموسكوبية .

رفض كاونيتس طلب الوساطة . واستفسر المستشار من السفير غوليتسين :

— ما هى شروط الصلح التى تريدها روسيا ؟

— روسيا تريد الحصول على جزء من ليفونيا على امتداد نهر ناروفا مع مدن نارفا وايفانغراد وريفيل وكوبوريـــــــه وديربت ، وحرية التجارة فى بحر البلطيق من خلال هذه المدن .

— يستحيل ان يوافق ملك السويد على ذلك .

وعندما نقلت تلك الشروط الى كارل الثانى عشر رفضها بالطبع رفضا باتا . وفى العام ذاته ، ١٧٠١ ، اتسمت الاتصالات الدبلوماسية مع النمسا والدانمرك بالانتعاش ، لكنها

ظلت عقيمة . فالبلاط النمساوى تارة ينشغل بزفاف تظاهرى لولى العهد من اميرة روسية وتارة يخوض فى مباحثات عن تربية الامير الكسى ، ابن بطرس ، فى فينا ، وتارة يوقع المبعوث الدانمركى هينس اتفاقية سرية بشأن ارسال خمسة افواج من الدانمرك لمساعدة روسيا ، وهى الاتفاقية التى ظلت حبرا على ورق ، لان الدانمرك فى الواقع دخلت الحرب الاسبانية ووجهت نصف جيشها ضد فرنسا .

وفى هذه الظروف اخذ بطرس يتودد الى اغسطس من جديد رغم معرفته بنوايا هذا المستجدى الذى هو بحاجة الى دعم من بطرس ليصبح ملكا وراثيا لبولونيا حتى يصفى الديمقراطية فيها على الطريقة الارستقراطية . الا ان الكثيرين من البولونيين كانوا يتجاهلونه ولا يعتبرونه ملكا عليهم . ولم يوافق كارل الثانى عشر على المفاوضات السلمية . فهو يكره اغسطس الثانى . اما بطرس فهو بالعكس يتشبث ، بعد واقعة نارفا ، بحليفه غير المأمون ، ويستفيد هذا الاخير من هذه الحالة .

وفى شباط (فبراير) ١٧٠١ التقى بطرس واغسطس الثانى فى موضع بيرجى فى كورلياندیا . وكما كان الحال فى رافا الروسية فى حينه اخذا يلهوان ويتسليان ، وفى الفترات بين الولائم يتباحثان . ذات مرة ، بعد سكر شديد غط الملك فى نوم عميق وفوت صلاة الظهر . اما بطرس فقد نهض مبكرا كعادته . ولما كان الصديق والحليف لا يزال نائما مضى القيصر على عجل الى الكنيسة الكاثوليكية واطلع باهتمام على الطقوس الكاثوليكية .

وبعد المفاوضات اكد بطرس واغسطس التزاماتهما القديمة ووقعا معاهدة جديدة . والتزم الطرفان بمواصلة الحرب ضد السويد وعدم توقيع صلح انفرادى معها . بلغ القيصر مراده ، لكنه

اضطر الى دفع الثمن ، حيث خصص لدعم اغسطس الثانى فيلق مشاة من ١٥ ـــ ٢٠ الفا وسدد طوال عامين معونة سنوية قدرها ١٠٠ الف روبل . ووافق على انضمام ليفلانديا واستلانديا الى بولونيا . وبغية استمالة بولونيا الى الحرب وعد بتخصيص ٢٠ الف روبل لاعضاء مجلس الشيوخ فيها . وتلك شروط ليست سهلة ، وخصوصا المالية منها . فان موجودات خزينة موسكو والقروض من الاديرة والاثرياء ما كادت تكفى لتسديد المبلغ الاول الى اغسطس الثانى .

وقابل بطرس فى بيرجى مجموعة من الاقطاعيين البولونيين . وردا على اقتراحاته بشأن مشاركة الدولة البولونية فى الحرب مقابل ليفلانيا طالب اولئك بكييف واراض روسية اخرى . ولم يتم اتفاق بهذا الشأن طبعا . الا ان القيصر اعرب للوجهـــاء البولونيين مع ذلك عن مشاعر الود :

ـــ ليس صحيحا التفكير بانى اردت ان اساعد الملك ضد حرية بولونيا ، فانا ، كجار ، لست بحاجة الى ذلك مطلقا . ولو كنت انوى شيئا ضد بولونيا لانتهزت فرصة ازدواجية السلطة العاصفة ، ولكننى حتى فى مثل هذه الحالة احتفظت بالصداقة ، وساحاول مضاعفتها فى المستقبل .

واستقبل بطرس مبعوث فرنسا فى بولونيا ايرون الذى استفسر عما اذا كانت روسيا تستطيع ان تقدم الى لويس الرابع عشر مساعدة عسكرية فى الحرب الاسبانية . وردا على ذلك سمع كلاما عن الرغبة فى العلاقات الودية بين روسيا وفرنسا وتطوير التجارة بينهما .

وعندما عاد بطرس الى الوطن واصل استعداداته النشيطة للاستمرار فى العمليات الحربية . وفى نيسان (ابريل) ١٧٠١

ارسل فيلقا من ٢٠ الف شخص بقيادة ريبنين الى ضواحي ريغا ليلتقي بالجيش السكسوني . وشعر قائد هذا الجيش الفيلدمارشال شتيناو بالارتياح واستخدم الجنود الروس في تشييد التحصينات .

وكان كارل الثاني عشر آنذاك ينتظر وصول الامدادات في ضواحي ديربت . وظل هناك ستة اشهر . ثم زحف على ريغا باقصى السرعة ، كعادته ، ودحر السكسونيين بشكل شنيع . ولم يشارك الروس في القتال وسرعان ما عادوا الى بسكوف . وانسحبت الافواج السكسونية المدحورة . وانتشى «السويدي» لدرجة اكبر بعد هذا الانتصار على محاربين مجربين ماهرين ، كما بدا السكسونيون في انظار اوربا ، ولذا عزم على الزحف على روسيا . الا ان «الجنرالات . . . اقنعوا ملكهم بالعدول عن ذلك» كما يقول شاهد عيان هو شليبينباخ احد ابرز القادة العسكريين السويديين . وانطلق هؤلاء الجنرالات والملك نفسه من ضرورة دحر السكسونيين حتى النهاية باعتبارهم اقوى من الروس ، ومن ثم الشروع بمقاتلة هؤلاء الاخيرين . واخذ كارل الثاني عشر يحوم حول الحدود الروسية الغربية ، في بولونيا هذه المرة ، لاسيما وان اغسطس الثاني الذي يبغضه وقع هناك ، في بيرجي ، اتفاقية جديدة مع روسيا . وقال المؤرخ الروسي ، الشهير س . سولوفييف بدقة : «كان اغسطس حليفا ثمينا بالنسبة لبطرس ليس بقوة السلاح بل لانه جعل الملك السويدي يبغضه ويرتاب فيه لاقصى حد . لقد شاغل هذا العدو الرهيب في ذلك الزمان وألهاه عن الحدود الروسية ووفر الفرصة للقيصر كي يعزز قواته ويدربها على قهر السويديين» .

وتورط كارل الثاني عشر في بولونيا ، فلم يتمكن من القتال

.على جبهتين . وظل بطرس يعزز جيشه ويعبئ كل موارد البلاد . القيصر وروسيا بحاجة الى النصر ، وان كان ضئيلا فى البداية ، لترتفع معنويات الروس ، والجيش خصوصا ، ولكى تغير اوربا رأيها فى «الهمج» الشرقيين .

سارت عمليات السويديين فى بولونيا بنجاح كبير . وليس فى بولونيا وحدها . فقد حاولوا ان يهاجموا ارخانجلسك بحرا ليحرقوا الميناء الوحيد الذى يربط روسيا باوربا . وتم صد هجوم السفن السويدية وتكبدت خسائر غير قليلة . واسرع بطرس الى هناك ليتخذ اجراءات عاجلة ويقوى تلك المدينة التى تتسم بأهمية بالغة للدولة .

وكان القيصر فى الوقت ذاته يتردد على فورونيج كثيرا . فهنا تبنى سفن جديدة وترمم السفن القديمة التى تتلف بسرعة فى المياه العذبة . ويتابع القيصر كل شىء بعين ساهرة . فالاسطول ضرورى لمقاومة العثمانيين ، لان المعروف عن السلطان العثمانى ان موقفه من المعاهدات السلمية نفعى جدا ، ويمكن ان يتخلى عنها فى الحال ويشن الحرب . وكان بطرس قلقا بسبب ذلك . فنقل ابراكسين ، وهو من اقرب انصاره ، من ارخانجلسك الى آزوف واخذ يبعث اليه التوجيهات بلا انقطاع :

ــ خذ حذرك فى آزوف واكثر من ذلك فى تاغانروغ وعزز دفاع المنطقة .

ــ خذ حذرك من الجانب العثمانى .

وارسل بطرس ممثله بيوتر تولستوى الى الاستانة . صحيح ان هذا الرجل كان مرتبطا بآل ميلوسلافسكى وصوفيا اثناء احداث ١٦٨٢ . لكن بطرس يقدر رفيع التقدير فطنته ودهاءه وشطارته . وقال له القيصر ذات مرة ، فى لحظة من التصارح وطيبة النفس :

«يا هذا الرأس كانت رقبتك ستقطع لو لم تكن ذكيا الى هذا الحد» . وبذل هذا الرجل جهده بالخدمة الصادقة ليحظى بثقة القيصر . وقد وفق فى ذلك الآن وسيوفق فيما بعد . فقد قضى فى بلاط السلطان العثمانى سنين طويلة ولعب دورا هاما فى صيانة الهدنة التى وقعها اوكراينتسيف مع العثمانيين فى عام ١٧٠٠ . وفهم بسرعة ان الدور الحاسم فى ذلك تلعبه قدرة روسيا المتزايدة فى البحر الاسود :

ـــ أكثر ما يخشونه يا صاحب الجلالة هو اسطولك البحرى .

ومن حسن الحظ ان قلق بطرس ومخاوفه لم تكن مبررة ، فاخبر بذلك ابراكسين فى آزوف قائلا بارتياح :

ـــ لا نتوقع حربا مع الاتراك لان السلطان أكد على الصلح برغبة .

وبالمناسبة كان مزاج السلطان يتبدل بسرعة كبيرة . وتحلى بيوتر تولستوى بالصبر والشطارة ليحمله على العدول عن العمليات الحاسمة ضد روسيا . وفى تلك الاثناء كان القيصر يتابع الاسطول فى فورونيج وآزوف .

وغدا الحصول على النقود شغلا شاغلا لبطرس ومشكلة مؤلمة ممضة . ذات مرة اخذ يفكر فى ذلك طويلا ، ليوم كامل تقريبا ، دون ان يجد مخرجا . ودخل عليه الامير رومودانوفسكى او بروزوروفسكى (اختلف الرواة بهذا الخصوص) فبادره القيصر قائلا :

ـــ الخزينة خاوية ، وليس عندنا ما ندفعه للقوات . وليست عندنا مدفعية ، فى حين سنحتاج اليها قريبا . فما العمل ؟ هل نأخذ ذهبا وفضة من كنوز الاديرة ونسك منها النقود ؟

ـــ تلك قضية حساسة . يجب ان نفكر فى مخرج آخر .

ـــ ما هو ؟

اقتاد الرجل القيصر الى مستودع سرى فى الكريملين . وكانت هناك اكداس من الالجمة والآنية المفضضة والمذهبة والنقود الفضية من فئات قليلة والقطع النقدية الهولندية .

وحكى الامير للقيصر المندهش الرواية التالية :

— عندما كان والدك ، القيصر الكسى ميخائيلوفيتش يتوجه فى حملات فى اوقات مختلفة ، كان يسلمنى ، بسبب ثقته بى ، النقود والكنوز النافلة لكى احتفظ بها . وفى ايامه الاخيرة استدعانى واوصانى بالا اقدمها لاحد من ورثته الا اذا كانت هناك حاجة ماسة الى النقود اثناء الحرب .

يصعب الجزم بان هذا هو ما حدث بالفعل وبهذه الصورة فى مستودع الكريملين السرى فى ذلك اليوم ، كما يصعب الجزم بان هذا الحديث جرى عموما . وعلى اية حال فان «الحاجة الماسة» الى النقود كانت موجودة بالفعل . وان دار سك النقود فى السنوات الاولى من الحرب زادت من انتاجيتها وقللت من وزن القطع النقدية الفضية : فقبل الحرب كانوا يسكون منها ٢٠٠ — ٥٠٠ الف روبل فى العام ، بينما سكوا منها حوالى مليونين فى ١٧٠٠ واكثر من ٤,٥ ملايين روبل فى عام ١٧٠٢ . وبهذه العملية المشبوهة (وربما استخدموا فيها كنوز المستودع السرى الانف الذكر) تمكنوا من رتق خروق الميزانية ، ولكن لامد قصير . فقد اتخذت اجراءات اخرى لهذا الغرض . فان الموظفين «المربحين» ابتكروا ضرائب جديدة . فاستحقوا غضب الناس . وانفقت اموال طائلة على الجيش وعلى استخدام الضباط الاجانب وعلى بناء اسطول البلطيق الذى سرعان ما بدأ آنذاك .

وبعد فترة وجيزة نسبيا من الهزيمة فى موقعة نارفا امر بطرس جنرالاته بتنشيط العمليات الحربية . ففى ٥ كانون الاول (ديسمبر)

١٧٠٠ ، اى بعد اسبوعين ونيف ، اصدر امرا الى شيريميتيف الذى كان حذرا جدا :

— تقدم الى ابعد لالحاق المزيد من الخسائر بالعدو . ولا عذر لك . لا سيما وان عدد الرجال كبير . ثم ان الانهار والمستنقعات تجمدت ولن يستولي عليها العدو . ولذا اكتب اليك الان عن ذلك كيلا تتحجج رافضا .

وعندما دخل الجنود الروس فى اشتباك مع السويديين اخذوا يتخلصون بالتدريج من التردد والوجل . وكان شيريميتيف المتباطئ الذى يحسب لكل شيء حسابه قد توجه الى المعركة ولديه من الجنود ضعف او ثلاثة امثال .

وكانت الانتصارات الاولى قد قوت المعنويات ، كما حدث ، مثلا ، فى معركة ارخانجلسك صيف ١٧٠١ ، عندما داهمت تحصيناتها سبع سفن سويدية تحمل العلم الانجليزى والهولندى (للتمويه) . لكنها منيت بالهزيمة وفقدت سفينتين . وفي اواخر كانون الاول (ديسمبر) من العام نفسه شن شيريميتيف على رأس فيلق من ١٧ الفا هجوما على فيلق من ٧ آلاف شخص بقيادة شليبينباخ قرب قرية ايرستفير بضواحى ديربت (فى ليفونيا) . وفقد السويديون ثلاثة آلاف شخص ، واسر الروس ٣٥٠ شخصا . واحتفلت موسكو بالنصر باطلاق الالعاب النارية . ووزعت المكافآت على كل المشاركين فى المعركة حتى الجنود . ومنح شيريميتيف رتبة الفيلدمارشال—جنرال ووسام اندرى بيرفوزفانى . واعلن بطرس مبتهجا :

— ها نحن قادرون اخيرا على ضرب السويديين .

وبعد ستة أشهر ونيف احرز الروس انتصارا جديدا . ففى ١٨ تموز (يوليو) ١٧٠٢ دحر شيريميتيف من جديد شليبينباخ ،

في معركة غوميلسغوف هذه المرة . وفقد هذا الاخير خمسة آلاف قتيل و٣٠٠ أسير وكل مدفعيته . ويمكن مقارنة ذلك تماما بما حدث في موقعة نارفا قبل عام ونصف .

واعتبارا من خريف العام نفسه اخذ بطرس شخصيا يقود العمليات الحربية في منطقة اينغريا (ايجورا) . واخذ الروس بالتدريج يطهرون الاراضي الواقعة على نهر نيفا من السويديين . ومن اواخر ايلول (سبتمبر) بدأ قصف نوتيبورغ القلعة المنيعة عند مصب نهر نيفا من بحيرة لادوجسكويه . وهي مطوقة بأسوار سميكة وعالية ، وفيها مدافع كثيرة . ووجه بطرس اليها ١٤ فوجا ظلت تقصفها طوال اسبوعين .

ولم تتحمل زوجات الضباط السويديين ، فارسلت زوجة القومندان طبالا الى معسكر الروس يحمل التماسا من النساء الى شيريميتيف :

— نتوسل الى السيد الفيلدمارشال ان يسمح للنساء بمغادرة القلعة لانهن قلقات جدا من النار والدخان ومن سوء الحال .

ورد عليهن كابتن المدفعية بطرس ميخائيلوف ، اى القيصر نفسه ، مازحا :

— لا اتجرأ على ايصال هذا الطلب لانى متأكد من ان السيد الفيلدمارشال لن يسمح لهن بان يكتئبن لفراق ازواجهن ، واذا اردن مغادرة القلعة فليأخذن معهن ازواجهن .

لم يوافقوا في نوتيبورغ على هذا النوع من الدعوات المهذبة للاستسلام . واضطر الروس الى اتخاذ اجراءات اكثر حزما . ففي ١١ تشرين الاول (اكتوبر) بدأ الهجوم الذى استمر ١٢ ساعة ، وتم تحرير المدينة الروسية العريقة اوريشيك (نوتيبورغ) . وأشاد احد شهود العيان من الاجانب ببسالة الجنود الروس قائلا :

— انه لمدهش حقا كيف استطاع الروس ان يرتقوا مثل هذه القلعة ويستولوا عليها بواسطة سلالم الحصار وحدها .

وقال بطرس بهذا الخصوص :

— الحقيقة كانت هذه الجوزة متينة لكننا حطمناها والحمد لله ، وادت مدفعيتنا واجبها بأروع شكل .

واستبدل بطرس اسم قلعة نوتيبورغ فجعله شليسيلبورغ (المدينة–المفتاح) ، وكانت بالفعل تشغل موقعا حساسا بأهمية المفتاح . واستفاد القيصر من موقعها هذا . ففى آذار (مارس) من العام التالى وصل الى هنا ليتحرك من شليسيلبورغ بواسطة نهر نيفا الى مصبه فى البحر . وتوجد هنا قلعة اخرى ذات موقع حساس هى نينشانس .

وحان وقت بدء الحصار . وما كادوا يبدأونه حتى استسلمت الحامية .

وبعد اسبوع ، فى ٧ آيار (مايو) تحقق اول نصر مائى : لم يكن انتصارا كبيرا لكن بطرس فرح له اعظم الفرح . حقا ، فان مهاجمة سفينتين بحريتين بالقوارب وكسب المعركة بهذا الهجوم الجرىء الذى يتميز بشىء من المغامرة من حيث بسالته تبعث على الفرح بالطبع . وتشكل السفينتان جزءا من عمارة نوميرس التى كانت تمخر مياه الخليج الفنلندى . وفى ٥ آيار دخلت مصب نيفا ، ولم يكن السويديون قد عرفوا بعد باستسلام قلعة نينشانس . وانتهز بطرس الفرصة بالكامل . وكتب بنفسه واصفا المعركة :

— وصلت الى المصب عمارة العدو بقيادة الفريق البحرى السيد نومبرس . وعندما علم سيدنا المارشال بذلك ارسلنا فى ثلاثين قاربا . وفى ٧ آيار وصلنا الى المصب وتفحصنا العدو بوضوح

وفى قتال مدبر استولينا على فرقاطتين ، احداهما ، «غيدان» ، بعشرة مدافع ، والاخرى ، «آستريل» ، بثمانية مدافع ، واربع عشرة كوة . ولما كان الخصوم قد تأخروا فى اعلان الاستسلام كان من الصعب تهدئة الجنود الذين اقتحموا السفينتين وكادوا يقتلون الجميع ، ولم يبق على قيد الحياة سوى ١٣ شخصا . واشتركت فى هذا الحادث ثمانية قوارب فقط .

كان لا بد لهذا النصر اليسير على السفن البحرية بواسطة القوارب والبنادق والقنابل اليدوية من ان يرفع المعنويات . «نصر منقطع النظير» ــ هذا ما كان يكرره بطرس فرحا بمناسبة هذه «القضية» فى مصب نهر نيفا . كيف لا يفرح وهو الذى اعد العملية ونفذها بنفسه . ترك مجموعة من القوارب فى المجرى الاسفل للنهر لتحول دون انسحاب الفرقاطتين السويديتين الى البحر وهجم عليهما بمجموعة اخرى من القوارب من الجهة المقابلة ، حتى ضيق الخناق على العدو من الجانبين . وقاد بطرس نفسه ومينشيكوف عمليات كلتا المجموعتين . واشاد كبار القادة بشجاعتهما وحسن قيادتهما . وكتب القيصر ــ الكابتن عن ذلك فى احدى رسائله باعتزاز :

ــ ومع اننا لا نستحق الثناء الا ان السيد الفيلدمارشال والسيد الاميرال قلدانى انا والسيد الملازم (مينشيكوف) وسام القديس اندرى .

بهذه الصورة تسلم القيصر وسام اندرى بيرفوزفانى الذى استحدثه هو نفسه قبل قليل . وبمناسبة النصر امر باعداد مدالية كتب عليها «المستحيل يتحقق» .

وكان بطرس الذى شارك شخصيا فى حصار نوتيبورغ والقتال فى مصب نيفا وتعرض لاخطار كثيرة راضيا عن نتائج العمليات

الحربية فى ١٧٠١ — ١٧٠٣ . فقد سيطر الروس المنتصرون على كل الاراضى المحيطة بنهر نيفا من روافده حتى مصبه . ويعود فضل كبير فى ذلك للقيصر ، مع انه لا يبرز دوره ولا يضعه فى مرتبة الصدارة ، بل على العكس يخفيه ويقلل من شأنه ويقول «نحن» ، و«قواتنا» وما الى ذلك عندما يتحدث عن النصر . فالنصر ، فى رأيه ، نتيجة لتضافر جهود افراد الجيش من الجنود حتى الفيلدمارشال .

وقد ادرك بطرس الاهمية البالغة لاستعادة الاراضى التى دحر فيها الكسندر نيفسكى الغزاة السويديين فى حينه (معركة نيفا عام ١٢٤٠ فى اطار اراضى نوفغورود العريقة) ، حتى انه ارسى فى تلك الايام ، فى ١٦ آيار (مايو) ١٧٠٣ ، اساس قلعة سان بطرسبورغ على جزيرة لوست ايلاند (جزيرة المرح) فى مصب نيفا. وغدت تلك القلعة فيما بعد العاصمة الجديدة لروسيا . كانت لتلك القلعة الخشبية التى بناها الجنود ستة حصون وجنبها شيدوا منزلا صغيرا من جذوع الاشجار لبطرس ، لا يزال قائما حتى الان وتؤمه جموع السياح .

وعين بطرس رفيقه المحبوب مينشيكوف متصرفا فى القلعة الجديدة . وسرعان ما تلقى القيصر منه التقرير التالى :

— ادارة المدينة على ما يرام . وصل اليها عاملون كثيرون من المدن الاخرى ولا يزال عددهم فى ازدياد . سنعجل ، باذن الله ، فى انجاز المهمة (بناء بطرسبورغ فى اغلب الظن — **ملاحظة المؤلف**) . ومما يؤسف له ان الشمس هنا عالية جدا .

ويبدو ان المتصرف الجديد لم يكن قد رأى الليالى البيضاء مطلقا . وفيما بعد عرف مع رفاقه ما هو اسوأ من ذلك . فالامير ريبنين الذى رابطت افواجه على ضفة النهر تشكى ابتداء

من شهر آب :

ـــ يا صاحب الجلالة ، الطقس سيئ جدا من جهة البحر ، فهو يدفع المياه الى المكان الذى ترابط فيه افواجى حتى تبلـغ المخيم . وامس فى منتصف الليل تبلل الكثيرون من طباخى فوج بريوبراجينسكى مع ادواتهم . ويقول الاهالى ان هذه المنطقة تغمر بالمياه دوما فى مثل هذه الاوقات .

وفيما بعد رأى بطرس من منزله مرارا مثل هذه المشاهد ـــ فيضان النهر والقوارب «تمخر» الشوارع والناس على سطوح المنازل وعلى الاشجار . لكنه لم يأسف ، بل على العكس يشعر بالفرح لانه يعيش فى هذه «الفردوس» التى كتب عنها الى بعضهم دون اثر للشك او الفكاهة :

ـــ نعيش هنا فى جنة حقيقية .

ـــ لا يسعنى الا ان اكتب لك من الفردوس هنا .

«الفردوس» التى وقع بطرس فى هواها يجب ان تغدو ، فى رأيه ، بوابة للبلطيق واوربا . وستصل اليها البضائع اللازمة من جميع الارجاء . لكن مؤسس بطرسبورغ لم يخصص لها دور الميناء التجارى فقط ، كما ان التاريخ نفسه لم يخصص لها هذا الدور وحده . بعد عام نعت القيصر فى رسالة الى مينشيكوف القلعة الجديدة والميناء «بالعاصمة» . وامر فى عام ١٧٠٤ بارساء اساس قلعة بحرية لحمايتها من جهة البحر . وبنيت لهذا الغرض قلعة كرونشلوت (كرونشتادت حاليا) على جزيرة كوتلين على بعد ٣٠ كيلومترا ونيف غربى بطرسبورغ . واخذ القيصر يتردد على هذه الجزيرة ويتابع انشاء التحصينات . وقال بارتياح هذه المرة ايضا :

ـــ كرونشتادت حاليا فى وضع يجعل العدو يتهيب مـــن

الاقتراب منها من جهة البحر . والا سندمر سفنه شذر مذر . وسننام فى بطرسبورغ مطمئنين .

وصار بناء الاسطول فى البلطيق ولاجل البلطيق شغله الشاغل ، فهو واثق من استحالة حماية ما تحقق الا بهذا الاسطول :

— الحاكم الذى يمتلك قوات برية فقط له يد واحدة ، اما الذى يمتلك اسطولا كذلك فله يدان .

وباشراف القيصر بدأ فى حوض اولونيتس لبناء السفن فى ١٧٠٣ انشاء ٤٣ سفينة . وابحر القيصر باعتزاز على سفينة «شتاندارت» («الراية») ، باكورة اسطول البلطيق الروسى ، الى بطرسبورغ عاصمته الثانية التى كانت ستغدو فى القريب العاجل العاصمة الاولى . وهنا ، فى مصب نيفا ، ارسى اساسا لحوض بناء السفن ، هو حوض «الادميرالية» الذى لعب فيما بعد دورا كبيرا للغاية فى تطوير الاسطول الروسى . وبدأت اعمال هذا الحوض فى عام ١٧٠٥ ، وفى نيسان (ابريل) من العام التالى انزلت الى الماء هناك السفينة الاولى .

وعلى ضفاف نيفا بدأ تحويل روسيا الى دولة بحرية حقيقية . فهنا بالذات فتح بطرس «نافذة اوربا» التى كتب عنها الشاعر بوشكين بعد اكثر من مائة عام . كان بطرس يبنى للحاضر وللمستقبل . وتحتفظ الكتب برواية عن جوزات البلوط التى غرسها فى بطرسبورغ . فقد ابتسم احد الوجهاء بسخرية آنذاك ، فاشتاط القيصر غضبا :

— مفهوم . تتصور ان العمر لن يطول بى حتى ارى اشجار البلوط الباسقة . هذا صحيح . لكنك احمق . اننى اقدم مثالا للآخرين كى يفعلوا الشىء ذاته حتى يبنى احفادنا بمر الزمن سفنا من تلك الاشجار . اننى لا اعمل من اجل نفسى ،

بل لمنفعة الدولة فى المستقبل .

ولعل بطرس كان افضل من الجميع فى التطلع الى المستقبل :

ـــ اذا اطال الله فى عمرى ومنحنى الصحة والعافية فستكون بطرسبورغ امستردام الثانية .

تلك هى امنية القيصر-الشغيل . كان يفرح لادنـــى نجاح فى المراحل الاولى . وكان معاونوه يشاطرونه مشاعره . فعندما وصلت الى مصب نيفا فى خريف ١٧٠٣ سفينة اجنبية محملة بالملح والنبيذ اجزل متصرف بطرسبورغ مينشيكوف العطاء لكل ملاحيها .

وبلغت مسامع ملك السويد انتصارات بطرس فى اينغريا وتحرير وتأسيس المدن ، فلم يحزن الملك اطلاقا :

ـــ فليواصل القيصر العمل فى انشاء المدن الجديدة ، اما نحن فلا نريد سوى الاحتفاظ بشرف احتلالها فيما بعد .

لكن بطرس كان يحرز انتصارات جديدة . وهو واثق من نفسه ومن جنوده ومن روسيا . واشار الى ذلك روجيه بورتال ، وهو من افضل الاخصائيين المعاصرين بالشؤون الروسية فى اوربا : «لا يسع المرء الا ان يعجب بتحمل بطرس ومثابرته عندما تشبث بهذه الاماكن البائسة العليلة التى فصلها عن الغرب آنذاك الاحتلال السويدى لبولونيا ، فقرر بطرس ، بسبب خوفه على مصير جيوشه ، ان ينشئ فيها عاصمته . ليست الامثلة كثيرة على هذا النوع من الثقة بالمستقبل» .

وحاول السويديون زحزحة الروس من شواطئ نيفا وسواحل الخليج الفنلندى . وتوجهت فصيلة الجنرال كرونغيورت الى بطرسبورغ واقتربت منها . وتحرك بطرس لمواجهتها ، نحو نهر سيسترا ، على رأس اربعة افواج ، ففر العدو من ساحة المعركة

تحت ضربات تلك الافواج .

وفى عام ١٧٠٤ شن الفيلدمارشال شيريميتيف حملتين موفقتين على استلاانديا وليفلانديا . وشنت افواجه هجوما استولت فيه على مدينتين روسيتين عريقتين هما كوبوريه ويام . وحاصرت قواته مدينة اخرى اسسها الروس القدامى ايضا هى مدينة يوريف التى كانت تسمى فى تلك الحقبة «ديربت» . لكن الحصار طال واخفق . واسرع بطرس نحو ديربت من ضواحى نارفـا حيث كان قد شارك فى حصار المدينة . ووصل بطرس فى ٣ تموز (يوليو) وتفقد القلعة من بعيد ولم يكن راضيا من الموقف . فان شيريميتيف يستعد لمهاجمتها من جانب اسوارها المنيعة العالية ، دون ان يلاحظ ان الهجوم افضل اذا جرى من جانب الاسوار البالية الضعيفة التحصين .

وبأمر من بطرس فتحت المدفعية مساء ١٢ تموز ثلاث ثغرات فى هذه الاسوار واقتحمها المشاة الروس من تلك الثغرات . واندفعوا الى التحصين الاضافى واستولوا على خمسة مدافع وجهوها الى داخل القلعة وقصفوها . ولم يلاحظوا فى صخب المعركة ان الطبالة السويديين يحاولون ان يوصلوا بقرع الطبول اقتراحا بالمفاوضات . فقد قتل اربعة منهم الواحد تلو الاخر . واخيرا تمكن نافخ الصور من اعطاء الاشارة فبدأت المفاوضات . كان القتال قد استغرق ليلة كاملة تقريبا .

واثناء المفاوضات طلب قومندان ديربت السويدى السماح بخروج حاميته كلها ، بجنودها وضباطها وعوائلهم ، من المدينة ، وتزويدهم بمؤونة تكفى لشهر . ولامه بطرس قائلا بان «هذه الطلبات» جاءت متأخرة ، وكان يجب ان تقدم فى وقت سابق ، قبل ان يقتحم جنوده بوابة القلعة . الا ان بطرس ، خلافا

لكارل الثانى عشر ، ابدى شهامة واشاد ببسالة المدافعين عن القلعة وامر بمنح كل الذين يتركون المدينة احتياطيا من المأكولات يكفى لشهر وكذلك عربات لنقل الحاجيات . وترك للضباط سيوفهم ، وللجنود ثلث اسلحتهم .

فقد السويديون فى ديربت حوالى الفى جنـدى ، بينما فقد الروس ٧٠٠ شخص . وبمناسبة تحرير هذه المدينة التى اسسها الامير ياروسلاف الحكيم فى عام ١٠٣٠ اطلقت نيران المدافع والبنادق ثلاث مرات . واستقل بطرس يختا الى نارفا من خلال بحيرة تشودسكويه واخذ معه الاعلام والرايات السويدية التى استولى عليها الروس فى ديربت .

واستمر حصار نارفا بعد ان بدأ فى اواخر ايار (مايو) . وجلبوا الى هنا من بطرسبورغ وديربت مدافع لم تكن موجودة حتى ذلك الحين تحت تصرف القوات التى تحاصر القلعة . كان القومندان هورن هو آمر حامية القلعة فى عام ١٧٠٠ المنحوس بالنسبة للجيش الروسى وبطرس . ولذا فعندما تلقى الان ، بعد اربع سنوات ، اقتراحا بالاستسلام رفضه بغطرسة وازدراء ولسان حاله يقول : فليتذكر بطرس ما حدث هنا قبل اربعة اعوام . ولم يتهيب القيصر ، بل امر بان يقرأوا على جنوده رسالة هورن التى تضمنت رفض الاستسلام .

كان بطرس فى حزيران (يونيو) ، قبل تحرير ديربت ، قد لقن هذا السويدى المتغطرس درسا لا ينسى . فان عدة افواج من الجنود الروس المرتدين بزات سويدية زرقاء اقتربت من نارفا حاملة الرايات السويدية البيضاء والصفراء من الجهة التى كان المحاصرون ينتظرون منها وصول شليبينباخ مع النجدة . وعند اسوار القعلة بدأ هؤلاء «السويديون» (بقيادة بطرس نفسه) «معركة»

ضد الروس . وراح هورن يتابع الاحداث بمنظار من فوق سور القلعة . وعندما كان «القتال» ، باعتقاده ، فى اوجه ارسل فصيلة من القلعة الى مؤخرة الافواج الروسية . وغادر القلعة معها من البوابة كثير من المدنيين على امل الاثراء والكسب . فقد كانوا يتذكرون جيدا ، على ما يبدو ، كيف نهب جنود كارل الثانى عشر الروس فى تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٧٠٠ .

وهاجم الروس الفصيلة التى غادرت القلعة وكبدوها خسائر جسيمة . وعمت الافراح معسكر الروس بسبب اخفاق هذه العملية السويدية وابتهج بطرس ايضا :

— سيتذكر السادة السويديون المعقرون ذلك امدا طويلا .

وجاء فى رسالة الى كيكين بخصوص هذه الحادثة ببلاغة اكبر :

— لا يسعنى الا ان اكتب عما حدث قبل قليل ، حيث خدع الحمقى الاذكياء . وعندما افكر فى ذلك اتحير فى شيئين اولهما كيف هدانى الله الى ذلك وثانيهما كيف حالت جبال الغطرسة والكبرياء (بعد الانتصار فى عام ١٧٠٠ — **ملاحظة المؤلف**) دون السويديين ودون رؤية هذه الحيلة .

لم يستغرق الهجوم على نارفا فى ٩ آب (اغسطس) سوى ٤٥ دقيقة . ولم يكن عبثا ان تلى جواب هورن على الجنود ، بامر من بطرس ، فقد انزعج الجنود من غطرسة السويديين واقتحموا القلعة بسرعة . ولم يرحموا احدا فى معمعان القتال ، واضطر بطرس مرارا ان يشهر سيفه ليحول دون التنكيل بلا موجب .

واخيرا عاد هورن الى رشده وانتشل طبلا واخذ يطرق عليه بقبضتيه معلنا عن الاستسلام . واشتاط بطرس غضبا وشهر سيفه الملطخ بالدماء ولوح به فى وجه القومندان :

ــ انظر ، هذه دماء الروس وليس السويديين . طعنت جنودى لاوقف الهياج الذى دفعهم اليه عنادك .

وتلقى هورن من القيصر صفعة شديدة .

كان تحرير نارفا ، مدينة روغوديف الروسية العريقة ، بمثابة الثأر للهزيمة فى بداية الحرب ، وبمثابة الحد الفاصل فى مرحلتها الاولى . فقد استعاد بطرس وروسيا قواهما بسرعة بعد الاخفاق الاول . وبفضل الجهود النشيطة احرزا عدة انتصارات ورسخا اقدامهما على ساحل البلطيق . وكان بالامكان التقاط النفس والركون الى الراحة . الا اننا نرى بطرس الهمام الذى لا يعرف الكلل مسرعا من نارفا الى ديربت وهو يطلع مرافقيه من الجنرالات والوزراء على التحصينات ويحدثهم عن سير الهجوم . ومن هناك توجه الى حوض بناء السفن فى اولونيتس عبر بسكوف ونوفغورود . وتأكد من سير الامور فى بناء السفن ، ثم ارتحل الى بطرسبورغ ليتأكد من انشاء المبانى فى «الفردوس» ثم عاد الى نارفا حيث استقبل السفير العثمانى قبيل عودته الى بلاده ، وكان هذا الاخير يريد رؤية القلاع المنيعة التى يقتحمها الروس ويستولون عليها . وفى الطريق الى موسكو تفقد بطرس فى منطقة فيشنى فولوتشوك ملتقى نهرى «تفيرتسا» و«مستوى» وحدد مكان شق «قناة فيشنى فولوتشوك» .

وفى ١٤ كانون الاول (ديسمبر) ١٧٠٤ دخل المنتصرون موسكو باحتفال مهيب . فى الامام سار الاسرى السويديون وفى مقدمتهم الميجر جنرال هورن مع ١٥٩ ضابطا ، وبعدهم سحب ٨٠ مدفعا سويديا . وكانت الانتصارات. والمستحدثات ــ صدور جريدة «الوقائع» وتأسيس المسرح اللذين مجدا انتصارات السلاح الروسى ــ تبعث الفرح فى نفس بطرس وتجعل المراقبين الاجانب

يتأملون ويطيلون التفكير . وكتب السفير البريطانى ويتورث الى لندن يقول : «حقق بطرس بعبقريته شخصيا ، وبدون مساعدة من الاخرين تقريبا ، فى الفترة حتى عام ١٧٠٥ نجاحات فاقت كل التصورات ، وقريبا سيرتقى بدولته طبعا الى ذروة من الجبروت تهدد جيرانها» . وكان السفير يتحلى دون ريب بنظرة ثاقبة ، فقد اثبت المستقبل القريب مدى صحة توقعاته .

من موقعة نارفا الى النصر فى معركة بولتافا

لم يترك تحرير نارفا وكذلك انتصارات الروس الاخرى فى البلطيق انطباعا كبيرا فى اوربا الغربية . ومن الغريب ان اوربا نفسها صفقت للملك السويدى كارل الثانى عشر وهللت لجيشه قبل اربعة اعوام من ذلك ، عندما منيت العساكر الروسية بالهزيمة عند اسوار نارفا . اما الان فهى تواجه الاحداث بصمت فيه الكثير من الاستهانة او بمخاوف فيها نفس القدر من الصمت . الا ان بعض الاوربيين ، من الدبلوماسيين فى المقام الاول ، اخذوا ، بدافع من واجب الخدمة على الاكثر ، يعترفون بنجاحات روسيا وقيصرها . وكتب كلوتشيفسكى يقول : «لكن الجانب الروسى ايضا لم يتخلص بعد من رجفة نارفا فى عام ١٧٠٠» . فبعد موقعة نارفا ، على حد تعبيره ، «بدأ استنزاف متبادل متقطع استمر سبعة اعوام» : كان كارل الثانى عشر يلاحق اغسطس الثانى فى بولونيا ويساعد بالتالى بطرس الذى استفاد من «هذه الاستراحة» فدبر امور جيشه المشوشة ، و«هيأه لعمليات كبرى بالمشاركة فى مناوشات وغزوات وحصارات وهجمات طفيفة على القلاع الحدودية الضعيفة . ولم يبخلوا بالضحايا ولم يعبأوا باحوال الشعب . وجازفوا ولعبوا بآخر الاموال ، ووعدوا حليفهم بمعونة مالية دون ان يعرفوا من اين يدفعونها له» .

كان ذلك هو واقع الحال بالاساس ، مع ان كلوتشيفسكى يستصغر ، كما هو واضح ، اهمية الانتصارات الحربية التى احرزتها القوات الروسية بعد هزيمة نارفا . والحقيقة فان هذه الانتصارات جعلت الروس يثقون بقواهم وبامكانياتهم فى سوح القتال ، بل واسفرت عن تحرير عدد من المناطق من الاحتلال السويدى على الساحلين الشرقى والجنوبى للخليج الفنلندى ، ونشطت تنظيم امور الجيش وتغيير جهاز الدولة وبناء الاسطول فى البلطيق . وباختصار فقد ارسيت بداية العمل الذى كان سيؤدى فى المستقبل ، وهو مستقبل قريب نسبيا ، الى نجاحات كبيرة — عسكرية وسياسية واقتصادية .

وبعد هزيمة نارفا بذل بطرس ودبلوماسيوه محاولات لجعل الدول الغربية تتوسط فى عقد الصلح مع السويد . الا ان تلك الدول وجدت فى تلك المحاولات دليلا على ضعف روسيا ، ولم يكن هذا الرأى بعيدا عن الحقيقة . اما الان ، بعد الانتصارات التى تحققت ، ومنها الانتصار فى نارفا ، طرح الروس هذه المسألة من جديد . وبذل ماتفييف بخاصة جهودا كبيرة فى هذا المجال ، وكان آنذاك ممثلا دائميا لروسيا فى لاهاى قام برحلات الى لندن ايضا لهذا الغرض . الا ان البلدان الاوربية كانت فى شغل شاغل . فهى تحارب من اجل التركة الاسبانية . اضف الى ذلك عوامل اخرى مثل الاستهانة بروسيا «الهمجية» الضعيفة من جهة ، ومن جهة اخرى الخوف منها ومن قوتها المتزايدة ومن انتصارات الجيوش الروسية . وكانت تلك الاستهانة وذلك الخوف متشابكين متجاورين . وقد لاحظ ماتفييف امارات الخوف بادية فكتب الى بطرس يقول :

— لا امل فى توسط هولندة وملكة بريطانيا لانهاء الحرب .

فهما نفسيهما تخافان منكم . فكيف تبذلان جهدا لصالحنا ومن اجل الصلح النافع وتفتحان بنفسيهما باب بحر البلطيق امامكم وهما تلتزمان الحذر بعين ساهرة وترتجفان من قوتكم العظيمة لا اقل من قوة الفرنسيين ؟ وقد علمت علم اليقين ان بريطانيا وهولندة ارسلتا توجيهات سرية الى مبعوثيهما فى بولونيا لتحقيق التصالح بين السويد وبولونيا وحدها بدونكم .

وبذلت بريطانيا وهولندة ، وحليفتهما النمسا ، وكذلك عدوتهما المشتركة فرنسا فى الحرب من اجل التركة الاسبانية قصارى الجهود لاستمالة السويد وجيشها الى جانبها والحيلولة دون تعزز روسيا التى يجب ، فى رأى هذه الدول ، الهاؤها بالقتال ضد الاستانة والقرم واضعافها واعتراض طريقها الى بحر البلطيق . ولذا لم تجد طلبات روسيا للتوسط فى عقد الصلح مع السويد اذنا صاغية فى لاهاى ولندن وفينا . اما ملك السويد الذى يعتبر رسميا حليفا لبريطانيا وهولندة من جهة ، ولفرنسا من جهة اخرى ، فقد طلب معونة مالية من الجهتين ، وكان يتلقى تلك المعونة . ولم يتمكن ماتفييف فى لاهاى ولندن ، ولا الامير غوليتسين فى فينا من ان يفعلا شيئا .

ونجح ب . تولستوى السفير الروسى فى الاستانة فى الحيلولة دون استئناف الحرب من جانب الامبراطورية العثمانية ضد روسيا . فقد تمكن من رشوة الوجهاء من اعوان السلطان وفضح دسائس الوزراء والسفراء الغربيين . وفى بولونيا ، فى ظل الفوضى السياسية الاقطاعية وانعدام القيادة الموحدة حقق السفير الروسى الامير دولغوروكى نجاحات معينة . وواجه بطرس مشاكل كثيرة مريرة سببها له «صديقه وحليفه» اغسطس الثانى حاكم سكسونيا وملك بولونيا . وهو رجل غير امين ، وضعيف كشخصية سياسية وعسكرية .

وقد نعته المعاصرون «بالقوى» ، لكن قوته ليست فى سوح القتال (كانت جيوشه تمنى بالهزائم دوما) بل فى السكر والمجون والتحكم فى افئدة الغوانى . وكان «حليف» بطرس هذا قد حاول من وراء ظهره ان يتفاوض مع ملك السويد بشأن توقيع الصلح . وتوسطت فى ذلك النمسا وفرنسا (اللتان لبتا طلب الوساطة) وكذلك معشوقات اغسطس . لكن كارل الثانى عشر رفض الصلح رفضا قاطعا ، مع ان مجلس الدولة فى استوكهولم توسل اليه :

— انطلاقا من مشاعر الولاء الخالص والعطف على الشعب البائس نتوسل الى جلالتكم ان تتخلصوا على الاقل من احد الخصمين ، والافضل ان تتخلصوا من خصومة ملك بولونيا .

وكان ملك السويد فى شغل شاغل عن توسلات اعوانه وعن بؤس الشعب . فقد كان يستولى على المدن والاراضى البولونية وينوى اخضاع بولونيا كلها . الا ان الفوضى المتفشية هناك تعرقل ذلك رغم وجود انصار له بين كبار اصحاب السلطة المحلية ، مثل كبير الكرادلة رادزيفسكى وبعض النبلاء والاقطاعيين (الكونت سابيغا وغيره) . وبمساعدتهم «جهز» كارل الثانى عشر (على حد تعبيره) ملكا جديدا للبولونيين بدلا من اغسطس الثانى . فان مجلس السيم الذى دعا الكردنال لعقده فى وارشو اطاح بالملك السكسونى ونصب ستانيسلاف ليشينسكى ملكا للبلاد ، وهو شاب لا يتمتع بنفوذ . وعارضت صنيعة السويديين كتلة اخرى من الملاك اعرب ممثلوها فى السيم فى ساندومير عن تأييدهم لاغسطس . فان الاحتلال السويدى وتعسف الغزاة جعلا الكثيرين من البولونيين يمعنون التفكير فى الموقف . وبالنتيجة صار للبلد ملكان واسفرت الحزازات الضارية عن تفشى الاضطراب والفوضى الاقطاعية لدرجة لم يسبقها مثيل .

وكان بطرس وغولوفين رئيس مديرية العلاقات الخارجية يتابعان الاحداث فى بولونيا باهتمام . فان فقدان الحليف الوحيد شىء غير محمود اطلاقا . وراح دولغوروكى يهدئهما قائلا :

— لا تفكرا كثيرا فى الارنب الذى نصب ملكا جديدا فى وارشو (المقصود ليشينسكى — **المؤلف**) . فقد اختير الشخص الاسهل بالنسبة لنا . فهو شاب لا يتمتع بالشهرة والمال فى بولونيا ، وحتى اقرب المقربين اليه لا يقيمون له وزنا .

كان بطرس يطبق سياسة حذرة بالنسبة لبولونيا . وخففت روسيا مطالبها فيما يخص حماية الارثوذكس فى الاراضى البولونية (حيث ارغموا على اعتناق الكاثوليكية) وساعدت على اخماد الانتفاضة التى قادها سيميون بالى فى مناطق اوكرانيا الواقعة على ضفة الدنيبر اليمنى ضد جور الاقطاعيين البولونيين . وكانت لهذا النهج سلبياته بالطبع ، الا انه عاد بثمار معينة ، ففى اواخر صيف ١٧٠٤ ، فى اعقاب تحرير نارفا وقعت روسيا على مقربة من هذه القلعة معاهدة تحالف مع بولونيا ، حيث التزمت كلتا الدولتان بخوض الحرب ضد السويد وعدم توقيع صلح انفرادى معها . وفى مقابل ذلك وعدت روسيا بتسليم ليفلانديا الى بولونيا وارسال قوات روسية من ١٢ الف شخص لنجدتها . كما قدمت روسيا معونة مالية سنوية بمبلغ ٢٠٠ الف روبل للانفاق على الجيش البولونى المكون من ٤٨ الف شخص . وتخلى الجانب البولونى عن المطالبة باعادة النظر فى «الصلح الابدى» لعام ١٦٨٦ ، وعلى وجه التحديد تخلى عن المطالبة بكييف وبعض المناطق الاخرى .

تعتبر المعاهدة مع بولونيا (قبل ذلك وقعت معاهدات مع اغسطس الثانى فقط بوصفه حاكما لسكسونيا) وثيقة هامة

فى السياسة الخارجية ونجاحا لدبلوماسية بطرس الاكبر . والاهم ان قوات كارل الثانى عشر ظلت كالسابق تقاتل فى بولونيا وقد تورط الملك السويدى هناك لامد طويل . أما الجيوش الروسية فقد كانت آنذاك تقاتل بنجاح فى اماكن اخرى وتكسب الاراضى فى اينغريا واستلانديا وليفلانديا وتستعد للمعارك المرتقبة مع «المتهور الاسكنديناڤى» نفسه . وارسل بطرس الى بولونيا مساعدات حربية ، أكثر من ١٠ افواج روسية . وفى صيف ١٧٠٤ دخل اغسطس الثانى مدينة وارشو بمساعدة تلك الافـــــواج . ولكن كارل سرعان ما اقترب من المدينة ، فانسحب اغسطس دون ان يشتبك معه فى قتال . وتكبدت جيوشه خسائر جديدة متلاحقة تحت ضربات السويديين .

وكان بطرس يتابع على الدوام ما يجرى فى الاستانة ويهتم ببناء سفن جديدة فى فورونيج . فالاسطول الجنوبى كان لا يزال يؤمن الاستقرار فى حوض البحر الاسود . ورغم الاخفاق فى تنظيم وساطة الصلح ظلت روسيا كالسابق تشترى من اوربا الغربية السلاح والذخيرة ، وتستأجر الاخصائيين . وكانت تصريحاتها بشأن الرغبة فى توقيع الصلح مع السويد (بشرط ان تحتفظ روسيا ببعض الاراضى التى كسبتها فى الخليج الفنلندى ، مثل بطرسبورغ وضواحيها على الاقل) قد خففت من حدة العداء للروس فى سياسة بعض القوى المتنفذة . واستفاد بطرس وحكومته بمهارة من التناقضات بين البلدان الاوربية ومن الملابسات الملائمة المرتبطة بالحرب من اجل التركة الاسبانية .

كان الموقف فى اوربا آنذاك معقدا ومشوشا لدرجة كبيرة . ففى ايطاليا واسبانيا وهولندة وغرب المانيا تجرى عمليات حربية بين فرنسا من جهة والنمسا وهولندة وبريطانيا من جهة اخرى .

وفى شرق البلطيق وبولونيا تقاتل الجيوش الروسية والبولونية والسكسونية ضد القوات السويدية . وكانت كل البلدان المتحاربة وحليفاتها تتوخى اهدافا معينة . وقد انتشرت آنذاك فى غرب اوربا مقالة هزلية تصور وضع تلك البلدان بشكل مجازى فى شخوص لاعبى القمار (انجليزى وعثمانى وغيرهما) وكل منهم يقول :

— عندى ورقات رابحة (بريطانيا) .

— هل اربح ام اخسر (فرنسا) ؟

— لعبت حتى خسرت الكثير ، ولا اريد ان اخسر أكثر (الامبراطورية العثمانية) .

— العب واربح على طول ، لكننى لا املك ما اربحه (السويد) .

— يا اخى اغسطس ، العب بجرأة ، وسادفع بدلا عنك (روسيا) .

كانت اهم قضية بالنسبة لروسيا هى تورط السويديين وملكهم فى بولونيا . وقد استفاد بطرس ، بسياسته الحكيمة الحذرة ومساعداته المالية والحربية ، من تلك «المدفوعات» التى تشير اليها المقالة الانفة الذكر . وكان حليفه الوحيد فى تلك السنوات قد ساعده فى الحرب رغم عدم امانته ، وذلك عندما شاغل قسما من القوات السويدية . ورغم الانتصارات السهلة استنزفت قوى جيش كارل فى بولونيا ، وكان يخسر على الدوام من الناحية الاستراتيجية . أما روسيا فقد احرزت انتصارات متلاحقة فى شرق البلطيق ، والاهم هو انها ظلت تكسب مزايا استراتيجية متزايدة مع مر الزمن ، مع ان الانتصارات الحاسمة كانت لا تزال بعيدة .

وبدأ العام الجديد ، عام ١٧٠٥ . امضى بطرس كانون

الثانى (يناير) فى موسكو ، وارتحل فى شباط (فبراير) الى فورونيج حيث امضى شهرين يعمل اسطة فى بناء السفن ، وانزل الى الماء سفينة مسلحة بـ٨٠ مدفعا . وبأمر منه كان سيصار الى بناء اكثر من عشرين سفينة حربية اخرى . فيجب متابعة الاستانة ، كما كان يتصور ، بعين ساهرة ، كيلا يحدث ما لا تحمد عقباه . وبعد ذلك تهيأ للرحيل الى بولونيا . فهناك ، فى بولوتسك وفيتيبسك ، ترابط عساكر روسية بقيادة ريبنين وشيريميتيف يبلغ تعدادها ٦٠ الف شخص . فقد خصص بطرس لاغسطس الثانى فيلقا مساعدا بالاضافة الى القوات السكسونية البالغ تعدادها ٤٠ الفا . اذ عليه ان يدعم كتلة ساندومير المناهضة للسويد .

وعندما غادر القيصر مدينة فورونيج تمرض فى بداية آيار (مايو) ومكث فى موسكو بسبب مرضه زهاء شهر . وفى مطلع الصيف وصل الى بولوتسك لكثرة الاشغال والمخططات والمشاكل . عين بطرس على رأس القوات الروسية المرابطة فى بولونيا قائدين هما الفيلدمارشال الروسى شيريميتيف والفيلدمارشال الالمانى العجوز اوغيلفى الذى خدم قبل ذلك فى الجيش النمساوى دون ان يحالفه التوفيق . وكانت لقرار بطرس هذا ، غير الصائب طبعا ، عواقب غير محمودة . كانت هناك خلافات سافرة بين اوغيلفى من جهة وشيريميتيف والجنرالات الروس الاخرين من جهة ثانية . وفيما بعد تباطأ هذا الالمانى فى تنفيذ اوامر بطرس نفسه ، وكان يتراسل سرا مع اغسطس . . .

وعندما وجه القيصر افواجه الى بولونيا فى خريف ١٧٠٤ كان مهتما بجعلها تساعد اغسطس فى «عمليات جزئية» دون ان تتورط فى معركة شاملة ضد السويديين ، وتتحاشى «الاعباء

الثقيلة» لان الوقت لم يحن بعد للعمليات الحاسمة ضد كارل. وواصل بطرس نهجه هذا عندما جاء الى بولوتسك في مطلع صيف ١٧٠٥. فقد اجتمع هنا وزراؤه وجنرالاته وحضر الفيلدمارشالان اللذان يكرهان بعضهما البعض اشد الكره. وقرروا في اجتماع عسكري ارسال ١١ فوجا بقيادة شيريميتيف الى كورلانديا. وسرعان ما وصلت من هناك اخبار غير سارة. فالجنرال ليفينهاوبت دحر الروس في معركة مور—ميز في ١٥ تموز (يوليو). وقد تألم شيريميتيف اشد الالم لهذه الهزيمة وهو الذي احرز عدة انتصارات على السويديين. وكتب بطرس في رسالة الى شيريميتيف عن سبب الهزيمة: «سوء تدريب الخيالة» الذين راحوا يلاحقون السويديين بتهور وبدون تعقل فوقعوا في شراكهم. وامر بطرس بان يوضحوا لكل الجنود والفرسان عدم جدوى مثل هذا التصرف في سوح القتال. وراح يهدئ من روع الفيلدمارشال شيريميتيف:

— لا تحزن على المصيبة الفائتة (لان الانتصارات المتواصلة اهلكت الكثيرين)، بل انس وحاول ان ترفع المعنويات.

واسرع القيصر بافواجه الجديدة الى كورلانديا وحاول مع شيريميتيف ان يقطع على ليفينهاوبت طريق الانسحاب ويدحره. لكنه اخفق. فالجنرال ليفينهاوبت تمكن من الانسحاب الى ريغا. الا ان القوات الروسية استولت في ٤ ايلول (سبتمبر) على ميتافا عاصمة كورلانديا، ثم استولت على قلعة باوسك. وكسبت غنائم كثيرة بينها حوالي ٢٠٠ مدفع. وقبل تلك الاحداث بوقت قصير نجح مينشيكوف في صد هجوم شنته القوات السويدية على بطرسبورغ.

واقترب الشتاء، وكان يجب اختيار اماكن دافئة لمرابطة

الجيش وبناء على اقتراح من مينشيكوف اختاروا مدينة غرودنو لهذا الغرض . ورفضوا اقتراح اوغيلفى بشأن موضع ميريتش لمرابطة الجيش فى الشتاء . وانشغل القيصر طول الخريف فى تدبير اقامة الجيش ، وصار يتنقل بين تيكوتين وغرودنو . وكتب فى احدى رسائله متشكيا :

— لم اركب الخيل طول حياتى مثلما فى هذا العام ، ولم اتحمل متاعب بهذا القدر .

ووردت فى ختام رسالة اخرى عبارة ذات دلالة :

— كتبتها واتا على ظهر الحصان فى الطريق الى تيكوتين .

وفى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) وصل اغسطس الى غرودنو سرا من سكسونيا عن طريق المجر باسم مستعار . ورافقه فى رحلته تلك ثلاثة اشخاص فقط . وقلد الكثيرين من الجنرالات الروس وسام النسر الابيض الذى استحدثه توا . وترك بطرس جيشه فى عهدة الملك اغسطس واوغيلفى وارتحل الى موسكو فى كانون الاول (ديسمبر) .

وفى كانون الثانى (يناير) من العام التالى تلقى بطرس نبأ أثار قلقه بشدة . فبعد ان نصب كارل الثانى عشر صنيعته ليشينسكى ملكا فى وارشو زحف فجأة على غرودنو بجيش من ٢٠ الف رجل . اقترب منها دون ان يتجرأ على اقتحام القلعة التى ترابط فيها عساكر روسية من ٤٠ الف رجل . وسحب الملك السويدى قواته على مسافة اكثر من ٧٠ كيلومترا عن غرودنو ، لكنه حاصر العدو . وهددت الروس المجاعة والهلاك بسببها . وطلب القيصر سحب قواته من غرودنو :

— ينبغى المراقبة الدقيقة لعمليات العدو كيلا تنقطع قواتنا عن حدودنا . فالانسحاب السليم افضل من الانتظار المجهول .

وفى تلك الاثناء اندلعت انتفاضة شعبية فى استراخان (١٧٠٥ — ١٧٠٦) اقلقت القيصر اشد القلق . فارسل الى هناك قوات ترأسها الفيلدمارشال شيريميتيف نفسه . وراح يتابع كل ما يجرى هناك . الا ان الخطر الذى تهدد الجيش فى غرودنو جعله يوجه جل اهتمامه اليه وينقل جهوده من الجنوب الشرقي (استراخان) الى الشمال الغربى (غرودنو) . وفى زمهرير الشتاء وصقيعه الفظيع اسرع متوجها الى غرودنو لكنه لم يصلها ، فقد سبقه كارل اليها . واقام القيصر فى اورشا ثم فى دوبوفكا ، وبعث الرسل مرارا الى اوغيلفى يطالبه بسحب الجيش . وكتب يقول :

— ما اشد حزننا لغيابنا عن العساكر (من رسالة الى غولوفين فى موسكو فى ٣١ كانون الثانى — يناير) .

— ما اشد حزننا لعدم تمكننا من الوصول اليكم . الله وحده يعلم بمكنون النفوس (من رسالة الى ريبنين فى غرودنو بتاريخ ٦ شباط — فبراير) .

آنذاك ، فى شباط ، تألم القيصر لانحدار القوات السكسونية من جديد . فى معركة فراويرشتادت فر ٣٠ الف جندى من قوات اغسطس حالما ظهر ٨ الاف سويدى بقيادة الجنرال رينشيلد . ولم يبق فى ساحة القتال الا الافواج الروسية من الفيلق المساعد ، حيث ظلت تصد هجمات السويديين اربع ساعات ، لكنها منيت بالهزيمة لعدم تناسب القوى . واجهز السويديون على الجرحى والاسرى الروس دون رحمة . اما قافلة العربات الروسية فقد نهبها الحلفاء السكسونيون أثناء الانسحاب . واشتاط بطرس غضبا بسبب «المعركة الخيانية» لهؤلاء السكسونيين «الطفيليين» الذين «تركوا رجالنا لوحدهم» فى ساحة القتال ، ولم

تكن تخامره اوهام بشأن حليفه :

ـــ هذه الحرب ستقوم على أكتافنا وحدنا .

ومع ذلك هدأ بطرس من روع اغسطس «صديقه واخيه وجاره» ونصحه باستبدال المحاربين السكسونيين البلهاء بالمرتزقة الدانمركيين . وادرك بطرس ان الهزيمة فى فراويرشتادت قد عقدت امور الجيش الروسى فى غرودنو . زد على ذلك ان اوغيلفى تجاهل اوامر القيصر ، وهو ينوى ان ينتظر مع جيشه فصل الصيف حيث يترك كارل هذه الاماكن ، كما يتصور ، او يصل اليها اغسطس وعساكره . وبعث القيصر اوامر الى ريبنين متخطيا الفيلدمارشال الاجنبى الذى لا يثق به . واشتبه ريبنين ايضا فى نوايا اوغيلفى فطلب من القيصر اصدار امر سرى فى حالة قيام اوغيلفى باعمال غير مرغوب فيها :

ـــ ماذا يتعين علينا ان نفعل اذا رأينا تصرفا يتعارض مع مصالح الدولة ؟

كان بطرس لا يزال مضطرا الى استخدام الاجانب وتعيينهم فى مختلف المناصب ، بما فيها مناصب ذات مسؤولية كبيرة . وغالبا ما كان شرهم أكثر من خيرهم . والمثال على ذلك هو باتكول الذى استخدمه بطرس فى السلك الدبلوماسى بتزكية من اغسطس بعد ان حقد عليه هذا الاخير بسبب نزعته المغامرة وتخلص منه بترحيله الى «صديقه واخيه» الروسى . لقد الحق باتكول ضررا كبيرا بالدبلوماسية الروسية وازعج الدبلوماسيين الروس فى فينا ووارشو وغيرهما .

وبخصوص اوغيلفى الذى وثق به القيصر على اية حال ، رغم علمه بانه يعامل الجنرالات والجنود الروس باستهانة وازدراء ، اتخذ بطرس اخيرا اجراء اشد حزما ، حيث ارسل الى غرودنو

صديقه الحميم مينشيكوف مع امر صارم الى جميع الجنرالات :
— فلتكن ثقتكم به كثقتكم بى .

ظل اوغيلفى يعارض انسحاب الجيش معتقدا بان ذلك يلحق ضررا بكرامة القيصر وامجاده . وكتب اليه يقول :

— من المؤسف ان يضيع صاحب الجلالة امجاد سلاحه الذى كان يجلجل دوما من قبل بانسحاب مفاجىء مشين ، وبذلك يجلب على نفسه الهزء والسخرية .

اما مينشيكوف فكان من رأى اخر :

— اتوسل الى جلالتكم خصوصا بالا تصدق كثيرا رسائل الفيلدمارشال . . . ففى الحقيقة عداؤه لنا اكثر من وده . وعندما وصل مينشيكوف الى غرودنو وجد ان الجيش قد غادرها (فى ٢٤ آذار— مارس ١٧٠٦) . فقد نفذ اوغيلفى الامر على مضض وطبق خطة بطرس الذى كان فى تلك الشهور «يعانى من حزن جهنمى» على حد تعبيره .

كان اهم ما يريده بطرس هو صيانة الجيش ، لان ضياعه يضاهى الهزيمة فى حملة هذا العام وفى الحرب كلها . وهذا بالذات هو سبب الحدة والحزم فى التوجيهات التى بعثها الى غرودنو :

— يجب التحرك من غرودنو بمنتهى السرية والخفاء على النحو التالى : تعين خفارة قوية جدا حتى لا يتمكن احد من السكان ان يخرج من المدينة ولو زاحفا ، وفى تلك الاثناء يجب الاستعداد للخروج باكبر قدر ممكن من السرعة والسرية .

— رغم الحاجة الماسة الى المدفعية لا تبخل بشىء ، وحافظ على الرجال قدر الامكان (من توجيه الى ريبنين) .

ولم يتمكن كارل الثانى عشر من اللحاق بالجيش الروسى ،

فوصل هذا الاخير من غرودنو الى بريست فى اقل من اسبوعين ، وبعد استراحة ليوم واحد ، تحرك الجيش صوب كييف . وتنفس بطرس الصعداء . فقد تلقى نبأ انسحاب وصيانة الجيش ، وهو فى بطرسبورغ ، «بفرحة تفوق الوصف» على حد تعبيره . واسرع الى كييف حيث بدأ بأمر منه تعزيز قلعة بيتشورا على جناح السرعة . كما جرى تعزيز مدينة سمولينسك وتشييد خط دفاعي على الحدود الغربية . وفى ايلول (سبتمبر) ١٧٠٦ فصل من الخدمة اوغيلفى الذى كان مستمرا فى شكاواه من الجنرالات الروس ، بل ومن مينشيكوف نفسه . وتمت تنحيته بتأدب . وكتب شافيروف ، معاون مدير العلاقات الخارجية ، الى مينشيكوف بهذا الخصوص :

— رغم كل التصرفات الشائنة ينبغى اعفاء اوغيلفى من الخدمة برأفة ورقة ، بل وحتى بهدية تقدم اليه كيلا يذم القيصر وسماحتكم . وهو يحب الهدايا ومستعد ان يبيع دينه من اجلها .

وجرت تسوية الخلاف بلباقة ، على غير ما حصل فى تنحية باتكول . كان هذا الاخير دبلوماسيا وجنرالا فى خدمة الروس يقود الفيلق الروسى المساعد الذى الحق بالقوات السكسونية ، وكاد يدفعه الى حافة الموت جوعا ، وتشاجر مع كل الضباط الروس واراد ان يستبدلهم بضباط اجانب (كما اراد قبل ذلك ان يستبدل الدبلوماسيين الروس فى الخارج بالاجانب) . وفى آخر المطاف احال الافواج الروسية الى خدمة النمسا مؤقتا . وبتوجيه من بطرس بدأ يتفاوض مع ملك بروسيا فريدريك الاول بشأن التحالف ضد السويد . ويقال ان الملك وافق على التحالف لكنه طالب بتنحية بعض الوزراء السكسونيين الذين لا يروقون له . اما فى الواقع فان فريدريك الاول كان يحلم بالتحالف مع

السويد ، وأن التحالف مع روسيا خطوة احتياطية بالنسبة له . زد على ذلك انه طرح هذا المطلب الاستفزازى واوقع باتكول المغامر فى شراكه . ولم يغفر له الوجهاء السكسونيون ذلك ، فزج به فى السجن فى كانون الاول (ديسمبر) بقرار من المجلس السكسونى السرى . ومع انه كان ممثلا كامل الصلاحيات لبطرس فى سكسونيا فان المسؤولين فيها كانوا محقين فى اعتقادهم بان القيصر لن يقدم ، من اجل باتكول هذا ، على فسخ التحالف الذى هو بحاجة .اليه . وظلت احتجاجات ومطالب بطرس بهذا الخصوص دون جواب . واعتذر اغسطس مدعيا الجهل بما يفعله مستشاروه فى درزدن ولايبزيج ، واستحسن فى الوقت ذاته قرار مجلسه السرى (ورد هذا الاستحسان فى رسائل سرية) . وتعتبر هذه الحادثة فى الواقع احد مظاهر خيانة اغسطس فى التعامل مع حليفه ، وتحوله فى السياسة الخارجية صوب السويد والاشاحة عن روسيا . زد على ذلك ان كارل الثانى عشر اقتحم بجيشه سكسونيا فى آب (أغسطس) ١٧٠٦ واستولى عليها ، وفرت العائلة المالكة طلبا للنجاة ولم يبد الجيش السكسونى اية مقاومة .

وبعث اغسطس من بولونيا ، دون علم بطرس ، مندوبين الى الملك السويدى طلبا للصلح . واعرب عن استعداده لاقتسام بولونيا مع ليشينسكى . فرفض كارل هذا الاقتراح واملى شروطه . واستسلم اغسطس ، ووقعت فى ٢٤ ايلول (سبتمبر) فى الترانشتادت ، مقر كارل قرب لايبزيج معاهدة صار ليشينسكى بموجبها الملك الشرعى الوحيد لبولونيا ، وفسخ اغسطس الاحلاف المناهضة للسويد وسلم الاسرى والنازحين السويديين وكذلك الفيلق الروسى المساعد وتكفل بنفقات الجيش السويدى فى سكسونيا . وبناء على طلب اغسطس ظل توقيع هذه المعاهدة

الخيانية الشائنة فى طى الكتمان . وقبل اقل من اسبوع من ذلك سلم السكسونيون باتكول الى السويديين فتفنن هؤلاء الاخيرون فى اعدامه .

وانهالت التهانى من الدول الغربية على كارل بالنصر الجديد ، وراحت تلك الدول تدفعه الى شن الحرب على روسيا واعلنت عن اعترافها بتنصيب ليشينسكى على عرش بولونيا . اما اغسطس ففى اعقاب توقيع نص معاهدة الترانشتادت فى ٦ تشرين الاول (اكتوبر) التقى ، وكأن شيئا لم يكن ، مع مينشيكوف فى مدينة لوبلين البولونية وطلب منه نقودا . وكتب مينشيكوف الى بطرس يقول :

— صاحب الجلالة يحن كثيرا الى النقود وطلبها منى ، متباكيا ، وادعى بان الاملاق احاق به حتى لم يبق لديه ما يقتات به . ولما رأيت شحته وعوزه اعطيته من نقودى ١٠٠٠٠ تالر .

كان مينشيكوف قد سمع بالمعاهدة السويدية السكسونية التى تجرى الاستعدادات لتوقيعها ، لكنه اعتبر تلك الاخبار كاذبة ، وصدق باغسطس . والاكثر من ذلك انه كان يستعد معه ومع قواته البولونية السكسونية للهجوم على جيش الجنرال السويدى ماردیفیلد . وفى ١٨ ايلول (سبتمبر) دحر هذا الجيش بالكامل فى معركة كاليش . وسقط نصف افراده فى ساحة القتال ووقع الجنرال ماردیفیلد فى الاسر . وارتعدت فرائص اغسطس الذى اضطر الى المشاركة فى المعركة المظفرة من الثأر الذى كان سيأخذ به كارل ، فراح يتملص ويكذب . وطلب من مينشيكوف ان يسلمه الاسرى السويديين ليبادلهم بالاسرى الروس الموجودين عند الجانب السويدى . ولعب الملك السكسونى

لعبة مزدوجة ، حيث منح الضياع فى بولونيا وليتوانيا الى مينشيكوف ، وبأمر منه اقيمت صلاة النصر فى وارشو تكريما للانتصار فى كاليش ، لكنه فى الوقت ذاته يعتذر من كارل ويعده بدفع تعويضات نقدية .

وفى ١٧ تشرين الثانى (نوفمبر) اتضحت الامور اخيرا للسفير الروسى فى وارشو . وردا على سؤاله تقدم اغسطس بسلسلة فريدة من التبريرات التى نعتها الباحث المعاصر البروفسور مولتشانوف «بالنكتة البائخة» :

— لا يجوز لى ان اترك سكسونيا تواجه الخراب التام ، ولا ارى وسيلة لتخليصها من ذلك الا بتوقيع الصلح مع السويديين حسب الظاهر والتخلى عن بولونيا حتى يغادر كارل سكسونيا . فبعد مغادرته لها سأستجمع قواى واشن الحرب من جديد بالتعاون مع صاحب الجلالة القيصر . ولن احنث بالتحالف مع صاحب الجلالة القيصر ولن اقوم بما يتعارض معّ مصالحنا المشتركة .

وعرفوا فى موسكو ايضا بخيانة اغسطس . وكان من المؤسف طبعا ضياع الحليف الوحيد مع انه غير ذى بال ، الا انهم لم يحزنوا كثيرا بهذا الخصوص .

واضطرت الدبلوماسية الروسية ، والحال هذه ، الى العمل على انفراد بدون حلفاء . وفى تلك الاثناء توفى مدير العلاقات الخارجية غولوفين . حدث ذلك فى صيف ١٧٠٦ بمدينة غلوخوف الاوكرانية ، فى الطريق الى كييف التى توجه اليها بامر من بطرس وزيره الاول والاميرال غولوفين ، معاونه الهمام الموهوب ورجل الدولة البارز . وقد اسف القيصر اشد الاسف ، وحزن من صميم القلب بسبب هذه الخسارة الفادحة (فى رسالة الى ابراكسين) :

— ما كان بودى ان اكتب اليكم عن ذلك ابدا ، الا ان

مشيئة العلى القدير دفعتنى الى ذلك ، لان يد المنون فى غلوخوف اختطفت ، هذا الاسبوع ، صديقنا السيد الاميرال . ولذا تفضلوا بتجميد المديريات التى كان يديرها (ما عدا مديرية العلاقات الخارجية) مع اموالها وسائر حاجياتها حتى صدور مرسومنا الخاص . هذا ما يكتبه اليكم بطرس الحزين .

وعين بطرس فى منصب مدير العلاقات الخارجية السيد غولوفكين المقرب اليه ، وهو من ابناء اخواله ، حاد الطبع صعب المعشر ، وثرى للغاية وفى منتهى البخل ، لكنه ملتزم ومنفذ دقيق . وكان القيصر يقدر رفيع التقدير صفة الالتزام والتنفيذ عند معاونيه ، الى جانب روح المبادرة والجرأة فى النوايا والافعال .

امضى بطرس نهاية ١٧٠٦ وبداية ١٧٠٧ فى جولكفا على مقربة من مدينة لفوف فى اوكرانيا الغربية . وكانت قد وصلت الى هنا القوات الاساسية للجيش الروسى . وبالاضافة الى القيصر جاء اقرب اعوانه من الوزراء والجنرالات . وعقد بطرس اجتماعا عسكريا طرح فيه على بساط البحث خطة العمليات اللاحقة ضد كارل الذى فرغ من القتال على جبهتين وصار ، كما هو المتوقع ، ينشط حربه ضد روسيا . ورابط جيشه فى سكسونيا واخذ قسطا من الراحة وتناول ما شاء من الطعام ونهب الاهالى دون رحمة .

لم يكن كارل وجنده السويديون قلقين بخصوص المستقبل والحرب ضد روسيا . فهم يرون الامور بمنظار بهيج ويتصورونها سهلة يسيرة :

— الفئران تعيش طليقة فى غياب القط . وحالما يعود السويديون يفر الموسكوبيون هاربين كما حصل فى نارفا ويختبئون فى جحور الفئران .

كان بطرس مهتما دوما بصيانة الجيش كيلا يداهمه العدو على حين غرة ولا يفرض عليه معركة شاملة فى ظروف غير ملائمة للروس . وكان يكرر ذلك دوما فى مراسيمه ورسائله واوامره . وغدت افكاره تلك اساسا لخطة جولكفا الاستراتيجية التى اقرت فى اجتماعات انصاره ومعاونيه . وكانت تلك خطة المعركة الشاملة التى ينبغى الاستعداد لها بدقة وشنها عندما تتوفر فرص اكيدة للفوز . وقد عبرت «المجلة او يوميات بطرس الاكبر» عن جوهر هذه الخطة بدقة :

— عقدت فى جولكفا جلسة عامة للتشاور : هل نقاتل العدو فى بولونيا ام داخل حدودنا ؟ . . وتقرر عدم القتال فى بولونيا ، لا سيما وان الانسحاب سيكون صعبا فيما لو وقعت مصيبة . ولذا اجمعوا على مقاتلة العدو فى اراضينا اذا اقتضى الموقف . أما فى بولونيا فيجب التضييق على العدو جزءا جزءا فى كل المكان وعلى المعابر خصوصا وكذلك بالتجويع مؤونة وعلفا ، وهذا امر يوافق عليه الكثيرون من الوجهاء البولونيين .

ونصت الخطة على ان تعترض طريق زحف السويديين على روسيا من خلال بيلوروسيا او اوكرانيا قلاع محصنة وحواجز دفاعية وغارات من الخيالة الخفيفة ومقاومة من السكان المحليين (اخفاء الاطعمة واتلاف احتياطيها وهلمجرا) . ويجب ان يتكلل استنزاف العدو واضعافه بمعركة شاملة تشن فى اراضى روسيا فى الوقت المناسب بعد توفر القوات المسلحة اللازمة . ونوقشت الخطة طويلا واقرت نهائيا فى نيسان (ابريل) ١٧٠٧ وبدأ تنفيذها .

وعقد فى لفوف فى الوقت ذاته المجلس الكبير لزعماء كتلة ساندومير من انصار تحالف بولونيا مع روسيا . واجرى بطرس

مفاوضات معهم . واكد المجلس على شروط معاهدة نارفا ١٧٠٤ وقرر ان القيصر الروسى هو ضامن حرية بولونيا . واطاح المجلس بالملك ليشينسكى ونظر فى المرشحين لاعتلاء العرش البولونى ، وهم ثلاثة من ابناء يان سوبيسكى حاكم بولونيا الشهير فى اواخر القرن السابق : الفيلدمارشال النمساوى اوجين امير سافوى وزعيم الحركة التحررية فى المجر فيرينتس راكوتسى والحاكم (الجتمان) البولونى سينيافسكى . وسرت بهذا الخصوص اشاعات حول الامير الكسى بن بطرس وكذلك مينشيكوف . أما بطرس نفسه فكان يرى ان من الضرورى اختيار ملك لا تسند عرشه المساعدات الاجنبية . وصرف النظر عن كل المرشحين لمختلف الاسباب ، ولم يبق غير اغسطس نفسه الذى لمح الى انه لا يرفض اعتلاء العرش البولونى من جديد .

كان كارل الثانى عشر ، وهو فى اوج امجاده ، يتلقى من كل الانحاء آيات التبجيل فى مقره فى الترانشتادت التى كادت تتحول فى تلك السنوات الى العاصمة الدبلوماسية لاوربا . وراحت بريطانيا وهولندة وفرنسا تتسابق فى دعوته لدخول الحرب الى جانبها . وكانت النمسا ترتعد خوفا منه لان الجيش السويدى يرابط فى سكسونيا على مقربة منها ، فى حين تقاتل جيوشها فى الراين وفى ايطاليا وتحارب ضد راكوتسى فى المجر . وكان احتمال اقتحام السويديين للنمسا يثير فزع بريطانيا ويفرح بطرس و«الملك الشمس» لويس الرابع عشر . واستخدم القيصر الروسى من جديد المجس الدبلوماسى فى العواصم الغربية ، فقد طلب ممثلوه ان تتوسط فى توقيع الصلح مع كارل . ورفض الملك طبعا ، وظل كالسابق يستخف بهؤلاء الروس الضعفاء ، لكن ذلك عاد بالنفع عليهم ، فقد جعله لا يفكر فى التحضير

الجدى للحملة على روسيا .

وتقدم بطرس بطلب الى فريدريك الاول ملك بروسيا ، وارتحل السفير الروسى ماتفييف من هولندة الى بريطانيا ، واجرى دبلوماسي آخر مفاوضات فى باريس . الا ان ملك بروسيا لاذ بالصمت ، لان القوات السويدية المرابطة فى سكسونيا يمكن ان تضرب ممتلكاته ايضا . ورفض المندوب الفرنسى المركيز دى مورسى حجج زميله الروسى عندما اعرب هذا الاخير عن دهشته قائلا :

— يدهشنى ان فرنسا تقابل شروط القيصر الروسى ببرود رغم وجود جيش من ٨٠ الف شخص لديه .

ورد الدبلوماسى الفرنسى قائلا :

— فى هذا الجيش ٨٠ الف جبان يدحرهم ٨ الاف سويدى .

بديهى ان جذور هذا الموقف لا تكمن فقط فى «جبن» الروس . فان فرنسا ، شأن الدول الاخرى ، تخشى من أن السويد ستهاجمها وتلتزم جانب اعدائها بعد توقيع الصلح مع روسيا . وواجه ماتفييف رد فعل مماثلا فى بريطانيا . ففى المفاوضات مع جون شرشل ، دوق مالبرو ، وعده نيابة عن القيصر الروسى «بهدايا» ثمينة مغرية : ٢٠٠ الف تالر ولقب امير روسى وعائدات احدى «الامارات» (كييف او فلاديمير او سيبيريا) ووسام اندرى بيرفوزفاني وياقوتة ضخمة ، وفى مقابل ذلك كان على دوق مالبرو ان يسعى الى المساعدة فى توقيع «الصلح المشرف» بين روسيا والسويد . لكن المهمة فى لندن اخفقت هى الاخرى . فالانجليز ايضا يخشون افعال الملك كارل المفاجئة .

وقد جاء مالبرو الى كارل فى الترانشتادت واجزل المديح له وفهم بانه لا موجب للخوف من احتمال تأييده لفرنسا ضد النمسا . فعلى طاولة الملك خريطة الدولة الموسكوبية . ومع ذلك لمح للملك المتهور بانه اذا هب ضد الحلف الكبير فسيواجه حربا على جبهتين . فان روسيا تطمح الى الانضمام الى هذا الحلف (كان بطرس قد وافق فعلا على الانضمام الى الحلف مقابل التوسط فى توقيع الصلح مع السويد ، حيث يدعمه بـ١٢ ــ ١٥ الف جندى فى البداية ، ثم بـ٣٠ الفا بعد توقيع الصلح) . وفى آخر المطاف اعترفت بريطانيا بليشينسكى ملكا لبولونيا وغدت ضامنة لمعاهدة الترانشتادت . وكتب ماتفييف عن حصيلة مهمته الفاشلة :

ــ الوزارة هنا اكثر حذقا من الفرنسيين فى دقائق الامور وخوافيها ، ولا نجنى من الكلمات المعسولة العقيمة سوى تضييع الوقت .

وحدث الشيء ذاته فى فينا وروما مع البابا .

كان بطرس فى مساومته المفترضة من اجل الصلح مستعدا لاعادة ديربت الى السويديين ، وحتى نارفا «عند الاقتضاء» . لكنه منع الجميع حتى من مجرد التفكير فى تسليم بطرسبورغ ومصب نيفا (منفذ البحر) :

ــ لا يجوز حتى التفكير فى تسليم هذا .

وكان كارل مصرا على رأيه . فقد تلقى السفير الفرنسى فى استوكهولم الجواب التالى باسم الملك عن سؤاله بصدد شروط الصلح المتوقعة مع روسيا :

ــ لن يتصالح الملك مع روسيا الا بعد ان يصل الى موسكو ويطيح بالقيصر من عرشه ويقسم دولته الى امارات صغيرة ويجمع

الاعيان ويوزع عليهم اراضى الدولة ليصبحوا متصرفين فيها .
هذا ما يريده ملك السويد لا اقل ولا اكثر . وكان قد وزع المناصب مسبقا على جنرالاته فى الدولة الموسكوبية ، وكان ينوى تعيين الجنرال شبار متصرفا لعاصمتها . وفى آخر الامر وقع ملك السويد فى الشراك التى حاكها ونشرها بنفسه . وقد سعى بطرس بافعاله العسكرية والدبلوماسية ليوقعه فى تلك الشراك .
واخذ بعض معاصريه يفهمون خطته آنذاك . فالبارون هنرى هويسين الذى كان سفيرا لروسيا فى فينا آنذاك ، وقد خدم روسيا بنزاهة والحق يقال ، كتب الى موسكو فى ايلول (سبتمبر) ١٧٠٧ :
— سيتوجه السويديون الى روسيا على مضض ، ويقولون انهم نسوا القتال كليا بعد الهدوء الطويل الامد والعيش الهانىء فى سكسونيا . ولذا يتوقع البعض ان ينتصر بطرس اذا دخل فى معركة ضد كارل .
وتوصل السفير الفرنسى بازينفال الى استنتاج اوضح :
— ستكون الحملة على روسيا صعبة وخطيرة ، لان السويديين علموا الموسكوبيين على فن القتال حتى غدوا خصما رهيبا . زد على ذلك ان من المستحيل تقويض مثل هذا البلد الشاسع الجبار.
واستعد بطرس للقتال الحاسم . وكان يتابع انشاء التحصينات فى موسكو تحوطا لمجىء كارل وجيشه ، ويراقب تبدل الوزراء والامزجة فى الاستانة حيث يواصل سفيره تولستوى صراعا سريا مع السفير الفرنسى شارل دى فيريول الذى نعته العثمانيون ب«نائب السلطان» . وكان جل اهتمام هذا الاخير منصبا على دفع الامبراطورية العثمانية للصدام مع روسيا بأسرع ما يمكن ، حتى تنهى السويد الحرب فى الشرق وتبدأ مع فرنسا بالحرب فى الغرب . وبواسطة المال والهدايا تمكن تولستوى مـــــــن

احباط دسائس «نائب السلطان» . ومع ذلك كانت الميول المعادية لروسيا هى السائدة فى اواخر عام ١٧٠٨ . فقد اوعز السلطان بالبدء بالتحضير للحرب . وجرت التحضيرات فى الامبراطورية نفسها وفى القرم . فان خان القرم الجديد ، دولت جيرى الذى عينته الاستانة مؤخرا من ألد اعداء روسيا .

وتوقع بطرس ان الاحداث الحاسمة فى الحرب مع كارل ستجرى ذلك العام بالذات (١٧٠٨) . وقد هنأ القيصر صديقه مينشيكوف بالعام الجديد وعبر عن امله بالنجاح :

— اتوسل الى البارى ان يوفقنا فى مساعينا هذا العام .

كان الهجوم السويدى متوقعا . وتلاحق بطرس هموم ومشاغل لا آخر لها ولا حد ، فلا يتحمل احيانا وينفجر فيصب جام غضبه على معاونيه . وعندما اخبروه بان التحصينات والاستحكامات فى الكريملين والاسوار القريبة منه ترمم وتصلح وتبنى استحكامات جديدة شعر بالارتياح ، لكن سلطات موسكو لم تطرد من العاصمة ، كما اوعز بطرس فى حينه ، المقيم السويدى كنيبيركرون الذى كان يراقب الاعمال الجارية فيها ويبلغ ملكه بها . واتضح ايضا ان آراء البويار الذين بحثوا هذه المسألة فى جلستهم لم تسجل فى المحضر ولم يتخذ قرار بهذا الخصوص ، فانهال القيصر بتقريع شديد على موسين—بوشكين المسؤول عن ترميم وانشاء الاستحكامات ، واصدر امرا الى الامير الحاكم رومودانوفسكى :

— تفضل واعلن لجميع الوزراء بان يسجلوا تحريريا الاعمال الجليلة التى يتشاورون بشأنها ، ويجب ان يذيل كل وزير القرار المتخذ بتوقيعه . وهذا شىء فى منتهى الضرورة ، فلا تقبل قضية بدون ذلك ، لان الحماقة بهذا الخصوص يمكن ان

تداهم ايا كان .

وعندما كان بطرس يتأمل فى الآتى ما كان يستبعد احتمال مقتله . وبهذا الخصوص امر بان يسلموا (بعد وفاته) ثلاثة آلاف روبل الى يكاترينا فاسيليفسكايا زوجته الثانية (التى غدت فيما بعد امبراطورة روسيا يكاترينا الاولى) . وبعد اصدار التوجيهات غادر العاصمة فى ليلة ٥ على ٦ كانون الثانى (يناير) ١٧٠٨ ووصل الى دزينتسيولى ، بعد ان مر بمدينتى سمولينسك ومينسك . وكان الجيش الروسى بقيادة مينشيكوف يرابط فى دزينتسيولى لقضاء فصل الشتاء . وهنا بلغته انباء تحرك القوات السويدية صوب غرودنو ودزينتسيولى . ولم تكن خطط كارل اللاحقة معروفة . والمفروض انه يمكن يتوجه اما الى الشمال ، صوب بطرسبورغ ، واما الى الشرق ، صوب موسكو . لم يكن بطرس يعرف ذلك على وجه التحديد ، ولم يكن يعرفه كارل نفسه ، فهو لم يقرر بعد الى اين يتوجه .

كان تحت تصرف ملك السويد ٦٣ الف جندى ، اما القيصر الروسى فلديه ١٠٠ الف مقاتل . الاول يتمتع بالخبرة القتالية والمبادرة الهجومية ، والثانى يتعين عليه ان يحسب الحساب لكل مناورات العدو المحتملة التى لم تتحدد مخططاتها بعد . وفى ٢٢ كانون الثانى (يناير) وصل بطرس الى غرودنو وبعث منها فى اليوم ذاته انباء واوامر الى جنرالاته :

— استلمنا الان اربعة اسرى سويديين اجمعوا على ان السويديين عبروا امس نهرا على بعد اثنى عشر ميلا من هنا ، وغدا ننتظرهم هنا .

— العدو موجود على بعد ستة اميال من هنا .

واوعز بطرس الى قوات شيريميتيف ان تنسحب من مينسك

الى بوريسوف ، وامر قوات ريبنين ان تنسحب الـى فيلنـو وبولوتسك ، وتتلف اثناء الطريق احتياطيات الاطعمة والعلف . وبعد يوم من ذلك تلقى انباء تفيد بان كارل «عاد ادراجـه» (ولا احد يعرف الى اين) ، فبعث رسلا يحملون اوامر جديدة :

الى شيريميتيف :

— توقف فورا حسب امرنا حيثما يصلك الامر .

الى ريبنين :

— توقف حيثما تصلك هذه الرسالة ، ولا تأمر بحرق واتلاف شيء حتى يصلك ايعاز بذلك .

الى تشامبيرس :

— حالما تستلم هذه الرسالة توقف فى مكان مناسب ولا تتحرك الا بعد ان يصلك امر بذلك .

وفى اليوم التالى ، الخامس والعشرين من كانون الثانى (يناير) وصل نبأ جديد : السويديون يتوجهون الى غرودنو من جديد ، وهم على بعد اربعة اميال عن القلعة . وبدل القيصر اوامره :

— اعمل بهذا ، اعمل ، لن اكتب لك اكثر . اعمل والا ساقطع رقبتك . . . (الى شيريميتيف) .

— تفضل بالانسحاب الى الاماكن المقررة واعمل بما جاء فى الامر بخصوص المؤونة والعلف .

وفى ٢٦ كانون الثانى غادر بطرس مع قواته غرودنو . وبعد ساعتين دخل العدو المدينة ، ولكن ليس بنصف قوات كارل كما هو المتوقع ، بل بفصيلة من ٨٠٠ جندى فقط عبرت دون عائق جسر نيمان الذى امر بطرس بتفجيره ، الا ان الجنرال ميولينفيلس لم ينفذ الامر . فأحاله القيصر الى المحاكمة ، لكنه فر الى السويديين (فى معركة بولتافا وقع فى الاسر بايدى الروس

واعدم رميا بالرصاص بتهمة الخيانة) .

وفى ٢٨ تموز (يوليو) وصل بطرس الى فيلنو . وكان يتصور ان كارل سيتوجه الى بطرسبورغ ، الا ان هذا الاخير استدار نحو الشرق . ونفذ الجيش الروسى المنسحب الخطة التى اقرت فى جولكفا . فلم يجد السويديون فى طريقهم لا قمحا ولا ماشية ولا علفا للجياد . وبسبب ذلك تباطأ زحفهم لدرجة كبيرة ، فكتب بطرس بارتياح فى بداية شباط (فبراير) :

— العدو يغادر غرودنو ، وخيالتنا السائرة امامه بثلاثة طرق تتلف كل المؤن والعلف وتثير قلقه بغاراتها ، ولذا فهو ، كما يقول الاسرى ، يتكبد خسائر جسيمة بالارواح والخيول ، وخلال ثلاثة اسابيع لم يبتعد عن غرودنو اكثر من عشرة اميال .

واستمر الحال عند السويديين على هذا المنوال . فقد اضطروا الى التوقف عدة اسابيع او شهور فى سمورغون تارة ، وفى رادوشكوفيتش تارة ثانية ، وفى اماكن اخرى . وبعد ذلك بدأ الفيضان . وشلت عمليات العدو فى الواقع شتاء وربيعا . ولذا امضى بطرس الربيع فى بطرسبورغ ، ثم انشغل باخماد الحرب الفلاحية التى تزعمها كوندراتى بولافين فى منطقة الدون . واراد ان يذهب الى هناك بنفسه ولم يتمكن .

وفى ٢٥ حزيران (يونيو) ارتحل القيصر الى الجيش . وبعث رسائل الى شيريميتيف :

— سأصلكم قريبا .

— ارجو ، ان امكن ، الا تبدأوا المعركة الرئيسية قبل وصولى .

وفى الطريق عرج القيصر على نارفا حيث احتفل بعيد القديس الذى يرعاه ، وبهذه المناسبة اطلقت الالعاب النارية

على الماء . ثم توجه الى فيليكيه لوكى ، وهنا بلغه فى ٥ تموز (يوليو) نبأ معركة غولوفتشينو التى نشبت قبل يومين من ذلك . فقد استؤنفت العمليات الحربية وجرى حادث مفاجى لا يسر الروس .

استأنف كارل الثانى عشر زحفه نحو الشرق قاصدا موسكو . وظل كالسابق ، متأثرا بمركب العظمة ، يخطط لاسقاط بطرس الذى يجب ان يحل محله ، فى رأيه ، ياكوف سوبيسكى . وحسب خطته هذه ينتقل شمال وشمال غربى روسيا ، بما فيهما نوفغورود وبسكوف الى السويد ، وتنتقل اوكرانيا وسمولينسك الى ليشينسكى ويحكم كييف الوالى التابع له «الامير الكبير» مازيبا ، وتنتقل الاراضى الروسية الجنوبية الى العثمانيين وخان القرم وغيرهم من انصار السويد . وقال كارل يخاطب ليشينسكى : ستلغى فى روسيا كل الاصلاحات ، ويحل الجيش الجديد وتعود الانظمة القديمة . وهو مصر على ذلك :

— يجب تدمير قوة موسكو التى ازدادت كثيرا بفضل تطبيق الانضباط العسكرى الاجنبى .

وكان الملك يحلم بان روسيا ستعود الى الوراء ، وسيتقاسمها الغالبون جزءا جزءا ويزيحونها عن البلطيق (ويجب ان تمسح بطرسبورغ من على سطح الارض) ، وانه سيغدو المحكم الاعلى فى كل ما يجرى من إلبا حتى آمور . وهذا يتطلب هجوما حازما ومعركة شاملة . زج كارل بجيش من ٣٥ الف جندى من العسكريين المحنكين المتفولذين الذين اطبقت شهرتهم الانحاء . وفى اعقاب هذا الجيش تحركت قوات ليفينهاوبت وعددها ١٦ الفا مع قافلة ضخمة من العربات .

وهكذا وضع على كفة الميزان وجود روسيا كدولة . وكان

بطرس وقادته العسكريون وافراد قواته يعملون بحذر وبنجاح على العموم رغم الاخفاقات التى صادفتهم . وها هى قوات كارل تهاجم فيلق ريبنين فى غولوفتشينو (بيلوروسيا) فى الثالث من تموز (يوليو) ١٧٠٨ . وسقط فى ساحة المعركة كثير من الجنود الروس البالغ عددهم ٨ الاف . اما السويديون فكانت عملياتهم اكثر نجاحا وخسائرهم اقل . وانسحب ريبنين دون ان يتكبد هزيمة ماحقة . وسرعان ما عرف بطرس ان عدة افواج روسية انسحبت باضطراب اثناء المعركة وتركت مدافعها للسويديين . وابدت افواج اخرى مقاومة للعدو لكنها خاضت القتال على طريقة القوزاق وليس الجنود . وخلافا لما حدث لشيريميتيف لم يبد القيصر هذه المرة تسامحا . فالعدو جاء الى روسيا بقواته الرئيسية ، وكل تهاون او خطل يمكن ان يكلف روسيا غاليا . وامر القيصر باحالة ريبنين وتشامبيرس الى المحكمة العسكرية ، وهما الجنرالان المقاتلان اللذان كان حتى الان يكن لهما وافر الاحترام ويأخذ برأيهما . ولم ينقذ ريبنين من الاعدام الا البسالة التى ابداها أثناء القتال . وبناء على حكم المحكمة العسكرية خفضت رتبة الجنرال الى جندى بسيط (وسرعان ما ابدى من جديد شجاعة بالغة فى معركة ليسنايا فاعيدت له رتبته ومنصبه) . اما تشامبيرس فقد نحى من منصبه ، لكنهم لم يجردوه من رتبة الجنرال لكبر سنه .

لم تكن معركة غولوفتشينو تمثل انتصارا كبيرا للسويديين ، فقد تكبدوا هم ايضا خسائر جسيمة . لكنها اعمت بصيرة الملك لدرجة اكبر . أما بالنسبة للجيش الروسى فقد كانت درسا نافعا استفاد منه بطرس على قدر الامكان . اجرى محاكمة استعراضية للجنرالين ، ثم وضع «قواعد القتال» التى تناولت

التعاون بين مختلف اصناف القوات اثناء القتال وكذلك الصمود والتعاضد بين الجنود :

— من يترك موقعه او يشى بغيره او يفر مجللا بالعار يعدم ولا تبقى له كرامة .

لم يحصل جيش كارل الثانى عشر على المؤن والعلف فى الاماكن المحروقة التى دمرها الروس بعد ان غادروها . وتباطأ زحفه وصار يتوقف طويلا فى موضع واحد (فقد توقف فى موغيليف مثلا طوال شهر كامل) . وكان الملك ينتظر وصول ليفينهاوبت مع قافلة العربات ، وفيها الكثير من الاغذية . ثم ١٦ الف جندى لتكون عونا كبيرا . فى البداية قوبل السويديون فى موغيليف «بهدوء» على حد تعبير بطرس ، لانهم «يعانون من مجاعة شديدة» . ورابط جيش روسى من ٢٥ الفا فى غوركى شمال شرقى موغيليف .

ولم يتحمل الملك اللجوج . فقد صبره فخرج من موغيليف ، ولكن ليس صوب الشمال للقاء ليفينهاوبت ، بل صوب الجنوب الى بروبويسك ، ومنها انعطف نحو الشمال الشرقى ، الى سمولينسك . وكان بطرس يتابع بكل اهتمام تحركات الملك المفاجئة التى يصعب التكهن بها ، ويجرى تعديلات فى مناورات قواته لتطابق تلك التحركات . وينفذ بنود خطة جولكفا . فالافواج الروسية تنسحب لاستدراج العدو واستنزاف قواه .

وفى اغسطس ظل القيصر يصدر اوامره وهو يتابع كل تحركات العدو :

— راقبوا تحركات العدو واسبقوه اذا توجه الى سمولينسك او الى اوكرانيا .

— ابتعد العدو عن موغيليف زهاء خمسة اميال ، وتحركنا

نحن ايضا بالمقابل . فنحن نسير فى مقدمة العدو على مسافة ثلاثة اميال . والله وحده يعلم بوجهته ونواياه ، والاحتمال الاكبر هو اوكرانيا .

وقد دأب كارل على الا يخبر بنواياه حتى اقرب معاونيه . ومع ذلك حدس بطرس وقادته العسكريون بتحركات الجيش السويدى ووجهته العامة بشكل صائب . وظل الجيش الروسى يتحرك امام الجيش السويدى ويدمر كل ما يصادفه فى الطريق . وفى ٩ آب (اغسطس) اصدر القيصر مرسوما كرر فيه بصرامة وشدة :

— فى كل مكان احرقوا المؤونة والعلف وكذلك سنابل القمح فى الحقول وفى البيادر وفى مستودعات القرى ، ولا توفروا حتى المبانى .

وامر بطرس بتدمير الجسور والمطاحن فى كل مكان . وانتقل الاهالى الى الغابات ومعهم ماشيتهم . وعادت تلك الاجراءات الصارمة والضرورية بثمارها . وبلغوا بطرس قائلين :

— احاط الجنود بالملك طالبين الرغيف ، لانهم يكادون يموتون جوعا .

— تورم الرجال من الجوع والامراض ولم يعودوا قادرين على السير الا بالكاد .

كان الجنود السويديون الجياع يرتدون الاسمال ويجولون فى القرى بحثا عما يؤكل ويفرون من الجيش . وعلى مقربة من جيش الملك كانت افواج الخيالة الخفيفة والفرسان الروس غير النظاميين تنهال عليه بهجمات ومناوشات متواصلة وفق مرسوم القيصر :

— يجب استنزاف القوات الرئيسية بالحرق والتدمير .

وفى ٣٠ آب (اغسطس) نشب عند قرية دوبرويه صدام

اكبر . فان خمسة افواج من «السويديين الاصليين» منيت بهزيمة ماحقة على يد فصيلة روسية هاجمتها بقيادة الامير غوليتسين . وفقد السويديون ثلاثة الاف قتيل ، بينما فقد الروس ٣٧٥ شخصا . وانسحب الروس بعد ان كسبوا المعركة وادوا مهمتهم بالكامل . الا ان كارل الذى راقب سير القتال ونهايته الفاجعة بالنسبة للسويديين لم يتورع عن تصوير المعركة بصوفها نصرا جديدا له . اما بطرس فقد فرح من صميم القلب :

— رقصنا هذه الرقصة باروع شكل على مرأى من كارلوس ابى الرأس الحار .

— لم اشهد طوال خدمتى مثل هذه النيران والعمليات الجيدة من جنودنا ولم اسمع عنها (فليوفقنا الله فى المستقبل مثلما وفقنا الآن) . ولم ير الملك السويدى نفسه فى هذه الحرب مثل ما رآه الان .

ورغم كبرياء الملك كارل راح يقتلع شعره مهتاجا ويضرب خديه بقبضتيه . بهذه الصورة تعكر مزاج القائد «المظفر» . كيف لا والهزيمة ماحقة ، ولم ينقذ قواته من الهلاك التام الا المستنقعات . واخذ كارل يفكر فى نتيجة الحملة على روسيا ويتشاور مع جنرالاته . وفى بداية ايلول (سبتمبر) استدعاهم وسألهم عن وجهة الجيش لاحقا . وقال هيلينكروك ، مدير عملياته ، بحق : لكى يستطيع الجنرالات ان يجيبوا على هذا السؤال ينبغى لهم ان يعرفوا ما ينوى الملك القيام به . وجاء رد الملك بشكل لا بد وان يحير اعوانه ومستشاريه :

— ليست عندى اية نوايا .

لم يتعب الملك نفسه فى وضع خطة للحرب ومناقشتها مع الجنرالات . فقد كان حتى الان واثقا من ان الحملة على

روسيا ودحر قواتها عملية بسيطة سهلة كما حدث ، مثلا ، في سكسونيا . الا ان العثرات والصعوبات بدأت ، فتفضل كارل اخيرا على الجنرالات الذين كانوا ينفذون اوامره دوما بصورة عمياء فسألهم عن آرائهم . وبعد جدل طويل قرر العسكريون المشاركون في الاجتماع التوجه الى اوكرانيا وليس الى موسكو . واوضح ماتفييف من لاهاى جيدا مغزى هذا القرار الذى يعنى انعطافا شديدا في تحركات الجيش السويدى ، فقد استطاع هناك ان يكشف «السر» السويدى :

— اخبرنى اصدقاء عن سر من اسرار الوزير السويدى هنا ان الملك السويدى عندما رأى حذر قوات القيصر واستحالة الوصول الى سمولينسك وشحة المؤن والعلف قرر ان يتوجه الى اوكرانيا لان هذا البلد مكتظ بالسكان وكثير الخيرات وليس فيه اية قلاع كبيرة دائمة ذات حاميات قوية . هذا اولا ، وثانيا — يأمل في جمع رجال كثيرين من الشعب القوزاقى الطليق يقودهم بطريق مباشر مأمون الى موسكو ، ثالثا — يسهل هناك الاتصال بخان القرم ودعوته الى التحالف كذلك مع البولونيين الذين يلتزمون جانب ليشينسكى ، رابعا واخيرا — توجد امكانية لارسال القوزاق الى موسكو لاثارة سخط الشعب .

وهكذا نرى لدى كارل حسابات ومخططات كثيرة ، لكنها جميعا خيالية لا تستند الى الواقع ، فهو كالسابق لا يرى ولا يفهم شيئا ، في حين تتدهور حالة قواته ، وكل تصرفاته تؤدى الى تدهورها .

في ١٠ ايلول (سبتمبر) هاجم فوج من الفرسان السويديين الخيالة الخفيفة الروسية عند قرية رايفكى . وكان الفوج بقيادة الملك . وقد منى بهزيمة كبيرة جديدة . قتل حصان الملك

وهو على ظهره ، وكاد كارل يقع فى الاسر . وحدث ذلك كله على مرأى من بطرس الذى شارك فى المعركة . وبعد الاخفاق الجديد قرر الملك الا ينتظر وصول ليفينهاوبت المسرع اليه من ريغا ، وعجل فى التوجه الى الجنوب . وساعدت هذه الخطوة الخاطلة الحمقاء الروس فى احراز نصر آخر ، وهو هذه المرة اكبر واخطر بكثير ، حتى ان بطرس نعته بانه «اساس» الانتصار فى معركة بولتافا .

عندما تلقى القيصر نبأ نية كارل ومسيرة ليفينهاوبت عقد اجتماعا لرجاله . ووفقا لقرار الاجتماع يتعين على القوات الرئيسية للجيش الروسى بقيادة شيريميتيف ان تتوجه الى اوكرانيا «لمرافقة» كارل . فى حين توجهت مجموعة خاطفة من ١١,٥ الف شخص بقيادة بطرس للقاء ليفينهاوبت الذى يقود قوات من ١٦ الف جندى مع قافلة من الاغذية والعلف . وفى صباح ٢٨ ايلول (سبتمبر) داهمه بطرس عند قرية ليسنايا . وكان ظهور المجموعة الخاطفة مفاجأة تامة للسويديين . فالمنطقة كلها غابات كثيفة ومستنقعات وعرة . واستمرت المعركة عدة ساعات . وألم التعب بجنود الطرفين حتى هووا على الارض (السويديون جنب عرباتهم والروس فى مواقع القتال) واستراحوا امدا طويلا على بعد نصف اطلاقة مدفع عن بعضهم البعض . ثم استؤنف القتال . وفى آخره وصلت الخيالة الروسية بقيادة بور وحسمت الموقف لصالح الروس . ومنى السويديون بهزيمة ماحقة ، ولم ينقذ فلولهم التى فرت فى الظلام الا العاصفة الشديدة وذلك الليل البهيم . وترك ليفينهاوبت فى ساحة المعركة ثمانية الاف قتيل وكل المدفعية تقريبا وكل العربات التى كانت حمولتها ضرورية جدا لجيش كارل الجائع . وعرف الملك بالهزيمة الماحقة لاحد افضل

جنرالاته فى الاول من تشرين الاول (اكتوبر) ، وفى ١٢ منه جاءه هذا الجنرال بـ٦,٧ آلاف من الجنود الجياع الذين يرتدون الاسمال . وهذا كل ما تبقى من افراد قواته الـ١٦ الفا . عندما سمع الملك بهذا الخبر لاول مرة لم ينم الليل ، واعتراه الحزن والصمت . اما الان ، بعد حديث الجنرال المغلوب ، فقد بعث الى استوكهولم تقريرا عن انتصار سويدى جديد وواصل زحفه على اوكرانيا . صحيح انه اخذ من ذلك الوقت يشكك فى انتصاره النهائى ، لكنه اخفى مشاعره بكل عناية واحتجب عن الجميع وراء ستارة من الصمت والرياء والتقارير بشـــأن الانتصارات المزعومة .

لقد عزز النصر فى معركة ليسنايا الثقة بالجيش الروسى ، وقد تحدث عن ذلك بطرس الذى كسب المعركة :

— يمكن ان ينعت هذا النصر بالنصر الاول ، لانه لم يحدث من قبل نصر مثله على قوات نظامية . زد على ذلك اننا واجهنا العدو بعدد من الرجال اقل مما لديه . تلك فى الحقيقة نتيجة مجهود روسيا الموفق ، لا سيما وان تلك هى التجربة الاولى للجنود ، ولذا رفعت معنويات الرجال طبعا . وهذا النصر هو اساس معركة بولتافا من حيث رفع معنويات الرجال ومن حيث تجربة الجنود الاولى . ففى الشهر التاسع ولدت السعادة .

وترك خبر الانتصار المؤزر انطباعا جيدا فى روسيا وخارجها . وشعر بطرس بالارتياح . فقد تحقق نصر بعدد اقل من الرجال على قوات السويديين المتمرسة . وغدا جيش كارل الرئيسى منقطعا عن قواعد المؤخرة التموينية ، فوقع فى تطويق استراتيجى . وفى معركة ليسنايا تجلت مواهب بطرس كقائد عسكرى مجدد

فذ . فقد نظم المجموعة الخاطفة من جنود مشاة ركبوا ظهور الجياد ، واختار مكانا متقاطعا محجوبا وليس حقلا مكشوفا ليكون ساحة للمعركة ، وصف عساكره ليس فى نسق واحد ، كما هى العادة ، بل فى نسقين .

وفى اعقاب معركة ليسنايا ، فى تشرين الاول (اكتوبر) ، منى السويديون بهزيمة اخرى . فان فيلق لوبيكير المكون من ١٣ الف شخص اقترب من بطرسبورغ من جهة فنلندة . فهزمه الاميرال ابراكسين والحامية ، وفقد الفيلق ثلث افراده وستة الاف جواد . وبعد هذه الهزيمة لم يحاول العدو ولا مرة ان يقترب من «فردوس» بطرس . وتكريما للنصر سكت بأمر من القيصر مدالية على احد جانبيها صورة المنتصر وكتابة : «الاميرال ابراكسين من اتباع صاحب الجلالة» ، وعلى الجانب الثانى سفن اصطفت فى صف واحد وتحيط بها الكلمات التالية : «وهو يحافظ عليها ولا ينام . الموت افضل من الخيانة ، ١٧٠٨» .

وعندما كان بطرس فى سمولينسك ، حيث استقبلوه باطلاق المدافع والبنادق وهو فى هالة من الانتصارات والامجاد ، تلقى ضربة شديدة ، اذ اخبروه بخيانة حاكم (جتمان) اوكرانيا مازيبا . كان هذا الاخير يحكم فى اوكرانيا عشرين عاما ويحظى بثقة القيصر التامة . ولم تلتفت موسكو الى تقارير خصومه السياسيين وحاسديه والمتذمرين منه . وهذا ما حدث هذه المرة ايضا . فقد افاد كبير قضاة اوكرانيا الشيخ كوتشوبى الذى اختطف مازيبا ابنته واغتصبها :

— الحاكم ايفان مازيبا يريد ان يخون القيصر العظيم وينضم الى البولونيين ويلحق ضررا جسيما بقيصر موسكو ويستولى على اوكرانيا ومدن القيصر .

وافاد بالشيء ذاته المقدم المتقاعد ايسكرا من مدينة بولتافا . الا ان الرجلين اعتقلا وسلما الى مازيبا ، وفي ١٤ تموز (يوليو) ١٧٠٨ قطعت رقبتاهما . أما الحاكم مازيبا فكان من ثمانينات القرن السابع عشر يحلم بفصل اوكرانيا عن روسيا واعادتها الى السلطات البولونية ، وقد تصور الآن ان الملك السويدى وصنيعته ليشينسكي سيساعدانه فى تنفيذ خطته القديمة . فوعد الملك بتوفير مواقع شتوية للقوات السويدية مع الاغذية والعلف ، ووعد ليشينسكي بتسليمه مناطق اوكرانيا على الضفة اليسرى من الدنيبر . وفي عام ١٧٠٧ وقع معهما معاهدة بهذه الشروط . لكنه كتم سر المعاهدة وتحايل وناور . لكن الخيانة افتضحت ، فصعق لها بطرس كالرعد فى وضح النهار . واتخذ اجراءات عاجلة . فقد اسرع مينشيكوف بقواته الى باتورين مقر الحاكم مازيبا الذى انتقل الى صف السويديين ، ومن جهة اخرى تحرك مازيبا مع الافواج السويدية . وكانت للاستعجال اسبابه الواضحة . ففى عاصمة مازيبا احتياطيات هائلة من الاغذية والبارود وذخيرة المدفعية . وسبق مينشيكوف العدو ونقل من باتورين كل ما امكن نقله . واحرق الباقى وهدم القلعة .

وكانت تلك ضربة قاسية بالنسبة للحاكم مازيبا ، ولكنها ليست الضربة الوحيدة ولا الرئيسية . فقد اعقبتها ضربات . وكانت البداية من رفض القوزاق الاوكرانيين الالتحاق به . فقد جاء الى معسكر كارل وليس معه عدد كبير من المحاربين القوزاق كما وعد وكما كان الملك يأمل فيه . كل ما كان معه الفان او ثلاثة الاف رجل لا يؤبه بهم . وحتى هؤلاء ما كانوا يعرفون اهدافه الحقيقية ، فقد ظنوا انهم وصلوا الى جيش شيريميتيف . وعندما اتضحت الامور اخذوا يغادرون المعسكر السويدى سرا .

ثم ان اوكرانيا علمت من مراسيم بطرس ان مازيبا يريد ان يعيد الوطن الام الى الاقطاعيين البولونيين ، فاندلعت الحرب الشعبية ضد انصار مازيبا والسويديين .

وفي ٦ تشرين الثاني (نوفمبر) انتخب ممثلو اوكرانيا سكوروبادسكي حاكما جديدا لهم بدلا من مازيبا الذي اطاحوا به . وجرى هنا اعدام رمزي للخائن ، فقد «شنق» الجلاد صورته وحطم شعاره وسحقه بقدميه . وفعلوا الشيء ذاته بشهادة وسام اندري بيرفوزفاني الذي تسلمه مازيبا في حينه .

ولم يكتف بطرس بذلك ، بل كتب الى ستيفان يافورسكي سادن الكرسي البطريركي في موسكو :

— سماحة ابينا المحترم . ارجو ان تصدر لعنة على ذاك (مازيبا — **ملاحظة المؤلف**) بسبب تصرفه هذا وتعلنها على الملأ في الكاثدرائية .

وفي ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) اعلن يافورسكي في كاثدرائية اوسبينسكي في كريملين موسكو امام جميع البويار وكبار رجال الدين اللعنة على الخائن ثلاث مرات :

— لعنة الله على الخائن مازيبا لجريمته بحق المسيح وخيانته للقيصر العظيم !

واشاحت اوكرانيا بوجهها عن حاكمها السابق الذي لعنته الكنيسة واعدم غيابيا . ولم تكن ترغب في رؤية سيده الجديد — الملك السويدي في اراضيها .

وظل كارل يعيش في جو من الاوهام وخداع النفس ، ويوحي الى جنرالاته قائلا :

— يجب ان نتقحم طالما الحظ يبتسم لنا .

لقد تصرف على هذا النحو قبل وبعد معركة ليسنايا . ويقول

تارلى المؤرخ السوفييتى الموهب ، مؤلف الدراسات عن نابليون وفرنسا وروسيا ورجالاتها البارزين وقضاياها الهامة ، «صار كارل من ذلك الحين يعيش حياة مزدوجة لانه يستأسد امام الاخرين ويتشدق باحتلال موسكو. . .» واخذ يبعث الى استوكهولم اوامر بتجنيد وجبات جديدة ، وراحوا هناك يعبئون الجميع حتى الشيوخ الطاعنين فى السن والصبية الذين لا يستطيعون رفع البندقية من الارض .

وبعد معركة ليسنايا اخذ الخوف فى اوربا من السويد وملكها المهووس يزول ويحل محله الخوف من قدرة روسيا المتعاظمة بقيادة قيصر نشيط وشجاع وحكيم كما بدأوا يعتبرونه هناك . وتجلى تغير الموقف ، فيما تجلى ، فى عدم رغبة بطرس فى انضمام روسيا الى الحلف الكبير بعد ان كان راغبا فيه . ففى خريف ١٧٠٨ اعلن عن ذلك على رؤوس الاشهاد ماتفييف سفيره فى هولندة . وفى مطلع الشتاء ابلغ ماتفييف القيصر بان ملك الدانمرك فريدريك الرابع ينوى التفاوض مع حاكم سكسونيا اغسطس الثانى بصدد استئناف العمليات الحربية ضد السويد . وقد بدأت المفاوضات بالفعل . وفيما بعد اشترك فيها ملك بروسيا . وبذلك اشتدت عزلة السويد فى ميدان السياسة الخارجية ، وسارت الامور صوب بعث حلف الشمال . ذلك هو تأثير ما حصل فى معركة ليسنايا .

ظل كارل الثانى عشر يجوب اوكرانيا ، ويلاحقه ، هو وجيشه الذى يذوب ويتضاءل على مرأى من الجميع ، كابوس الصقيع القارس والمجاعة المتفشية بين الجنود وشحة العلف للخيول وقلة الذخيرة وعداء الاهالى وانعدام الحلفاء المخلصين . وفى بولونيا التى كان يعول على مساعدتها لا يعير الكثيرون سلطة الملك

ليشينسكى اهتماما . فان نصف بولونيا ، كما يقول البولونيون انفسهم ، لا يعترف به ، والنصف الثانى لا يخضع له . وفى شمال البلاد فقط تسيطر افواج ليشينسكى والقوات السويدية بقيادة كراساو على قسم غير كبير من الاراضى . وفى سائر اراضى البلاد يعود الامر والنهى الى جيش سينيافسكى الحاكم باسم الملك وجيش الحاكم الليتوانى اوغينسكى اللذين دحرا قوات صنيعة السويد ، وحظيا بمساعدة الافواج الروسية . وكانت جيوش غوليتسين تحمى كييف ومناطق اوكرانيا الواقعة على الضفة اليمنى من الدنيبر .

وراح كارل يستدعى الى اوكرانيا باستمرار كراساو وليشينسكى ويحدث جنرالاته عن حملة القوات الكبرى من بولونيا . ويكتب الى هناك عن احواله الممتازة :

— انا وجيشى كله فى احسن حال . دحرنا العدو وازحناه وجعلناه يطلق ساقيه للريح فى كل المناوشات التى حدثت له معنا .

كان جميع المحيطين بالملك وهو نفسه يتظاهرون بانهم يصدقون ما يقولونه لبعضهم البعض عن الاحوال الجيدة ، فى حين يتدهور الوضع من سيئ الى اسوأ . صحيح ان بارقة من الامل لاحت ذات مرة . فان غوردييينكو قائد قوزاق زابوروجيه حذا حذو مازيبا واخذ يهاجم فصائل الروس المقاتلة . وجاء جواب بطرس حازما شديدا . ففى ربيع ١٧٠٩ اقتحمت قواته منطقة زابوروجيه ودمرتها عن آخرها . والتحق قوزاق غوردييينكو بالملك كارل ، الا ان هذا «المكسب» لم يكن ذا شأن . وفهم هذه الحقيقة مازيبا الذى راح يبحث محموما عن مخرج من الورطة ، فتارة يقترح على كارل القيام بحملة على الشرق ،

مثل الاسكندر المقدونى ، الى آسيا (اى الى اعماق روسيا) وتارة يقترح عليه ان يتحالف مع بولافين (فى تلك الاثناء كانت الحرب الفلاحية قائمة فى جنوب روسيا ، فى منطقة الدون) ، وتارة يبعث صديقيه المقدمين ابوستول وغالاغان الى بطرس يقترح عليه ان يسلمه الملك السويدى وكبار قادته العسكريين .

وكان كارل الحائر هو الاخر يجوب اوكرانيا المعادية له بحثا عن الطعام والمأوى لجنوده ، وليس اوكرانيا وحدها ، بل وعواصم الدول الحليفة طلبا للمساعدة (بالمال ان لم يكن بالرجال) ، ويحاول ان يقيم علاقات مع الاستانة والقرم ، الا ان اولئك فضلوا الانتظار ، فهم خائفون . كانت المدائن والقلاع الاوكرانية التى يصادفها السويديون فى طريقهم تقاوم ببطولة وتلحق بهم خسائر ليست قليلة . فالاهالى الاوكرانيون والفصائل المقاتلة الروسية حرموهم ليس فقط من الاغذية ، بل ومن الراحة والمأوى . ذات مرة (فى شباط — فبراير ١٧٠٩) كان الملك وقواته فى كولوماك ، فى حدود اوكرانيا الداخلة ضمن الدولة الروسية . وكان مازيبا يسير على ظهر حصان جنبه ويتزلف اليه ويتحدث عن انتصارات السويديين الحربية الوهمية . ثم اضاف باللاتينية ان صاحب الجلالة موجود على بعد ثمانية اميال لا غير عن آسيا . وفى الحال طلب الملك السويدى ، المرشح لدور الاسكندر المقدونى ، من دى هيلينكروك نفسه ان يستسفر عن الطرق المؤدية الى آسيا . واجابه ذاك ان آسيا لا تزال بعيدة . فلم يوافقه كارل :

— لكن مازيبا قال لى ان الحدود ليست بعيدة من هنا . يجب ان نذهب الى هناك لنقول اننا كنا فى آسيا ايضا .

— يبدو انكم تمزحون يا صاحب الجلالة . فانتم بالطبع

لا تفكرون فى هذه الامور بجد .

ــ انا لا امزح اطلاقا . امض فى الحال واستفسر عن الطرق .

ومضى هيلينكروك ولكن ليس الى آسيا ، بل الى مازيبا ، ولامه قائلا :

ــ يمكنك يا صاحب المعالى ان ترى من هنا خطر التنكيت مع ملكنا على هذا النحو . فهو يحب الشهرة أكثر من اى شىء فى الوجود ، ويسهل استدراجه للسير ابعد من اللزوم .

واستمرت الفصائل الروسية والانصار الاوكرانيون فى مهاجمة الجيش السويدى . وظلت الاغذية شحيحة كالسابق . وتضاءلت صفوف السويديين بسبب ذلك كله وبسبب الامراض . الا ان الشتاء انتهى اخيرا ، وبدأت فيوض الربيع . ومع الربيع تنتعش الامال ، كما هو معروف .

فى الاول من نيسان (ابريل) وصل كارل مع جيشه الى بولتافا وعزم على اقتحامها . واوحى له مازيبا من جديد ان احتلال بولتافا يجعل اوكرانيا تحت سلطته . ومن بولتافا تمتد الطرق الى الجنوب ، الى القرم ، فى حين كان الملك يجرى مفاوضات مع خان القرم والسلطان العثمانى بصدد العمليات المشتركة ضد روسيا .

وظل بطرس يتابع تصرفات الاستانة حيث كان السفير تولستوى يبذل المستحيل كالسابق ليحول دون تطور الاحداث غير المرغوب فيه بالنسبة لروسيا . ولم ينس القيصر بناء الاسطول فى فورونيج . فقد استمر بناؤه هناك دون قيد او شرط . امضى بطرس كانون الثانى (يناير) ونصف شباط (فبراير) ١٧٠٩ فى سومى (اوكرانيا) ، وبالاضافة الى الاشغال المرتبطة بطباعة الكتب واجراء الاصلاح الادارى فى الالوية واخماد الانتفاضات

الشعبية فى عدد من مناطق البلاد كان مهتما بالحيلولة دون وصول جيش كارل الى ما وراء الدنيبر ، حيث يمكنه ان يلتقى بقوات كراساو وليشينسكى . وبعد ذلك ، فى شباط ، ارتحل الى فورونيج . واشرف على بناء السفن طوال شهرين وعلّم الاسطوات على جلفطتها وعلى صنع الاصماغ الجيدة . وعندما عرف بشحة الاحتياطيات توجه الى مصنع ايفانوفو وامضى اسبوعين مع الاسطوات فى صنع المراسى والبراغى والقنابل والعبوات ومدافع المورتر وغيرها . وبعد العمل فى حوض بناء السفن ابحر بطرس على رأس اسطول كبير (٢٤١ سفينة ، منها ٢٩ سفينة حربية كبيرة) فى الدون الى آزوف . وسرعان ما وصل الى البلاط العثمانى نبأ مجىء هذا الاسطول ، فذابت نوايا السلطان فى شن الحرب على روسيا كزبد البحر . . .

فى تلك الاثناء كان الكونت بيبر ، الوزير الاول للملك كارل الذى رافقه فى حملته ، يتحدث ، فى اليوم التالى لوصول الجيش السويدى الى بولتافا ، مع ضابط سويدى من الذين وقعوا فى الاسر بايدى الروس . كان الضابط قد جلب رسالة من غولوفكين تضمنت اقتراحا بتبادل الاسرى والشروع بمفاوضات الصلح . ورد الكونت بان السويد مستعدة للنظر فى توقيع صلح مربح . وفى رسالة ثانية اقترح غولوفكين تعيين ممثلين لاجل التفاوض . وتتلخص شروط روسيا فى استلام جزء من كاريليا واينغريا مع بطرسبورغ ودفع تعويضات نقدية الى السويد . كان اقتراح بطرس السلمى يوفر فرصة جيدة للملك كى يتخلص من الورطة وينقذ جيشه ، لكن هذا الاخير رفض الاقتراح . وتسلم القيصر ردا مفعما بالغطرسة الهوجاء :

— صاحب الجلالة ملك السويد لا يرفض الصلح المربح

والتعويضات العادلة عن الاضرار التى تكبدها جلالته . الا ان اى شخص غير متحيز يدرك بسهولة ان الشروط المطروحة الان يمكن فى الاغلب ان تؤجج لهيب الحرب اكثر مما تساعد على اطفائه .

كانت هذه الاتصالات غير المفيدة قد عادت بالفائدة على روسيا ، لانها كشفت عن نواياها السلمية واثرت على موقف الاستانة التى تخلت عن مخططاتها الحربية عندما سمعت بها ، ثم انها شلت نشاط بلدان اوربا الغربية التى كانت على العموم تلتزم بمواقف العداء للروس ، فرأت الان فى محاولات بطرس لانهاء الحرب بالصلح دليلا على ضعف روسيا . اما كارل فقد ظل كالسابق يركض وراء سراب النصر النهائى . وعندما حاول الجنرالات اقناعه بترك بولتافا والانسحاب الى بولونيا رد عليهم قائلا :

ـــ ساظل هنا حتى لو بعث الخالق ملاكه من السماء يأمرنى بالانسحاب من بولتافا .

كان الملك يقود الجيش الى الكارثة بتعنت وعناد كالسائر فى الاحلام . وفى حديث مع هيلينكروك اصر على حصار بولتافا :

ـــ جهز كل شىء للهجوم على بولتافا .

ـــ هل تنوون جلالتكم محاصرة المدينة ؟

ـــ نعم . ستشرف انت على الحصار وتخبرنا باليوم الذى نستولى فيه على القلعة .

ـــ لكن الجيش لا يمتلك كل مستلزمات الحصار .

ـــ لدينا مادة كافية للاستيلاء على قلعة تافهة مثل بولتافا .

ـــ القلعة ليست متينة ، لكن الحامية تضم ٤ الاف

شخص ما عدا القوزاق .

— عندما يرى الروس اننا جادون فى الهجوم يستسلمون من اول طلقة تصوب الى المدينة .

الغشاوة التى اعمت بصيرة الملك منعته هذه المرة ايضا من الانصات الى صوت العقل . لقد حاول هيلينكروك ان يثبت له بان الروس داخل القلعة سيدافعون عنها بشجاعة حتى الرمق الاخير ، اما السويديون الذين تعوزهم المدافع والذخيرة فسيتكبدون خسائر جسيمة . لكن الملك كان يجيب :

— ولذلك بالذات يجب ان نحقق ما هو خارق للعادة . فهذا يشرفنا ويمنحنا الشهرة والامجاد .

حاصر السويديون بولتافا ذات الاستحكامات الركيكة طوال ثلاثة شهور . وكان كيلين يعمل بموجب التوجيه الذى بعثه بطرس الى قومندانات كل القلاع فى اوكرانيا بشأن المقاومة «حتى الرمق الاخير» . وصد حماة بولتافا كل الهجمات وقاموا هم ايضا بهجمات خاطفة فالحقوا ضررا بمحاصريهم . وتكبدوا هم انفسهم خسائر ايضا . وادرك بطرس رأسا الاهمية الاستراتيجية لقلعة بولتافا التى يسعى كارل الى السيطرة عليها بمثل هذه المثابرة والعناد . وفى رسالة الى مينشيكوف الذى رابط مع قواته على مسافة غير بعيدة امر بطرس بنجدة حماة القلعة المحاصرة . وفى ٧ ايار (مايو) شن مينشيكوف هجوما مباغتا على اوبوشنيا التى يرابط فيها السويديون ودمرهم . فاسرع كارل الى هناك ، الا ان الروس انسحبوا بهدوء وانتظام الى الضفة الثانية من نهر فورسكلا . وفى ليلة ١٤ على ١٥ آيار وصلت الى بولتافا عبر المستنقعات فصيلة من ٩٠٠ جندى مزودة بكميات من البارود والرصاص .

وفى ٤ حزيران (يونيو) وصل بطرس الى بولتافا ، وكان الجيش السويدى كله مرابطا حولها . وبعد ثلاثة ايام بلغ ابراكسين بقراره بعد ان قيم الموقف وتناسب القوى (فقد وصلت القوات الروسية الى هناك ايضا) :

— اقتربنا كثيرا من جيراننا وفى هذا الشهر ستكون لنا باذن الله القضية الرئيسية معهم .

فى معركة بولتافا وجد الجيش السويدى نفسه فى طوق استراتيجى ، وقد استنزفته كثيرا الهزائم والحصارات والمسيرات والمجاعة . اما الجيش الروسى فعلى العكس ، حيث غدا اقوى بكثير واقدر على القتال . وفى ٢٠ ايار (مايو) عبر الجيش نهر فورسكلا وبدأ فى الحال انشاء الاستحكامات الميدانية فى المواقع التى اختيرت للمعركة الشاملة المرتقبة . وكما هو الحال فى موقعة ليسنايا رابطت القوات الروسية فى اماكن محجوبة واستند جناحاها الى الغابات ، وفى الخلف الضفة العالية ، وقد مدت جسور على النهر . وفى المقدمة ينبسط سهل مكشوف ينتظر ان يهجم السويديون من جهته . واعدت هناك ستة خنادق قبع فيها الرماة .

وفى ٢٥ حزيران (يونيو) عقد بطرس اجتماعا للعسكريين وضع خطة المعركة . وتفقد العساكر . ووزع الجنرالات على الفرق ، وعهد بالفرسان الى مينشيكوف ، كما عهد بالمدفعية الى بروس . وجاء فى «تاريخ الحرب السويدية» : «ان الفيلدمارشال والجنرالات توسلوا الى جلالة القيصر الا يشترك فى القتال فتفضل قائلا بالا يحدثوه فى هذا الموضوع بعد الآن» . وهكذا فان مشاركة بطرس شخصيا فى القتال امر مفروغ منه بالنسبة له .

وفى اليوم التالى ابلغوه بان ضابط صف فر الى السويديين من

فوج سيميونوفسكى . وابلغ الخائن العدو فى اغلب الظن بنقاط الضعف فى مواقع الروس ، ومنها احد الافواج المكون من المجندين الجدد الذين لم يكتسبوا بعد خبرة فى القتال . وامر بطرس فى الحال بان يخلعوا بزاتهم ليرتديها جنود فوج نوفغورود المحاربون الشجعان المحنكون . وزار مرارا وتكرارا مواقع الافواج واتخذ آخر الاجراءات وشجع المحاربين . وسمع ضباط افواج الحرس دعوته التالية :

— تعرفون ان ملكهم المتغطرس الثاقب الذهن وزع المنازل فى موسكو غيابيا على قواته ، وعين جنراله شبار متصرفا لموسكو وقرر تقسيم وطننا الحبيب الى امارات صغيرة وابادته نهائيا بادخال الزندقة اليه . فهل نترك هذه الاهانات وهذا الاحتقار دون ان نأخذ بالثأر ؟

ونيابة عن الجميع اجاب الليفتينانت — جنرال الامير غوليتسين مستشهدا بمعركة ليسنايا :

— لقد رأيت عملنا واخلاصنا عندما صمدنا فى النار يوما كاملا ولم تضطرب صفوفنا ولم نتنازل للعدو عن شبر من اراضينا ، واطلقنا النيران اربع مرات ، وملأنا اكياسنا وجيوبنا بالرصاص اربع مرات . اما الان فالقوات نفس القوات . ونحن عبيدك مثلما كنا عليه . ونأمل ان نحقق الان نفس المأثرة التى حققناها آنذاك .

وتلقى كارل قبل عدة ايام من المعركة انباء تفيد بان الاستانة لا تنوى شن الحرب على روسيا ، وان قوات كراساو وليشينسكى لا تستطيع ان تأتى لنجدته ، لان خيالة الجنرال غوليتسين تقلقها باستمرار . زد على ذلك ان خيالة غير نظامية من ٤٠ الف فارس قادمة لنجدة القيصر الروسى كما افاد الضابط الهارب .

ومع ذلك قرر الملك بدء المعركة الشاملة فى ٢٦ حزيران (يونيو) . وقبل ذلك ببضعة ايام ، أثناء استطلاع الموقف فى مواضع الخيالة ، ارتطم الملك بعدد من القوزاق الروس حول موقد . قفز كارل من حصانه بخفة واطلق النار على احد القوزاق ، لكنه اصيب برصاصة فى ساقه . انتشل طبيب المعسكر الرصاصة ، لكن كارل عجز عن المشى .

وفى نفس اليوم المذكور ، السادس والعشرين من حزيران ، حملوا كارل على النقالة فى وضعية اقرب الى الرقاد ، وراح يتفقد صفوف جيشه . والقى خطبة فى الجنود والضباط دعـ فيها الى فتح روسيا والاستيلاء على ثرواتها . كما دعا الضباط لتناول طعام الغداء فى خيمة القيصر الروسى :

— فقد اعد لنا مأكولات كثارا . اذهبوا غدا الى هناك تحدوكم الامجاد .

وقبيل ذلك اتفق الفيلدمارشالان شيريميتيف ورينشيلد بكلمة شرف على بدء المعركة فى ٢٩ حزيران (يونيو) «وحتى ذلك الحين لن تجرى اية جولات وغارات مفاجئة من كلا الجيشين» . الا ان الملك داس على هذا الاتفاق . فهو فى عجلة كما اعلن ، لان نبأ الخيالة من ٤٠ الف فارس اثاره . والاهم كما يتصور دون شك ، ان شمس النصر والمجد التليد ستشرق كلما عجل فى بدء القتال .

وخلافا للملك السويدى تناول بطرس فى خطبته امام الجنود امرا آخر هو الدفاع عن الوطن وحماية «شعب عموم روسيا» :

— ايها المحاربون . حانت الساعة التى يتقرر فيها مصير الوطن . فلا تفكروا بانكم تحاربون من اجل بطرس ، انكم تحاربون من اجل الدولة التى عهد بها الى بطرس ، من اجل

شعبكم ووطنكم . . . ولا ترتبكوا لزعم العدو بانه قوى لا يقهر ، فقد فضحتم اكاذيبه مرارا بانتصاراتكم . اثناء القتال ضعوا الحقيقة نصب اعينكم . واعلموا ان حياة بطرس ليست عزيزة عليه ، المهم ان تعيش روسيا فى نعيم وتحقق الامجاد فى سبيل رفاهكم .

وفى الساعة الثالثة من فجر ٢٧ حزيران (يونيو) وكان الظلام لا يزال مخيما دوى هدير ثقيل فى معسكر الروس . فقد اهتزت الارض لالاف من اقدام الجنود وسنابك الخيل المتجهة صوب مواقع العدو . وهرع المشاة السويديون الى الخنادق واستقبلت خيالة مينشيكوف خيالتهم بهجوم مضاد . زحزح السويديون الروس قليلا فوقعوا تحت وابل نيران المدفعية ثم انسحبوا . زج رينشيلد الذى قاد الجيش السويدى بسبب جراح الملك خيالته فى الجناح الايسر لتلتف على الجناح الايمن الروسى . الا ان مينشكيوف وبروس جعلاها تنسحب . وكان تفوق المدفعية الروسية فى ساحة المعركة كبيرا للغاية — مائة ومدفعان مقابل ٣٩ مدفعا سويديا .

وبايعاز من بطرس سحب مينشيكوف خيالته . وتصور السويديون هذه المناورة تراجعا فهرعوا يلاحقونها ، لكنهم وقعوا من جديد تحت وابل نيران المدفعية والبنادق . وحاولوا ان يتخلصوا منها فى الغابة ، لكن الموت كان ينتظرهم هنا على ايدى الافواج الروسية .

كان بطرس لا يزال يحتفظ بقواته الاساسية فى المعسكر . وفى حوالى الثامنة صباحا اخرجها منه . وسحب من الخط الامامى افواج الخيالة الخفيفة الستة بقيادة شيريميتيف وتركها جانبا مع قوزاق سكوروبادسكى وامرهم بانتظار التعليمات للانخراط فى

المعركة . وحاول شيريميتيف وريبنين ان يقنعا القيصر بالعدول عن سحب وحداتهما :

ــ القتال بتفوق فى عدد القوات مضمون أكثر من القتال بعدد متعادل .

ــ العقل والفن ينتصران اكثر من كثرة العدد .

كان بطرس على حق طبعا . صف الجيش فى مخطط القتال : المشاة فى الوسط ، والمدفعية بين افواجهم ، والخيالة على الجناحين . سدد السويديون ضربتهم الى وسط المخطط الروسى ، حيث يتواجد فوج نوفغورود . واخذت كتيبته الاولى تنسحب لانها لم تصمد لضغط العدو الشديد . وتقدمت الكتيبة الثانية وعلى رأسها بطرس فى هجوم زحزح السويديين . وفى تلك الاثناء ضيقت الخيالة الروسية الخناق على الخيالة السويدية فى الهجوم . ولفظت المدافع الروسية نيرانها وقنابل كريات الرصاص ، وكبدت السويديين خسائر جسيمة . ويقول احد المعاصرين :

ــ اطلقت بامر جلالة القيصر الصلية الاولى بشدة حتى خيل لقوات العدو بسبب الصوت الهادر لتساقط الجثث على الارض والبنادق من ايدى القتلى ان بنايات ضخمة هوت على الارض .

وباشارة من بطرس شنت الافواج الروسية هجوما عاما . وفر السويديون مذعورين . ولم ينصتوا الى نداءات الملك الذى رفعه حمالوه على الايدى فراح يصيح دون جدوى ليقنع قواته المدحورة بضرورة الصمود .

وكان النصر تاما كاملا . واسرع بطرس الذى لا يعرف الكلل كل هذه الايام فكتب الى موسكو عن «النصر العظيم غير المتوقع» . وجاءوا بالجنرالات والوزراء السويديين الاسرى الى

خيمته . وسألهم القيصر :

— هل يعقل انى لن ارى اليوم اخى وشقيقى كارل ؟

لم يجدوا الملك حيا ولا ميتا . كان قد فر بجلده آنذاك مع فلول جيشه الى الغرب ، الى الدنيبر . وراحت خيالة بطرس تلاحقه ، الا ان الخيول المتعبة للغاية سرعان ما توقفت . وفى مساء ذلك اليوم ارسل القيصر افواج الحرس والخيالة الخفيفة لملاحقة العدو . وقبل ذلك ، بعد الظهر ، اقام بطرس فى خيامه مأدبة للمنتصرين . ودعى اليها كذلك الجنرالات والوزراء الاسرى . وتلك حادثة لها دلالة كبيرة . فان بطرس ، كروسى قح ، لا يعرف الرحمة فى معاملة العدو أثناء القتال ، لكنه يبدى ازاء المغلوبين سماحة الفرسان . واثنى على شجاعة الفيلدمارشال رينشيلد ووهبه سيفه . وسمع الحاضرون خطبة القيصر والقائد الروسى الرائعة :

— يوم امس دعاكم اخى الملك كارل ان تتناولوا طعام الغداء فى خيمتى ، وها انتم فى خيمتى تفون بالوعد ، لكن اخى كارل لم يتفضل بالمجىء معكم الى خيمتى ، ولم يف بوعده . كنت انتظره على احر من الجمر ، انتظرته من صميم القلب ليتناول الطعام فى خيمتى . ولكن طالما امتنع جلالته من تناول الطعام عندى فانا ادعوكم انتم لتناول الطعام .

ورفع بطرس اثناء المأدبة نخبه الشهير :

— نخب صحة معلمينا ، صحة السويديين !

ورد عليه بيبر فى الحال :

— لقد شكرتم معلميكم جيدا يا صاحب الجلالة .

واثناء الحديث مع الاسرى سمع بطرس من بيبر نفسه ومن رينشيلد انهما حاولا من زمان اقناع الملك بقبول الصلح مع

روسيا ، واعلن :

ــ الصلح بالنسبة لى احلى من كل الانتصارات .

وفى سياق المعركة فقد السويديون اكثر من ٨ الاف قتيل و٣ الاف اسير ، وفقد الروس ١٣٤٥ قتيلا . واستولى الغالبون على كل العربات وكسبوا غنائم كثيرة . وبعد ثلاثة ايام ، فى الثلاثين من حزيران (يونيو) عبر كارل ومازيبا وعدد غير كبير من انصارهما نهر الدنيبر فى موضع بيريفولوتشنا وفروا صوب الممتلكات العثمانية . وفى اواخر تموز (يوليو) اسرع الاثنان الى بنديرى ، وسرعان ما توفى الخائن مازيبا هناك ، وربما مات ميتة طبيعية او تجرع السم . اما الجيش الذى تركه الملك ــ بقى منه اكثر من ١٦ الف جندى جياع محطمى المعنويات عهد كارل بقيادتهم الى ليفينهاوبت ــ فقد سلم نفسه الى فيلق مينشيكوف البالغ عدده تسعة الاف رجل . وبهذه المناسبة امر بطرس صديقه الفيلدمارشال قائلا :

ــ ارسل لنا دون تعطيل ٥٠٠ حصان مع عربات لنوصل بها الى القافلة اسلحة العدو ومعدات جنوده .

ولم تعد عساكر كارل الثانى عشر «على قيد الحياة» . وتعززت مواقع روسيا حالا وبصورة ملحوظة ، وقد فهم بطرس ذلك تماما . فراح يستعجل جنرالاته ويطالبهم بان يطردوا السويديين من مدن وقلاع البلطيق . وكتب الى اغسطس الثانى بانه سيصل مع جيشه الى بولونيا . وناقش مع ابراكسين خطة «الصيد» فى فيبورغ وتحرير ريفيل (تالين) . وافرح الامير الحاكم بقوله :

ــ لا شك ان رغبة معاليكم فى اتخاذ بطرسبورغ مقرا لكم قد تحققت بنتيجة سقوط العدو نهائيا .

وتقديرا للنصر فى معركة بولتافا كوفئ جميع المشاركين فيها

بمداليات فضية (للجنود) وذهبية (للضباط) ، وتسلم جميع الجنود منحة بمرتب شهر او شهر ونصف . وتلقى الجنرالات والضباط ترقية واوسمة واراضي . وغدا مينشيكوف فيلدمارشالا ، وغدا غولوفكين مستشارا ، كما حصل شافيروف على منصب معاون المستشار وهلمجرا . وبعد خمسة اشهر ، بناء على اقتراح كورباتوف كبير جباة الضرائب ، صدر مرسوم بطرس باعفاء الفلاحين من الضرائب المترتبة عليهم طوال كل السنين السابقة ، ما عدا السنتين الاخيرتين .

واخيرا قدم بطرس طلبا الى شيريميتيف ليشيد بخدماته ، وهى بالمناسبة خدمات كثيرة :

— السيد الفيلدمارشال ارجو ان توصى معالى حاكمينا الاثنين بتقدير خدمتى ، كى احصل لقاءها على منصب لواء بحرى ، ورتبة ليفتينانت جنرال اقدم فى القوات هنا . وحالما يصلك اول اشعار من موسكو ارجو ان ترسل مرسوم صاحبى الجلالة الى الاميرال حول منصبى .

ان الصيغة الهزلية لهذا الطلب وذكر «معالى حاكمينا الاثنين» و«صاحبى الجلالة» (المقصود الامير الحاكم رومودانوفسكى ومدير شؤون الزيمستفو بوتورلين) تلمح الى تصورات بطرس عن خدماته للوطن ومجهوده الجليل فى سوح الوغى . وابلغه رومودانوفسكى بترقيته فى المنصب لقاء «المآثر الفروسية الباسلة والفن الجرىء فى الشؤون الحربية» . وقد ابدى القيصر فعلا اثناء معركة بولتافا مهارة رفيعة كقائد عسكرى وتعرض للخطر كجندى . فقد اصابت رصاصة العدو قوس سرجه ، واصابت رصاصة اخرى قبعته . ورد القيصر على الامير الحاكم رومودانوفسكى بالشكر والامتنان :

— اننى لا استحق ذلك ، وقد منحتمونى اياه من جميل

عطفكم على ، وابتهل الى الخالق كى يمنحنى القدرة على العمل لاستحق تقديركم هذا فى المستقبل .

وبعد قليل سافر بطرس الى كييف واستمع الى خطبة فيوفان بروكوبوفيتش رئيس اكاديمية كييف ، وهو رجل متعلم للغاية (درس فى كييف ولفوف وكراكوف وروما) وخطيب مصقع وكاتب اجتماعى معروف . وكانت مكرسة للنصر فى بولتافا ولبطرس القائد العسكرى الذى حقق هذا النصر :

— لم تكتف بارسال الافواج الى سوح الوغى بل واجهت العدو بنفسك وتوجهت بنفسك صوب السيوف والرماح الاولى .

واستمع بطرس الى الخطيب بارتياح ، وربما خطرت على باله مشاهد المعارك الماضية ، وخصوصا المعركة المجيدة الاخيرة التى سطرت صفحة جليلة فى تاريخ الوطن .

من بولتافا الى هانكو

لقد غير الانتصار فى معركة بولتافا سير الحرب جذريا ووضع حدا فاصلا بين ما كان قبلها وما جاء بعدها من احداث على مسرح العمليات الحربية . وقد ادرك بطرس ذلك تماما ، شأن سائر الروس . وكما هى العادة اثناء انتصارات السلاح الروسى جرى الاحتفال بالنصر الباهر الجديد باكبر قدر من الفخفخة والابتهاج وبكل ما يقوى عليه القيصر الماهر والحاذق من ابداعات واختراعات . وبناء على خطته جابت القوات المظفرة شوارع موسكو وساحاتها واقتيد اكثر من ٢٢ الف اسير سويدى (من اسرى معركتى ليسنايا وبولتافا) وحملت كميات من الغنائم لا تعد ولا تحصى . وكان فى مسيرة الاسرى الكونت بيبر الوزير الاول للملك السويدى ، ومن الغنائم النقالة التى حملوا عليها الملك كارل ابان المعركة . وفى عيد رأس السنة (١٧١٠) شاهد اهالى موسكو مهرجانا جديدا لا يقل عن ذلك فخفخة . فبعد صلاة العيد فى كاثدرائية العذراء فى الكرملين اشعلت العاب نارية هائلة بمناسبة النصر فى بولتافا .

وفى اوربا بعد معركة بولتافا اختفى ازدراء روسيا وحلت محله هزة واحترام مختلط بالخوف من قدرتها . اما البلاطات الاوربية التى كانت فيما سبق تسخر من الدبلوماسيين الروس

فقد اخذت تبدى اهتماما بالغا بهم . لكنهم ، على غرار قيصرهم ، صاروا يتصرفون برزانة وهدوء وبشعور من الكرامة الشخصية والاعتزاز بوطنهم روسيا . ولم تكن الاحتفالات والمدائح والتمجيد قد اسكرت بطرس ، فلم يستعجل فى القتال ليقصم ظهر السويد نهائيا . والاكثر من ذلك انه كان كالسابق يسعى الى انهاء الحرب وتوقيع معاهدة الصلح . ففى اعقاب معركة بولتافا طرح اقتراحات فيها كثير من الاعتدال لمراعاة المصالح الشرعية لروسيا . وتناولت الاقتراحات حصول روسيا على الاراضى المتاخمة للخليج الفنلندى التى تؤمن لها منفذا الى البلطيق . وسلمها الى الجانب السويدى الجنرال ميرفيلد وسكرتير الملك السويدى تسيديرهيلم اللذان وقعا اسيرين بايدى الروس . الا ان كارل الثانى عشر رفض المقترحات السلمية من جديد . ومن الغريب ان الملك السويدى يتصرف وكأن شيئا لم يحدث . فهذا الحاكم الذى دمر بلده واهلك جيشه وصار بمثابة المتطفل على بلد آخر انما يتصرف بثقة فى النفس تكاد تبلغ ثقة المنتصر فى نفسه . وراح يبعث الى السويد ايعازات متوالية بشأن تجنيد المقاتلين ومواصلة الحرب مع ان شعبه البالغ عدده مليونا ونصف المليون يئن ويتضور من الهزال والاستنزاف . لكن الملك اصم لا يسمع شيئا ولا يعير انتباها للتوسلات والتقارير القادمة من استوكهولم والتى لا تسر اذنيه ، وقد امر بالا يرسلوها اليه بعد الان . اما سلطات استوكهولم فهى تطبق اوامره بصورة عمياء وتحمد ربها لانقاذ الملك ، وتنشر بخصوص ما حدث فى بولتافا اشاعة سخيفة تقول ان عشرين الف سويدى هناك انهزموا امام ٢٠٠ الف روسى .

صحيح ان السويد كانت لا تزال تحتفظ ببعض الامال .

فلديها اسطول شديد البأس فى البلطيق ، ولم تلحق الحرب ضررا باراضيها ، وتوجد قوات سويدية فى البلطيق وفنلنـــدة وبوميرانيا والنرويج بالاضافة الى ما يوجد منها فى السويد نفسها . زد على ذلك انه كان هناك ما يبرر انتظار مساعدة عسكرية من دول اوربا الغربية ، مثل بريطانيا وهولندة والنمسا من جهة ، وفرنسا من جهة اخرى . فان حكام هذه الدول ، انطلاقا من مصالحهم ، كانوا يأملون فى استمالة السويد الى جانبهم . لكن هذه المخططات انهارت وتقوضت للاسف الشديد . واضطرت البلاطات الاوربية المصعوقة الى اعادة تنظيم مخططاتها فى السياسة الخارجية على جناح السرعة . ويقول المؤرخ الاميركى روبرت ماسى ان بولتافا غدت «تحذيرا خطيرا» للعالم كله . وصار «الساسة الاوربيون الذين كانوا فيما سبق يبدون اهتماما بالقيصر لا يزيد كثيرا عن اهتمامهم بشاه بلاد فارس او مهراجا الهند يتعودون من الان فصاعدا على مراعاة المصالح الروسية بدقة . فان ميزان القوى الجديد الذى اقامه فى ذلك الصباح مشاة شيريميتيف وخيالة مينشيكوف ومدفعية بروس والجبار العملاق الذى قادهم جميعا كان سيبقى ويتطور فى القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين» .

ولكن روسيا رغم «ميزان القوى الجديد» اضطرت على مواصلة الحرب ، ولامد طويل جدا . فقد اضطر بطرس وقادته العسكريون ودبلوماسيوه الذين صاروا اكثر خبرة بكثير من السابق الى قيادة القوات مرارا وتكرارا والى شد وحل عقد مهمات السياسة الخارجية المتشابكة . وادت حصيلة معركة بولتافا الى تسهيل امور كثيرة . فقد التقطت سكسونيا والدانمرك انفاسها ، وصار بالامكان ، اعتمادا على بطرس وعلى قوة روسيا ، فسخ معاهدتى ترافيندال

والترانشتادت المهينتين بالنسبة لهما . وزج اغسطس الثانى بقواته السكسونية فى بولونيا التى فر منها ستانيسلاف ليشينسكى ، وانسحب كراساو مع جيشه السويدى الى بوميرانيا . واعلن حاكم سكسونيا من جديد عن حقوقه فى عرش بولونيا بعد ان تخلى عنها قبل ثلاث سنوات . أما توقيع المعاهدة مع كارل فى الترانشتادت ، كما يقول حاكم سكسونيا ، فالذنب فيه يعود الى مستشاريه الرديئين . كل ذلك قاله اغسطس الثانى الى بطرس اثناء لقائهما فى مدينة تورون البولونية فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٠٩ . وتظاهر القيصر بانه يثق به ، فهو مضطر الى التحالف معه من جديد . لكنه اراد ان يلعب على اعصابه قليلا . فقد جاء للقائه ومعه سيف اثار حيرة واضطراب «صديقه وحليفه» الذى استعاده مجددا . وظل اغسطس يحدق فى السيف ولا يدرى كيف يتخلص من الخجل الذى اعتراه . فهذا السيف كان بطرس قد اهداه اياه فى حينه ، لكن اغسطس اهداه الى الملك السويدى فى الترانشتادت . وقد عاد السيف الى القيصر مع الغنائم الاخرى من ساحة القتال فى بولتافا . وابدى بطرس هنا ايضا سماحة وطيبة قلب ، فقد سلم السيف ثانية الى اغسطس . . .

وقع العاهلان فى تورون معاهدة استئناف التحالف . وكان اغسطس قد فسخ معاهدة الترانشتادت فى بداية آب . وراح يتزلف الى بطرس حتى افرط فى التزلف والخنوع مع انه ظل كما كان فى السابق حليفا رديئا . ووفق المعاهدة الاولى حصل على مساعدات مالية وعلى ليفلانديا ، لكنه وافق على ضم ايسلانديا وعاصمتها ريفيل ، فضلا عن اينغريا الى روسيا .

وفى عام ١٧١٠ اعترفت بولونيا ، من خلال مجلس السيم

فى وارشو ، بمعاهدة نارفا لعام ١٧٠٤ و«بالصلح الابدى» لعام ١٦٨٦ . ووقعت روسيا مع الدانمرك ايضا معاهدة جديدة للتحالف والحرب ضد السويد ، وبطل مفعول معاهدة ترافيندال . وبذلك استؤنف الحلف الشمالى . الا ان روسيا وحليفتيها الدانمرك وسكسونيا قدمت ، نزولا عند طلب بريطانيا وهولندة ، ضمانات تؤكد ان القوات الدانمركية والسكسونية ستحارب كالسابق الى جانب الحلف الكبير ضد فرنسا . وتمكن بطرس كذلك من تحييد بروسيا وهانوفر .

كان الموقف لا بأس به حسب الظاهر . لكن بطرس سرعان ما تأكد من جديد ان روسيا يجب ان تعتمد على نفسها فقط فى الحرب ضد السويد . فان اغسطس الذى هزم مرارا فى سوح القتال مع السويديين يحاول ان يتملص من العمليات الحربية الجديدة . صحيح ان الدانمرك انخرطت فى القتال بهمة لكى تأثر من السويديين . وظهرت قواتها فى جنوب اسكنديناڤيا ، وضربت العدو فى البداية ، لكنها سرعان ما تكبدت هزيمة ماحقة على يد الجنرال ستينبوك فى شباط (فبراير) ١٧١٠ .

اما الجيوش الروسية فقد ظلت تحرز النصر تلو النصر . وغدا عام ١٧١٠ من هذه الناحية وفير «المحصول» . كان جيش شيريميتيف يقاتل فى البلطيق ، اما الفيلدمارشال الجديد ، مينشيكوف ، فهو يقاتل فى بولونيا . فى البداية اقتحم الجنود الروس قلعة ايلبينغ ، ثم جاء دور ريغا . بدأ حصارها فى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧٠٩ ، وفى تشرين الثانى (نوفمبر) وصل بطرس واطلق القذائف الثلاث الاولى من المدفع . لكن النصر لم يتحقق هنا فى فصل الشتاء . زد على ذلك ان الطاعون

الذى تفشى فى هذه البقاع حصد المحاربين الروس اكثر مما حصدهم رصاص العدو . وفى الربيع استؤنف الحصار . وكان تاما — من جهة البر والبحر . ونفذ شيريميتيف ايعاز بطرس الصارم :

— لا تحاول الاستيلاء على هذه المدينة بهجوم رسمى ما عدا الحصار الخانق ، لان الوقت متأخر اولا ، وثانيا لان حاميتها كبيرة والقلعة ذات دفاع متين جدا ، وثالثا — ليس هناك خطر من جانب السويديين ولا مجال لانتظار النصر .

استسلمت ريغا فى ٤ حزيران (يونيو) بعد ان قصفها الروس بالمدفعية . وفى اذار (مارس) من العام ذاته بدأ حصار فيبورغ . وقد وضع بطرس خطة هذا الحصار . وترأس هو ايضا فى ايار (مايو) حملة ٢٥٠ سفينة نقل محملة بالجنود والمدفعية والذخيرة . وكانت ظروف الحملة عصيبة للغاية . فالبحر لم يتخلص بعد من الجليد ، والقلعة المنيعة ذات حامية قوية وفيها مدفعية . وبغية تضليل المحاصرين اوعز القيصر الى البحارة بان يرتدوا البزات السويدية ، كما رفعت الاعلام السويدية على السفن . وتفحص بطرس القلعة بكل اهتمام من البحر والبر ورسم خطة العمليات . واوعز الى ابراكسين قائلا :

— حالما تكون الثغرات وغيرها جاهزة حسب خطتى يجب اطلاق النار منها طوال ما لا يقل عن اسبوع ثم يبدأ الهجوم .

واستسلمت فيبورغ على غرار ريغا . وتم ذلك فى ١٣ حزيران (يونيو) . وفى اليوم التالى دخل بطرس القلعة على رأس فيلق بريوبراجينسكى . تفحص استحكامات القلعة طوال ثلاثة ايام . واحتفل بالنصر هنا فى البداية ، ثم فى بطرسبورغ ، حيث حمل القيصر—المقدم وافراد افواج الحرس الغنائم من

الرايات السويدية فى شوارع المدينة .

وفى نفس تلك الحملة وضعت السلاح امام القوات الروسية حاميات ديناميوندى وبيرنوف (بيارنو) وريفيل (تالين) وكيكسهولم (كوريلا) . وكانت لدى بطرس كل المبررات ليعبر عن فرحته وارتياحه بخصوص حملة ١٧١٠ الموفقة :

— هكذا طهرنا ليفلانديا وايستلانديا من العدو تماما ، وباختصار فان العدو لم يعد يمتلك على الساحل الايسر لهذا البحر الشرقى (البلطيق — **ملاحظة المؤلف**) لا مدنا ولا اراضى .

وهكذا طهرت القوات الروسية منطقة البلطيق من السويديين . وبهذه المناسبة اطلقت صليات المدافع فى بطرسبورغ . ودقت النواقيس ثلاثة ايام . وزينت السفن الراسية فى نيفا بالانوار . ولم ينقذ السويد شيء بعد ان استنزفت قواها وهزمت مرارا . لم تنقذها الجهود الحربية المحمومة ولا مساعدات بريطانيا وهولندة والنمسا على الصعيد الدبلوماسى . وبجهود هذه الدول اعلنت «لائحة الحياد» التى يراد لها ان تحول دون دحر السويد نهائيا على يد روسيا وتمنع هذه الاخيرة من الظهور على مسرح اوربا الغربية . وفى ٢٢ حزيران (يونيو) ١٧١٠ اعترف بطرس بهذه اللائحة للابقاء على حلف الشمال وعلى العلاقات الطيبة مع عدد من ابرز بلدان اوربا ، وللحصول على فترة هدوء ومنع تلاحم الدول الاوربية على اساس العداء للروس . ويقول شافيروف : «مع ان هذا شيء يتعارض مع المصالح العليا لجلالة القيصر وحلفائه فقد تفضل ، من اجل تبيان اعتداله امام العالم كله . بالاتفاق مع حلفائه واقناعهم بقبول هذا الاقتراح رغم عدم جدواه» . واستحسنت الحكومة السويدية فى استوكهولم «لائحة الحياد» برغبة وفرح . لكن الملك ركب رأسه هذه المرة ايضا ،

فلم يصادق عليها ، فضاعت جهود البلاط البريطاني وغيره .
وتلقى السفير البريطانى فى استوكهولم توجيها من لندن تضمن عدم رضاها عن البلد الذى يمثل بريطانيا فيه :

— الوزراء السويديون يلحون فى ان ننقذهم ، ويحرموننا فى الوقت ذاته من فرصة العمل عندما يرفضون لائحة الحياد التى هى الوسيلة الوحيدة المتوفرة لدينا كى نسدى لهم هذه الخدمة .

وباصرار من الملك راحت السويد تستعد لمواصلة الحرب . وخططت روسيا وحلفاؤها ، بعد الحصول على ذريعة ملائمة ، لحملة على بوميرانيا التى ترابط فيها قوات العدو . وفى هذا الموقف بذل الساسة الانجليز جهودا جديدة لانقاذ السويد ، والهدف الرئيسى من تلك الجهود هو الحيلولة دون تعزز روسيا . وتلقى ويتورث ، السفير البريطانى فى موسكو توجيها «ببذل قصارى الجهود» لجعل روسيا تطرح من جديد مسألة توسط بريطانيا فى توقيع الصلح مع السويد . لكن الاوضاع تبدلت . فلئن كان الدبلوماسيون الروس فى البلاطات الاوربية قد سعوا سابقا الى الالتقاء بزعماء تلك البلدان وطلب بطرس الوساطة منهم ، فان روسيا الان صارت تتصرف على نحو آخر . فقد طال انتظار مثل هذا الطلب ، وابدى ويتورث نفسه مبادرة بهذا الخصوص . فاثناء الاحتفال فى موسكو بالنصر فى معركة بولتافا ، حيث اقتادوا فى شوارع العاصمة عشرات الالاف من الاسرى السويديين ، تكلم السفير مع القيصر ومع معاونيه الدبلوماسيين عن توقيع الصلح «بشروط معتدلة» وبوساطة بريطانيا . ولم يتلق السفير جوابا . وفى اواسط كانون الثانى (يناير) فقط اعلن شافيروف نيابة عن بطرس ان روسيا مستعدة للصلح اذا روعيت «مصالح دولته» . ويمكن القبول بوساطة بريطانيا اذا

تقدمت باقتراح حول الموضوع بشكل مقبول ، اى عمـــلا بالمعروف . وفى سياق المفاوضات اللاحقة لا تطلب روسيا الانضمام الى الحلف الكبير بل تقدم بريطانيا اقتراحا بهذا الخصوص . واخيرا تقدم بطرس باقتراح حول توسط روسيا لاجل توقيع الصلح بين بلدان الحلف الكبير وفرنسا . بهذه الصورة الجذرية تغير الموقف ، وصارت روسيا تؤدى دور الدولة الكبرى . كل ذلك يطفو على سطح الاحداث ، اما وراء الكواليس فان بلدان الحلف الكبير استمرت فى دسائسها ضد روسيا . وهى دسائس لا بد وان تعتبر اعمالا معادية فى الواقع . ومنها محاولات تفكيك الحلف الشمالى (مثل استمالة الدانمرك الى صلح انفرادى مع السويد) ، والمفاوضات مع السويد التى وعدوها ، فى حالة مواصلة حربها ضد روسيا ، باعادة كل ما تفقده وذلك عن طريق «صلح عام» .

وفى شباط (فبراير) ١٧١٠ بعثت ملكة بريطانيا آن رسالة شخصية الى بطرس نعتته فيها «بالامبراطور» . وفى السنوات اللاحقة ظلت العلاقات بين روسيا وبريطانيا جيدة حسب الظاهر، مع انها متوترة بسبب عداء مجلس الوزراء البريطانى (شأن البلاطات الاوربية الاخرى) لروسيا . الا ان دبلوماسية بطرس واعوانه الحكيمة الصبور وتعزز قدرة روسيا قد فعلا فعلهما ، حيث امكن الحيلولة دون تقديم دعم عسكرى سافر الى السويد من جانب بريطانيا وغيرها من البلدان .

ولكن ليس بالامكان توقع كل الاحتمالات . فقد جاء العام التالى ، ١٧١١ ، بمفاجأة مؤذية جدا . فالخطر الذى بدا مهلكا فى زمن ما قد اتى من الجنوب ، من العثمانيين ، حيث تلقت الاستانة نبأ انتصار روسيا فى بولتافا بخوف وبسورة

من الغضب . واخبر تولستوى ، السفير الروسى فى الاستانة من عدة سنين ، رئيسه مدير العلاقات الخارجية قائلا :

— لا تدهش لانى كنت ابلغك برغبة الباب العالى فى السلام عندما كان الملك السويدى بكامل قواه ، واقول لك الان ، بعد دحر السويديين ، اننى اشك وارتاب . وسبب شكى وارتيابى ان العثمانيين يرون ان جلالة القيصر انتصر على الشعب السويدى القوى وسرعان ما يريد ان يرتب الامور فى بولونيا على هواه ، وبعد ذلك ، حيث لا يوجد امامه اى عائق ، يمكن ان يبدأ الحرب ضدهم ، ضد العثمانيين . هكذا يفكرون ، ولا يصدقون ابدا بان جلالته لن يبدأ حربا ضدهم اذا فرغ من الحروب الاخرى .

لم تكن الاستانة خائفة من تزايد قوة روسيا فقط . فهى تريد استعادة آزوف والهجوم مجددا ، كالسابق (مع عساكر القرم) على المناطق الجنوبية فى روسيا واوكرانيا وبولونيا . صحيح ان السلطان احمد الثالث اكد فى كانون الثانى (يناير) ١٧١٠ على شروط معاهدة الاستانة التى وقعها اوكراينتسيف قبل عشر سنوات . اما بخصوص كارل الثانى عشر الذى وجد نفسه فى الممتلكات العثمانية فقد وافق العثمانيون على عودته الى الوطن من خلال بولونيا بمرافقة فصيلة روسية . وكان ذلك نجاحا ارتاح له بطرس حتى منح تولستوى ترقية فى الخدمة . وقد تصرف السفير كالعادة ، حيث سلم الى الصدر الاعظم ٢٠٠٠ كيس من النقود السويدية من غنائم بولتافا . وحظى تولستوى بمقابلة السلطان الذى اعلن بانه مستعد لتأكيد الصلح .

الا ان الملك السويدى كان هو الاخر بعين ساهرة . فقد استخدم الذهب الذى نهبه الخائن مازيبا الذى مات مجللا

بالعار خارج الوطن . واقترض الملك مبلغا آخر من اصحاب البنوك الانجليز والهولشتينيين ، ثم ان ملك بريطانيا وحاكم هولشتين خصصا له مالا كثيرا . وبذل كارل قصاری جهده لتأليب السلطان على روسيا وراح يقنعه قائلا :

— نلفت انتباه جلالتكم الامبراطورية الى انه اذا تركنا للقيصر وقتا كى يستفيد من المنافع التى حصل عليها من مصيبتنا فسيهجم فجأة على احدى ولاياتكم مثلما هجم على السويد مع حليفه الغادر ، هجم عليها فى عهد السلم دون ان يعلن الحرب اطلاقا . وان القلاع التى بناها على الدون وعلى سواحل بحر آزوف واسطوله تفضح نواياه الواضحة من حيث اضرارها ضد امبراطوريتكم . وفى مثل هذا الوضع تعتبر الوسيلة الانجع لدرء الخطر الذى يتهدد الباب العالى هى التحالف بين امبراطوريتكم والسويد . ساعود الى بولونيا برفقة خيالتكم الفرسان واعزز قواتى المتبقية هناك واغرز السلاح من جديد فى قلب الدولة الموسكوبية لاضع حدا لغطرسة القيصر وتسلطه .

ومارس مختلف الدسائس ضد روسيا فى بلاط السلطان العثمانى مخبرو الملك السويدى — الجنرال ستانيسلاف بونياتوفسكى ممثل ليشينسكى فى بلاط كارل ومارتن نيبيهاور سكرتير الملك ، والمغامر الالمانى المربى الفاشل للامير الكسى بن بطرس الذى طرد من الخدمة فى روسيا بسبب عدم اهليته ووقاحته . والاهم ان فى حوزة الملك فى تلك اللحظة اموالا اكثر مما عند السفير الروسى . وتبدل الصدر الاعظم من جديد . وكان احد الوزراء العثمانيين ، وهو محمد باشا بنطجى ، يكره روسيا على المكشوف . ولم يردوا على رسائل بطرس الى السلطان حيث انطلق القيصر الروسى من مواقف معتدلة جدا لاستمالة العثمانيين الى الصلح . ووصل دولت جيرى

خان القرم الى الاستانة ، وهو يحلم من زمان بشن حملة على روسيا . وعقد السلطان جلسة للديوان الكبير اتخذت قرارا بشن الحرب على روسيا . واعلن عن الحرب رسميا فى ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٧١٠ . ومن جديد ، وكما حدث مرارا قبل ذلك ، اقتادوا السفير الروسى على ظهر فرس عجوز عبر المدينة كلها الى سجن الابراج السبعة فى اطراف العاصمة على ساحل بحر مرمرة . ومن جديد زج بالسفير تولستوى فى السجن ونهب الاهالى داره .

كانت خاتمة الاحداث هذه بقدر كبير ايضا نتيجة لدسائس الدبلوماسيين الاوربيين فى الاستانة . وتنفيذا لتوجيهات حكوماتهم اججوا الخلاف بين الاستانة وروسيا ليجروهما الى النزاع ، والى الحرب فى آخر المطاف . وقال وزير الخارجية البريطانى سان جون : «من مصلحتنا دون شك ان نغذى الحريق فى هذه الارجاء حتى ننهى قضيتنا الكبرى مع فرنسا» . وكان اكثر الجميع تدبيرا للدسائس السفير الفرنسى ديزالير الذى نعتوه بحق بـ«نائب السلطان» .

كانت بداية النزاع مع الاستانة الذى استثاره ملك السويد والدبلوماسيون الاوربيون تعنى بالنسبة لروسيا حربا على جبهتين . ولم يكن مرغوبا فيها طبعا . الا ان بطرس فى عهد النشوة المعروفة بعد الانتصار فى معركة بولتافا كان ينظر الى الامور بمنظار الامل على الاقل ، ان لم نقل بمنظار مشرق وضاء . حقا ، فالجيش الروسى صار بعد معركة بولتافا يعتبر من افضل الجيوش فى العالم . زد على ذلك ان الموقف غدا ملائما حسب الظاهر : فان قسطنطين برينكوفيانو حاكم فالاخيا ودميترى كانتيمير حاكم مولدافيا وقعا اتفاقيتين مع بطرس ووعدا بالتزام جانبه وتخصيص

قوات واغذية مقابل تحرير اراضيهما من النير العثماني والانتقال الى حماية روسيا . كما وعد بتقديم القوات والاغذية ممثلو الصرب والجبل الاسود اللذين كان شعباهما ، شأن سائر الشعوب السلافية (الصقالبة) في البلقان ، ينويان اعلان الانتفاضة على مضطهديهما العثمانيين .

وحاول بطرس عدة مرات اخرى ان يستميل السلطان الى الصلح . وطلب من بريطانيا وهولندة التوسط في توقيع الصلح مع السويد ، واعرب عن استعداده لترك ليفلانديا مع ريغا لصالح بولونيا ودفع تعويضات الى السويد مقابل جزء من فنلندة ، ولا ينتقل الى روسيا سوى اينغريا وكاريلا ونارفا . لكنه لم يوفق في هذا وذاك . فاضطر الى القتال على جبهتين .

وبدأ القيصر نشاطه على طريقته الخاصة بهمة واصرار . فالصعوبات ، كما هي العادة ، تدفعه وتستحثه . وبعث الى ابراكسين ، متصرف مدينة آزوف ، ايعازات باعداد الاسطول للمعارك واعداد الزوارق والقوارب لاجل قوزاق الدون ودعوة القلميق وتتر كوبان لمقاتلة عساكر القرم . وراح القيصر يستعجل شيريميتيف حيث يتعين عليه ان يزحف من البلطيق الى الجنوب ، الى مسرح العمليات الحربية الجديد . فهذا الفيلدمارشال يتميز بالتباطؤ عادة . ولذا استحثه القيصر واستعجله واعربت رسائله اليه عن نفاد صبره .

— استعجل .

— ارسل الافواج فورا الى الاماكن المقررة .

— يجب التحرك من كل بد ، لان المشاه اذا تخلفوا وهجم العدو على الخيالة وحدهم قد يعم خوف عظيم .

وراقب القيصر بكل اهتمام تحرك قواته وتزويدها بالمؤن

والذخيرة وتدريب المجندين الجدد وامدادات الجيش . وفى ٢٥ شباط (فبراير) ١٧١١ تلى فى كاتدرائية اوسبينسكى فى كريملين موسكو بيانه الذى اعلن فيه الحرب على العثمانيين . وفى ٦ آذار (مارس) ارتحل الى الجيش المقاتل . وقبل ذلك بايام ، فى الثانى من اذار اصدر مرسوما بتشكيل السينات (مجلس الشيوخ) — الهيئة العليا للدولة . وعلى حد تعبير مؤسسه بطرس :

... — قررنا تشكيل السينات الحكومى لاجل الادارة فى غيابنا .

تأسست هذه الهيئة مؤقتا ، لكنها استمرت اكثر من قرنين . وترك القيصر توجيهات صارمة بخصوص واجبات الهيئة الجديدة وحدود سلطاتها ، وهى مكونة من ٩ اعضاء وضع القيصر نفسه قائمة باسمائهم :

— فليتمسك كل شخص باوامرهم كما يتمسك باوامرى ، ويعاقب المخالف بعقاب شديد او بالموت حسب ذنبه .

وكلف بطرس مجلس السينات بالرقابة العليا على الدعاوى القضائية وصرف الاموال ومضاعفتها لان «النقود شريان الحرب» على حد تعبيره .

آنذاك في يوم الرحيل ، اعلن بطرس عن زواجه الشرعى من يكاترينا ، وهى مارتا سكافرونسكايا خادمة احد القساوسة سابقا التى نشأت بينه وبينها علاقات طيبة خلافا لزوجته الاولى ورزق منها بابنتيه آنا ويليزافيتا . وقد جرى عقد القران فى الكنيسة قبل ذلك ، فى شباط (فبراير) . وكان مصير زوجته وبنتيه يقلقه ، فهو لا يستبعد النتيجة السيئة غير المتوقعة بالنسبة له شخصيا فى تلك الاحداث المفاجئة (وبالمناسبة فقد انتابته مشاعر مماثلة فى عام ١٧٠٨ عندما امر ، تحوطا لاحتمال مقتله ، بتسليم ٣ آلاف روبل الى «يكاترينا فاسيليفسكايا

وبنتيها») . واعترف بطرس الى مينشيكوف بصدد اسباب عقد القران رسميا :

ـــ انا مضطر للقيام بذلك لان خاتمة هذا الطريق غير معروفة ، فاذا قضيت سيتمكن من العيش ، والحال هذه ، بشكل افضل .

وفي الطريق بلغه نبأ موت ولي العهد الجورجي (الايميريتي) في الاسر السويدي ، فتشكى الى صديقه الحميم مينشيكوف قائلا :

ـــ يؤلمني جدا موت هذا الامير الرائع ، ولكن ما فات لا يعاد ولا نفع في الذكريات . الكل فان الا الله .

ويبدو ان القيصر قلق جدا من الحرب القادمة ضد العثمانيين . وسرعان ما تأكدت مخاوفه . وصلت القوات الروسية الى مولدافيا في ٣٠ حزيران (يونيو) ، وكان القيظ شديدا والجنود عطشى لدرجة جعلت الكثيرين منهم لا يتحملون الالام فجنوا وانتحروا . ولم تصل المساعدة الموعودة ولا المؤونة . واقدم برينكوفيانو على الخيانة وافشى للعثمانيين خطة الحرب . وظل حاكم مولدافيا كانتمير على العهد ، لكن مساعدته لم تكن بالحجم المتوقع . كما ان صقالبة البلقان المضطهدين من قبل الباب العالي لم يتمكنوا من تقديم مساعدة تذكر .

لكن الحملة استمرت ، وعبر الجيش الروسي نهر الدنيستر ووصل الى بروت . وفي الطريق الى الجيش ابدى بطرس اهتماما بامداد حاميات مدن البلطيق بالمجندين الجدد بعد ان اصابها الضعف نتيجة لتوجه قسم كبير من القوات الى الجنوب . وراح يستعجل القطعات المتجهة الى مولدافيا :

ـــ نفذوا كل الواجبات دون ان تضيعوا الوقت ، فاذا

تباطأنا سنفقد كل شيء .

— نؤكد عليكم ان تعملوا بسرعة وتستعجلوا في ايصال فرق المشاة الى المكان المطلوب ، فالحاجة ماسة اليها .

— اسرعوا ، عجلوا .

بطرس مفعم بالآمال ، ويخيل اليه ان النصر على العثمانيين قريب :

— الصرب والبلغار وسائر ابناء الشعوب المسيحية سيهبون بوجه الاتراك وسينضمون الى قواتنا ، والبعض سينتفضون داخل الدولة التركية ، واذا رأى الصدر الاعظم التركي ذلك لن يتجرأ على عبور الدانوب ، وسيفر قسم كبير من قواته ، وربما سيعلنون العصيان .

الا ان الصدر الاعظم والجيش العثماني تجرآ على عبور الدانوب الذي لم يتسع الوقت لشيريميتيف حتى يصل اليه ، بل ووصلا الى بروت . وفي ٩ تموز (يوليو) طوقت العساكر العثمانية بالكامل الجيش الروسي البالغ تعداده ٣٨ الف مقاتل . وكان بقيادة الصدر الاعظم ١٣٥ الف رجل (١٨٠ الفا مع التتر) . وبدأ الانكشارية بشن الهجوم . وقد وصف هجومهم المريع بونياتوفسكي الذي كان مستشارا عسكريا للصدر الاعظم العثماني :

— استمر الانكشارية بالهجوم دون ان ينتظروا الاوامر . كانوا يصيحون باعلى اصواتهم «الله اكبر ، الله اكبر» وهجموا على العدو شاهرين السيوف ، وكان بوسعهم ان يخترقوا الجبهة طبعا في هذا الهجوم القوي الاول لولا المراجيم التي اعترضهم بها العدو . وفي الوقت ذاته تعرضوا لنيران شديدة بتصويب مباشر تقريبا ، فخفت حماسهم وارتبكوا واضطروا الى الانسحاب على عجل . راح معاون الصدر الاعظم وآمر الانكشارية يطعنان الهاربين بسيفيهما لايقافهم واحلال النظام . وراح اكثرهم شجاعة

يتصايحون من جديد ويهاجمون للمرة الثانية ولم يكن الهجوم الثاني شديدا كالأول ، فاضطر العثمانيون الى الانسحاب من جديد .

واستمرت المعركة ثلاث ساعات . وتمكن جيش بطرس الصامد غير الهياب من صد هجمات الاعداء . ودمرت بنادق الجنود وكذلك المدفعية بخاصة صفوف العثمانيين الذين فقدوا سبعة آلاف قتيل . وكانت خسائر الروس اقل بكثير . زد على ذلك ان بطرس كان يستطيع في لحظة انسحاب العدو ان يحقق «نصرا تاما» ، على حد تعبير مؤلفي «تاريخ حرب الشمال» ، لو تمكن من تنظيم الملاحقة كما يجب . الا انه وجنرالاته كانت تساورهم مخاوف ليست دون اساس . فلم يتسن بعد احاطة قوافل العربات الروسية بخندق حماية ، وكان الجنود مرهقين مستنزفين بالعطش والحر والجوع . وبدا الموقف ميئوسا منه ولا مخرج فيه .

ولم تكن حال العثمانيين افضل ، مع ان بطرس والروس لم يكونوا يعرفون بذلك . فان قابليات الروس القتالية صعقت العدو . فعندما امر الصدر الاعظم في اليوم التالي ، العاشر من تموز (يوليو) باستئناف الهجوم رفض الانكشارية كذلك التقدم للقتال . وبهذا الخصوص بعث السفير البريطاني ساتون تقريرا الى رؤسائه جاء فيه :

ــ قال شهود العيان على هذه المعركة ممن يتحلون بالعقل السليم انه لو كان الروس يعلمون بالرعب والحيرة اللذين انتابا العثمانيين ويستطيعون ان يستفيدوا من تفوقهم ويواصلوا القصف المدفعي ويقوموا بهجوم لامكنهم بالطبع ان يدحروا العثمانيين .

حقا ، فالجيش العثماني الذي يعادل اربعة امثال الجيش

الروسى قد شل . لكن بطرس لم يتصور ذلك . ولم يكن يعرف كذلك ان الجنرال رينيه نفذ امره واحتل برايلوف ودخل مؤخرة العثمانيين وصار يهددهم بالتطويق . وقد بعث تقريرا بهذا الخصوص الى القيصر لكنه وقع فى يد الصدر الاعظم . فقد اسر العثمانيون الرسول الروسى .

وفى نفس ذلك اليوم ، العاشر من تموز (يوليو) ، بعث بطرس رسالة الى مجلس السينات :

ـــ السادة اعضاء المجلس . ابلغكم بانى مع قواتى مطوقون بقوة تركية تفوقنا سبع مرات ، ولا ذنب او جريرة لنا سوى الانباء الكاذبة ، حتى ان كل الطرق قطعت امام المؤونة ، وانى ، بدون عون كبير من العلى القدير ، لا ارى امامى سوى الهزيمة او انى اقع اسيرا بايدى الاتراك . واذا حصل هذا الاخير فلا تعتبرونى قيصرا وحاكما لكم ولا تنفذوا شيئا مما اطلبه منكم وان كان صادرا عنى وبأمر منى ، حتى احضر بنفسى وبشخصى امامكم . ولكن اذا قتلت وبلغتكم انباء موثوقة عن وفاتى فاختاروا فيما بينكم اجدر واليق شخص يرثنى .

يمكن ان نفهم الافكار اليائسة التى انتابت القيصر فى تلك الايام والساعات . فقد خيل اليه ان الهزيمة الماحقة والاسر او القتل شىء حتمى لا مفر منه . صحيح ان النص الاصلى لهذه الرسالة-الوصية ضائع . وقد نشرها لاول مرة ياكوف شتيلين باللغة الالمانية فى عام ١٧٨٥ ، واعتبرها الكثيرون مزورة . مع ان آخرين يعتبرونها صحيحة . وعلى اية حال فالموقف فى تلك الايام المنحوسة من تموز (يوليو) ١٧١١ يجعل كتابة مثل هذه الوثيقة من قبل بطرس امرا ممكنا تماما ، بل وضروريا .

وفى نفس ذلك اليوم ، العاشر من تموز ، عقد بطرس

اجتماعا عسكريا اتخذ قرارا بتقديم اقتراح الى العثمانيين للبدء بالمفاوضات ، واذا رفضوا تقرر حرق العربات ومهاجمة العدو . ووصل الى االصدر الاعظم رسول يحمل رسالة مـــــن شيريميتيف :

— تعوفون معاليكم ان الحرب الحالية اندلعت ليس برغبة من جلالة القيصر ونأمل انها ليست برغبة من جلالة السلطان ، بل بنتيجة تحريض من الآخرين . ونقترح وقف هذه الحرب باستئناف الهدوء السابق الذى يمكن ان يعود بالنفع على كلا البلدين . واذا كنتم لا تميلون الى ذلك فنحن مستعدون لغيره ، والله يجازى المذنب فى اراقة الدماء ، ونأمل منه عز وجل ان يأخذ بيد الذين لا يرغبون فى اراقة الدماء . وننتظر جوابكم على ذلك وعدة الرسول باسرع ما يمكن .

ولم يصل جواب . كانوا فى خيمة الصدر الاعظم يناقشون رسالة الفيلدمارشال الروسى ويتجادلون بحمية ولامد طويل . كان خان القرم وبونياتوفسكى ، صنيعة الملك السويدى ، مصرين على مهاجمة معسكر بطرس فى الحال ، بينما كان القيصر وكل الجنرالات والجنود الروس ينتظرون الجواب ، وهم يكادون يتهاوون على الارض لانعدام الطعام والماء (حتى الخيول ظلت بدون علف لان الجراد اباد الاعشاب) . ولم يصل الجواب . فبعثوا رسولا آخر . وبلغ التوتر اقصى حدوده . ووصف السفير الدانمركى ، نقلا عن شاهد عيان ، ما حصل فى المعسكر الروسى :

— بلغ القيصر المطوق من قبل الجيش العثمانى حدا من اليأس والقنوط حتى صار يجوب المعسكر راكضا جيئة وذهابا كالمجنون ، وكان يضرب صدره بيديه وقد عجز عن النطق .

وظنت اغلبية المحيطين به انه مصعوق . وكانت زوجات الضباط الكثيرات ينتحبن ويولولن بلا انقطاع .

اما من جهة العثمانيين فلا خبر جاء ولا وحي نزل . واوعز بطرس الى الافواج بان تتقدم للقتال . وتحركت الافواج . لكن مبعوثا عثمانيا وصل في تلك الاثناء ونزولا عند طلبه بوقف الهجوم ، لان اقتراح الصلح مقبول ، توقف تحرك الجيش .

وبدأت المفاوضات ، فانساق بطرس وراء التطرف من الجهة الثانية : فلئن كان في السابق قد استصغر قوى العدو وبالغ في تقدير قواه ، فهو الآن على العكس يبالغ في قوة العثمانيين ويستعد للقبول باقصى التنازلات لانتزاع الصلح مهما كلف الثمن .

كان الصدر الاعظم ، وهو غير خبير في الشؤون الحربية ، يميل الى الصلح لاسباب عديدة . فالعثمانيون ارتعبوا بالدرجة الاولى من الجنود الروس ، فان جيش بطرس النظامي بدا افضل بما لا يقاس من الجموع الغفيرة التي تمثل الجيش العثماني . ولم تكن ترابط عند بروت كل القوات الروسية ، وهذا امر يعرفه العدو جيدا . فقد تركت عمليات رينيه قرب برايلوف اثرا عميقا في نفسه . ثم انه لم يكن يعتبر هجماته المتعثرة عند بروت نصرا مبينا . والاكثر من ذلك ان العثمانيين كانوا يخشون من مكيدة حربية يعدها لهم الروس . فلم يصدقوا بانهم جادين في الصلح الذي حصل الصدر الاعظم ، بالمناسبة ، على موافقة السلطان على عقده . الصدر الاعظم والسلطان يعرفان باستعدادات النمسا التي تريد الاستفادة من الفرصة السانحة لتقوم بعملية للاستيلاء على منطقة ما في البلقان . ثم ان الاتراك يخشون الشعوب التي استعبدوها في هذه البقعة من الارض .

وتوجه معاون المستشار شافيروف الى المعسكر العثمانى . اقتادوه الى خيمة الصدر الاعظم فأشار عليه هذه الاخير بالجلوس . وكانت تلك دالة حسنة (والا لتصرف بكبرياء وأنفة كالعادة) . وبدأت مفاوضات الصلح . كان شافيروف قد وصل مستندا الى توجيهات القيصر بشأن توقيع الصلح مهما كلف الثمن ، حتى بتسليم كل ما كسبته روسيا فى الجنوب (آزوف وغيره) وفى الشمال ، ما عدا اينغريا وبطرسبورغ . حتى بسكوف والاراضى الشمالية الاخرى كان الجانب الروسى مستعدا لتسليمها . زد على ذلك ان بطرس وافق ، فى الحالة القصوى ، على التضحية بكل شيء فى الشمال ايضا حتى يمكن التخلص من الأسر الشائن والعبودية المهينة .

لكن الامر لم يبلغ حد الشروط القصوى . فالصدر الاعظم والسلطان ، كما اتضح ، لا يميلان الى التطول على مصالح السويد . ثم انهما ابديا اعتدالا بخصوص مطالبهما انطلاقا من الوضع القائم (فقد اخذا قدرة روسيا بعين الاعتبار اكثر من تقدير بطرس نفسه لها) . وبالاضافة الى ذلك لعبت دورا معينا ، كما يقال ، مجوهرات الامبراطورة يكاترينا التى رافقت زوجها كالعادة فى حملته هذه . فيقال ان تلك المجوهرات اهديت الى الصدر الاعظم . كان شافيروف البدين الرابط الجأش يساوم بفطنة وحذر دون ان يكشف عن ورقته الرابحة . ففى جيبه توجيه من بطرس :

ــ اذا تطرقوا الى الصلح بجد قامر بكل ما يريدونه ما عدا العبودية .

لكن الصدر الاعظم لا يعرف بما فى جيب شافيروف . واستمرت المفاوضات ، بينما جرت الاستعدادات فى المعسكر الروسى بشكل محموم لفك الحصار . وجمع بطرس المقربين اليه

والجنرالات في اجتماع عسكرى للمشاورة . ولا احد يفكر في الاستسلام . وفي ١٠ تموز (يوليو) اتخذوا القرار التالى :

— حرق واتلاف العربات وتشكيل استحكام من بعضها يستقر فيه فصيل من الفولوخ (الرومانيين) والقوزاق وتعزيزه بعدة آلاف من المشاة ، ومهاجمة العدو بالجيش النظامى .

وفي ١١ تموز قرر الاجتماع ما يلى :

— تؤخذ خيول المدفعية الجيدة ، اما باقى الخيول فتنحر ويطبخ لحمها او يشوى .

— بسبب شحة الرصاص ، يقطع الحديد ويصنع منه الخردق .

ونصت الخطة التفصيلية لفك الحصار على كل التفاصيل حتى اصغرها . فيجب التخلص من كل ما يمكن ان يعيق الهجوم على العدو وتوزيع المؤونة على الجميع بالتساوى . فالروس وعلى رأسهم القيصر—القائد لا ينوون الاستسلام ، بل يريدون مقارعة العدو ويفضلون الموت على الاسر العثمانى .

وفي تلك الاثناء كانت الامور في المعسكر العثمانى تسير صوب السلام . فالعثمانيون لا يريدون ان يجربوا حظهم اكثر . كانت المفاوضات سائرة بسرعة ونجاح . واجاب أحد الباشوات بحكمة ودون تردد عندما سألوه عن سبب هذا الاستعجال فقال : الروس «خصوم فظيعون» و«صلابتهم» تجعل الافضل ان يغادروا هذه الاماكن ، والا فالمعركة الجديدة ستكلف العثمانيين غاليا — «ستكلفهم خسائر كبيرة بالارواح» . وطالب الانكشارية الذين جربوا هذه الصلابة في ٩ تموز (يوليو) بان يوقع الصدر الاعظم الصلح باسرع ما يمكن «فهم لا يريدون الهجوم ولن يصمدوا امام النيران الموسكوبية» .

وفي ١٢ تموز (يوليو) وقع معاهدة الصلح عن الجانب

الروسى شافيروف وم . شيريميتيف (ابن الفيلدمارشال شيريميتيف ، وهو جنرال) ، وعن الجانب العثمانى الصدر الاعظم محمد باشا بلطجى . ونصت شروط المعاهدة على ان تستعيد الاستانة آزوف ، وبالاضافة الى ذلك وعدت روسيا بتفكيك قلعة تاغانروغ على بحر آزوف وحصن كامنى زاتون على الدنيبر ، ولا تحتفظ بقوات لها فى بولونيا ولا تتدخل فى شؤونها ولا تكون لهـــا ممثلية دبلوماسية دائمة فى الاستانة ، «وتسحب يدها» من القوزاق واهالى زابوروجيه ، اى لا تدعمهم ولا تتصل بهم (وفهم بطرس ودبلوماسيوه ذلك على النحو التالى : عدم مطاردة القوزاق انصار مازيبا واهالى زابوروجيه الذين كان قسم منهم يقيم فى الممتلكات العثمانية) . ووافق الطرفان على الا تعيق روسيا كارل الثانى عشر عن العودة الى السويد وان توقع الصلح معه ان امكن . وقدم شافيروف وشيريميتيف بشخصيهما ضمانات الالتزام بشروط معاهدة بروت ، وبهذه الصورة (كانا رهينتين فى الواقع) توجها الى الاستانة .

لم تكن شروط الصلح مرهقة او مهينة بالنسبة لروسيا وبطرس ، مع انهما ضيعا ما كسباه فى حينه باغلى الاثمان . لكنهما حافظا على الجيش والمدفعية (فلم تسلم الى العثمانييـــن الا المدافع الموجودة فى كامنى زاتون) ، كما حافظا على المكاسب فى البلطيق (فلم يتناولها احد اثناء المفاوضات) . وظلت معلقة مطالب دولت جيرى بشأن استئناف دفع الجزية الى القرم من جانب موسكو .

كان الطرفان راضيين على توقيع الصلح . ولم يرض عنه كارل الثانى عشر الذى كان يأمل فى الانتقام من روسيا بمساعدة الاستانة . ففى مساء ١٢ تموز (يوليو) جاءه رسول من بونياتوفسكى

الى بينديرى التى اتخذها مقرا له بعد فراره من ساحة المعركة فى بولتافا . وابلغوا الملك بوجود شافيروف فى خيمة الصدر الاعظم . فامتطى كارل ظهر حصانه مهتاجا منفعلا . وبعد ١٧ ساعة من عدو متواصل وصل الى الصدر الاعظم . وعندما بلغ المعسكر العثمانى رأى من هناك الطوابير الروسية على اهبة الاستعداد وهى تغادر معسكرها مع المدفعية وسط قرع الطبول .

اشتاط الملك غضبا واكتأب اشد الاكتئاب ودخل على الصدر الاعظم صائحا :

— لماذا وقعت الصلح مع القيصر بدونى ؟ لماذا تركت الروس ينصرفون ؟

— بايعاز من أمير المؤمنين .

وطلب الملك ان يخصصوا له ٢٠ — ٣٠ الفا من خيرة القوات وعند ذاك يقتاد القيصر الروسى اسيرا . ورد محمد باشا على الملك المتهور وذكره بتجربته اليائسة فى محاربة الروس :

— لقد جربتهم انت ، ونحن ايضا رأيناهم . هاجمهم اذا كنت تريد ، اما انا فلن اخرق الصلح معهم .

وانتهت بالفشل الذريع كذلك محاولة الملك السويدى للتأثير على خان القرم . كان ذاك بوده لو هجم على الروس ، لكن موقف الصدر الاعظم الواقعى منعه من العمليات الاعتباطية . وفيما بعد قال محمد باشا نفسه وهو يكلم شافيروف عن سلوك الملك :

— قال باشد سورات الزعل والتهديد بالا اوقع الصلح مع جلالة القيصر حتى يتم التصالح معه ، هو الملك ، وتعاد اليه كل المدن التى اخذت منه (فى البلطيق — **ملاحظة المؤلف**) .

وقال الصدر الاعظم انه رد على الملك بالشكل التالى :

— شؤونك لا تعنينى ، وقد اقدمت على الصلح بايعاز من

سلطانى . ويجب علىّ ان ارافقك بالسلامة كضيف واقنع ذاك بان يترك لك طريق السفر مفتوحا .

ـــ سأشكوك الى السلطان .

وقدم شكواه فعلا الى الاستانة عن طريق مخبريه فيها ، واساء كثيرا الى الصدر الاعظم الذى غدا من ألد الاعداء بالنسبة له . واذاع كارل وبونياتوفسكى اشاعات تقول ان الصدر الاعظم استلم رشوى كبيرة من الروس . لكن الواقع غير ذلك . فبعد خروج الروس من الحصار جىء الى الصدر الاعظم ومستشاريه ببراميل فيها نقود فضية ـــ ٣٠٠ الف روبل كان قد وعد بها شافيروف . الا ان محمد باشا اعادها الى الروس خشية ان ينقل دولت جيرى او بونياتوفسكى خبرها الى السلطان .

كان الرضا من معاهدة بروت باديا ليس فقط على بطرس والساسة الروس الآخرين . فقد ابتهجت الاستانة لانها تمكنت بقليل من الضحايا من استعادة مدينة آزوف والاماكن الاخرى فى اسفل الدون والدنيبر وعزلت روسيا عن بحر آزوف والبحر الاسود . واستمرت الافراح بهذه المناسبة ستة ايام فى الاستانة ، وصار السلطان احمد الثالث يلقب بالغازى . اما بطرس فقد استعرض حصيلة الحملة المؤسفة ، ومع ذلك كتب فرحا فى رسالة الى مجلس السينات :

ـــ هذه القضية ، رغم الحزن على ضياع الاماكن التى كلفتنا كثيرا من العمل والخسائر ، آمل ان تكون للناحية الاخرى تعزيزا عظيما وهى بالنسبة لنا مكسب يفوق التقدير .

ويقصد بطرس «بالناحية الاخرى» الامور فى البلطيق ، وهى تسير فعلا على ما يرام . الا ان الشعور بالمرارة الشديدة لم يزاله بعد ذلك امدا طويلا . وعندما وصل الى وارشو هنأوه بحسن

العاقبة والخلاص فى بروت ، فاجاب معترفا بصراحة ، (ويجب ان نقدر فيه تشدده ازاء نفسه) :

— من حسن حظى اننى تلقيت خمسين ضربة بالعصا فقط ، وكان يجب ان اتلقى مائة ضربة .

لقد اخذ بطرس درسا عمليا لا ينسى فى معركة بروت . فان نسيان الحذر والحيطة والحساب الدقيق كاد يودى به وبالبلد الى الكارثة . ولم تأت آلام بطرس الشديدة بسبب اخفاقه عبثا ، فقد سهر الليالى وهو يفكر فى الحملة الفاشلة ويتذكر وصاياه الشخصية ، الحكيمة جدا ، لجنرالاته :

— النصر الدائم اهلك الكثير من الرجال .

— الركض وراء المعركة الشاملة خطر جدا ، لان الامور يمكن ان تنقلب فى ليلة وضحاها .

وأسف بطرس لانه وزع قواته أثناء الحملة ، حين ارسل الجنرال رينيه لاداء مهمة جزئية (وقد اداها ذلك على احسن ما يرام) . وتشكى بطرس فى حديث مع السفير الدانمركى :

— لو لم ارسل رينيه مع ٩٠٠٠ فارس فى حملة الى مونتكانى او مولدافيا لما دخلت فى مفاوضات مع العدو مطلقا . ولكننى كنت مع حوالى ٣٠٠٠٠ رجل بدون خيالة تقريبا ولذا لم اقدم على الدخول فى معركة ضد الاتراك وكان عددهم ١٠٠٠٠٠ واغلبهم خيالة .

ذلك صحيح ، ويسهل الجدل بعد فوات الاوان . والقيصر يفهم هذه الحقيقة تماما . فالوضع اثناء الحصار فى بروت كان اكثر تعقيدا . وعندما مرت الامور بسلام تنفس الصعداء . وليس من قبيل الصدفة ان تطلق بامر منه فى المعسكر الروسى فى اعقاب الانسحاب من بروت ، بعد عبور الدنيستر ، مدافع

التحية وتقام صلاة الشكر . وليس من قبيل الصدفة ان ذكريات تلك الحملة بعد سنين عديدة تثير فيه مشاعر الالم . فقد كان القيصر عادلا ومتشددا ازاء نفسه فضلا عن الآخرين .

لم تفت محنة بروت في عضد بطرس ، وكعادته دوما ، لم يستسلم لليأس والقنوط ، بل انشغل في الاعمال ، وهي متجددة بلا نهاية ولا حدود ، وعاجلة لا تقبل التأجيل . فهو ، كما كتب الى عقيلته في آب (اغسطس) ١٧١٢ ، يمسك السيف والقلم في وقت معا ، يشرف على تعزيز الجيش وبناء الاسطول وعلى العمليات الحربية وعلى وضع القوانين الجديدة فيما يخص الحياة المدنية . وكالسابق نجد ايامه مليئة بالاشغال والاعمال الكثيرة . ومنها الاستمرار في التحويلات الادارية : تدقيق وظائف السينات واستحداث الالوية (المتصرفيات) وتشييد المانوفاتورات وطباعة الكتب وتبسيط الابجدية واعمار «الفردوس» وبناء السفن وتدريب البحارة والخ .

اصدر كاتب مجهول كان يراقب بطرس في عاصمته الشمالية كراسا صغيرا في لايبزيج (١٧١٣) بعنوان «وصف سان بطرسبورغ وكرونشتادت في ١٧١٠ و١٧١١» ، ولم يخف المؤلف دهشته واعجابه ببطرس :

— يقضي نهاره في عمل لا يكل متحاشيا البطر تماما . يستيقظ جلالته في ساعة مبكرة جدا من الصباح ، وقد صادفته اكثر من مرة في الصباح الباكر يسير على الكورنيش متوجها الى الامير مينشيكوف او الى الاميرالات او الى مديرية الملاحة او الى معمل الحبال . ويتناول طعام الغداء قبيل الظهر حيثما اتفق ، عند هذا او ذاك ، لكنه يفضل الغداء عند الوزراء والجنرالات والسفراء . . . بعد الغداء يأخذ قسطا من الراحة

زهاء ساعة ، حسب العادة الروسية ، ويباشر العمل من جديد ، ولا يرقد الا فى ساعة متأخرة من الليل . ولا يعبأ بلعب الورق والصيد وغيرهما ، والتسلية الوحيدة المحببة اليه والتى تميزه عن جميع الملوك هى الملاحة ويبدو ان الماء مرتعه الحقيقى ، ولا يندر ان يقضى النهار كله فى قارب شراعى او زورق . . . وبلغ به هذا الولع حدا جعله يتجول فى النهر مهما كان الطقس مطيرا او ثلجيا او شديد الريح . ذات مرة ، عندما تجمد نهر نيفا ولم تبق الا بقعة لا يتجاوز محيطها مائة خطوة امام القصر راح يمخرها فى قويرب جيئة وذهابا .

وحتى فى الشتاء استمر بطرس فى مناوراته على القوارب بعد ان ركبها على الزلاقات والزحافات ، وكان يقول :

— نعوم على الجليد كيلا ننسى تمارين الملاحة البحرية فى الشتاء .

لكن هناك وقتا للتمارين (وهى بالمناسبة نافعة ايضا) ووقتا للاعمال الجارية التى تتطلب حلولا وقرارات وتوجيها . وكان بطرس مشغول البال بالامور المتعلقة بالباب العالى وبولونيا والحلف الكبير وحلفاء روسيا . ففى بلاط السلطان العثمانى استمرت دسائس كارل ومخبريه وديزالير الذين حاولوا اقناع السلطان بان القبض على القيصر وجيشه اسيرين فى بروت كان امرا سهلا . وقد مل الجميع من كارل ، حتى ان الصدر الاعظم رد على استجوابات شافيروف قائلا بخصوص كارل :

— اريد له ان يروح فى داهية ، لانى ارى الآن انه ملك بالاسم فقط ، وليس لديه ذرة من عقل ، فهو كالدابة . سابذل جهدى كى يرسلوه الى مكان ما .

الا ان العلاقات بلغت حد الخلاف الشديد ، فالعثمانيون

طلبوا اعادة آزوف وفقا لمعاهدة بروت وتفكيك استحكامات تاغانروغ وكامنى زاتون . اما بطرس الذى التزم بالحذر والحيطة من جديد بعد ان فقدهما فى مولدافيا فقد طالب بطرد كارل . وفى آب (اغسطس) ١٧١١ ، فى اعقاب معركة بروت أوعز الى ابراكسين :

ــ لا تسلموا آزوف ولا تدمروا تاغانروغ حتى اكتب لكم ، فالاتراك يريدون ان يثير الملك السويدى القلاقل فى بولونيا ويبقى فى حرب معنا حتى يكونوا هم فى اطمئنان وامان . اما نحن فنفكر على النحو التالى : لن نسحب قواتنا من بولونيا وفق المعاهدة ما لم يصل الملك السويدى الى دياره بالفعل .

وهكذا نرى بطرس مهتما كل الاهتمام بمصالح روسيا ، لان احدا لا يستطيع ان يتكهن بتصرفات كارل الذى يمكن ان يؤيده الكثيرون فى اوربا ، وتلك التصرفات قد تكلف روسيا غاليا . واسفرت الخلافات مع الاستانة عن تدهور العلاقات من جديد . ففى ٩ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧١١ فسخ العثمانيون معاهدة بروت واعلنوا الحرب على روسيا . وطرحوا مطالب جديدة اكثر قسوة ، فلم يكتفوا باستعادة آزوف والقلاع التى تم تفكيكها ، بل اكدوا على عدم الادعاءات فيما يخص الملك السويدى ، والاهم انهم طالبوا بتسليم اوكرانيا الى الامبراطورية العثمانية . ولوحظت فى ذلك كله دسائس واموال ديزالير ورئيسه «الملك الشمس» لويس الرابع عشر . ومع ذلك كان السلطان وحاشيته يفهمون بان بلادهم عاجزة عن محاربة روسيا . وقد اطلعوا شافيروف صراحة على ذلك وحاولوا اقناعه بان يقدم على تنازل ما مهما كان ضئيلا «على هذه الضفة او تلك من الدنيبر حتى يفرح السلطان» . وانتهت المفاوضات الطويلة (فى ٥ نيسان ــ

ابريل ١٧١٢) بتوقيع معاهدة صلح جديدة . وساعد فى توقيعها سفيران هما الانجليزى ساتون والهولندى كولير . وقد فعلا ذلك لمقاومة دسائس «نائب السلطان» ديزالير وساعدا شافيروف باخلاص ، وقد اشاد هذا الاخير بمساعدتهما فى تقاريره الى بطرس :

— لولا السفيران الانجليزى والهولندى لما استطعنا ان نكتب شيئا الى اى شخص والى جلالتكم ، لانهم لم يسمحوا بمجىء احد الينا ولا بخروج احد من عندنا ، وكان من المحتمل ان تبدأ الحرب ويزجوا بنا فى اقسى سجن باقسى عقاب . السفير الانجليزى رجل ذكى ماهر ، وقد بذل جهده ليل نهار ، بالرسائل والمكالمات لاقناع العثمانيين بحفظ السلام ، وقد كلمهم بحدة فزعلوا عليه وصاحوا به . وما كان عبد جلالتكم المطيع يقادر على ان يفعل اكثر مما فعل . فبعد انتهاء القضية كتبت بيدى مسودة المعاهدة باللغة الايطالية وبذلت جهدى لتأتى صياغتها غير متعارضة مع مصالح جلالتكم . وتردد السفير الهولندى على الصدر الاعظم سرا عدة مرات ، وحاول اقناعه على انفراد وجعله يميل الى ما فيه خيرنا ، لانه نفسه يتكلم التركية . ومع اننا سلمناه المكافأة التى وعدناهما بها ، فمن الضرورى ارسال فرسان يجلبون ماسا ثمينا وكذلك فراء السمور الجيدة .

السفيران اللذان حاولا فى الباب العالى اضعاف مواقع فرنسا — خصم بريطانيا وهولندة لم يظلا طبعا بدون «مكافأة» . فقد ارتاح بطرس كثيرا عندما ورده نبأ معاهدة الصلح الجديدة مع انها تضمنت مطالب اقسى بخصوص سحب القوات الروسية من بولونيا فى غضون ثلاثة شهور ، ولا يجوز ان تدخل تلك القوات بولونيا من جديد الا اذا قام كارل الثانى عشر بأعمال

عدائية . وفى ٢٠ ايار (مايو) بعثوا اشعارا من بطرس بابرام المعاهدة الى الصدر الاعظم يوسف باشا الذى حل محل محمد باشا بعد ان نحى من منصبه واودع السجن . وبمناسبة توقيع الصلح اطلق العثمانيون اخيرا السفير الروسى تولستوى من غياهب سجن الابراج السبعة الرهيب . وقد امضى فى السجن ١٧ شهرا كان فى سبعة منها مريضا جدا ، ولم يسمح الاتراك حتى بعيادة الطبيب له ، وكان السفير المريض يشترى الادوية «سرا . . . حيث تصله بصورة غير مباشرة من يد ليد» . وقد تشكى فى رسالة الى غولوفكين قائلا :

— انفقت آخر ما املك . . . زد على ذلك انهم يهددوننى كل يوم بالآلام والتعذيب .

وفى بداية حزيران (يونيو) ١٧١٢ غادرت القوات الروسية بولونيا بايعاز من بطرس . وظلت قلعة ايلبينغ فقط فى يد روسيا لتأمين المواصلات مع القوات الروسية المرابطة فى بوميرانيا . وكانت تراود السلطان احلام مستحيلة فى ان تغدو بولونيا فى آخر المطاف ، كما وعد الملك السويدى فى حينه ، ولاية للامبراطورية العثمانية تقدم لها سنويا جزية ضخمة . لكن السلطان الغازى ، ظل الله على الارض ، تأكد مرارا وتكرارا من عدم جدوى الضيف الكبير وسخفه ومخططاته الخيالية ووعوده الفارغة . وبسبب خيبة امل السلطان فى الملك السويدى امر بتقليص المبالغ المخصصة للانفاق عليه . فغرق هذا الاخير فى مزيد من الديون . ووقع اتفاقية مع فرنسا : فالطرفان الساميان المتعاقدان يخططان للعمليات الحربية بين الامبراطورية العثمانية وروسيا ويتقاسمان الاراضى البولونية والروسية . وقد بلغ نبأ هذه الخطوات الدبلوماسية بهو السلطان العثمانى ، وعلم بها

شافيروف ايضا . وراح يوسف باشا يهدئ من روع الدبلوماسي الروسي :

ـــ لا تخش ان يقوم الملك السويدي الآن بشيء ما هنا ، رغم كل جهوده ومداخلاته ، فهو بسبب ضجره ، كشخص اجلس على خازوق ، تارة يقدم على هذه الفعلة وتارة على تلك .

وكيلا يثير بطرس قلق الاستانة اوعز بسحب كل الوحدات التي كانت لا تزال ترابط في بولونيا ، بما فيها الوحدات الموجودة في ايلبينغ . ولكن الحرب على روسيا اعلنت من جديد في ٣١ تشرين الاول (اكتوبر) ١٧١٢ ، واعتقل الدبلوماسيون الروس . وطالب الصدر الاعظم الجديد سليمان باشا ثانية ، بايحاء من ديزالير نفسه ، بان تتخلى روسيا عن اوكرانيا وكذلك عن كل مكاسبها في البلطيق وبان يعاد ستانيسلاف ليشينسكي الى العرش البولوني .

ولم يذعن بطرس لهذا التهديد السافر ، فامر جيش شيريميتيف المرابط في ضواحي كييف بان يكون على اهبة الاستعداد ويجهز ذخيرة ومؤونة لسبعة اشهر (وليس لاسبوع واحد كما كان الحال اثناء حملة بروت) . وظلت مطالب السلطان دون جواب ، فصب جام غضبه على كارل الثاني عشر ومستشاريه بونياتوفسكي وديزالير وسواهما ، فهم الذين زعموا بان روسيا سترتعب وتتراجع دون حرب . ثم ان السفير خومينتوفسكي وصل من بولونيا الى الاستانة وحاول استمالة السلطان الى التصالح مع روسيا . فان اغسطس الثاني وبولونيا لا يريدان ان تتحول الاراضي البولونية والسكسونية الى مسرح للمعارك والتدمير . وبعد اثارة الصخب والتهديد (صدور مراسيم التجنيد ووصول السلطان الى ادرنة حيث تتحشد القوات عادة قبيل الغزوات) هدأ العثمانيون

بسرعة ، فكتب شافيروف الى بطرس فى مطلع عام ١٧١٣ يهدئ من روعه :

ـــ العثمانيون مغتمون ويشعرون بالخجل لانهم اعلنوا الحرب ويعربون فى الاحاديث عن دهشتهم لعدم ارسال جلالتكم احدا اليهم لاستئناف مفاوضات السلام .

ولم يكن بطرس يفكر فى ارسال مندوبين جددا ، ففى الاستانة يوجد شافيروف وتولستوى وشيريميتيف الابن (وان كانوا فى السجن) . والعثمانيون متحيرون لا يعرفون كيف يتخلصون من ملك السويد الذى يثقل على الجميع وقد غدا قذى فى العين . وحتى خان القرم دولت جيرى نصيره المتحمس له حتى الفترة الاخيرة صار يكرهه اشد الكره . وبأمر من السلطان قرروا طرد كارل بالقوة . وفى مطلع عام ١٧١٣ شهدت بنديرى «القلابالغ» الشهير حيث حوصرت القلعة واقتحمتها القوات العثمانية فى معركة حقيقية شارك فيها عدد كبير (١٢ الف شخص !) وقادها الخان والباشا ، ووصف شافيروف ببلاغة احداث «القلابالغ» ـــ المفاوضات بين العثمانيين والملك الذى طالبوا برحيله من بلادهم ، وتعنت الضيف الكبير ومقاومته مع مائة جندى وبضعة مدافع ضد جيش كامل . ولما كان السلطان قد اوعز بعدم اصابة الملك شخصيا باضرار فان هذا «الجندى الباسل والاول فى العالم» ، على حد تعبير شافيروف ، قد قاتل حتى اللحظة الاخيرة ، وفقد العثمانيون خسائر كبيرة بالارواح (حوالى ٦٠٠ قتيل) بالاضافة الى الجرحى ، ومع ذلك وقع الملك اسيرا فى ايدى الانكشارية ، وقد فقد اربعة اصابع وشحمة الاذن وارنبة الانف وانكسرت ساقه . وسرعان ما غادر خفية البلد الذى آواه واستضافه لكنه جازاه بنكران المعروف بدل الامتنان . وعاد من خلال المجر

والنمسا والمانيا الى بلده المدمر البائس المنكود . فقد تضررت السويد من الملك اكثر من اى كان . غاب عن بلده خمسة عشر عاما وعاد اليه برفقة شخص واحد . اما الجيش المكون من ٦٠ الفا فقد ظل جثثا فى سوح القتال فى روسيا والبلدان الاخرى .

وفى تلك الاثناء اجرى شافيروف والدبلوماسيون الروس الآخرون الذين اطلق سراحهم المفاوضات من جديد ودافعوا عن مصالح روسيا ورفضوا مطالب الجانب العثمانى الجديدة (دفع الجزية للقرم وتسليم اراض جديدة لاقامة انصار مازيبا فيها) . وفى ١٣ حزيران (يونيو) ١٧١٣ وقعت اخيرا معاهدة جديدة كررت شروط المعاهدتين السابقتين مع بعض التنازلات الجديدة وامكن الحفاظ على السلام والاستقرار فى الجنوب ، واتجه بطرس بانظاره الى الشمال من جديد .

ودعت الحاجة هنا باستمرار الى تسوية النزاعات بين تكتلات الاقطاعيين المتنافسة ودرء سوء تصرف الجنود والضباط الروس وخصوصا القوزاق الذين يتشكى الاهالى منهم . واستمر اذى دسائس وخيانات اغسطس الثانى . وكانت القوات الروسية المرابطة فى بولونيا تدافع عنها فى الواقع دون دسائس جيرانها الشرسين ، فى حين يطالب ساستها بسحب القوات الروسية تارة وباستعادة كييف وسائر الاراضى الروسية تارة اخرى ، وبتسليم ليفلانديا مع ريغا تارة ثالثة . اما بطرس فقد ابدى حكمة وصبرا واوضح لهم ان وجود القوات الروسية يحمى بولونيا من السويديين والعثمانيين ، وان ليفلانديا اذا سلمت الى بولونيا تقع حالا فى ايدى السويديين . علما بانه لا يذكرهم بان اراضى الدولة الروسية الكييفية السابقة ــ مناطق اوكرانيا الواقعة على الضفة

اليمنى من الدنيبر وبيلوروسيا ـ لا تزال ترزح تحت الاحتلال البولونى وان اهاليها الارثوذكس يعانون الامرين من جانب الكاثوليك .

واتخذ بطرس اجراءات فيها كثير من القسوة لتعزيز الانضباط فى القوات الروسية المرابطة فى بولونيا . وتضاءلت شكاوى البولونيين . زد على ذلك انهم صاروا من زمان قلقين اكثر بسبب وقاحة جنود اغسطس الثانى السكسونيين . فهم ، شأن جميع المقاتلين المنحوسين الاوربيين الغربيين يتصرفون بمنتهى الخشونة والفظاظة ويعاملون بقسوة وصلف اهالى الاماكن التى يرابطون فيها ، وينهبون السكان المحليين بلا حياء ويسلطون عليهم مختلف انواع العنف . وابلغ الجنرال الروسى دولغوروكى من بولونيا بطرس الاول فى عام ١٧١٤ قائلا :

ـ فى بولونيا ، يا صاحب الجلالة ، اضطراب كبير . ويقال ان عدد السكسونيين المرابطين فى بولونيا وليتوانيا حوالى ٣٠٠٠٠ رجل ، وهم يعاملون البولونيين بمنتهى الكبرياء وهذا لا يعجب البولونيين لانفتهم واعتزازهم بالنفس . . . البولونيون غاضبون جدا ، واعتقد ، على قدر معرفتى بهم ، ان الفتنة ستنشب بينهم . ونرى الآن ان المعيشة البولونية لا تطاق ولن يتحملوها ، فقد غدوا بؤساء لحد لا يصدق .

بالفعل ، بدأت فى البلاد فتنة حقيقية . فقد طالب البولونيون بان يغادر السكسونيون البلد وطلبوا من الروس مساعدة فى تخليصهم من اللصوص . الا ان اغسطس لم ينصت الى توصية المقيم الروسى داشكوف ورفض سحب جنوده الى سكسونيا . زد على ذلك انه طلب ان يسمح له القيصر بنقلهم الى ليفلانديا التى يحتلها الروس . كان الملك وفيلدمارشاله

فليمينغ يشجعان فى الواقع رجالهما السكسونيين على ابتزاز البولونيين بالتنكيل والغرامات ولذا يقارنهم البولونيون مع الروس فيفضلون هؤلاء الاخيرين بالطبع . وابلغ السفير الروسى الجديد دولغوروكى القيصر بطرس بما يلى :

— لم تكن قواتكم تحظى فى بولونيا بثقة كالتى تحظى بها الآن ، فلم اسمع من احد شكوى ، كل ما اسمعه هو الامتنان لان الجنود يقتاتون فى الطريق دون اى ازعاج للاهالى .

وفى كافة ارجاء بولونيا وليتوانيا اندلعت انتفاضات ضد السكسونيين . وتعرضت فصائلهم لهجمات متكررة . وطلب البولونيون من بطرس ان يتوسط بينهم وبين اغسطس . فى البداية مانع الملك ، لكنه سرعان ما وافق . فقد فهم انه يمكن ان يحرم من العرش البولونى . وفى آذار (مارس) ١٧١٦ عقد بطرس فى غدانسك اجتماعا لوزرائه والوزراء السكسونيين ، وحضر الاجتماع اغسطس وممثلو «التكتلات» البولونية . وسلموا الى الملك «مذكرة الاجحاف» ، وهى قائمة بكل التجاوزات والتصرفات الخيانية والاهانات . ولم يخف بطرس غضبته . فبالاضافة الى التجاوزات فى بولونيا اتضح ان اغسطس ينوى الاستفادة من توسط فرنسا لتوقيع صلح انفرادى مع السويد . فالملك المرائى ظل كما كان عليه . والاكثر من ذلك انه وعد بموجب معاهدة مع فرنسا (١٧١٤) بان يعيد الى كارل الثانى عشر كل الاراضى التى احتلتها روسيا . صحيح ان كارل الذى بعث اليه اغسطس مندوبين للمفاوضات منذ ان كان فى بنديرى (مولدافيا) لم يقبل اقتراحاته مع ان اغسطس كان مستعدا لخيانة جديدة . وقد حاول ان يؤثر على السلطان العثمانى ليدفع الباب العالى الى محاربة روسيا التى يريد حاكمها ، على حد

مزاعم اغسطس الدنيئة ، ان يستولى على الاستانة . واخيرا طرح فكرة التحالف الهجومى بين بولونيا والامبراطورية العثمانية والسويد ضد روسيا .

كان انصار كتلة ساندومير البولونيون المناهضون لاغسطس بشدة مستعدين للتخلص منه ، وقد رشحوا آخرين لاعتلاء عرش بولونيا . الا ان القيصر الحذر البعيد النظر لم يلتفت كالسابق الى تصرفات الملك العدائية . وذلك حفاظا على الحلف الشمالى من الانهيار ورغبة فى انهاء الحرب مع السويد وعدم تأزيم الموقف فى اوربا على صعيد السياسة الخارجية ، ولذا اصر على ابقاء الوضع فى بولونيا كما هو (اى بقاء اغسطس ملكا لبولونيا) وتوقيع اتفاقية بين البولونيين وملكهم الالمانى . وبفضل جهود دولغوروكى وقعت الاتفاقية فى ١٧١٦ . ونصت الاتفاقية على عودة السكسونيين الى وطنهم وتقليل الجيش البولونى الى ١٨ الف جندى والجيش اللتوانى الى ٦ آلاف . وبالنتيجة ازداد تأثير بطرس على الشؤون البولونية . وامكن شل تدخل الدول الاوربية الاخرى . ومن مناقب القيصر الروسى انه تمكن ان يتجاوز الاهانات والطموحات الشخصية والحكومية ويبدى فى جو الفتن والنزاعات والفوضى المخيم على بولونيا قابليات دبلوماسية مدهشة وهدوءا ورباطه جأش وصبرا وبعد نظر .

وكانت روسيا حتى ذلك الحين قد حققت انتصارات جديدة كبيرة فى البلطيق . ولم تجر العمليات الحربية فى قسمه الشرقى ، لان العدو كان قد طرد من هناك بالكامل ، بل جرت فى قسمه الجنوبى ، فى بوميرانيا . وقاتلت ضد القوات السويدية هنا جيوش الحلفاء ــ الروسى والدانمركى والسكسونى . وفى مطلع عام ١٧١٢ ، بعد مرور ستة اشهر على اخفاق الحملة فى بروت ،

حاصر الحلفاء مدينتى شترالزوند وفيسمار ودحروا السويديين وأسروا الفين من جنودهم .

وكتب بطرس عن هذا النصر مسرورا الى اعضاء مجلس الشيوخ (السينات) :

— يسعدنى ان أكتب اليكم هذا العام اول رسالة من هذا النوع .

الا ان الحلفاء اساءوا التصرف فيما بعد ، فجاءت عملياتهم غير منسقة . وتألم بطرس لان ملك الدانمرك لم يرسل بعد المدفعية التى وعد بها لقصف القلعتين المحاصرتين ، وبدون تلك المدفعية لا يمكن احتلالهما ، وضغط بطرس لسحب قواته من بوميرانيا لحماية بلده من هجوم السويديين المحتمل من خلال الخليج الذى تجمدت مياهه . وهدد اغسطس باستدعاء قواته والحال هذه . وتمكن بطرس ومساعدوه من ايجاد حل وسط ، فبقى فى بوميرانيا الفيلق الدانمركى المكون من ٦ آلاف مقاتل . الا ان كلا الملكين اجريا خفية عن القيصر مفاوضات الصلح الانفرادى . وفى حزيران (يونيو) وصل القيصر الى بوميرانيا والتقى مع اغسطس ، وتكرر ما كان قد حدث مرارا : بطرس يتظاهر بانه لا يعرف حيل الملك الجديدة ، بينما يتملص ذاك ويكذب . ويناقشان خطط العمليات المشتركة . وعندما وصل بطرس الى ضواحى شتيتين لم يخف خيبة امله . فالخلافات بين الحلفاء وعدم توفر المدافع (لم تصل من الدانمرك نهائيا) لا تهيئ الامكانية للاستيلاء على المدينة . ولم تسفر مباحثاته مع الفريق البحرى الدانمركى ولا الرسالة التى بعثها الى الملك عن نتيجة . اكتأب القيصر ، فهو غير راض عن اللقاء مع الفريق البحرى :

ـــ انا متأسف جدا ، جدا ، لان الوقت يمضى فى هذه المجادلات .

وتضمنت رسالته الى الملك ملامة وعتابا :

ـــ جئت الى هنا بنفسى غير عابئ بصحتى من اجل مصالحنا المشتركة . لكن قواتى تقف مكتوفة الايدى لعدم وصول المدفعية الموعودة .

ـــ اذا لم تنفذوا طلبى هذا فسأكون فى حل امامكم وامام العالم كله لان هذه الحملة اخفقت ليس بسببى .

واعلن بطرس غاضبا بانه سيسحب قواته من بوميرانيا . ثم خف اوار غضبه . فالحرب ضد السويد يجب ان تستمر حتى النهاية على اية حال . فما العمل اذا كان حلفاؤه من هذا النوع ؟ ومن جديد بعث بطرس رسالة الى كوبنهاغن عرض فيها على الملك خطة العمليات الحربية واكد له قائلا :

ـــ ليست لى مصلحة خاصة لا فى هذا المكان ولا ذاك . لكن ما افعله هنا انما افعله لجلالتكم .

ومع ذلك لم تصل المدافع من الدانمرك ، وظلت القوات تراوح فى مكانها عبثا . وادرك بطرس ان روسيا يجب ان تعتمد على نفسها هذه المرة ايضا . وانه سيقوم قريبا بكل ما يلزم لذلك . اما الآن فقد توجه الى كارلسباد للعلاج بالمياه المعدنية . ولم يكشف بطرس عن انفعاله وتذمره من الحلفاء . فهو بحاجة اليهم على اية حال مهما كانوا . وحدثه مينشيكوف فى ضواحى شتيتين ، ولا بد ، عن الدانمركيين واسهب فى ذمهم ، لكن بطرس هدأه قائلا :

ـــ ينبغى معاملة البلاط الدانمركى باكبر قدر ممكن من الرقة . فقد يغضبون هناك اذا قلت لهم الحقيقة كاملة .

— الحقيقة ان تصرفاتهم سيئة جدا ، ولكن ما العمل ؟ لا داعى لاثارتهم ، لانهم يواجهون السويد فى البحر . ولو كانت لدينا قوات كبيرة فى البحر لاختلف الامر ، وطالما لا توجد لدينا مثل تلك القوات فيجب ان نتزلف اليهم ، مع ان ذلك ممقوت ، كيلا نبعدهم عنا .

وعندما قدم القيصر الى مينشيكوف دروسا فى ضبط النفس والتقاليد الدبلوماسية كان على ما يبدو يأمل فى الاسطـــول الدانمركى ، مع انه لا ينسى بناء اسطوله لاجل العمليات المرتقبة فى البلطيق .

وامضى بطرس بعض الوقت يتعالج فى كارلسباد ، ويتجول فى المدينة ويهتم بكل ما يراه . ذات مرة كان يسير جنب منزل فى طور البناء وسمع العمال يتحدثون فيما بينهم : القيصر الروسى (والكل يعرفونه هنا) يتباهى بانه يفعل كل شىء بنفسه ، ولكننا نعتقد انه لا يجيد بناء منزل . فارتقى القيصر دون تردد سلالم الاخشاب واخذ المسيعة وظل يعمل طول النهار بعرق الجبين فى طلاء الجدران . واثنى عمال البناء على عمله . «كان بطرس الاكبر حجارا مع الحجارين» — نقشت هذه الكلمات بعد قرنين من الزمان على لوح مرمرى مثبت على جدار المنزل الذى اشترك القيصر الروسى فى تشييده .

وعاد بطرس من كارلسباد الى بوميرانيا . وابلغه مينشيكوف ان القوات السويدية بقيادة الجنرال ستينبوك غادرت شترالزوند وينتظر ان تنشب معركة بينها وبين الدانمركيين والسكسوفيين . واقترح القيصر على حلفائه فى الدانمرك وسكسونيا الا يشنوا العمليات الحربية حتى تصل المساعدات الروسية . لكنهم لم يسمعوا نصيحته فدخلوا المعركة وتكبدوا هزيمة ماحقة . جرى ذلك

في العاشر من كانون الاول (ديسمبر) . وفي كانون الثاني (يناير) من العام التالي ، ١٧١٣ ، وصل الجيش الروسي لنجدتهم ودحر قوات ستينبوك بالكامل في معركة فريدريكشتادت . فمع ان ستينبوك طوق معسكره بحاجز مائي (اوعز الى رجاله بتحطيم بوابات القناطر وانشاء استحكامات على السدود) قام الجنود الروس بقيادة بطرس بهجوم حسب خطة مرسومة (رفض الحلفاء الاشتراك في الهجوم متصورين انه محكوم عليه بالفشل ولا نفع فيه) . وفر السويديون دون ان يقاتلوا ، وفقدوا ٣٠٠ أسير . ولم يتخلص الفيلق السويدي في قلعة تونينغين الا بفضل المياه التي فاضت والاوحال الكثيرة بسبب حلول الدفء . الا ان حصيلة العمليات الحربية في عام ١٧١٢ لم ترض بطرس :

— راحت الحملة عبثا .

ولذا اخذ يعد لحملة العام التالي بمزيد من الهمة والنشاط ، وكتب عن ذلك في ١٦ آذار (مارس) :

— نحن اليوم مسافرون الى بطرسبورغ ، ولن نقضي الوقت هناك في بطر .

لقد قرر بطرس ان يشن العمليات الحربية في فنلندة العائدة آنذاك الى السويد . كان على ابراكسين ان ينظم الحملة الى هناك بأمر من القيصر في عام ١٧١٢ . الا ان الوقت لم يتسع لشنها ، فنزل الجيش الروسي من الزوارق المجذافية على الساحل الفنلندي ولم ينفذ سوى عملية استطلاعية . وعلق بطرس على الحملة المرتقبة اهمية كبيرة . فالسويديون يستلمون الكثير جدا من فنلندة ، الى حد الاغذية والحطب . ولذا يرى القيصر ان الاستيلاء عليها هام جدا لعدة اسباب ، وفي مقدمتها ارغام السويد على القبول بالصلح :

— اول شيء هو توفر ما يمكن التنازل عنه اثناء الصلح الذى بدأ السويديون بالكلام عنه ، والثانى هو ان هذه المقاطعة كالام المرضع بالنسبة للسويديين ، فهم يحصلون منها على الماشية وسواها ، بل وحتى الحطب . واذا استولينا عليها تغدو رقبة السويد رخوة سهلة الانهصار .

— علمت بحق من اناس مخلصين اننا اذا وصلنا الى آبو سيضطر السويديون الى الموافقة على الصلح . لان كل اغذيتهم من فنلندة .

وفى نيسان (ابريل) ١٧١٣ انزل اسطول الزوارق المجذافية على الساحل الفنلندى فيلقا من ١٦ الف شخص . وكان بطرس يقود طليعة الانزال . وسلم السويديون هيلسينغفورست وبورغو دون ان يدخلوا فى معركة . وفى ١٦ آيار (مايو) كتب بطرس الى زوجته عن ذلك بصيغة مزاح :

— ابلغك بان السادة السويديين يخجلون منا كثيرا ، لانهم لا يريدون ان نرى وجوههم فى اى مكان .

وفى ٧ حزيران (يونيو) ترك بطرس القيادة الى ابراكسين وعاد الى كرونشتادت . وبلغه هنا نبأ مفرح من مينشيكوف . فان ستينبوك واكثر من ١١ الف سويدى استسلموا للحلفاء فى معركة تونينغين . كان بطرس يعتقد ان له علاقة مباشرة بهذا النصر الذى مهد له الانتصار فى فريدريكشتادت قبل عام ولذا طلب من الامير الحاكم ان يمنحه ترقية :

— لما كان مرسومكم (الموقع من قبل رومودانوفسكى فى ٧ آذار — مارس ١٧١٢ — **ملاحظة المؤلف**) الصادر الى الفيلدمارشال جنرال شيريميتيف حول تبديل رتبتى قد ظل دون ان اعلن عنه بسبب الهزيمة امام العثمانيين (فى حملة بروت —

ملاحظة المؤلف) ، فيمكن ان تكون لى علاقة بهذا النصر ، لان القوات الروسية التى كنت اقودها (وهذا امر يعرفه معاليكم من زمان) هى بالذات التى ارغمت العدو على العودة الى تونينغين بعد ان دحر القوات الدانمركية .

وفى النصف الثانى من العام المذكور استولت القوات الروسية فى فنلندة على مدينة آبو ، كما استولت على شتيتين فى بوميرانيا . وتم طرد السويديين من الجزء القارى الى ما وراء البحر . وغدا قسم كبير من اراضى فنلندة فى يدى بطرس . كانت السويد تحتضر ، لكنها لم تخرج من الحرب بسبب تعنت ملكها . صحيح انها كانت لا تزال تمتلك اسطولا قويا ، وهو ، على حد تعبير بطرس ، «آخر امل» للسويد . وكان يتعين حرمانها من هذه المزية الاخيرة .

فى حوض بناء السفن التابع لمديرية الملاحة كانت السفن الجديدة تدشن من عام لآخر من عهد تأسيس بطرسبورغ . ونما الاسطول الروسى فى البلطيق ، لكن الاسطول السويدى ظل سنين طويلة افضل منه . ولذا لم يكن بطرس يكلفه بعمليات نشيطة ، واكتفى بمهماته الدفاعية الى حين من الزمان . الا ان بناء البوارج المزودة بعشرات المدافع كان فى ازدياد مستمر بامر من القيصر . وفى ١٥ تموز (يوليو) ١٧١٣ كتب القيصر الى شافيروف فى الاستانة .

ـــ اسطولنا يزداد والحمد لله . ولدينا الآن ١٣ بارجة الواحدة منها مزودة بخمسين مدفعا واكثر ، وننتظر عددا اكبر .

النجاحات فى هذا المجال واضحة للعيان ، لكن القيصر يريد المزيد :

ـــ لسنا اقوياء من حيث السفن الكبيرة .

واوفد بطرس رجاله الى الخارج لشراء السفن . وكان يقضى فى كرونشتادت اسابيع كاملة يدرب البحارة والضباط على قيادة السفن . واسفرت كل تلك الجهود عن الثمار المنشودة . فالاسطول الذى بنى فى البلطيق لعب دورا كبيرا اثناء الانزال فى فنلندة (١٧١٢ — ١٧١٣) وفى تزويد القوات المرابطة هناك بكل ما تحتاج اليه . وفى ٢٧ تموز (يوليو) ١٧١٤ دحر الاسطول الروسى عمارة سويدية كبيرة عند رأس هانكو . وكانت العمارة تتكون من ١٦ بارجة و٨ زوارق شراعية وخمس سفن اخرى . فى البداية شنت الطليعة الروسية بقيادة بطرس ميخائيلوف (القيصر) هجوما على الفرقاطة «ايليفانت» وتسع سفن اصغر منها . ورغم تفوق السويديين من حيث عدد المدافع (١١٦ مدفعا مقابل ٢٣ مدفعا روسيا) تقدمت السفن الروسية فى هجوم جرئ ادى الى اشتباك بالسلاح الابيض . وفيما بعد اعرب بطرس عن اعجابه ببسالة بحارته :

— يعجز المرء فى الحقيقة عن وصف بسالة رجالنا ، من ضباط وبحارة .

ووقعت فصيلة كاملة بقيادة الفريق البحرى ايرينشيلد فى الاسر بايدى الروس . وبسبب الهدوء التام فى البحر لم تتمكن السفن الشراعية الاخرى فى العمارة من نجدة الفصيلة .

كان هذا النصر ، البحرى هذه المرة ، لاسيما وانه تحقق فى البلطيق ، قد ادهش اوربا كالرعد فى وضح النهار . واجتاح الذعر استوكهولم ، فغادرت حاشية الملك العاصمة على عجل . وشاهد اهالى بطرسبورغ فى ٩ ايلول (سبتمبر) السفن الروسية والسويدية التى وقعت فى الاسر وهى تدخل نهر نيفا . وجاب شوارع المدينة المنتصرون السعداء مع الغنائم والاسرى ، وبينهم

آمرهم ايرينشيلد . واستقبل اعضاء مجلس الشيوخ القيصر بطرس وبعد بضعة اسئلة رحب به الامير رومودانوفسكى قائلا :

— مرحبا ايها الفريق البحرى .

على هذه الصورة منح بطرس رتبة جديدة وزيادة فى الراتب الذى كان يستلمه بانتظام ويوقع فى قوائم الرواتب . وكان الفريق البحرى الجديد محقا تماما عندما قارن النصر فى معركة هانكو بالنصر فى معركة بولتافا . حقا ، فان امجاد السلاح الروسى عمت البحر فضلا عن البر ، وحدث ذلك فى بحر البلطيق الذى كان بطرس وكثير من الروس يحلمون به من زمان.

وبعد هذه الانتصارات التى افرحت الفريق البحرى الجديد تعرض لضربة شديدة .

كان بطرس الذى اغدقت عليه الطبيعة مواهب جمة قد حقق الكثير فى حياته وانجز الكثير لاجل روسيا ، فقد كسب الانتصارات فى سوح الوغى وبلغ النجاح فى بناء الدولة . لكنه واجه امورا اخرى ايضا كالهزات اثناء الانتفاضات الشعبية والهزائم فى الفتوحات . ولعل من اشد ضربات المصير التى تعرض لها تلك الضربة المرتبطة بحياته العائلية ومصيبته كأب .

فالطلاق من زوجته الاولى يفدوكيا لوبوخينا وحياته مع زوجته الثانية يكاترينا فى البداية بدون عقد زواج ، ومن عام ١٧١١ بزواج شرعى ، وعلاقاته الغرامية الكثيرة مع اخريات ، واطفاله من زوجتيه الاولى والثانية — كل ذلك دليل على ان بطرس بطبيعته شخص مدلل متسلط لا يعرف الهدوء والسكون . كان قد كره زوجته الاولى ، وشعر بالحب والحنان لزوجته الثانية التى هى غسالة من منطقة البلطيق ، وظل غرامه بها باقيا بمر السنين ، بل كان يزداد اكثر فاكثر . وانجبت له ابنتين لكنه ظل امدا

طويلا بدون صبى يرث عرشه . وكانت زوجته الاولى التى ينفر منها قد وضعت طفلا ذكرا فى ١٨ شباط (فبراير) ١٦٩٠ . وعندما ترعرع الصبى الكسى علق بطرس كل آماله عليه .

عندما ولد الكسى كان بطرس نفسه شابا لم يبلغ الثامنة عشرة ، منهمكا باللهو والمرح والاهتمامات الاخرى المفهومة فى مثل سنه . كان مشغولا على الدوام . وكان يفر من حجرته كلما سنحت الفرصة . فلم يكن ميالا الى زوجته يفدوكيا . وقد ترعرع الصبى فى رعايتها ، وكان لا بد وان يتأثر بجو النفور من اشغال والده وتصرفاته ، ذلك الجو الذى نشأ فى حاشية الام بما تتميز به من تمسك بالعادات القديمة والمعيشة الراكدة وكثرة المتزلفين والرهبان والاقزام وقارئات الفأل . وعندما كبر صار ، شأن امه ، يشجب ويستنكر تردد والده على حى العجم وصداقته مع الاجانب واخلاله بالعادات الرصينة والطقوس القيصرية القديمة . وترك اثرا شعور الغيظ عند الابن والام اللذين اهينا من اجل الغريمة ومحاسيب القيصر من روس واجانب .

وتعلم الكسى دون ان يبذل جهدا يذكر ، وجاء تعليمه بعيدا عن المطلوب .

ترعرع ولى العهد فى بريوبراجينسكويه بضواحى موسكو دون رعاية تذكر ودون اشراف تربوى . وقد تعلم بعض الاشياء بالطبع ، ولكنها قليلة . فقد اتقن الالمانية ، مثلا ، وألم بالفرنسية على نحو اسوأ . لكنه لم يفهم عمليات الحساب الاربع الا فى الثامنة عشرة من العمر . وآنذاك شرع يدرس مبادئ علم الاستحكامات . وباختصار ، لم يكن مرهقا بالدراسات والمعرفة ، وكان يتميز بالكسل والبطر والتسلط والكبرياء وضعف الارادة والشطارة والثأر التافه والغدر . وليس بوسع الاب ان يتباهى

بمثل هذا الابن ، ولذا كان احيانا يعجز عن ضبط نفسه فيعرب عن خيبة امله وحزنه .

وغرس جو الركود الذى عاش فيه ولى العهد عيوبا كثيرة فى نفسه ، واولها الرياء والادمان على الشراب . ومن بين المقربين اليه ممن يسميهم ولى العهد «بالشلة» ، على طريقة ابيه ، ابناء عمومته واخواله من آل ناريشكين وآل لوبوخين والقس الذى يأتمنه على اسراره وآخرون . وكلهم ، خلافا «لشلة» بطرس المكونة من رجال جادين يخدمون القيصر وروسيا ، كانوا يكنون حقدا غير مستور تماما على افكار اولئك الرجال ومقاصدهم واعمالهم . وكانوا يأججون كبرياء ولى العهد الشاب ويهمسون فى اذنه بانه حالما يتوفى ابوه او يقتل فى مكان ما برصاصة طائشة او بضربة سيف ، ومن حسن الحظ ان القيصر لا يلازم مكانا واحدا ويتعرض للخطر دائما ، فان ولى العهد سيبدل كل شىء على هواه ، فيلغى المستحدثات التى لا حاجة لاحد بها ، كما زعموا ، ويعود الى العادات والتقاليد القديمة ويحكم كما حكم اجداده فى هدوء واطمئنان وفى عظمة وروعة .

وكان بطرس يتابع باهتمام ابنه الناشئ ويكلفه بمهمات معينة ويلومه على سوء التنفيذ .

ولم يكن الكسى بن بطرس يبدى اهتماما بالاعمال ، فهو مهمل اكثر ما يهمه السكر مع الاصدقاء والاحاديث التى تتعرض بالسخرية والشجب لكل ما يقوم به الاب . وكان القيصر يرى ذلك ويشتاط غضبا بسببه .

وبعد ان تزوج الكسى من اميرة المانية امضى فى الخارج الفترة من ١٧١٠ حتى ١٧١٣ . وبعد مراسيم الزفاف ادى مهمات

كلفه بها ابوه ، وكان اهماله باديا هذه المرة ايضا .

وكان الكسى قد كذب عندما ابدى استكانة ووافق ، بالحاح من ابيه ، على التنازل عن حقوق ولاية العهد . فكان يعول على امر آخر هو وفاة ابيه او اندلاع انتفاضة او قيام انقلاب ضده . وكان يؤجج نواياه وآماله الانصار الذين تحلقوا حوله .

وفى اواخر ايلول (سبتمبر) ١٧١٦ غادر العاصمة . وبدلا من كوبنهاغن التى اوصاه بطرس بالرحيل اليها وصل الى فينا فى ١٠ تشرين الثانى (نوفمبر) . وكان فى نية الساسة فى فينا الاستفادة من ادعاءات الكسى بالعرش الروسى لاضعاف مواقع بطرس وبلاده عشية انتهاء حرب الشمال ووضع شروط الصلح . ووعدوا الكسى باحلى الوعود المغرية . الا ان الامبراطور النمساوى ومستشاريه لم يكونوا فى الوقت ذاته راغبين فى استقبال الامير الروسى فى بلاطهم علنا . ولذا خبأوه فى تيرول ثم نقلوه الى نابولى .

الا ان الكابتن أ . روميانتسيف والدبلوماسى المحنك ب . تولستوى كانا يتعقبان الامير الكسى فى حله وترحاله ، ويسلمان رسائل القيصر الى الامبراطور . ويتعقد الموقف بالنسبة للعاصمة النمساوية . اذ ان القيصر يهدد النمسا بهجوم مسلح .

والتقى الكسى مع تولستوى وعرف من رسالة القيصر ان اباه يرى فى تصرفاته خيانة . وزعم تولستوى ان القيصر قادم الى نابولى لمقابلة ابنه وقال انه سيحرك القوات المتحشدة فى بولونيا ضد النمسا . وحطمت هذه الحجة عناده الذى استمر طويلا .

وفى ٣ تشرين الاول (اكتوبر) وصل الكسى الى موسكو . وكان ينتظره فى القصر ابوه واعضاء السينات والجنرالات وكبار

القساوسة . وركع الكسى امام ابيه وتوسل اليه طالبا المغفرة ومستعطفا الابقاء على حياته . ورد عليه بطرس قائلا :

ـــ سامنحك ما طلبته ، لكنك فقدت كل امل فى وراثة عرشنا ويجب ان تتنازل عنه بوثيقة رسمية تذيلها بتوقيعك .

ووافق الكسى ووقع وثيقة التنازل عن العرش . ونصت الوثيقة على عدم الادعاء بالارث وعدم قبوله باية ذريعة كانت .

وتلى البيان الخاص بحرمان الكسى من حقوق الوراثة . وسرعان ما بدأ التحقيق مع الاشخاص الذين ذكر بانهم مستشاروه . واشرف بطرس بنفسه على الاستجواب ، كما فى عهد «التحقيق مع افراد القوات الخاصة» . فوضع اسئلة لاستجواب الكسى وبعث رسلا يحملون توجيهات باعتقال الاشخاص المذكورين . وفى موسكو اعدم كيكين وآخرون . وفى بطرسبورغ التى انتقل اليها بطرس وحاشيته استمر التحقيق والتعذيب ، وشملا الكسى ايضا . وبعد المحاكمة احال القيصر تقرير مصير ابنه الى كبار رجال الدولة ـــ سدنة الكنيسة واعضاء السينات والجنرالات وغيرهم .

واثناء التحقيق تكشفت بالكامل آراء الكسى ونواياه . ذات مرة اعترف ، بحضور ابيه وكبار رجال الكنيسة والمدنيين ، بانه كان ينوى اعلان الانتفاضة فى كافة ارجاء البلاد ، ولو حاول ابوه التنكيل بانصاره لما تورع عن ابادة كل سكان البلاد . وكان يتصور بان الشعب سيؤيده طالما هو يريد العودة الى المعتقدات والعادات والاعراف القديمة ، لان الشعب يحبه ويعطف عليه . كان الكسى يجد فى نفسه احيانا القوة الكافية للتفوه بهذه الاقوال التى تكشف عن احلامه وغطرسته ونواياه السخيفة الهوجاء المتناقضة مثل تأكيده على حب الشعب له من

جهة واستعداده لابادة هذا الشعب من جهة ثانية . وفي احيان اخرى يبلغ به اليأس والقنوط والانسحاق ابعد الحدود .

في تلك الفترة كان الكسي يعاني من خلل عصبي ، كما قال معاصروه . وكان يتصرف بشكل لا يليق ، حيث يتحايل ويفتري على المقربين اليه ويكذب ويجهد نفسه ليقلل من ذنبه كخائن لقضية ابيه ولمصالح روسيا . وكان واضحا انه جن بسبب خوفه من الموت .

وفي ١٤ حزيران (يونيو) زج به في سجن قلعة بتروبافلوفسكايا . وبدأ التعذيب في السجن . وصدر الحكم . صحيح ان رجال الدين تملصوا وابتعدوا عن الوضوح الكامل في قرار الحكم : فالمقتطفات التي اوردوها من الكتاب المقدس تقول من جهة بالموت للابن الذي عصى اباه ، ومن جهة اخرى تتحدث عن قبول المسيح توبة الابن الضال . وتركوا القرار لبطرس كي ينظر فيه . اما الموظفون المدنيون فقد اعربوا عن رأيهم بوضوح لا لبس فيه : الاعدام .

وفي ٢٤ حزيران ١٧١٨ اعلن عن حكم الاعدام . لكنه لم ينفذ . فبعد يومين قضى الكسي نحبه في قلعة بتروبافلوفسكايا ، ربما بسبب الهزات والمعاناة . وفي ٣٠ حزيران دفن ، وحضر بطرس مراسيم دفنه .

وكانت تلك النهاية الفاجعة خاتمة للمجابهة الطويلة الامد بين الابن والاب (وقد غدت من بداية القرن الثامن عشر مجابهة سافرة) . وكان لا بد لهذه النهاية ان تترك اثرا اضافيا في طبيعة بطرس وحالته النفسية بعد ان فقد ابنه ووريث عرشه . صحيح ان لديه ابنا آخر من زوجته يكاترينا في الثالثة من العمر . واعلن انه هو ولي العهد . لكن بطرس فقده في السنة التالية ،

توفى ، ولم يبق امل فى ميلاد ذكر آخر . وصعق القيصر لهذه الضربة الجديدة ، واختلى الى نفسه فى مضجعه ثلاثة ايام كاملة ، ورفض مقابلة احد او تناول طعام . وارهقته نوبات التشنج .

لكن الحياة تسير ، وسيطر القيصر حسب الظاهر على ألم الخسارة وانهيار آمال الابوة ، وشرع يمارس اعماله التى تكاثرت وما كانت تقبل التأجيل . وغاص بطرس من جديد فى دوامة الاحداث ، وكان فى ذلك ملاذ له من الآلام شأن سائر عباد الله .

نهاية حرب الشمال

ترك الانتصار البحرى الذى حققه الروس فى معركة هانكو انطباعا مدهشا لا يقل عن الانتصار البرى فى معركة بولتافا . ففى البلطيق ، فى اعقاب احتلال قسم كبير من فنلندة ، استولت قوات بطرس على جزر ألاند عند سواحل السويد ، وبعد ذلك ، فى ايلول (سبتمبر) من عام ١٧١٤ نفسه شنت فصيلة روسية حملة على ساحل المملكة السويدية ذاتها .

كانت الهزائم الجديدة التى لحقت بالملك كارل الثانى عشر والعمليات الحربية التى شنت فى اراضى دولته ذات دلالة واضحة على ما يبدو ، حيث حددت مصير السويد وضرورة توقيع الصلح مع روسيا . وكان بطرس يأمل فى ذلك . الا ان حرب الشمال استمرت ، وكانت بمثابة «مدرسة بثلاث مراحل» على حد تعبير بطرس نفسه فيما بعد . وفى تلك الآونة انتهت مرحلتاها الاولى والثانية (وكل منهما بسبع سنين) ، وبقيت المرحلة الثالثة . وبعد كل الانتصارات التى حققتها روسيا اضطرت الى خوض العمليات الحربية وممارسة لعبة دبلوماسية معقدة طوال سبع سنوات اخرى . والسبب فى ذلك لا يقتصر على تعنت كارل الثانى عشر الذى جعل السويد على شفا الكارثة الوطنية ، بل يكمن ايضا فى الموقف فى اوربا على صعيد السياسة الخارجية .

ففى نيسان (ابريل) ١٧١٣ وقعت الدول المتحاربة فى اوربا الغربية صلح اوتريخت . ووضعت الحرب من اجل التركة الاسبانية اوزارها . وارتسمت سيطرة بريطانيا فى الشؤون الاوربية والعالمية . فان انتقال جبل طارق وجزيرة مينوركا اليها وتدمير دونكرك الفرنسية وكسب المستعمرات (وحق تجارة الرقيق) فى اميركا الشمالية والجنوبية (بفضل المعاهدة مع البرتغال) — كل ذلك ادى الى هيمنة الاسطول البريطانى والتجارة البريطانية ليس فقط فى البحر الابيض المتوسط وبحر الشمال ، بل وفى المناطق الحساسة من محيطات العالم . وكان الطموح الى الهيمنة والتوسع البحرى والتجارى العالمى لا بد وان يدفع بريطانيا الى الصدام مع الدول الاخرى . وفى البلطيق كانت روسيا هى احدى تلك الدول . فان جبروتها العسكرى ، بما فيه البحرى ، ينمو بسرعة .

واثار ظهور قوات بطرس فى بوميرانيا السويدية واسطوله المظفر فى بحر البلطيق قلقا شديدا لدى الدول البحرية الاوربية . لكنه حملها فى الوقت ذاته على اقامة اعتبار له . وازداد نفوذ روسيا فى اوربا على مرأى من الآخرين . وحاولت الدول الاوربية اعاقة ذلك بمختلف السبل . ففى بداية عام ١٧١٣ ، مثلا ، خطط البلاط البريطانى لارسال عمارة من ١٥ سفينة الى سواحل بوميرانيا . ودعا هولندة للمشاركة فى الحملة من اجل الضغط على بطرس الاكبر . الا ان هولندة رفضت ، فتأجلت الحملة بالضرورة . واستخدمت المناورات الدبلوماسية . فقد الحّ الوسطاء الانجليز وغيرهم فى عرض خدماتهم وطالبوا القيصر بان يوقع الصلح مع السويد ويسلمها كل الاراضى المكتسبة ما عدا بطرسبورغ . ورفض بطرس ادعاءاتهم هذه بالطبع ، ووافق فقط على «الوساطة الطيبة» ، اى على اضطلاع الوسطاء بمهمة التوصيل

فى المفاوضات مع السويد . زد على ذلك ان هولندة لم تبد هذه المرة ايضا ميلا الى العمليات الموجهة ضد روسيا . وعاد كارل الثانى عشر الى وطنه فى الاخير ، وظل «يساعد» بطرس بتعنته الاهوج . بديهى ان السبب الاول فى فشل كل هذه المحاولات هو قوة روسيا المتعاظمة وانتصاراتها الحربية برا وبحرا .

واستمرت الحرب . واقدم ملك السويد على اجراءات متطرفة لكى يطيل فى امد النهاية الحتمية . فقد اصدر «ميثاق القرصنة البحرية» الذى اعلن صراحة عن حق القرصنة فى البحار ودعم نشاط القراصنة . وفى عام ١٧١٤ نفسه استولى السويديون على كل السفن التجارية ، بما فيها ٢٤ سفينة انجليزية ، وفى ربيع العام التالى استولوا على ٣٠ سفينة تحمل العلم البريطانى . واندلع النزاع بين بريطانيا والسويد . وبالعكس ، حدث تقارب بين مصالح بريطانيا وروسيا . وانخرطت فى هذه العملية هانوفر التى غدا حاكمها جورج الاول ملكا لبريطانيا بعد وفاة الملكة آنّا فى آب (اغسطس) ١٧١٤ . وفى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) ١٧١٥ وقع بطرس معه معاهدة فى غريفسوالد التزم القيصر بموجبها بان يساعد الملك فى الحصول على بريمين وفيردون من الممتلكات السويدية فى المانيا ، والتزمت هانوفر بألا تعترض على ضم اراض فى شرقى البلطيق الى روسيا وتعلن الحرب ضد السويد وترسل فيلقا من ستة آلاف رجل الى بوميرانيا . وهكذا توسع الحلف الشمالى . وسارت الامور نحو قيام تحالف بين بريطانيا وروسيا بصدد العمليات الحربية المشتركة ضد السويد . واجرى المفاوضات فى لندن بهذا الشأن كوراكين ، وهو احد افضل دبلوماسيى بطرس الاكبر .

وفى عام ١٧١٦ تقابل بطرس مع ملوك بولونيا وبروسيا

والدانمرك ودوق ميكلينبورغ . وفي ايار (مايو) اثناء اللقاء مع الملك الدانمركي في هامبورغ تمكن بطرس من الاتفـــاق معه بصدد القيام بانزال مشترك في سكونه جنوبي السويد .

الا ان العلاقات مع بريطانيا تأزمت بشكل لم يكن بطرس يتوقعه . فقد وعد الوزير البريطاني تاونساند بتقديم طلب خطي حول التحالف العسكري ، لكنه اقترح في آذار (مارس) توقيع اتفاقية تجارية فقط . ورفض كوراكين توقيع الاتفاقية بدون ايعاز من بطرس . وكان سبب هذا التحول هو ما يسمى بقضية ميكلينبورغ . والقضية ان دوق ميكلينبورغ طلق زوجته الاولى وتزوج ثانية من يكاترينا ايفانوفنا ابنة اخي بطرس ، ايفان الخامس الراحل الذي شاركه في الحكم في حينه . وبموجب عقد الزواج (٢٢ كانون الثاني ـــ يناير ١٧١٦) وعد بطرس الدوق بتسليمه مدينتي ويسمار ووارنيموندي من نفس الممتلكات السويدية في المانيا . وفي ٨ نيسان (ابريل) ، في يوم الزفاف ، تم توقيع معاهدة التحالف بين روسيا وميكلينبورغ . ووعد بطرس صهره بمساعدة عسكرية وتأييد ضد المعارضة الداخلية . وقد غدت ميكلينبورغ في الواقع بمثابة المحمية بالنسبة لبطرس وروسيا . وفي تلك السنوات دبّر القيصر ، لاغراض سياسية دون شك ، زيجات اخرى لاقربائه ـــ فقد زوّج ابنه ألكـــسي من شارلوتا اميرة ولفينبوتيل (١٧١١) ، وزوّج آنـّـا (ابنة اخيه ايفان الخامس) من دوق كورلياندیا (١٧١٠) وولد من الزواج الاول ابن سموه بطرس ، وقد غدا فيما بعد امبراطورا لروسيا (بطرس الثاني) لامد غير طويل ، اما آنّا ايفانوفنا فقد غدت امبراطورة لروسيا لامد طويل نسبيا .

ومن بين كل عقود الزواج تلقى بطرس اكثر الازعاجات من

زواج دوق ميكلينبورغ . فقد اشار جورج حاكم هانوفر وملك بريطانيا ووزيره فى هانوفر بيرنسدورف صراحة الى موقفهما السلبى من زواج الدوق ويكاترينا واحتمال تسليمهما ويسمار . فالملك ووزيره يريدان ان تبقى ميكلينبورغ دولة محايدة . وبالاضافة الى ذلك لم يأخذ بطرس بعين الاعتبار ان بيرنسدورف من مواليد ميكلينبورغ ولديه ممتلكات فيها . ومن مواليد ميكلينبورغ ايضا هولشتين وديفيتس مستشارا الملك الدانمركى فريدريك الرابع المقربان اليه . وكان للثلاثة تأثير كبير على ملكى بريطانيا والدانمرك ، وقد واجهوا على أسنّة الحراب معاهدة التحالف الروسية الميكلينبورغية وراحوا يقنعون ملكيهم واوربا كلها بان بطرس يعد مخططات عدوانية توسعية فى اوربا الغربية . واخذت دسائسهم تعود بثمارها المحزنة .

صحيح ان البعض حذروا بطرس من العواقب المحتملة غير المرغوب فيها من قضية ميكلينبورغ التى اعتبرها كلوتشيفسكى ، على ما يبدو ، واحدة من «التفاهات» التى اولع بها بطرس فى المانيا فى تلك السنوات . وكتب له كوراكين فى شباط (فبراير) ١٧١٦ :

— البلاط الانجليزى غير راض عن زواج دوق ميكلينبورغ وتسليمه ويسمار . ومن واجبى ان ابلغ بضرورة عدم الاستعجال فى هذا الزواج مطلقا . . . فبسببه يمكن ان تضيع الصداقة الحالية (مع بريطانيا — **ملاحظة المؤلف**) ، وهى صداقة ضرورية جدا فى الظروف الراهنة . وانا لا ادرى هل نتمكن من الحصول من دوق ميكلينبورغ على نفع بقدر نفع اولئك الذين يمكن ان نضيع صداقتهم بسببه .

الا ان هذه الرسائل ، وكذلك المعلومات عن سير المحادثات فى لندن ، وصلت متأخرة ، واضطر بطرس على مواجهة عواقب

اخطائه منذ نيسان (ابريل) حيث اقيمت احتفالات الزفاف وتوقيع المعاهدة مع ميكلينبورغ . واول تلك العواقب المؤذية هي استسلام مدينة ويسمار المحاصرة من قبل قوات الدانمرك وهانوفر وبروسيا . وبأمر من القيصر وصل الجنرال ريبنين لحضور مراسيم التسليم ، الا ان الحلفاء لم يسمحوا له مع القوات الروسية حتى بدخول القلعة . وقال بطرس بزعل :

ـــ قدمت لكل حلفائي في هذه الحرب خدمة جـــلى ، وكنت حليفا مخلصا صادقا لدرجة لا تترك لاحد سببا لعدم الثقة بي وللتصرف معي ومع قواتي بهذه الصورة .

اما الانزال في شبه جزيرة سكونه فكان يسير هو ايضا الى الفشل الذريع . وكان الهدف الوحيد للحملة بالنسبة لبطرس هو ارغام السويد على قبول الصلح . ولم يكن يريد الحصول على اية اراض لا في المانيا ولا في السويد . وقد وافق بطرس على تسليم كل الاراضي التي امكن كسبها من السويد على الساحل الجنوبي للبلطيق من قبل القوات الروسية او بمشاركتها الى الحلفاء ـــ الدانمرك وهانوفر وسكسونيا وبروسيا . ووعد بتسليم بعض الاراضي الى ميكلينبورغ .

وحشد بطرس في شمال المانيا ، وخصوصا في ميكلينبورغ ، جيشا روسيا من خمسين الفا لاجل العملية المرتقبة في جنوب السويد . وظهر في مرفأ كوبنهاغن اسطول روسي مكون من ٢٢ سفينة ، بينها ١٤ بارجة كبيرة . وكانت ترابط هناك افواج الدانمرك وبريطانيا وهولندة . وصار بطرس ـــ القيصر والاميرال ـــ قائدا للعمارة الموحدة الكبيرة ـــ ٨١ سفينة . وفي ٥ آب (اغسطس) خرج الاسطول الى عرض البحر يرافق ٤٠٠ سفينة تجارية . ووصل الى جزيرة بورنهولم وسرعان ما عاد منها ، لان

السفن السويدية اختبأت فى مرافئها . بديهى ان هذا الاستعراض البحرى الحربى الذى استغرق عشرة ايام واشرف عليه القيصر الروسى قائد الاسطول قد ترك انطباعا كبيرا بالطبع ، لكنه لم يؤثر بأية حال على نهاية حرب الشمال . ولم يتم الانزال ، لان القوات الروسية ظلت كالسابق مكتوفة الايدى فى مواقعها فى ميكلينبورغ والاماكن الاخرى . وفى نهاية آب (اغسطس) بدأ نقلها الى كوبنهاغن ، ولكن ببطء شديد وبتأخيرات متعمدة من جانب الدانمركيين . وحل الخريف ببرده وعواصفه البحرية ، وفى ١٧ ايلول (سبتمبر) اعلن بطرس للملك الدانمركى بانه أجّل الانزال الى العام التالى لانه لا يريد ان يجازف بخيرة افواجه . وردا على ذلك انهالت الاتهامات «بالخيانة» ونوايا الاستيلاء على كوبنهاغن وتوقيع الصلح مع كارل الثانى عشر وهلمجرا . ورد القيصر على ذلك بالبدء بسحب قواته من الدانمرك الى روستوك واجرى مفاوضات بشأن الانزال فى سكونه فى العام التالى واعلن عن استعداده لسحب افواجه من ميكلينبورغ . باختصار ، ابدى بطرس اكبر قدر من ضبط النفس والاخلاص . كانت اتهامات بريطانيا وحلفائها فيما يخص ميكلينبورغ وغيرها ، وكذلك الضجة والتوتر العصبى اللذان رافقاها ، مجرد ذريعة بالطبع . فالسبب الحقيقى لتصريحاتهم وتصرفاتهم هو القلق من تزايد جبروت ونفوذ روسيا فى البلطيق وفى الشؤون الاوربية والخوف من تحويل بحر البلطيق الى «بحيرة روسية» . والاكثر من ذلك ان بريطانيا سعت ، بالاعتماد على هانوفر ودول اخرى ، الى الهيمنة فى البلطيق لتكون لديها هنا مراكز اسناد كما فى البحر الابيض المتوسط (جبل طارق مثلا) . وذلك هو مبعث تحامل جورج الاول وفريدريك الرابع ووزرائهما ومستشاريهما المتنفذين

على بطرس ومحاولات اضعاف نفوذ روسيا فى شمال اوربا وتقويض الحلف الشمالى .

ولكن بغض النظر عن بعض الاخفاقات والهفوات فى الشؤون الدبلوماسية كان بطرس راضيا عن سير الامور . فهو لا يدعى ، بأية حال ، بالمدن والاراضى الالمانية ، وقد وافق على ضمها الى ممتلكات هانوفر والدول الحليفة الاخرى ، ولذا كان يتعين على هذه الاخيرة ان تهتم بالحفاظ على ممتلكاتها الجديدة التى كسبتها بمساعدة حاسمة من القيصر الروسى ، كما يتعين عليها ان تدعم مكاسبه فى شرق البلطيق . واثارت قضية الانزال ومماطلة الحلفاء الواضحة انفعال بطرس فكتب الى الجنرال أبراكسين فى آب (اغسطس) يقول :

— الله وحده يعلم بمدى المتاعب معهم . فهم يضيعون الوقت الثمين وكأنما يمارسون عملا لا يعنيهم .

هذا من جهة ، ومن جهة اخرى اعرب بطرس عن ارتياحه قائلا :

— من المستبعد ان احدا على وجه البسيطة تشرف بقيادة اساطيل شعوب اخرى مع اسطوله . وانا اتذكر بارتياح ثقة تلك الدول .

صحيح ان الاسطول الموحد لم يقم عند سواحل السويد بشىء يذكر ، ولم يطلق ولا اطلاقة واحدة على السفن السويدية التى اختبأت مسبقا كالفئران فى جحورها . لكن المفرح هو بالذات الاستعراض المشترك الذى احتفلت العمارة الروسية خلاله ، فى الثامن والعشرين من ايلول (سبتمبر) احتفالا مهيبا بالنصر فى معركة ليسنايا ، واطلقت العمارة البريطانية معها قذائف المدافع «مهنئة بذكرى هذا النصر» (كما جاء فى مجلة الرحلات

الروسية فى وصف احداث ذلك اليوم) .

واستنكر بطرس المماطلة المتكررة التى اثارت انفعاله ، فنفد صبره ، وكان هياجه يؤدى احيانا الى ظهور مواقف غير عادية . ذات مرة ، وهو فى الدانمرك ، نهض كعادته فى الصباح الباكر . وفى الساعة الثامنة جاء رسول القيصر الى بلاط الملك يحمل طلبا باللقاء . واخبره رجال البلاط ان الملك لا يزال نائما . وبعد ساعتين كرر الطلب فردوا عليه بان فريدريك نهض من النوم ، لكن احدا لم يتجرأ على دخول غرفة نومه . وبعد ساعة من ذلك كان الملك يرتدى ثيابه . نفد صبر بطرس نهائيا . واخيرا جاءه الملك بنفسه فبادره بطرس قائلا :

ــ الامور ، يا اخى ، لا يمكن ان تكون بشكل طيب اذا سارت على هذه الصورة . ففى كل يوم لدينا اشياء هامة كثيرة يجب ان نخبر بها بعضنا البعض ، فى حين ليس بالامكان الدخول على جلالتكم دوما . وانا ايضا عندى اشغال . فلنتفق نهائيا على ساعة معينة ويوم معين نلتقى فيهما عندما يكون لدينا ما نقوله لبعضنا البعض .

ووافق الملك خجلا على حجج القيصر الروسى لكنه طلب مع ذلك ألا تجرى اللقاءات فى الصباح . ولم تساعد اللقاءات والاحاديث على تقدم القضية كثيرا ، فقد تأجل غزو السويد . وارتحل بطرس من الدانمرك الى هولندة ، فلعله يتمكن هنا من الحصول على دعم الولايات الهولندية لانهاء الحرب اخيرا . وقد وصل الى هنا سرا هذه المرة ايضا . لكنهم سرعان ما اكتشفوا سره من جديد . وكما كان فى المرة الاولى تفقد القيصر احواض بناء السفن والمانوفاتورات والسفن والورشات . واقتنى لوحات الرسامين الهولنديين . وزار المنزل الذى اقام فيه فترة اثناء «البعثة

الكبرى» . واستقبلته نفس صاحبة البيت المضيافة :

— اهلا وسهلا بالاسطة بطرس .

— من اين تعرفينني ؟

— انا زوجة الاسطة بول ، وكنت تتغدى في منزلنا .

فرح القيصر وعانق المرأة ، ارملة اسطة السفن الذى علّمه في حينه وسلّمه شهادة تقول ان بطرس بلغ مستوى رفيعا في فن بناء السفن . الا ان رحلة بطرس الى هولندة لم تقترن دوما بمثل هذه اللقاءات والاحاديث المفرحة . فان صاحب الفندق ، وهو ليس من احسن الفنادق ، طلب مقابل المبيت والعشاء المتواضع جدا مبلغا ضخما ٣٠٠ روبل ذهبا فاعترض القيصر الذى يتميز بالبخل في نفقاته الشخصية وقال مستاء :

— لقاء اى شيء تطلب هذا المبلغ الضخم ؟

— تعتبر الثلاثمائة روبل مبلغا ضخما ؟ لو كنت انا قيصر روسيا لدفعت ثلاثة آلاف .

ودفع بطرس المبلغ . وتقابل القيصر مع البحارة والنجارين ، وكان تصرفه في منتهى البساطة كالسابق ، وقد اهتم بمختلف الحرف وقام بجولات بحرية . واستغرب له الكثيرون ، فقد ظل على سابق عهده من حيث حب المعرفة والتواضع ، لكنه نما من كل النواحي ، وليس فقط من حيث العمر . فقد مر عشرون عاما على رحلته الاولى الى اوربا ، ورأى فيه الهولنديون الآن ليس ذلك القيصر الشاب الخجول غير المجرب ، بل حاكما ناضجا واثقا من نفسه بالاضافة الى كونه قائدا عسكريا وربانا للاسطول واسطة في بناء السفن وانسانا متضلعا في العديد من الاختصاصات الاخرى . «فلنتكلم بلغة النجارين» — هذا ما قاله للاسطوات الهولنديين الذين تحيروا في العثور على الكلمات

المناسبة اثناء الحديث مع الرجل الذى غدا من زمان نارا على عَلَم من جميع النواحي .

وزار بطرس فرنسا ايضا . ففى ٢٧ نيسان (ابريل) ١٧١٧ وصل بالسفينة الى دونكيرك واطلع على الميناء والهويس والاستحكامات والمتاجر . ولم يهتم بالمآدب والالعاب النارية والحفلات والزينات ، ولم يعبأ بالاطعمة الوفيرة ، مما جعل جهود الوجهاء بهذا الخصوص تهدر عبثا فى بعض الاحيان . وعندما يخبرونه بمثل هذه المآدب يجيب قائلا :

— انا جندى اقتنع بالخبز والماء .

فى باريس خصصت للقيصر غرفة وثيرة فى اللوفر واعدوا مائدة فاخرة من ٨٠٠ طبق . اما بطرس فقد ذاق قليلا من النبيذ واقتطع كسرة من البسكويت وطلب غرفة اكثر تواضعا لاجل المبيت . وفى فندق ليديغير الذى خصص له طلب ان يفرشوا له فراش السفر الذى يحمله فى عربته ، وامر ان يفرشوه ليس فى غرفة النوم ، بل فى غرفة الثياب . وكان ينتظر هنا زيارة رسمية . وكتب الى زوجته يكاترينا عن ضجره قائلا :

— انا مضطر للبقاء فى الفندق يومين او ثلاثة من اجل الزيارة وغيرها من الرسميات ، ولذا لم ارَ هنا شيئا بعد ، وسأبدأ بالتجول غدا او بعد غد . اما فى الطريق فما اكثر ما رأيناه من بؤس عامة الناس .

وقد رافق بطرس فى رحلته احد رجال الحاشية ، وكتب يصف مظهره الخارجي :

— القيصر فارع القامة جدا ، ومحدودب الظهر بعض الشيء ، وقد اعتاد ان يطأطئ رأسه قليلا ، وهو اسمر ، فى ملامح وجهه امارات القسوة .

ويقول هذا الرجل ان القيصر الروسى ينهض فى الصباح الباكر ويتناول طعام الغداء فى حوالى العاشرة ، ويتعشى فى حوالى السابعة ، ويأوى الى الفراش قبل التاسعة . ويحتسى قبل الغداء الفودكا او الجعة او النبيذ ويحب الخبز الاسمر (حيث يخبزونه خصيصا له) ، كما يحب اللوبيا ، ومن الفواكه يعجبه البرتقال والتفاح والكمثرى . ويتجول فى العاصمة الفرنسية فى بدلة جوخ بسيطة ومتواضعة للغاية ، ومن الحزام العريض يتدلى سيف ، ويرتدى الشعر المستعار دون مساحيق ، وقميصه بدون اكمام .

وسرعان ما بدأت الزيارات وحفلات الاستقبال . وجرت المفاوضات الدبلوماسية فى منتهى السرية . واجراها كوراكين وشافيروف عن الجانب الروسى . وتقابل بطرس عدة مرات ، بصورة سرية ايضا ، مع دوق اورليان الوصى على الملك لويس الخامس عشر البالغ من العمر سبع سنوات . وقام الملك الصغير بزيارة الى القيصر ، الا ان هذا الاخير لم يلتزم بالمراسيم التى وضعها المجلس الملوكى فاستقبل الصبى عند باب العربة واحتضنه ورفعه وقبّله واضاف قائلا «هذه ليست قبلة يهوذا» .

وكتب الى زوجته يقول :

ــ اخبركِ بان الملك زارنى يوم الاثنين الماضى ، وهو صغير لا يزيد طوله سوى اصبعين على صاحبنا لوقا (القزم الذى رافق بطرس ــ **ملاحظة المؤلف**) ، وهو صبى رائع الوجه والقوام ، وفطين جدا بالنسبة لعمره ، فهو فى السابعة فقط .

وفى حزيران (يونيو) تقابل بطرس مع الجغرافى الشهير ديليل والعلماء المعروفين الآخرين . واهتم بدراساتهم وبأمور التدريس . وزار كلية الامم الاربع وحضر جلسة اكاديمية العلوم . واطلع على الكثير وحفظ الكثير . شاهد عملية جراحية للعين اعادت البصر

الى شخص فى الخامسة والستين كان يعانى من انسداد عدسة العين ، وشاهد مضخة لرفع المياه ، واطلع على خرائط جغرافية ورسوم فى تاريخ الفنون وامور كثيرة اخرى . وادهش محدثيه بمعارفه ومواهبه . واستفسر ديليل من القيصر عن بحر الخزر وبحر آزوف . وفيما بعد استفاد بطرس كثيرا من هذه الاحاديث فى تنظيم البعثات الخاصة برسم الخرائط وغيرها . واهتم بدار سك النقود وصناعة الجوبلين وبالقصور والمتنزهات الملوكية والترسانات والصيدليات والبرك والاحواض والنافورات . وكان يحتفظ بالتفاصيل ليقوم فيما بعد ، فى روسيا ، بكل ما هو ضرورى وما تفتقر اليه . وكانت مفكراته تمتلئ بالملاحظات والمعلومات واستدعى الاخصائيين للعمل فى روسيا ، حيث تعاقد مع ٥٠ شخصا (وليس ١٠٠٠ ونيف كما فى نهاية العقد السابق) وهم من العلماء والمعماريين والرسامين والنحاتين والصاغة وغيرهم (وليس الضباط ، فلديه الآن ضباط روس كثيرون) .

ودهش الفرنسيون ، لا سيما رجال البلاط ، بخاصة من ان العاهل الروسى لا يميل الى اللهو والتسلية والصيد والمسارح والمجون (فلم يكن فى الواقع يلتفت الى الارستقراطيات الحسناوات اللواتى حاولن ان يحظين باهتمامه) ، وهو غالبا ما يستهين بالرسميات ويتحدث مع عامة الناس برغبة . فقد زار دار العجزة وتحدث مع الجنود المسرّحين ونعتهم «باصحابـى» وتناول الطعام والشراب معهم على مائدة واحدة .

وكانت آراء الناس فيه متعارضة . فالاب دوبوًا الذى تجادل مع دبلوماسيى بطرس حول طاولة المفاوضات فى باريس لم يخفِ موقفه السلبى منه :

— القيصر متهور ولا يصلح الا لمهنة رئيس نوتية فى سفينة هولندية .

واعرب لوفيل عن رأى مغاير :

— ليس عندنا فى فرنسا شخص يشبهه من حيث مهارته فى الشؤون البحرية والحربية والاستحكامات . . . وتكشف الاسئلة التى طرحها على العلماء والرسامين عن اطلاعه ، وهو يثير الاعجاب من حيث سعة مداركه وبعد نظرته .

وفى مدينة رايمس التى زارها القيصر عرض عليه كهنة الكاثدرائية كتابا دينيا قديما واوضحوا له انه مكتوب بابجدية قديمة لا يعرفها احد . فاخذه القيصر وادهش الحاضرين عندما شرع يقرأ الكتاب بطلاقة . فالمخطوطة هى انجيل باللغة الروسية القديمة كانت قد جلبته فى القرن الحادى عشر آنّا ، ابنة ياروسلاف الحكيم ، التى صارت ملكة لفرنسا بعد ان تزوجت من الملك ، وهو امى شأن اغلبية معاصريه آنذاك . وكانت فرنسا ، فى تلك الحقبة ، بلدا متخلفا بالمقارنة مع دولة كييف الروسية .

فى سان سير زار القيصر الروسى السيدة مينتينون محبوبة لويس الرابع عشر الشهيرة . وفى غرفتها المسدلة الستائر ازاح بطرس تلك الستائر ليراها جيدا . وسألها :

— ما مرضكِ ؟

— الشيخوخة .

— كلنا معرضون لهذا المرض لو طال بنا العمر .

ولم يترك استعراض الحرس والافواج الميدانية التى اصطفّت تكريما له انطباعا فى نفسه :

— رأيت دمى مزوقة وليس جنودا . وهم يتلاعبون بالسلاح ويرقصون فى السير ولا شىء آخر .

ويتميز الاستنتاج العام من ملاحظاته فى باريس بالازدواجية :

ـــ انا آسف لان ملابسات الوطن ترغمنى على ترك هذا المكان الذى تزدهر فيه العلوم والفنون ، كما انى آسف لان هذه المدينة ستصاب آجلا ام عاجلا باضرار كبيرة بسبب الابهة والاستهتار وستختنق بالدخان .

وغادر بطرس العاصمة الفرنسية الى سبا حيث المياه . وفى تلك الاثناء واصل الدبلوماسيون مباحثاتهم . وفى ٤ آب (اغسطس) تم فى امستردام توقيع معاهدة التزمت فرنسا بموجبها بالتوسط فى المفاوضات بين روسيا والسويد ووعدت بعدم تسديد المعونة المالية وعدم تقديم اية مساعدات اخرى الى السويد والاعتراف مستقبلا بحق روسيا فى الاراضى التى كسبتها فى شرقى البلطيق . وفى تشرين الاول (اكتوبر) ١٧١٧ عاد القيصر الى روسيا بعد ان امضى فى الخارج سنة ونصفا .

وترك بطرس فى فرنسا آثارا طيبة . فخلال مكوثه فيها ولدت فكرة زواج لويس الخامس عشر من ابنته الصغرى يليزافيتا . وبالمناسبة فان تلك الفكرة لم تتحقق . وعبر المفكر المعروف سان سيمون ، وهو رجل رهيف ومتشائم للغاية ، عن اعترافه بقيمة الضيف الروسى الشهير حيث قال :

ـــ كل شىء فيه يشير الى سعة معارفه ومنطقيته الثابتة . فقد جمع بشكل مدهش للغاية بين منتهى العظمة المتميزة بالانفة والرقة والثبات والتى لا تضايقه بعد ان رسخها فى نفسه بوثوق وبين التأدب الذى تتجلى فيه تلك العظمة مع الجميع على الدوام . فهو سيد فى كل مكان ، لكن سيادته ذات درجات تبعا للناس . تلك هى الشهرة التى خلفها فى فرنسا حيث كان الفرنسيون ينظرون اليه نظرتهم الى المعجزة ولا يزالون معجبين به حتى الآن .

كانت الحرب مستمرة ، ولم يكن بالامكان اطلاقا اعتبار الموقف في شمال اوربا سهلا يسيرا . دبلوماسيو بريطانيا وهانوفر يحوكون الدسائس ضد بطرس ويؤلبون الدانمرك وبروسيا عليه . واقترح جورج الاول ان يوحد الملوك الثلاثة جيوشهم ويطردوا الروس من ميكلينبورغ . الا ان الملك فريدريك والملك فريدريك-ولهلم رفضا بصورة باتة ، فهما لا يريدان مجابهة الملك السويدى وجها لوجه بدون مساعدة بطرس . وبالعكس طلب ملك بروسيا من القيصر ان يضاعف افواجه المرابطة فى ميكلينبورغ . فهو خائف من فقدان شتيتّين وضواحيها التى حصل عليها مؤخرا . وعند ذاك اقترح دبلوماسيو جورج الاول على كارل الثانى عشر التحالف معه . الا ان هذا الاخير كان يعد لمغامرة جديدة انسياقا وراء هيرتس ، وهو مغامر من هولشتين (على غرار باتكول) . فقد خطط كارل الثانى عشر لانزال فيلق سويدى من عشرة آلاف شخص فى اسكتلندة فى ربيع ١٧١٧ لاسقاط الملك البروتستانتى جورج الاول بمساعدة اليعاقبة وتنصيب يعقوب ستيوارت الثالث على العرش . وكان يأمل فى ان يساعده الملك الجديد فى محاربة بطرس حتى يستعيد قوة السويد وعظمتها . ومن جديد انتفع بطرس من تهور كارل . ولم يخفِ القيصر فرحته بهذه المناسبة .

ورغم الموقف السلبـي الذى التزمه البلاط الانجليزى ازاء بطرس فقد استفاد هذا الاخير من الخلافات وقام بعدة خطوات دبلوماسية . ورغم شلل حلف الشمال بفعل دسائس بريطانيا الساعية الى الهيمنة على البلطيق لم يقف بطرس مكتوف الايدى . فقد تصرف مع الحلفاء بصدق وحذر . واثناء اللقاء بين بطرس وملك بروسيا فى هيفيلبيرغ اكد الطرفان اتفاقية

التحالف نفسها واتفقا على الضمانات المتبادلة فى الاراضى المنتزعة من السويد وعلى تبادل المساعدة . وبالاضافة الى ذلك وعد العاهل البروسى بتجديد معاهدة الصداقة مع ميكلينبورغ .

وفى نفس تلك الفترة ، اعتبارا من عام ١٧١٦ ، بدأت الاتصالات بين روسيا والسويد فيما يخص توقيع الصلح . وتقابل مع ممثلى كارل عدة مرات كوراكين نفسه الذى غالبا ما كان بطرس يكلفه باعقد المهمات الدبلوماسية المسؤولة . واستمرت المقابلات فى العام التالى . وفى اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) ارسل القيصر ، بناء على اقتراح من الملك السويدى ، مبعوثين الى آبو لاجراء المفاوضات . وهما بروس واوستيرمان . وفى توجيه الى بروس اكد القيصر على عدم اغاظة الحلفاء مع ان تصرفاتهم ادت الى تقويض حلف الشمال . وكان على بروس ان يخبرهم بمهمة الدبلوماسيين الروس المساهمين فى مفاوضات آبو . وجاء فى التوجيه :

— انت مكلف بالاستماع فقط الى المقترحات السويدية دون الدخول فى اية معاهدات . وسوف نخبر الحلفاء بتلك المقترحات ولن نوقع اية معاهدات مباشرة بدون موافقتهم .

وبخصوص المفاوضات التى بدأت فى عام ١٧١٦ كتب شافيروف بموافقة وتكليف من بطرس «رأيا» بصدد اسباب واهداف حرب روسيا ضد السويد . وتُرجم هذا المؤلف وصدر فى الخارج . وعرفت اوربا منه ان القيصر يريد لروسيا ان تمتلك الى الابد اينغريا وليفلانديا وايستلانديا مع ريفيل (تالّين) وكاريليا مع فيبورغ . اما فنلندة فيريد اعادتها الى السويد . ويجب ان تراعى مصالح الحلفاء — بولونيا وبروسيا والدانمرك وهانوفر .

واوصى بطرس ممثليه بابداء المرونة والصبر ازاء السويديين ، بحيث يمكن ان يحصل هؤلاء الاخيرون ، مقابل فقدان الاراضى فى شرقى البلطيق ، على تعويض «فى الجانب الآخر» . واقترح بطرس «توقيع الصلح باسرع ما يمكن» لكنه أكد فى الوقت ذاته قائلا :

— نحن نريد الصلح معهم ، الا اننا لا نخشى الحرب . ومهما اقترحوا عليكم فلا تفسدوا المؤتمر باى حال .

وفى ١٢ أيار (مايو) ١٧١٨ افتتح مؤتمر ألاند . ففى جزيرة سندشير الصخرية ، احدى جزر ارخبيل ألاند ، تبادل الدبلوماسيون الروس والسويديون العبارات الاولى :

— صاحب الجلالة القيصر يرغب فى الاحتفاظ بكل ما كسبه .

— الملك يرغب فى استعادة كل ما فقده .

وبعد التصريحين انتقلوا الى النظر فى الشروط تفصيلا . وكان العاهلان يقران كل خطوة يخطوها الدبلوماسيون ، فهما يتابعان باهتمام بالغ سير المفاوضات ويوجهانها . وجرت لقاءات سرية خاصة بين المغامر هيرتس رئيس الوفد السويدى وبين اوستيرمان المنطيق الشاطر الداهية . وفى اللقاءات المفتوحة طرح هيرتس والدبلوماسى السويدى الثانى هيلينبورغ مسألة «البديل» ، اى التعويضات الاقليمية . وحاول بروس واوستيرمان ان يفهما ما يقصده الجانب الآخر على وجه التحديد . وسرعان ما جاءت التوضيحات : تريد السويد استعادة كل الممتلكات السويدية التى انتقلت الى الدانمرك وهانوفر وبروسيا . علما بانها تريد استعادة تلك الاراضى بمساعدة عسكرية من روسيا ، اى ان هذه الاخيرة يجب ان تحارب حلفاءها .

زد على ذلك انها يجب ان تعيد الى الملك السويدى فيبورغ وكيكسهولم (كوريلا) وريفيل (تالّين) .

وقد انقطعت جلسات المؤتمر عدة مرات ، فقد كان هيرتس يراجع الملك فى استوكهولم لتلقى التوجيهات . والتجأ الروس الى الوسائل المعتادة — فقدموا الهدايا الثمينة الى هيرتس والدبلوماسيين الآخرين . واطلقوا من الاسر سراح شقيق هيلينبورغ وبادلوا الفيلدمارشال رينشيلد الذى وقع فى الاسر فى معركة بولتافا بجنرالين روسيين وقعا فى الاسر السويدى فى معركة نارفا قبل ذلك . الا ان الامور كانت بين بين . فالداهية اوستيرمان المقرب الى شافيروف ، وهو مثله من حيث الانانية والوصولية ، قد نحى عن المفاوضات بروس الذى هو اكثر منه نزاهة وارفع خلقا ، زد على ذلك انه اكبر سنا وارفع رتبة . كان اوستيرمان يتراسل سرا مع شافيروف باللغة الالمانية وقد اخفى الشفرة عن بروس .

الا ان مصيبة اوستيرمان هى ان هيرتس ، ذلك المغامر الاكثر حزما ولامبدئية ، يلعب لعبة اكثر وقاحة ومجازفة . ففى مسودة المواد الاضافية التى قدمها الى الدبلوماسيين الروسيين طالب بتنازل اغسطس الثانى عن العرش البولونى وعودة ستانيسلاف ليشّينسكى ملكا لبولونيا لا اكثر ولا اقل . وما يأتى ادهى وامرّ : فيجب ان تزج روسيا والسويد بقواتهما فى بولونيا ويستعيد الملك كارل اراضى بوميرانيا (بما فيها شتيتّين) التى انتقلت الى بروسيا ، وتعطى تعويضات الى الملك البروسى (بعض الاراضى البولونية) . وتساعد روسيا السويد فى استعادة الاراضى النرويجية العائدة الى الدانمرك والممتلكات الدانمركية فى المانيا (وهى ممتلكات سويدية

سابقا) وانتزاع فيردون وبريمين ، وكذلك دوقية تسيل (وهذه الاخيرة تعويضا عن الخسائر) من هانوفر . ووفقا لهذه الخطة الحمقاء ينبغى ان تنتقل ميكلينبورغ ايضا (بمساعدة روسيا طبعا) الى السويد ، ويحصل مالكوها على تعويض بشكل اراض اخرى . وهكذا يتعين على روسيا ان تتحالف مع السويد وتخصص لها مساعدة بـ١٥٠ الف جندى وتستولى لصالح الملك على الاراضى التى ضيعها بسبب سياسته المغامرة الهوجاء ، وبالتالى تدخل فى مجابهة مع اوربا كلها تقريبا — بولونيا والدانمرك وهانوفر وبريطانيا وحليفتيها الامبراطورية الالمانية (النمسا—المجر) وهولندة . كل ذلك مقابل اراضى البلطيق التى كسبتها روسيا من زمان . يا لها من شهية ، مقابل التحالف مع بلد مستنزف خائر لم يبق من سكانه الـ١٣٠٠ الف نسمة سوى ٧٠٠ الف ، وليس لديه لا مال ولا طعام ، وقد تقلص الانتاج فيه وهبط الى مستوى رهيب . ان مركب العظمة ظل يقود تصرفات الملك ونواياه رغم موافقته على المفاوضات . لقد تغاضى عن الاملاق المدقع للشعب المدمر ، تغاضى عن المجاعة والاوبئة . وظل الاسكندر المقدونى الجديد يعلل نفسه بالآمال ويتصور بانه سيجمع جيشا ويستعيد امجاد السويد وعظمتها ويدحر اعداءه — يدحر بريطانيا بمساعدة روسيا او روسيا بمساعدة بريطانيا ، وكأن معركة بولتافا لم تكن ، ولا معركة هانكو ، وكأن السويد لم تتكبد هزيمة ماحقة شاملة فى الحرب .

مشروع هيرتس جنونى بقدر ما هو خيالى ، وذلك بالدرجة الاولى من حيث مصالح روسيا . ولكنه ، ويا للغرابة ، حظى بتأييد ورضا اوستيرمان . فان «صفقته» مع كبير مخولى الملك

يمكن ان تسفر عن عواقب وخيمة للغاية . وكان شافيروف يعمل بنصائحه فى الاقدام على تنازلات للسويد . امـا غولوفكين رئيس مديرية العلاقات الخارجية فلم يكن يفهم بالكامل تقارير اوستيرمان المعقدة الغامضة . فهذا الاخير ، على حد تعبير كلوتشيفسكى «اخذ يتكلم بلغة الاحاجى والالغاز حتى لم يعد نفسه يفهم ما يقول» . وكان القيصر بطرس المعجب بالالمان من خريجى الجامعات (اوستيرمان بالاصل من ويستفاليا وقد درس فى جامعة ايين) لا يعرف عن المفاوضات الا من التقارير المقتضبة ، ولم يكن يعلم اطلاقا بالمراسلات السرية بين دبلوماسييه الاثنين . الا ان القول الفصل والكلمة الاخيرة بيده . ولم يكن بطرس ينوى ابدا توقيع الصلح بدون موافقة الحلفاء ، وهذا ما اعلنه قبل بدء المفاوضات . اما مشروع معاهدة الصلح مع كارل فيجب ، فى رأيه ، ان يؤثر على الحلفاء فى الاتجاه الصحيح : إما التعاون مع روسيا لارغام السويد على القبول بشروط الصلح النافعة لاعضاء الحلف الشمالى وإما دخول الحرب ضدها من اجل الممتلكات السويدية فى شمال المانيا ، ولكن دون ان تشارك روسيا فى تلك الحرب . ولم يكن القيصر فى الواقع يعلق اية اهمية على مشروع هيرتس . فهو بحاجة اليه من اجل المناورة الدبلوماسية .

الا ان كارل لم يساعد بطرس هذه المرة ، بل اعاقه . فمع ان المفاوضات وصلت حسب الظاهر الى نهاية طيبة حتى كتب بطرس فى ايلول (سبتمبر) ١٧١٨ يقول :

— نحن نعمل بعين ساهرة ، ولدينا امل .

الا ان ملابسات غير متوقعة حدثت ، وهى مرتبطة بالملك هذه المرة ايضا . فقد قتل فى النرويج اثناء حصـــار

فريدريكسغال . وتبدلت كل الامور . فقد استدعت الملكة اولريكا-ايليونورا ، شقيقة الملك الراحل ، مندوبه هيرتس وزجت به فى السجن ، وفى آذار (مارس) ١٧١٩ قطعت رقبته . ولم يحضر المندوب الجديد ليلينشتيدت المفاوضات الا فى ايار (مايو) ، واخذ يماطل لكسب الوقت . اما الملكة فقد رفضت التنازلات الاقليمية لروسيا وطالبت باعادة فنلندة وايستلانديا وليفلانديا . وكانت ، مع مستشاريها ، تأمل فى عزل روسيا بمساعدة بريطانيا واستعادة ما فقدته السويد .

فى خريف وشتاء العام السابق كان بطرس قد اوصى مبعوثيه بروس واوستيرمان برفض ادعاءات هيرتس ، وسعى مع ذلك الى عدم قطع المفاوضات مع السويد . اما الآن فهو مضطر من جديد الى مواصلة العمليات الحربية الكبرى التى كانت متوقفة فى الواقع عدة سنين . وبايعاز من بطرس توجه اوستيرمان الى استوكهولم وبلغ الملكة تحذيرات القيصر : ستسعى روسيا الى الصلح بقوة السلاح طالما عجز الدبلوماسيون عن تحقيقه فى ألاند .

لم يترك السويديون مؤتمر ألاند ، لكنهم لا يريدون الاتفاق على الصلح . فالبلاط السويدى الميال الى بريطانيا يريد تحقيق مبتغاه بمواصلة القتال ضد روسيا . اما بطرس فقد وضع الآن خطة جريئة وترأس الاسطول متوجها الى شواطئ السويد وقام بانزال عليها . ولم يجدوا اثرا للسويديين . فان تفوق روسيا برا وبحرا لا جدال فيه من زمان . وانسحبت الفصائل السويدية الى اعماق البلاد على عجل ، بينما تشن القوات الروسية العمليات فى المناطق الساحلية وتدمر المصانع قبل غيرها . وشن القوزاق غارات خاطفة على ضواحى العاصمة

السويدية . وفى آب (اغسطس) امر بطرس بوقف العمليات الحربية نزولا عند طلب الجانب المقابل ليتمكن الدبلوماسيون من مواصلة اللقاءات فى ألاند . لكن تلك اللقاءات لم تسفر عن نتيجة ، فتوقفت اعمال المؤتمر فى ايلول (سبتمبر) .

وفى الشهر ذاته ذاع نبأ توقيع معاهدة التحالف بين بريطانيا والسويد . وظهرت فى بحر البلطيق عمارة انجليزية بقيادة الاميرال نوريس . الا ان الضغوط والتهديد والوعيد لم تسفر عن النتائج التى يتوخاها الحليفان الجديدان . فلم يكن بطرس يريد الصدام السافر مع بريطانيا ، ولذا خبأ اسطوله فى مرافئ محروسة بالمدافع . ولم يكن ينوى التنازل امام الضغوط :

— لن نعبأ بأية تهديدات ولن نوافق على الصلح غير النافع ، لكننا سنواصل الحرب .

ولم ترتبك روسيا امام الموقف العدائى الذى اتخذته اقوى دولة بحرية فى العالم آنذاك . فقد نمت قدرة روسيا الاقتصادية والحربية لدرجة كبيرة . وفى الخريف عادت الى بريطانيا عمارة نوريس التى كانت تريد تدمير الاسطول الروسى . وفى ربيع عام ١٧٢٠ ظهرت تلك العمارة فى البلطيق ثانية . وكانت معززة بسفن اضافية . ومع ذلك قام الروس بانزال جديد فى السويد وادوا عملهم فى ساحلها الشرقى . واخبر بطرس سفيره كوراكين بذلك قائلا :

— صحيح اننا لم نلحق بالعدو اضرارا بالغة ، لكن ما قمنا به والحمد لله جرى امام انظار معاونيهم (الانجليز من عمارة نوريس — **ملاحظة المؤلف**) الذين لم يتمكنوا من معاونتهم بشىء .

وفى اواخر تموز (يوليو) من العام نفسه دمرت العمارة

الروسية تدميرا تاما القوات البحرية السويدية الاكثر عددا فى معركة غرينهام . واثناء القتال هاجمت السفن الروسية المجذافية فرقاطات العدو الاقوى بكثير من حيث التسليح ، واستولى الروس على اربع فرقاطات ، علما بانه «تم الاستيلاء على اثنتين منها فى اشتباك بالسلاح الابيض اثناء السير السريع» على حد تعبير بطرس . ولم يتمكن نوريس من اعاقة الروس ومساعدة السويديين بشىء . صحيح ان نوريس احـــرق منزلا وحمّاما للشغيلة فى جزيرة نارغين قرب ريفيل حيث كانت ترابط سفنه والسفن السويدية . وكتب بطرس بهذا الخصوص مازحا الى كوراكين ينصحه بان ينشر فى صحف اوربا الغربية نبأ هذا الانتصار العظيم . اما القيصر نفسه فقد استلم بهذا الخصوص رسالة من مينشيكوف «يواسيه» فيها مازحا :

— ارجو ألا تحزنوا بخصوص حرق المنزل والحمّام . الافضل ان تتنازلوا لهم عن هذه الغنيمة كى يقتسموها : الحمّام للاسطول السويدى والمنزل للاسطول الانجليزى .

ولم تتكلل دسائس مجلس الوزراء البريطانى فى البلطيق بالنجاح . واخفق «نظامُ ستينهوب» رئيس الحكومة التى كانت تأمل فى فرض السيطرة البريطانية على البحر الابيض المتوسط والبلطيق . صحيح ان فرنسا والنمسا وهولندة دخلت معها الحلف الرباعى الموجه ضد اسبانيا ، وضد روسيا بعد التحالف الانكلوسويدى . واتخذت النمسا موقفا نشيطا جدا فى معاداة روسيا فى هذا الحلف الرباعى . ولم تكن فرنسا تميل الى تأييد بريطانيا فى كل شىء فى البلطيق . اما هولندة فقد التزمت الحياد بحكم مصالحها التجارية . وعمل ضد روسيا

بالتواطؤ مع النمسا وهانوفر اغسطس الثانى ، بوصفه حاكما لسكسونيا ، فهو لا يريد ان يغفر لبطرس ابعاد قواته السكسونية من بولونيا فى عام ١٧١٧ .

وفى ٥ كانون الثانى (يناير) ١٧١٩ ظهرت فى فينا معاهدة المساعدة المتبادلة والتحالف بين النمسا وهانوفر وسكسونيا (حلف فينا) . واتفقت هذه البلدان على بذل جهود مشتركة لاعاقة محاولات بطرس الرامية الى احتلال بولونيا (وكأن لديه مثل هذه المخططات) وامرار قواته عبر الاراضى البولونية الى المانيا . وكان جورج الاول الذى وقع المعاهدة بوصفه حاكما لهانوفر قد وعد ، بوصفه هذه المرة ملكا لبريطانيا ، بان يقدم اسطوله فى البلطيق المساعدة الى الحلفاء ضد روسيا . واخيرا وضعت تلك البلدان بنفسها شروطا للصلح بين السويد وروسيا : تترك للقيصر بطرسبورغ وجزيرة كوتلين ونارفا ، وتؤخذ منه ايستلانديا وليفلانديا ، وتسلم كييف وسمولينسك الى بولونيا .

ولم تكن لمعاهدة فينا اهمية فعلية . فان انتصارات السلاح الروسى كان لا بد وان تؤثر على جميع الموقعين على المعاهدة رغم الابتزاز الذى مارسوه . فتلك الانتصارات كانت تتجدد من عام لآخر فى بحر البلطيق وفى شمال المانيا وفى الاراضى السويدية نفسها وحتى فى اطراف استوكهولم . اما العمليات الحربية فى الاراضى الروسية فلم يعد لها وجود من عهد معركتى ليسنايا وبولتافا .

وقد حال جبروت روسيا دون ائتلاف قوى مثل الحلف الرباعى لاقوى الدول الاوربية ودون زعزعة المواقع الروسية . فان جيش بطرس المؤلف من مائة الف رجل يرابط عند

الحدود البولونية . واسطوله يحرز الانتصارات فى البلطيق . الا ان الانتصارات لا تسكر القيصر ولا تدوخ رأسه . وكشف عن ذلك مرة اخرى تكرار قضية ميكلينبورغ السيئة الصيت . ففى شباط (فبراير) ١٧١٩ احتلت قوات هانوفر وامارة ولفينبوتيل دوقية ميكلينبورغ بقرار من امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة الذى اخذ بنصيحة جورج الاول . وبحجة تسوية النزاع بين كارل-ليوبولد ، دوق ميكلينبورغ ، وبين نبلائه فرض الحظر على ادارة الدولة . ووصلت عقيلة الدوق يكاترينا ايفانوفنا ، ابنة اخى بطرس ، الى بطرسبورغ باكية وطلبت المعونة من عمها . الا ان القيصر امتنع عن التدخل متصورا بحق ان التدخل يدفعه الى الصدام مع ابرز دول اوربا .

ولم يكن تنازل بطرس فى قضية ميكلينبورغ يعنى انه سيتراجع فى المفاوضات مع السويد . ففى الحالة الاولى كانت تلك مسألة من الدرجة الثالثة بالنسبة لمصالح روسيا مع انها تمسه عائليا ، اما الحالة الثانية فهى تتعلق بمصالح الدولة الحيوية الهامة . ولذا اكد القيصر ثانية فى توجيه جديد الى بروس واوستيرمان (بتاريخ ١٥ آذار- مارس ١٧١٩) على ضرورة بقاء مكتسبات روسيا فى شرق البلطيق . وكان بطرس مستعدا للتنازل بدفع مليون روبل الى السويد مقابل ليفلانديا .

كان البلاط السويدى يعلل النفس بآمال وهمية فى نجاح الخطة البريطانية «للتهدئة فى الشمال» ، وكان دبلوماسيوه يماطلون فى المفاوضات مع الجانب الروسى ليكسبوا الوقت . وكان الحلف الرباعى وحلف فينا يأملان فى ان يتراجع بطرس امام هذه الجبهة القوية . ونصح ملك بروسيا فريدريك- ولهلم القيصر بعدم المجازفة فالتنازلات فى ألاند افضل .

لكن القيصر غير متعود على التراجع عندما يشعر بانه قوى والحق الى جانبه . وبدلا من ذلك قرر ان ينتقل الى الهجوم . ورد على العاهل البروسى قائلا :

ـــ لا ارى طريقا يمكننا من الوصول الى الصلح المعقول مع السويد ما عدا الصلابة .

كان يجب ان تتكلم المدافع بدلا من الدبلوماسيين ، لان السويديين لن يفهموا شيئا «اذا لم تستخدم المدافع» على حد تعبير القيصر الذى لم يقتنع بما قاله فريدريك-ولهلم عن مثال اسبانيا المؤسف ، حيث تمنى بالهزيمة فى القتال ضد بلدان الحلف الرباعى . فان قوة روسيا اكثر بكثير من قوة اسبانيا . وان دخول فرنسا والنمسا فى قتال ضد روسيا احتمال ضعيف ، والاسطول الروسى لا يخشى الاسطول الانجليزى . ولكل تلك البلدان مشاكل تشغل بالها . وقد تأكدت ثقة بطرس باسطوله على اروع شكل فى معركة غرينهام البحرية . آنذاك قامت الفصائل الروسية بانزال شمالى وجنوبى استوكهولم ودمرت ثمانى مدن ، بما فيها نورتشوبنغ ثانى مدينة بعد العاصمة ، و٢١ مصنعا و١٣٦٣ قرية وغير ذلك . وتنفيذا لامر بطرس لم يتعرض الجنود للاهالى ولم يدمروا الكنائس . وقال الاميرال أبراكسين قائد الانزال الذى كشفت عملياته عن عجز السويد وانعدام الحماية فيها ان احتلال استوكهولم لا يتطلب جهدا كبيرا . وكان السويديون فى الواقع يدفعون ثمن الفساد الذى ارتكبه جنود كارل الثانى عشر فى الاراضى الروسية ، لكن الجنود الروس لم يعاملوا السكان بنفس قساوة السويديين .

كان الاسطول البريطانى بقيادة نوريس الذى عولت عليه

السلطات السويدية يمخر مياه بحر البلطيق ، ولم يصل الى استوكهولم الا بعد ان غادرت سفن الانزال الروسية المياه الساحلية . صحيح ان دبلوماسيي جورج الاول كانوا يعملون في كافة ارجاء اوربا ضد مصالح روسيا . وقد اجتذب دبلوماسيو بريطانيا وهانوفر كل انصار روسيا الى جانبهم . ووقعت السويد معاهدات مع بريطانيا وهانوفر وبروسيا والدانمرك . ومع ان اغسطس الثانى لم يوقع اتفاقية فقد اجرى مباحثات مع السويد بشأن التحالف ضد روسيا (ولم يتم التحالف لان بولونيا لم ترغب فى محاربة روسيا وما كان بوسعها ان تحاربها) .

وفى ١٧١٩ — ١٧٢٠ وجدت روسيا نفسها فى عزلة دبلوماسية . والاكثر من ذلك ان بطرس تلقى من مختلف البلدان تقارير ممثليه بشأن التحضير لهجوم مسلح على شرق البلطيق ، بل وعلى روسيا . وكان ينتظر ان تشترك فى هذه العملية الهائلة اساطيل بريطانيا والسويد وبلدان اخرى وجيوش السويد والنمسا وبروسيا والامارات الالمانية . وتمولها فرنسا وبريطانيا . وفى الوقت ذاته تشن الاستانة العمليات الحربية فى جنوب روسيا . وتلبدت الغيوم الرهيبة فى سماء روسيا على ما يبدو . . .

ورغم الضجة التى اثارها خصوم روسيا فقد كان يعوزهم الاجماع . كانت هناك تناقضات بين فرنسا وبريطانيا ، وكذلك بين البلدان الاوربية الاخرى . كلها لا تميل الى شن عمليات حربية نشيطة ضد القيصر الروسى ، بل تفضل دفع المال (حيث تسدده بشكل قروض او مقابل المدن والاراضى السويدية التى انتقلت الى تلك الدول فى شمال المانيا) . اما الاسطول الانجليزى القوى فان استعراضاته فى

البحر اثناء عمليات السفن الروسية والانزال قرب استوكهولم كشفت عن زيف وعود البلاط البريطانى . وكانت لابرز بلدان اوربا مصلحة فى التجارة مع روسيا . والاكثر من ذلك ان مطالب وادعاءات الحلفاء الجدد للسويد التى فقدت بتوقيع الاتفاقيات الجديدة اكثر مما كسبت كانت تستهدف خلق انطباع مناسب عند الملكة ووزرائها . ولم تترك تلك المطالب انطباعا عند بطرس وروسيا . فقد ظل القيصر ووزراؤه ودبلوماسيوه يواصلون سياسة حكيمة حذرة وموزونة . وقدم كوراكين فى تقاريره الى بطرس تحليلا دقيقا للموقف فى اوربا وتقدم بنصائح حكيمة فيما يخص نهج روسيا فى التعامل مع بريطانيا وهولندة وبولونيا والبلدان الاخرى . وهو يعتقد ان الوقت فى صالح روسيا . فالحلف الرباعى سيتقوض من كل بد حالما ينتهى النزاع بين الدول المنضمة اليه وبين اسبانيا ، ولا تريد البلدان الاوربية حربا سافرة ضد روسيا ، ويجب المتاجرة مع تلك البلدان والاحتفاظ بعلاقات ودية معها .

وقد اخفقت خطة الحملة المشتركة الكبرى على روسيا حالما وصل مبعوثو ملكة السويد الى بلاطات اوربا لوضع توصيات عملية . واتضح ان خطة «التهدئة فى الشمال» مجرد وهم بالنسبة للسويد . لقد ضيعت اراضيها فى شمال المانيا نهائيا عندما وافقت على ادراجها ضمن اراضى حلفائها الجدد . لكن هؤلاء الحلفاء لم يستطيعوا ان يحولوا دون هجوم الانزال الروسى على اراضى السويد نفسها ، بل لم يكونوا ، على ما يبدو ، يريدون الدخول فى نزاع مع روسيا معتبرين هذه القضية صعبة وليس فيها نفع كبير . ولم يكن بطرس هو الآخر يريد المخاطرة . فبأمر منه تفادى الاسطول

الروسى الصدام مع عمارة نوريس . اما القلاع والمرافئ في ساحل البلطيق والتى غدت روسية من زمان وكذلك العمارتان قرب ريفيل وكرونشتادت فقد كانت على اهبة الاستعداد التام للقتال . وبعث الاميرال أبراكسين رسالة الى الاميرال نوريس نصحه فيها بابعاد سفنه عن السواحل الروسية «مسافة مناسبة» ، واعتبر الاميرال الانجليزى هذه النصيحة معقولة ، وعلى اية حال فلم يبدِ اثرا للشراسة والرغبة فى الحرب .

وفى عام ١٧٢٠ نفسه تقوض الحلف الرباعى على مرأى من اوربا ، فقد وضعت الحرب ضد اسبانيا اوزارها ، وبدأت المفاوضات معها . وراحت النمسا وفرنسا تجسان النبض لاجل التحالف مع روسيا ، ولمح البلاط فى فرساى الى عدم اعتراضه على تسليم جبل طارق الى اسبانيا ، وليست هناك رغبة اطلاقا فى الانضمام الى عملية حربية مشتركة ضد روسيا . فقد اقترحت فرنسا على بطرس ان تتوسط فى المفاوضات مع السويد . وفى هذه المرة تبقى بريطانيا فى عزلة حسب الظاهر. وذهبت سدى كل نشاطات دبلوماسييها واستعراضات عمارة نوريس التى كلفت الدولة ٦٠٠ الف جنيه استرليني .

صحيح ان العلاقات بين روسيا والباب العالى تأزمت فى اواخر عام ١٧١٩ ، حتى بلغ الامر حد طرد داشكوف السفير الروسى فوق العادة من الاستانة . وكان لدسائس السفير الانجليزى ضلع فى ذلك . فقد كتب داشكوف الى القيصر يقول :

— لم اكن اتصور مطلقا عدوا لجلالتكم ألدّ من الملك البريطانى ، فان وزيره يحاول كل يوم ان يسبب لى اذى ما .

الا ان الخلاف الدبلوماسى سُوي بمساعدة السفير الفرنسى ديبوناك ، حتى ان روسيا والامبراطورية العثمانية وقعتا فى ٥

تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧٢٠ معاهدة السلام الدائم . وباءت بالفشل نوايا بريطانيا فى تأليب الاستانة ضد روسيا . وحصل الشيء ذاته مع بولونيا . فان حكامها الذين استلموا اموالا طائلة من الانجليز والسويديين والسكسونيين رفضوا القتال ضد جيوش بطرس . فان تأييد بطرس ، وهم يفهمون ذلك جيدا ، يؤمن سلامة ووحدة بولونيا التى تطمع فى اراضيها الدول الجرمانية المجاورة . وهمّ اغسطس الثانى الذى اخفقت مخططاته هذه المرة ايضا بان يهدد بطرس بأذى يمكن ان يسببه له ، هو الملك ، واقترح العودة الى جادة الصداقة . وردا على ذلك تلقى الحليف الخائن جوابا فاترا متزنا لائقا من القيصر الروسى :

— عندما تقترح استئناف الصداقة لا يليق بك ان تستأنف اعمالا تثير الاشارة اليها نفور جلالة القيصر لا غير . . . فان جلالة القيصر لم يتعود على السماح لاحد ، اى كان ، بان يخيفه بالتهديد والوعيد .

ومنيت بالفشل خطة «التهدئة فى الشمال» . وراح واضع هذه الخطة التى هيئت طوال خمسة اعوام كاملة ، وكذلك وزراء حكومته ينصحون السويد بان تتفق بنفسها مع بطرس حول توقيع الصلح . فالبلد الذى دمر واستنزف من زمان لكنه ظل ، بالاعتماد على نصائح الساسة الانجليز وغيرهم ، يواصل عبثا طوال عشر سنين حربا ميئوسا منها ضد روسيا قد عاد بخفى حنين . وراح زعماؤه يتكلمون من جديد عن الصلح مع بلد اقترح الصلح واراده من زمان . واتخذ مجلس الدولة فى السويد قرارا ببدء جولة جديدة من المفاوضات . وراح حلفاؤها والمتكرمون عليها من بريطانيا والامبراطورية الرومانية

المقدسة وغيرهما يتنافسون فى عرض خدماتهم للتوسط بينها وبين روسيا . ووزع المبعوثون الدبلوماسيون الروس فى بريطانيا مذكرات تحدثت عن الدور المشين الذى لعبته هانوفر وحاكمها ، وهو الآن ملك بريطانيا ، فيما يخص الممتلكات السويدية فى المانيا وخرق الالتزامات التى اخذها على عاتقه . واستاء جورج الاول اشد الاستياء . وطُرِد الدبلوماسيون الروس من لندن الواحد اثر الآخر ، وفى بداية شتاء ١٧٢٠ حصل فى الواقع انقطاع فى العلاقات بين البلدين . الا ان بطرس سمح للانجليز بدخول روسيا والمتاجرة معها كالسابق . وقد تصرف كسياسى قوى واثق من نفسه . ويمكن ان يتعلم على يده الآن اساطين السياسة الخارجية الذين درس الروس ، وفى مقدمتهم بطرس نفسه ، فن الدبلوماسية على ايديهم فى وقت غير بعيد نسبيا .

وبعث الملك السويدى فريدريك الاول طلبا الى بطرس باجراء مفاوضات الصلح بدون وسطاء . واستلم القيصر رسالته فى تشرين الاول (اكتوبر) ، وفى الوقت ذاته اقترح بلاط فرساى الوساطة . فقبل بطرس هذا الاقتراح ، لان الساسة الفرنسيين كانوا من ذلك الحين يخططون لتحالف مع روسيا . وكان من الحكمة ارضاء رغباتهم . ووصل كامبريدون السفير الفرنسى فى استوكهولم الى بطرسبورغ ومعه مبالغ ضخمة لرشوة الدبلوماسيين الروس . لكن هؤلاء لم يأخذوا المال ، وليس ذلك بسبب نزاهتهم ، بل لخوفهم من غضبة بطرس الذى لا يطيق مثل هذه الامور فيراقب معاونيه بعين ساهرة . وبدأ كامبريدون مباحثات الوساطة : تحتفظ روسيا ، حسب اقتراحه ، ببطرسبورغ ونارفا واينغريا ، لكنها تعيد الى السويد ايستلانديا

وليفلانديا وفيبورغ والخ . . وعندما سمع الدبلوماسيون الروس هذا الكلام «قهقهوا باعلى اصواتهم» على حد تعبير السفير الذى كتب عن ذلك الى بلاطه مغتاظا . وفى اللقاء مع بطرس الذى جاء من حوض بناء السفن فى قمصلة البحارة وتفوح منه رائحة الاصماغ (فقد شارك فى التحضير لانزال سفينة الى الماء) كرر كامبريدون الشىء ذاته وقال ان القيصر سيشتهر بطيبة قلبه ازاء عدو مقهور . لكنه منى بالخيبة والفشل هنا ايضا . فقد اوضح القيصر صراحة انه غير مهتم بالشهرة الشخصية ، بل بشىء آخر ، فهو لا يستطيع ان يسلم ما كلف روسيا وشعبها ذلك القدر الكبير من الجهود والدماء والاموال . ولم يحقق السفير الفرنسى شيئا ، لكنه رأى بأم العين امرا هاما ، رأى القيصر–النجار والبوارج الروسية الكبيرة تنزل الى الماء الواحدة تلو الاخرى من قواعدها فى حوض الادميرالية .

عاد كامبريدون الى استوكهولم وعلم منه الزعماء السويديون وكذلك كارتريت السفير البريطانى فى السويد ما كان المفروض ان يفهموه من زمان . فان بطرس لن يقدم على التنازلات ، وان السويد ينبغى ان توقع الصلح تفاديا لما هو اسوأ . فان روسيا يمكن ان تطالب بتنازلات اكبر وتحقق ما تريد ، فلديها قوات كافية . وخرج السفير الفرنسى من زيارة العاصمة الروسية باستنتاج صحيح :

— لو عاش هذا القيصر عشر سنوات اخرى ، فى حالة حرب او سلم لا فرق ، فان جبروته يغدو خطرا حتى على ابعد الدول . ومع اننى امضيت هنا وقتا قليلا لكننى استطيع ان اقول مؤكدا انه يتصرف مع الاجانب بحذر ليحقق مصالحه فقط ويبلغ هدفه . ومهما كان استقباله لهم ، سواء فى

علاقات ودية او لاغراض تجارية ، فانهم لن يحصلوا منه على اية منافع الا اذا كان القيصر واثقا من انها ضرورية له .

وهكذا نرى الدبلوماسيين الفرنسيين والانجليز الذين كانوا لامد غير بعيد يستهينون بزملائهم الروس فى المهنة وبالقيصر الروسى صاروا الآن يقدرون مواهبهم وحذقهم ومهارتهم حق قدرها ويعترفون بان لديهم سندا متينا هو قوة البلد الجبار ، قوة الشعب ، ولذا يجب ان يحسب لهم حساب (شئنا ام ابينا) .

وفى مدينة نيشتادت الفنلندية التقى بروس واوستيرمان من جديد مع الدبلوماسيين السويديين فى ٢٨ نيسان (ابريل) ١٧٢١ . وكان البلاط الملوكى البريطانى ، فضلا عن السويدى ، فى عجلة من الامر بخصوص الصلح . وكان تونسيند ، خليفة ستينهوب الذى توفى فى كانون الثانى (يناير) من العام ذاته ، قد اثبت من زمان فى مجلس الوزراء البريطانى ان من غير الجائز فى العلاقات مع روسيا الاقدام على المخاطرة ، لا سيما المغامرة ، فهو يؤدى الى الحرب معها . ومع ذلك سارت المفاوضات بشق الانفس . فان استمرارية التعنت والغطرسة الموروثة عن كارل الثانى عشر لا تزال تفعل فعلها .

وكان بطرس يتوقع ذلك ، فجعل الجيش والاسطول على اهبة الاستعداد . وقام الروس بانزال جديد (٥ آلاف جندى وقوزاقى) وهدوا المصانع والمستودعات والسفن السويدية . ولم تتمكن القوات السويدية من ابداء مقاومة جدية . ولم يحرك نوريس وعمارته ساكنا . ولم يخطط القيصر لعمليات كبيرة ، لان ما تحقق فيه الكفاية برأيه . وفى حزيران (يونيو) استقبل فى بطرسبورغ بحفاوة وترحاب كارل–فريدريك دوق هولشتين . فهو ابن اخ كارل الثانى عشر وله حق فى عرش

السويد ، لا سيما وانه طلب يد آنّا ابنة بطرس الكبرى . واستولى على فريدريك الاول واولريكا-ايليونورا قلق شديد .

وراح بطرس يوجه فى نيشتادت مخوليه ويبعث اليهم شروط الصلح وشروحا لها بالاضافة الى الرسائل والمذكرات . وبعث اليهم من ريفيل وريغا وروغرويك وهيلسينغفورس توجيهات وايعازات جديدة ، ودرس تقاريرهم . ورغم تعنت ممثلى السويد الذين اعلنوا بانهم «لن يوقعوا المعاهدة حتى لو قطعت ايديهم» (وفقا للشروط الروسية) فقد وقعوها فى آخر المطاف . وكانوا فى بادئ الامر قد طالبوا روسيا باعادة كثير من الاراضى والمدن ، حتى بطرسبورغ ، اما فى النهاية فقد وافقوا على التنازل عن ليفلانديا الى الابد مع ان بطرس وافق فى مؤتمر ألاند على امتلاكها مؤقتا (لمدة ٤٠ او ٢٠ عاما) . الا ان روسيا اعادت فنلندة الى السويديين ووافقت على تسديد مليونى روبل تعويضا عن ليفلانديا وعدم ادراج بند فى نص المعاهدة حول ادعاءات حاكم هولشتين والسماح للسويديين بشراء القمح من روسيا بدون رسوم جمركية . وقال بطرس بحق :

— اقترحت على اخى كارل الصلح من جانبنا مرتين ، مرة اضطرارا ومرة بطيبة خاطر . لكنه رفض فى كلتا الحالتين . اما الآن فليوقع السويديون معى مكرهين صلحا شائنا بالنسبة لهم .

وفى سياق المفاوضات طالب السويديون «ببديل» عن فيبورغ . واوعز بطرس الى دبلوماسييه بان يجيبوا كالآتى :

— ليست عندنا اراض فائضة عن الحاجة .

ورد القيصر بسرعة وحزم على مسألة التنازل عن بطرسبورغ :

— فيما يخص مشروع الدبلوماسيين السويديين حول

تنازلاتهم لنا وقولهم بانهم يتنازلون لنا عن بطرسبورغ يجب ان تعلنوا لهم اثناء التوقيع بانه لا موجب لذكر بطرسبورغ لانها لم تكن من ممتلكاتهم .

ورفض طلب السويديين بترك جزيرة ايزيل لهم . واشاد القيصر (في رسالة الى أبراكسين) بتأثير الانزال الروسى الجديد في السويد :

— الدبلوماسيون السويديون غدوا اكثر تساهلا مما كانوا قبله .

ولهذا السبب الغى الحملة الجديدة التى كان مقررا شنها في نفس الاتجاه .

واخبره بروس عن قرب توقيع المعاهدة فقال بطرس مستخدما التعابير البحرية :

— ريح مؤاتية تهب علينا من نيشتادت .

وحذر القيصر بروس واوستيرمان قائلا :

— لى الحق ان اكون اول من يحمل هذا النبأ الى بطرسبورغ ، لاننى اكثر من جد واجتهد في هذه الحرب ، ولذا لا تسمحْ لاحد ان يأتى بهذا النبأ سوايَ . ولا يبعث احد من رجالنا رسائل رسمية من المؤتمر حول هذا الموضوع .

كانت لدى القيصر الشغيل المحارب كل المبررات للتمتع بميزة المبادرة الى تبليغ العاصمة والدولة بالخبر المفرح ، خبر انتهاء الحرب المرهقة الطويلة الامد (٢١ عاما) التى وضعت اوزارها اخيرا بنصر كبير رائع لروسيا . فالمعاهدة التى وقعت في نيشتادت في ٣٠ آب (اغسطس) ١٧٢١ اذاعت نبأ حلول السلام الابدى بين السويد وروسيا وحصول هذه الاخيرة بالكامل والى الابد على اينغريا على الساحل الجنوبى

للخليج الفنلندى وقسم من كاريليا وكامل اراضى ايستلانديا وليفلانديا ، بما فيها مدن ريغا وريفيل وديربت ونارفا وفيبورغ وكوريلا (كيكسهولم) وجزيرتا ايزيل وداغو . وكان ذلك نصرا مبينا لسياسة بطرس الخارجية ودبلوماسيته ، وحصيلة طال انتظارها لحرب نعتها القيصر «بالمدرسة ذات المراحل الثلاث» .

كان بطرس محقا عندما قال ان «امّنا روسيا لم تحظ ابدا بمثل هذا الصلح النافع» . حقا ، فاثناء النصر فى معركة بولتافا كان يتحدث عن ضرورة احتفاظ روسيا بقلعة نارفا وبطرسبورغ مع قليل من الاراضى المستنقعة حولها . اما الآن فقد حصلت روسيا على ما لم يكن بوسعها ان تحلم به فى تلك الحقبة . لقد ساعد اقتران البسالة والمواظبة مع رباطة الجأش والحذر على حل المشكلة الوطنية التى وضعها التاريخ امام الدولة الروسية . وكان صلح نيشتادت انتصارا ليس فقط على السويد بل وعلى كل بلاطات اوربا بما فيها من دسائس وتفنن فى العداء .

وفى ٣ ايلول (سبتمبر) عندما كان بطرس فى طريقه الى فيبورغ بلغه نبأ توقيع الصلح . واستلم مظروف نص المعاهدة الذى جلبه رسول من نيشتادت . ولم يتسنَّ الوقت حتى لترجمته . فقد كان بروس واوستيرمان فى عجلة من امرهما . وكتبا الى القيصر يقولان :

— لم يسعفنا الوقت للترجمة . فقد كنا نخشى ان يذيع نبأ توقيع الصلح .

أوى بطرس الى فراشه صامتا دون ان يتفوه بكلمة الى مرافقيه ، مع ان الرغبة تتحرقه فى ابلاغهم . لكن النعاس لم يجد اليه سبيلا . ففى ذهنه وامام ناظريه مرت تباعا سنوات

حرب الشمال . . .

وفى صباح اليوم التالى توجه فى سفينة شراعية الى بطرسبورغ . وعندما ولجت السفينة المدينة من خلال نهر نيفا امر باطلاق نيران المدفعية ، وبين اطلاقات المدفعية كان يصيح فرحا امام الناس الذين اجتمعوا على ضفتى النهر ان الصلح قد تم . وطوال النهار جاب شوارع المدينة فرسان يحملون الرايات البيضاء ونافخو الابواق وقارعو الطبول ، وبين اصوات الابواق وقرع الطبول كانوا يذيعون على السكان نبأ توقيع الصلح . وازدحمت العاصمة من جديد بحشود الاهالى المستبشرين . واطلقت قذائف التحية واقيمت الالعاب النارية والحفلات الراقصة ومهرجانات الاقنعة احتفالا بفرحة انتهاء الحرب . وكان القيصر فى بدلة البحارة الهولندية يقرع الطبل بحماس ويرقص على المنصات وينشد الاغانى مع الجميع ويفرح ما شاء له الفرح . ولم يكن يخفى مدى سعادته فى ذلك اليوم ، ويقول ان هذه الفرحة بالنسبة له اعظم فرحة على وجه البسيطة .

وفى ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) جرت مراسيم جديدة مفرحة ايضا بالنسبة للقيصر . ففى جلسة مهيبة للسينات طلب غولوفكين باسم اعضاء المجلس من القيصر ان يتقبل لقب «ابو الوطن وامبراطور روسيا بطرس الاكبر» . ووقع النداء المقدم اليه بهذا الخصوص كل اعضاء السينات التسعة . وبذلك غدت روسيا رسميا امبراطورية ، وغدا قيصرها امبراطورا لدولة هائلة جبارة صارت فى عهد بطرس فى عداد الدول العالمية الكبرى .

لقد حلت قضية الشمال ، قضية البلطيق . اما قضية

الجنوب ، منطقة البحر الاسود ، فقد تعثرت . وتم حل مشكلة البحر الاسود فى عهد خلفاء بطرس ، فى عهد يكاترينا الثانية وبوتيومكين ، لكن ذلك لا يعنى مطلقا ان بطرس لم يكن مهتما بالاتجاه الجنوبـى والشرقى فى سياسة روسيا الخارجية . فالحياة نفسها ما كانت لتسمح بعدم الاهتمام بهذا الاتجاه . فتارة كانت الحاجة تدعو الى دره خطر الحرب مع الامبراطورية العثمانية ، وتارة الى صد غزوات عساكر القرم والنوغاى وتتر كوبان المدمرة للمدن والقرى الروسية الجنوبية والاوكرانية ، وتارة الى ترميم مصانع جنوب الاورال التى دمرها البدو الرحل . وقد تطلبت مصالح المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية فى روسيا ، بل ومصالح الدولة كلها ، اقامة علاقات دبلوماسية مع البلدان المجاورة وتطوير التجارة معها . فان روسيا ليست مجرد بلد اوربـى ، انها ايضا بلد آسيوى تنبسط اراضيه حتى المحيط الهادى والمحيط المتجمد الشمالى ، وحتى آسيا الوسطى وامبراطورية الصين . وكان التجار الانجليز والهولنديون والبرتغاليون يمارسون قبل ذلك ، ولامد طويل نسبيا ، تجارة الترانزيت مع البلدان الآسيوية عبر اراضى روسيا . اما الآن فقد حان الوقت لضبطها . وهيأت موانئ البلطيق التى حصلت عليها روسيا بنتيجة حرب الشمال الفرصة للقيام بذلك .

ولم تكن لروسيا علاقات دبلوماسية دائمة مع جيرانها الجنوبيين الشرقيين . فالعلاقات مع الصين وحيوى وبخارى كانت ذات طابع وقتى . فى عام ١٦٨٩ وقعت مع امبراطورية الصين معاهدة فى نيرتشينسك الواقعة وراء البايكال . واضطرت روسيا الى التنازل عن بعض الاراضى التى استثمرها الرواد الروس حتى

ذلك الحين . وكانت لروسيا علاقات تجارية ايضا . وجرى تجهيز بعثات في الاتجاه الجنوبي . ففي عام ١٧١٤ توجه العقيد بوخهولتس مع رفاقه الى جنوب نهر ارطيش واسس هناك مدن اومسك وسيميبالاتينسك واوست–كامينوغورسك وغيرها . وبعد عامين توجهت فصيلة من ثلاثة آلاف شخص برعاية الامير الكاباردينى بيكوفيتش بايعاز من بطرس الاكبر الى آسيا الوسطى من جهة استراخان على نهر الفولغا هذه المرة . وأسس قلعة عند خليج كراسنوفودسك على الساحل الشرقى لبحر الخزر . ثم توجه بيكوفيتش الى حيوى مبعوثا رسميا عن بطرس الاكبر لاقامة علاقات دبلوماسية معها ، ومن هناك توجه الى بخارى للاستفسار عن الطرق التجارية المؤدية الى الهند . وقد قوبل بعداء ، حيث هاجمته فصيلة من عساكر حيوى مكونة من ٢٠ الفا عند البحيرة ، لكنها منيت بهزيمة . ومع ذلك حقق الخان شيرغازى مبتغاه . فقد دعا بيكوفيتش الى خيوى ، وجرى تقسيم فصيلته الى خمسة اقسام انزلت فى عدة مدن . وسرعان ما قتل الامير نفسه ورفاقه بسيوف حيوى .

اما بعثة بينيفينى التى ارسلها بطرس الى بخارى فقد اقامت هناك بسلام عدة سنوات وجمعت معلومات هامة عن البلاد . الا ان هذه البعثة وغيرها (مثل المهمة التى اوكلها الامبراطور ، قبل وفاته بقليل ، الى بيرينغ للاطلاع على الاراضى والبحار التى تتجاور فيها قارتا آسيا واميركا وتقتربان احداهما من الاخرى) كانت قد رسمت مهمات السياسة الخارجية الروسية للمستقبل وليس للحاضر .

واتسمت بأهمية عملية أكثر من ذلك حملة بطرس على بحر الخزر . وكان الغرض منها السيطرة على الاراضى الساحلية

القديمة لبحر الخزر واضعاف التوسع العثمانى فى المنطقة وكذلك توسع اتباع العثمانيين من حكام القرم وتتر كوبان وغيرهم واقامة العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة . وكانت عمليات الباب العالى فى منطقة بحر الخزر والبحر الاسود تعود بقدر كبير الى دسائس الدول الاوربية الغربية ضد روسيا . ووضع بطرس بصورة تفصيلية برنامجا جريئا لحل مشكلة الجنوب وبدأ بتنفيذه . واستدعى تنفيذَ هذه الخطة موقع الدولة جغرافيا وحاجات تطورها ، ولم تكن انعكاسا لسياسة استعمارية تنتهجها روسيا وبطرس كما كتب البعض فى الغرب ويكتبون خطأ فى بعض الاحيان .

فى عام ١٧١٧ وصل فولينسكى مبعوث القيصر الى اصفهان . ولم تسفر عن نتيجة مباحثاته مع الشاه حسين ووزيره والاقتراح بشأن اقامة علاقات الصداقة . وفى عام ١٧٢٠ عين القيصر فولينسكى نفسه متصرفا فى استراخان . وكلفه ببناء السفن البحرية والتأكد من طرق ابحارها المحتمل على امتداد السواحل الغربية لبحر الخزر . وتوجه الكابتن باسكاكوف الى بلاد فارس ودرس الموقف فى القوقاس . كان بطرس يعرف من زمان ان الارمن والجورجيين والكاباردينيين ينتظرون المساعدة من روسيا ، بعضهم يريد دعما فى مقاتلة الامبراطورية العثمانية وبلاد فارس وبعضهم الآخر يريد الانضمام الى روسيا .

وقد تأزم الموقف فى بلاد فارس . فقد منى الشاه حسين بهزيمة على ايدى الافغان ، وحل محله ابنه طهماز ميرزا فطلب مساعدة من بطرس الاكبر . وفى ١٨ تموز (يوليو) ١٧٢٢ ، بعد عام تقريبا من انتهاء حرب الشمال ابحر الامبراطور الروسى على رأس قوات من ٢٢ الفا من مدينة

استراخان . وتحركت برا تسعة آلاف فارس و٥٠ الف قوزاقي وتترى . وفي اعقاب احتلال دربند عاد بطرس الى استراخان ، وقاد القوات الجنرال ماتيوشكين . وفي كانون الاول (ديسمبر) احتلت هذه القوات ريشت ، وفي تموز (يوليو) ١٧٢٣ دخلت باكو .

واثارت انباء عمليات بطرس وقواته في غرب بحر الخزر استياء شديدا في الاستانة . وبذل السفير البريطاني قصارى جهده لتأجيج ذلك الاستياء . وهدد العثمانيون بشن الحرب على روسيا واعلنوا ان شعوب القوقاس المسلمة من اتباع الامبراطورية العثمانية وان بلاد فارس تطلب المساعدة من الباب العالي . ولم يرتعب بطرس لتهديدات الباب العالي ، لكنه يريد تسوية النزاع بالطرق الدبلوماسية .

وعلق القيصر آمالا جدية على نيبلويف سفيره في الاستانة . فهذا الرجل الفطين الواسع الاطلاع المتحدر من عائلة نبيلة تعرضت للفقر قد حظي باهتمام القيصر لتفوقه في الدراسة بالاكاديمية البحرية في بطرسبورغ وفي البندقية واسبانيا ، وادى الامتحان جيدا في شؤون بناء السفن ، وقد امتحنه القيصر نفسه ، وامتدحه واضاف قائلا :

— انظر ، يا اخي ، الى يديّ الجاسئتين مع اني قيصر ، والسبب هو اني اريد ان اعرض عليكم مثالا تقتدون به لارى قبيل الشيخوخة على الاقل معاونين لائقين وخدما للوطن .

ذات مرة اثناء العشاء في احد ايام ١٧٢١ ذكر بطرس لرجاله انه بحاجة الى شخص ملم باللغات الاجنبية لارساله سفيرا الى الاستانة . فاجاب غولوفكين بانه لا يعرف شخصا لائقا بهذا المنصب . لكن الاميرال أبراكسين وجد مخرجا فقال :

— انا اعرف شخصا لائقا جدا ، لكن المصيبة انه فقير للغاية .

— الفقر ليس مصيبة ، — اعترض القيصر ، — فيمكن مساعدته بسرعة . ولكن من هو ؟

— ها هو واقف خلفك .

— الواقفون خلفي كثيرون .

— ذاك الذي امتدحته في بناء السفن .

— صحيح ما تقول ، — التفت بطرس ورأى الرجل الذي يعنيه الاميرال ، — لكنني اردت له ان يبقى عندي .

لكن بطرس ، رغم ولعه ببناء السفن الذي يتقنه نيبلويف جيدا ، ارسله بعد حين الى الاستانة . وعبر نيبلويف عن امتنانه الخالص للقيصر على هذه الثقة وركع امامه . فجعله بطرس ينهض وكان راضيا عنه وقال مودعا :

— لا تركع ، يا اخي ، حكمي من عند الله ، وواجبي ان اراقب الاحوال كيلا يمنح شيء لمن لا يستحقه وكيلا يؤخذ شيء من مستحقه . واذا كنت ستفعل خيرا فللوطن وليس لي ، واذا اسأت فسأطالبك لان الله سيطالبني بدلا عنكم جميعا بألا يتمكن الشرير والغبي من الاساءة . فاخدم باخلاص .

وتعين على نيبلويف الآن ان يخدم الوطن فعلا ويحول دون تطور الاحداث بشكل غير موغوب فيه في العلاقات مع الباب العالي الذي بعث حكامه عساكرهم الى القوقاس . لكن بطرس امر بعدم تقليص عمليات جيشه في بحر الخزر ، بل اوعز الى جيش آخر بالاستعداد لصد هجوم العثمانيين تحوطا للطوارئ .

وابلغ نيبلويف السلطان العثماني بتصريح الامبراطور الروسي :

— نحن نوفر الحماية للشعوب التى لا علاقة لها بالباب العالى مطلقا وتبعد عنه كثيرا وتتواجد على بحر الخزر الذى لا يجوز ان نسمح لاية دولة اخرى بالوصول اليه .

كان ذلك تحذيرا خطيرا اعتمد عليه نيبلويف فى اجراء المفاوضات . وساعده السفير الفرنسى . وردا على حجج العثمانيين القائلة بان الشعوب المسلمة فى القوقاس يجب ان تكون تحت حماية الاستانة ذكّرهم السفير ، مصيبا ، بالشعوب المسيحية الواقعة تحت سيطرتهم فى البلقان .

وفى تلك الاثناء وقع سفير بلاد فارس فى بطرسبورغ فى الثانى عشر من ايلول (سبتمبر) ١٧٢٣ معاهدة نصت على ادراج الساحل الغربى والساحل الجنوبى لبحر الخزر ، وبضمنهما مدينتا دربند وباكو وغيرهما ، ضمن الاراضى الروسية . واتفقت روسيا وبلاد فارس على تشكيل حلف دفاعى ضد الامبراطورية العثمانية . وفى اعقاب ذلك اخذ السلطان ومستشاروه يقرقعون بالسلاح ويهددون نيبلويف باعلان الحرب على بلاده . لكن نيبلويف لم يتراجع فطردوه من الاستانة ، ولم يودعوه سجن الابراج السبعة كما فعلوا بالسفير تولستوى فى حينه . وقبل ان يتمكن من جمع حاجياته استدعاه الصدر الاعظم واعلن له ان ما حدث هو «سوء تفاهم» ، وان المفاوضات ينبغى ان تستمر . وفى ١٢ حزيران (يونيو) ١٧٢٤ وقع الطرفان فى الاستانة معاهدة اعترف الباب العالى بموجبها بضم الاراضى المتاخمة لبحر الخزر الى روسيا التى اضطرت الى القيام بالشىء ذاته فيما يخص الاراضى القوقاسية التى انتزعها العثمانيون من بلاد فارس والحقوها بممتلكاتهم . وتخلى السلطان العثمانى عن اطماعه فى بلاد فارس .

وبذلك حصلت الحدود الجنوبية الشرقية لروسيا على امان اكثر ، زد على ذلك انه امكن زحزحتها الى الجنوب . وتعززت مواقع روسيا فى القوقاس ، وهيأ ذلك فرصا جيدة لشعوب المنطقة فيما يخص تأمين مستقبلها .

كانت الاعمال فى ميدان السياسة الخارجية والعمليات الحربية فى الجنوب والشرق دليلا آخر على تزايد دور روسيا فى السياسة العالمية ابان حرب الشمال وفى اعقابها ، لكنها ، دون شك ، ذات اهمية محدودة لذاك الزمان بالمقارنة معها . الا انها رسمت مهمات المستقبل . وفى السنوات الاخيرة من حكمه غدا بطرس الاكبر ليس شخصا مستجدا متهيبا فى السياسة والشؤون الحربية ، بل رجلا حاذقا محنكا فى عمله وحاكما قويا رزينا وحكيما بعيد النظر لامبراطورية هائلة . ومما له دلالته ان ملك بروسيا فريدريك-ولهلم وملك بولونيا وسكسونيا اغسطس الثانى اللذين حرضهما رجلا المال المحتالان ليمان ومائير قد طرحا على بطرس مسألة تقسيم بولونيا واقترحا ان تنضم الى روسيا اراضى بيلوروسيا ، وهى ارض روسية اصيلة عريقة ، وليتوانيا ، فرفض الامبراطور رفضا قاطعا . وادت سياسته الخارجية الحذرة كذلك الى تشكيل حلف دفاعى بين السويد وروسيا فى ٢٢ شباط (فبراير) ١٧٢٤ . واعلنت روسيا قبل ذلك بقليل على لسان بطرس وممثله فى استوكهولم عن ضرورة الابقاء على «الشكل الراهن للحكم» فى المملكة (سلطة الملك المحدودة والبرلمان ، وليس بعث الحكم المطلق كما اراد فريدريك الاول واولريكا-اليونورا) ، وحظى ذلك بترحيب حار من نواب البرلمان .

وجرت مفاوضات بشأن التحالف مع فرنسا واسبانيا والتصالح

مع بريطانيا . واخذ الاب دوبْوَا يمتدح بطرس الاكبر بعد ان تكلم عنه باستخفاف قبل خمس سنوات .

وفى عام ١٧٢٢ قال دوبْوَا للامير كوراكين ، الدبلوماسي المحنك القديم والمشرف غير العلنى على الدبلوماسيين الروس فى اوربا ، ان فرنسا تنشد الصداقة والتحالف مع روسيا :

— عندما تدخل فرنسا وروسيا فى تحالف وثيق يمكنهما ان تسيطرا على ميزان المصالح الاوربية وتتحكما بالآخرين وتظلا فى صداقة دائمة .

وكان هذا السياسى الفرنسى يسير بالامور الى التحالف بين فرنسا وروسيا وبريطانيا . وتفسير ذلك بسيط : الصراع يقترب من اجل التركة النمساوية ، فان الامبراطور من آل هامبورغ ليس لديه وريث . زد على ذلك ان اغسطس الثانى اصيب بمرض ، وطرحت مسألة العرش البولونى ايضا . ومن جديد ليس بالامكان الاستغناء عن بطرس الاكبر وروسيا . ولهذا الغرض ارادوا تزويج يليزافيتا ، كريمة بطرس ، من دوق شارتر ليصبحا بعد حين ملكا وملكة لبولونيا . الا ان دوبوا والوصى على العرش توفيا فى اواخر عام ١٧٢٣ . وواصل زعيما فرنسا الجديدان دوق بوربون ووزير الخارجية مورفيل المفاوضات مع روسيا بشأن عقد معاهدة التحالف . وكان بطرس يميل الى ذلك والى انضمام بريطانيا الى التحالف رغم الاعمال العدائية التى قام بها جورج الاول فى السنوات الاخيرة من حرب الشمال .

وغدت روسيا فى وضع دولى جعل بعض الدول ينشد صداقتها والتحالف معها وجعل بعضها الآخر يكبح نواياه التوسعية العدوانية ضدها وضد من تؤيده وتدعمه . كتب

سولوفيف يقول : «لقد جرى اعظم حادث فى التاريـــخ الاوربـى والعالمى ، حيث دخل النصف الشرقى من اوربا فى حياة مشتركة مع نصفها الغربـى . فمهما فكروا الآن فى الغرب تتطلع انظارهم عفويا الى الشرق . وصار ادنى تحرك للسفن الروسية والقوات الروسية يثير اضطرابا كبيرا لدى مجالس الوزراء التى تتساءل بقلق ما هى وجهة هذا التحرك ؟» .

آخر الاعمال . وفاة بطرس الاكبر

بلغ بطرس ذروة العظمة فى آخر ايامه . فهذا القيصر والدبلوماسى والقائد العسكرى وقائد الاسطول والمصلح والمشرع الذى ذاع صيته واشتهرت امجاده فى بلاده وخارجها ونعته معاصروه من روس واجانب عن حق وحقيق ببطرس الاكبر كان يستحق بالتمام والكمال اللقب الذى منحه اياه مجلس السينات بعد انتهاء حرب الشمال بنصر مؤزر . فان نتائجها وما اعقبها من نجاحات فى ميدان السياسة الخارجية وعلى الصعيد الدبلوماسى ، مثل التحالف مع عدد من البلدان ، بما فيها خصمه السابق — السويد التى اعرب نواب برلمانها عن امتنانهم له واعجابهم به (بموقفه فيما يخص الابقاء على نظام الدولة والبرلمان فى السويد) ، والمنزلة الرفيعة التى احتلها الامبراطور وروسيا التى قادها على المسرح الدولى والآفاق المستقبلية الجريئة البعيدة النظر التى رسمها فى السياسة الخارجية — كل ذلك وقائع لا تحتاج الى برهان .

ومع ذلك لم يكن بطرس راضيا عن كل شىء . فالكثير مما حدث فى الماضى (حملة بروت ، والقطيعة الفاجعة مع ابنه وذكريات «عصيان» «الرعاع الوضعاء» ومؤامرات ودسائس صوفيا البغيظة وآل ميلوسلافسكى وامور كثيرة اخرى) تقض

مضجعه فلا يعرف الهدوء . وحتى فى الوقت الحاضر ، فى هذه السنوات الاخيرة بعد صلح نيشتادت وحتى الممات ، لم تهدأ نفسه المتعبة المعذبة ، فهى مفعمة بهموم ومشاغل لا نهاية لها وبافكار وقلق بخصوص التصرفات الشائنة وخيانة الانصار ، بل وحتى اقرب المقربين . . .

. . . كل شيء فى الطبيعة ، وبين الناس يبدو حتميا حكيما رغم فوضى المصادفات . وكما يتبدل الليل والنهار ويأتى الموت بعد الحياة ، وتأتى الحياة بعده من جديد ، كذلك تتعاقب الافراح والاتراح ، والضحك والبكاء ، والنجاح والاخفاق والسعادة والتعاسة . وتلاحق بطرس دوما تأملاته فى الدوامة التى يقع الانسان فيها منذ الميلاد حتى النفس الاخير ، ويتعذب لتلك التأملات التى تدفعه احيانا الى اليأس والقنوط . كانت هذه الدوامة تتقاذف بطرس السعيد التعيس فتلقى به من الفرحة الى الحزن والاكتئاب على مدى حياته التى لم تكن طويلة من حيث الزمن . لكنها من حيث امتلاؤها بالافعال والاحداث الموفقة والفاشلة تعادل عدة حيوات بشرية ليست عادية .

ولا يسع المرء الا ان يفكر ويحزر بحالة بطرس النفسانية فى تلك السنوات حيث ارهقه المرض العضال وعذبه اشد عذاب (كان مصابا باليوريمية ـــ التسمم الدموى البولى) ، وانهال عليه المصير بضربات لا ترحم فتتت بسرعة قواه التى استهلكها بسخاء فى السنوات السابقة من الصراع والانفعال والتوتر الذى يفوق تحمل البشر . بديهى انه استمر فى قيادة الامبراطورية الشاسعة بهمة ونشاط . وتجلى ذلك من جديد فى الريشة والسيف ، اى فى وضع المراسيم والتشريعات

وتنظيم الحملة الجديدة (بحر الخزر) والمشاركة فيها . كما تجلى فى المباحثات الدبلوماسية وتوقيع المعاهدات وفى ادارة السينات والسينودس المقدس والهيئات والمتصرفيات ، وفى الاهتمام العملى النشيط ، الموجه دوما بشؤون الصناعـــة والتجارة والاكاديمية والمدارس وبناء القصور والمستودعات وامور كثيرة اخرى . وتجلى ذلك ، اخيرا فى التعامل والتخاطب مع اناس من مختلف الفئات الاجتماعية ابتداء مـــــن الفيلدمارشالات وحتى الاسطوات والجنود ، حيث يتوجهون باشرافه وبارادته القوية لتنفيذ الخطط والمهمات المكرسة لاعلاء مجد روسيا وعزتها وكرامتها .

وكانت عنده اعمال محببة الى نفسه فى المنزل وخارجه ، فى العاصمة ، فى روسيا ، لخير الوطن كما يفهمه الامبراطور. وعندما اقتربت نهاية حرب الشمال صار بطرس ، حتى آخر ايامه ، يقضى مزيدا من الوقت فى العاصمة ، فى «فردوسه» ووليدته المحببة بطرسبورغ التى بدأت آنذاك ، بفضل جهوده وعنايته بالاساس ، تتحول الى المدينة التى نعتت فيما بعد بـ«تدمر الشمال» . كان بطرس كعادته يستيقظ فى الصباح الباكر ، فى حوالى الخامسة ، ويستمع الى تقرير سكرتيره الاول ماكاروف ، ويتناول الفطور . وفى السادسة صباحا يرى اهالى العاصمة عربته ذات العجلتين فى حوض بناء السفن او قرب بناية فى طور الانشاء او عند مدخل السينات او قرب باب منزل احد كبار الموظفين . بهذه الصورة يصرف الوقت حتى الظهر . وفى الواحدة بعد الظهر يتناول طعام الغداء الروسى البسيط (الحساء والعصيدة واللحم والمتبلات) . ومن بين الثمار غير الروسية يحب الليمون . ولم يكن يتناول الاسماك والحلويات .

وبعد الغداء ، حسب العادة الروسية ، استجمام يستغرق ساعتين تقريبا . ويمضى الوقت بعد الظهر فى مراجعة تقارير الاداريين والسفراء والقادة العسكريين ووضع وتحرير المراسيم والايعازات والتوجيهات والتقييدات وغيرها بعدد كبير .

وفى المساء ، حسب المناسبات او المزاج ، تجرى لقاءات مع الضيوف والمحاسيب ، وفيها من كل بد ولائم ولهو ومرح . واحيانا ينزوى القيصر فى قصره الصيفى ليختلى بعائلته ، وهو يهوى ذلك كثيرا . واخيرا يقضى بعض الوقت فى ورشة الخراطة المحببة اليه ، حيث توجد مجموعة كبيرة من المخارط والازاميل والمواد فى جو هادئ يمكن بطرس من الاستجمام والانفراد . ويقول الخراط الممتاز نارتوف الذى تقابل مع القيصر مرارا ان احدا لا يدخل عليه الورشة بدون استدعاء «لكى يبقى هذا المكان على الاقل هادئا لصاحبه» . واعجب شخص آخر من معاصرى بطرس ، من الدبلوماسيين ، بمهارة القيصر الخراط فقال :

— انه لا يقل مهارة عن الخراط الممتاز ، حتى صار يجيد خراطة الصور النصفية والمنحوتات .

وكان بطرس يعمل على المخرطة «بجد واجتهاد وكأنه يعمل ليكسب النقود كى يعيش عليها» . ولا تزال محفوظة فى متحف الارميتاج حتى الآن مصنوعات الخراطة من عمل بطرس مثل علب السعوط والانواط وغيرها من الحلى . وقد شارك فى صنع ثريا من العاج من ثلاثة طوابق بـ٢٦ نتوءا . وكتب عليها بالروسية واللاتينية :

— من صنع يدى بطرس الاكبر امبراطور وقيصر عموم روسيا . ١٧٢٣ .

ودهش معاصرو بطرس ، ومنهم الاجانب ، لقدرته الهائلة على العمل وكثرة الاشغال المتنوعة التى مارسها . وعندما كانوا يسألونه عنها يقول مازحا انها توفر المزيد من الصحة وطول العمر . وكان يضع جداول اسبوعية للاشغال . وقد ضم احد تلك الجداول (لعام ١٧٢١) ما يلى : وضع توجيهات بناء السفن (الاثنين — الخميس) ، جلسة السينات (الجمعة) ، تحرير «تاريخ الحرب السويدية» (السبت ، صباحا) ، الشؤون الدبلوماسية (الاحد ، صباحا) . وفى جدول آخر (كانون الثانى — يناير ١٧٢٤) نجده يخصص للسينات مساء الاثنين وصباح الثلاثاء ، ولدعاوى المحاكم الاربعاء والخميس ، ولبناء السفن صباح الجمعة . وفى جدول ثالث (تشرين الثانى — نوفمبر ١٧٢٤ ، قبل وفاته باقل من ثلاثة اشهر) ركز جل اهتمامه على السينات وعلى النظر فى مختلف القضايا الملحة وغير الملحة .

وقد اهتم كثيرا ببناء بطرسبورغ وتزيينها وتزويدها بكل ما هو نافع وضرورى وممتع . وبالحاح منه ظهرت فى العاصمة بنايات حجرية ليس للعبادة فقط ، بل ومنازل وقصور مزينة بالرسوم والمنحوتات مثل قصره الصيفى وقصر مينشيكوف ومبانى الهيئات العامة وغيرها . وانشئت فى عهده المتنزهات الجميلة والجادات العريضة والساحات واقيمت المصابيح على اعمدة فى الشوارع . وارغم اهالى العاصمة على ارتداء ثياب جديدة قصيرة واحذية بدلا من الثياب القديمة الطويلة الاذيال والاخفاف .

ولم يبق من البناء الخشبى الاول للمدينة سوى منزل بطرس نفسه على الضفة اليمنى لنهر نيفا . وبدلا من المنازل الخشبية بنيت دور طينية ، ثم مساكن حجرية . وفى ١٧١١

انجز بناء القصر الصيفى للقيصر وعائلته . وفى تلك الفترة بلغ عدد سكان المدينة ٨ آلاف شخص يقيمون فى ٧٥٠ — ٨٠٠ منزل . ومع تواصل الانتصارات فى القتال ضد السويد ، وبعد انتقال شرق البلطيق الى روسيا ، ابدى بطرس اهتماما متزايدا ببناء واعمار المدينة . وفى عام ١٧١٦ تعاقد مع المعمارى الفرنسى المعروف ليبلون الذى وضع مشروع المخطط العام للمدينة . واستند المشروع الى فكرة ما يسمى بالمدينة المنتظمة ، اى الشوارع والقنوات المستقيمة والساحات الفسيحة والمبانى الحكومية والكنائس وقصور الوجهاء ومنازل العامة والفلكات والاسواق ، بحيث تبنى على جانبى الشوارع بارتفاع متساو . وكانت مواصفات المخطط ، مثلا ، تستوجب تغيير كل الموجودات فى جزيرة فاسيليفسكى .

وكان بطرس فى باريس آنذاك . ودرس هناك الرسوم التخطيطية ومخططات المبانى المتماثلة التى ارسلها ليبلون من بطرسبورغ . وعندما عاد القيصر الى العاصمة التقى بالمعمارى وسأله :

— ماذا سنفعل ؟

— نهدم المنازل الحالية ونبنى منازل جديدة ، و نطمر القنوات ونحفر غيرها .

— فكرت فى ذلك ، لكنه يتطلب اموالا كثيرة .

ولم يصادق القيصر على المخطط . وظلت المدينة تبنى كالسابق ، كما تمليه الطبيعة والمناخ وخيال صاحب البناء والمعمارى . لكن بطرس كان يتابع تشييد المدينة على الدوام ليكون منتظما وليس عشوائيا . وعلى اية حال تم فى آخر ايامه تعبيد شوارع العاصمة بالحجر ، حيث جرى تبليط

كلا جانبـي الشارع الملاصقين للمباني السكنية بشكل خط عرضه متر ونصف او متران (وظلت قارعة الطريق غير مبلطة) . وفي عام ١٧٢١ اعد ونصب حوالي ٦٠٠ فانوس في الشوارع فتائلها تشتعل بزيت القنب .

وكانت هذه المستحدثات وغيرها نتيجة للجهود الحثيثة التي بذلها بطرس والاشخاص الذين عينهم لهذا العرض . ومنهم انطون ديفير البرتغالي الاصل الذي كان في حينه بحارا في سفينة احد التجار . وقد التقاه بطرس في هولندة عام ١٦٩٧ . فاعجبه بمهارته وحذقه فعينه القيصر في خدمة مينشيكوف في البداية ثم مراسلا في خدمة القيصر نفسه . وتجدر الاشارة الى ان الكثيرين عملوا مراسلين عند بطرس الاكبر ، وبرز بينهم فيما بعد رجال مشهورون ائتمنهم وقربهم اليه (مثل مينشيكوف) . وحدث شيء من هذا القبيل لانطون ديفير . فهذا البحار الشاطر استطاع ان يحظى باعجاب شقيقـة مينشيكوف ، وهي عانس دميمة ، ولم يبق امام هذا الاخير غير الموافقة على زواج شقيقته من مراسل القيصر . وكان لذلك سببان ، فالشقيقة تنتظر مولودا ، والقيصر بارك زواج محسوبه . واقيمت حفلة الزفاف . وارتقى المراسل سلم المراتب . وفي ٢٧ ايار (مايو) ١٧١٨ تلي على اعضاء السينات مرسوم جديد من بطرس الاكبر :

— ايها السادة اعضاء السينات ! بغية احلال نظام افضل في هذه المدينة قررنا اناطة وظيفة مدير الشرطة العام بمرافقنا الاول ديفير ورسمنا البنود التي ينفذ بموجبها المهمة الموكلة اليه .

وصار المرافق الاول ومدير الشرطة العام البرتغالي الاصل يدير

بناء بطرسبورغ وفقا لتوجيهات تفصيلية من القيصر . وبالاضافة الى تشييد المباني راعى واضع التوجيهات الملتزم بالدقة البالغة امورا كثيرة مثل تقوية شواطئ النهر ومجاريه ونظافة الشوارع وترتيب الاسواق وجودة واسعار الاطعمة المعروضة للبيع وتدابير اطفاء الحريق ومكافحة القمار ومعاقبة لصوص الليل والماجنين . (كان الخفراء يجوبون الشوارع في الليل وهم يطقطقـــون بالخشخيشات ، ومن الحادية عشره مساء حتى الصباح تغلق العوارض على مداخل المدينة ، ولا يسمح بالسير في الشوارع الا للعسكريين والوجهاء والاطباء والمولدات والقساوسة والموظفين الذاهبين لاغراض الخدمة على ان يحملوا معهم فوانيس) .

وبجهود مديرية الشرطة وعمل العمال تم اعمار بطرسبورغ فغدت جميلة وازدادت بهاء . وكانت جادة نيفسكي الممتدة من حوض الاميرالية حتى دير الاسكندر نيفسكي تحظى باعجاب المشاهدين من عهد بطرس ، لاسيما الاجانب . فقد كانوا يمتعون الانظار بهذا الشارع المعبد الطويل والاشجار المنتصبة بثلاث او اربع صفوف على جانبيه . ويقول بيرخغولتس ان هذه الجادة الجميلة النظيفة «ذات منظر رائع لم ار مثله في اى مكان» . وحول الحديقة الصيفية في جانب الاميرالية شقت القنوات وجرى تعديل مجارى الجداول حتى غـــدت مستقيمة وانشئت كورنيشات خشبية وشيدت جسور . وكان القيصر يعاقب المذنبين بشدة على كل تقصير . وذات مرة تلقى ديفير حصته من ضربات هراوة القيصر التربوية (بسبب عطل الجسر على نهر مويكا) ، وقال له القيصر :

— سيجعلك هذا تتذكر بشكل افضل ضرورة رعاية الشوارع والجسور لتكون بالكيفية اللائقة . . .

كان بطرس غالبا ما يتردد على مبنى الاميرالية (مركز صناعة السفن فى بطرسبورغ) . وهو مبنى ضخم مستطيل غير كامل من جانبه الرابع المكشوف على نهر نيفا وفيه حـــوض بناء السفن المطوق من جهة النهر بسد محصن باستحكامات ومدافع . وفى منشآت الاميرالية وحواليها كل ما هو ضرورى لبناء السفن . وفى عشرينات القرن الثامن عشر بنيت هنا زهاء مائة من مختلف السفن . وغدت الاميرالية مؤسســة كبيرة معقدة وصارت بمثابة القلعة على نهر نيفا . وعمل فيها حوالى عشرة آلاف شخص .

وفى مكان قصر الشتاء الحالى كان ينتصب منزل الاميرال ابراكسين المكون من ثلاثة طوابق ، وبعده يأتى منزل المدعى العام ياغوجينسكى ، والفريق البحرى كرويس وقصر بطرس الشتوى . وابعد منه يأتى قصره الصيفى الذى لا يختلف بشىء عن المنازل الاخرى للناس المتوسطى الحال . وفيه الحديقة الصيفية التى كان بطرس يحبها كثيرا ويهتم بها ويزينها على غرار متنزه فرساى .

وفى الحديقة المذكورة مماش ذات تخطيط جيد واشجار مكورة ومكعبة وهرمية الشكل ، وبرك ونافورات وتماثيل بالحجم الكامل ومزهريات وتماثيل نصفية واعمدة وغير ذلك من الروائع . كان القيصر يحب الاستجمام هنا لوحده او يتمشى مع الضيوف . والكثير هنا يثير اعجاب اولئك الضيوف وخصوصا تمثال افروديت العائد الى القرن الثانى الميلادى والذى جلب من ايطاليا ، وكذلك المغارة الملبسة بالصدف من روسيا وايطاليا وهولندة ، وكرة عائدة لسلالة غوتوربــى صنعت فى عام ١٦٦٤ وجلبت من هولشتين . والحديقة مزينة كذلك بتماثيل حول موضوعات

من حكايات ايسوب نحتت بايعاز من بطرس لموعظة الزوار .

وبعد ذلك ، على امتداد نهر نيفا ، تأتي وراء الحديقة الصيفية قاعات كيكين التي صودرت بعد اعدام هذا الاخير لارتباطه بقضية الامير الكسى . وقد خصصت لمتحف الغرائب ولاول مكتبة عامة في روسيا . وقد جمعت واقتنيت تحف المتحف داخل البلاد وخارجها ، والقيصر مطلع عليها جيدا ، فقد اعتاد ان يتحدث عنها ويعرضها على المقربين اليه او على الاجانب فيؤدي دور الدليل . وقد اوعز بجمع كل ما هو «قديم جدا وغير عادي» وارساله الى بطرسبورغ . وقد اشترى في الخارج ، مثلا ، المجموعة التشريحية التي جمعها العالم ريوش في امستردام طوال خمسين عاما . واهدى له الاجانب تحفا كثيرة لمعرفتهم بحبه للمعرفة وثقتهم بان تلك التحف النادرة ستبقى محفوظة من اجل العلم والاحفاد . وكانت تتوارد من جميع الانحاء النوادر والعجائب والغرائب والكائنات الشاذة والحاجيات القديمة والمدافع وغيرها . ولم يبخل القيصر بالمال على هذه المشتريات رغم ما تعود عليه من تقتير .

وفي منتصف عشرينات القرن الثامن عشر غدا متحف الغرائب اغنى متحف من هذا النوع في اوربا .

وجمعوا في المكتبة العامة كتبا من مختلف الانحاء ، وجلبت اليها محتويات مكتبة الصيدلة من موسكو ومكتبة دوق كورلياندیا ومكتبتا الامير الكسى والبارون شافيروف بعد مصادرتهما ، والخ . وفي عام ١٧٢٥ بلغت موجودات المكتبة العامة ١١ الف مجلد .

وقال القيصر عن هدف جمع الغرائب والكتب بوضوح

لا لبس فيه :

— اريد للناس ان يروا ويتعلموا .

وابتداء من عام ١٧١٩ افتتحت ابواب متحف الغرائب والمكتبة العامة للجميع . زد على ذلك ان دخول المتحف كان بدون تذاكر ، وقد رفض القيصر رفضا باتا اقتراح المدعى العام ياغوجينسكى ببيع تذاكر الدخول . والاكثر من ذلك ان القيصر يامر بتقديم القهوة وغيرها لزوار المتحف وخصص لهذا الغرض ٤٠٠ روبل فى العام .

وتقع جنب قاعات كيكين المؤسسة التى عمل فيها بطرس مرارا ، ونعنى دار السباكة ، وفيها ورشات الخراطة والبرادة والنجارة وعربات المدافع وغيرها . وهنا صب بطرس شخصيا مدافع المورتر والهوتزر . وقبالة دار السباكة ، على الضفة الثانية من نهر نيفا ، تقع قلعة بتروبافلوفسكايا وفيها كاتدرائية بطرس وبولص التى يعلوها برج رفيع . وفى جزيرة فاسيليفسكى شيدت بنايات حجرية للهيئة الثانية عشرة والسوق التجارى ومتحف الغرائب من ثلاثة طوابق .

وعلى الضفة اليمنى لنهر نيفا يقع الميناء الذى كان مكتظا بسفن كبيرة وصغيرة لا تحصى تحمل اعلام مختلف البلدان . وفى الاعياد تأتى الى هنا ، الى داخل المدينة ، سفن اسطول البلطيق ، مفخرة بطرس الاكبر . وفى مطلع عام ١٧٢٤ كان هذا الاسطول يضم ٣٢ بارجة كبيرة وأكثر من ١٠٠ سفينة اخرى اصغر حجما . ولعبت ارادة بطرس الحديدية دورا هائلا فى ذلك ، كما فى كثير غيره . وغدا الاسطول الروسى هو الاقوى بين اساطيل البلطيق .

وصارت بطرسبورغ الميناء الرئيسى فى البلاد بدلا من

ارخانجلسك . وقبل عام من وفاة بطرس الاكبر وصلت الى هذا الميناء ١٨٠ سفينة اجنبية ، بينما وصلت الى ارخانجلسك ٥٠ سفينة فقط . وغدت بطرسبورغ مركزا كبيرا لنقل البضائع من اوربا الى روسيا وبالعكس . فالى اوربا تنقل الجلود والسمن والكتان وتيل القنب والحبوب والجريش وحديد الاورال وفراء سيبيريا والانسجة القطنية وقماش القنب ، والى روسيا تنقل من اوربا الانسجة الصوفية والحريرية والزجاج والاصباغ والمشروبات والبن . وكان لروسيا ، بفضل جهود بطرس لدرجة كبيرة ، ميزان تجارى ايجابـي ، حيث كانت تصدر اكثر مما تستورد . وصارت المانوفاتورات والحرفيون فى نهاية الربع الاول من القرن الثامن عشر ينتجون الكثير مما كان فى السابق يستورد من البلدان الاخرى (مثل المعادن والمصنوعات المعدنية والورق وكثير غيرها) .

وكان ذلك كله مدعاة للفخر والاعتزاز وكان بطرس دون شك يفتخر به . وحدث الشيء ذاته فى اعداد الاخصائيين فى جميع الميادين ابتداء من ادارة الدولة وقيادة الجيش والاسطول وانتهاء بالاسطوات فى احواض بناء السفن وفى مصانع الاورال . فقد اعد بطرس مئات وآلافا من هؤلاء الاخصائيين الموهوبين الذين يحتاجهم البلد . ونشأت حوله كوكبة من الرجال الاماجد ممن تربوا على يده . وقد حققوا الكثير لروسيا ، لكنهم لم ينسوا انفسهم بالطبع . فقد اجزل لهم القيصر العطاء بالمناصب والمكافآت والضياع والاقنان . صحيح ان القيصر كان يطالبهم بخدمة جيدة ، وكان يغضب احيانا ويطرد المقصرين ويلجأ الى الهراوة فينهال بها فى ضرب مبرح . وكانوا «يوفرون» له مبررات كثيرة للتذمر ، وخصوصا

اول المقربين اليه مينشيكوف الذى كان يفرحه ويحزنه فى الوقت ذاته ، وخصوصا فى السنوات الاخيرة .

مينشيكوف رجل مخلص وشجاع للغاية ، وهو يتحدر من عامة الناس ، لكنه غدا الشخصية الثانية تقريبا فى الدولة ، وصار فيلدمارشالا واميرا ساميا ومتصرفا لبطرسبورغ ورئيسا للهيئة العسكرية ومالكا لاموال طائلة من ضياع واقنان وما الى ذلك .

واخذ مينشيكوف يستخدم حسن معاملة القيصر له فى اغراضه الشخصية ليرضى اطماعه وجشعه الفظيع . وبمر الزمن ازداد جشعه فعرف به بطرس (ليس بكل شىء طبعا) . فى البداية اخذ بطرس يلومه ثم صار يقرعه ويكتب اليه رسائل غاضبة شديدة اللهجة ، واحيانا يهتاج فيضربه بالعصا .

لكن شفاعة يكاترينا وتوبة مينشيكوف ومثابرته جعلت غضب القيصر يخف فحلت الرحمة محله ، لا سيما وان الامير مينشيكوف يجيد الخدمة ويبدى آيات البسالة ويتزلف الى القيصر . وقد استفاد بطرس مرارا من حزم وبسالة معاونه فى صالح القضية العامة ، وخصوصا فى المواقف الحرجة عندما يتطلب العمل مجازفة وسرعة وجرأة . وحصل مثل ذلك مرارا ، فى معركة بولتافا ومعركة بيريفولوتشنايا ، وفى بولونيا وبوميرانيا . واسهم مينشيكوف بقسط كبير فى بناء وحماية «فردوس» بطرس ، حيث بذل طاقات كبيرة وابدى حسن تدبير . الا ان ابرز معاون لبطرس ، مينشيكوف هذا ، كان اول مختلس لاموال الدولة الروسية . وفى السنوات الاخيرة فترت علاقة بطرس به ، ولم يعد يثق به مثلما فى سالف الزمان .

وكان اشياع بطرس الآخرون يسببون له اذى ومتاعب

25—672

ايضا . والمثال على ذلك قضية شافيروف الذى رفض ، كعضو فى السينات (فى عام ١٧٢٢) ، ان يتغاضى عن تصرفات مينشيكوف ، حيث طلب منه ذلك المدعى العام الاقدم فى السينات سكورنياكوف-بيساريف ، الذى قام مقام المدعى العام ياغوجينسكى لغيابه عن العاصمة . كما لم يكن الامبراطور فى العاصمة آنذاك . فقد كان على رأس حملة بحر الخزر . لكن شافيروف نفسه تورط فى قضية تعتبر اسبابها تافهة فى معايير ذاك الزمان . فقد تشفع لمنح اخيه راتبا اكبر من المقرر حسب الملاك . وكان الكثيرون يرتكبون مثل هذه الخطايا «التافهة» ، لكن سكورنياكوف-بيساريف الذى شعر بالاهانة وحرضه آخرون ، ومن بينهم ، على ما يبدو ، مينشيكوف نفسه ، تذرع بهذه الحجة . وثارت فى السينات فضيحة رافقها صخب وصياح .

وفى الحادى والثلاثين من تشرين الاول (اكتوبر) من العام نفسه نوقشت فى السينات مسألة عمل مصلحة البريد التى يديرها شافيروف . ووفقا للاحكام المتبعة لا يجوز له ان يحضر الجلسة لانه هو موضوع المناقشة ، ولذا طلب منه بيساريف ان يغادر القاعة . الا ان شافيروف السريع الانفعال اعتبر هذه الكلمات اهانة من شخص يضمر له العداء من زمان . ورفض مغادرة القاعة .

فاورد بيساريف مقتطفا من مرسوم القيصر بهذا الخصوص ، لكن شافيروف اصر على موقفه .

واحتدم الجدل بينهما فاتهم شافيروف بيساريف بالسرقة . والتزم مينشيكوف وغولوفكين جانب المدعى العام الاقدم ، لكن شافيروف لم يصغ الى اقوالهما واكد انهم جميعا اعداء

له ولذا لا يحق لهم الكلام فى هذا الموضوع .

واحتجاجا على ذلك غادر مينشيكوف وغولوفكين وبروس القاعة . والتحق بهم بيساريف قائلا لاعضاء السينات الذين كانوا على استعداد لمناقشة المسألة بغياب اولئك الثلاثة :

— انا ذاهب ايضا ، فقد اتهمنى شافيروف بالسرقة .

وانفضت الجلسة . وبعد يوم من ذلك اقترح مينشيكوف الغاء عضوية شافيروف فى السينات . وطالما القيصر هو الذى يعين اعضاء السينات فقد ظلوا ينتظرون عودته .

لكن الاعمال يجب ان تسير رغم الخلافات . وبعد اسبوعين افتتح المدعى العام الاقدم جلسة السينات قائلا :

— لا بد من الاستماع الى تفاصيل القضية .

فرد عليه شافيروف منفعلا :

— ارحمنا يا رب . كيف استمع اليه ؟

وعندما تكلم مينشيكوف قاطعه شافيروف وفضح تصرفاته واشار الى غضب القيصر عليه بسببها .

وبعث الخصمان بيساريف وشافيروف تقريرين الى الامبراطور اتهما فيهما بعضهما البعض . وعندما عاد بطرس امر بتشكيل محكمة عليا . وبنتيجة التحقيق اتضح ان شافيروف مذنب . فاعترف بذنبه صراحة امام القيصر ، فلا يجوز تعيين راتب لاخيه لا يستحقه ، وكان يجب عليه ان يغادر السينات عندما نظر فى قضية الدائرة التى يشرف عليها . وصدر الحكم باعدام شافيروف . وفى ١٥ آذار (مارس) ١٧٢٣ جاءوا بالمحكوم فى زحافة الى منصة الاعدام فى كريملين موسكو . وتلى الحكم بحضور جمهور كبير . وقال احد شهود العيان ان المحكوم «يمم وجهه شطر الكنيسة حسب العادات الروسية ورسم شارة

الصليب عدة مرات ثم ركع ووضع رأسه على النطع ، لكن معاوني الجلاد سحبوا قدميه من الخلف فاضطر الى الانبطاح على بطنه المترهل» . ورفع الجلاد الفأس وهبط بها على النطع دون ان تمس رقبة شافيروف . وبلغ مسامعه ، بعد ان ودع الدنيا ، مرسوم القيصر الذى يقضى باستبدال الاعدام بالنفى الى سيبيريا .

وبدلا من سيبيريا سرعان ما عينوا له مدينة نوفغورود حيث اقام شافيروف مع عائلته حتى وفاة بطرس . واصدر الامبراطور المستاء من تصرفه مرسوما فى تشرين الثانى (نوفمبر) ١٧٢٣ قضىّ باعتقال اى عضو في السينات يبدى تعنتا مثل شافيروف .

ونظرا «لوقاحة» سكورنياكوف—بيساريف صادر بطرس فى البداية ضياعه وخفض رتبته الى موظف عادى . ثم عينه مفتشا اكبر لقناة المياه من بحيرة لادوغا . وبسبب سوء خدمته فى القناة لم يوافق الامبراطور على اعادة رتبته .

وهكذا اضطر القيصر الى مفارقة رجال قديرين ، بل وموهوبين ، وكانت الاسباب متعددة ، مثل التجاوزات فى السلطة واختلاس اموال الدولة والارتشاء والاستهانة بالخدمة وسوء السلوك وهلمجرا . والبعض لم يعد من المقربين الى القيصر ، مثل مينشيكوف . والبعض الآخر فارق الحياة بميتة طبيعية (غولوفين ورومودانوفسكى وشيريميتيف وغيرهم) او على منصة الاعدام مثل الامير غاغارين الذى اختلس اموالا طائلة فى سيبيريا او المفتش الاقدم نيستيروف .

وفى السنوات الاخيرة كان من المقربين الى بطرس سكرتيره ماكاروف الذى مارس صياغة المراسيم والرسائل والتقارير والبلاغات والعرائض وغيرها من الوثائق . وكان تأثيره على القيصر يزداد ،

واستمرت خدمته من عام ١٧٠٧ حتى وفاة القيصر ، واستفاد من مساعدته الكثيرون حتى أكبر الموظفين والقادة العسكريين . كان رجلا جادا هادئا حافظ على كرامته ونزاهته امدا طويلا ، لكنه لم يصمد للغواية ، فصار يتقبل الهدايا ، ففترت علاقة القيصر لدرجة ما بمعاونه المخلص .

واشتهرت على نطاق واسع معاملة القيصر الطيبة لمراسليه الذين كان يختارهم من كل المراتب الاجتماعية . فهم دوما جنب القيصر ، وهو يعاملهم ببساطة وبدون تكلف ، ويكلفهم بمختلف الاعمال ، بما فيها اعمال هامة للغاية ، ويعينهم فى مناصب رفيعة جدا فى بعض الاحيان ويضعهم فى منزلة اعلى من الآخرين استنادا الى مواهبهم وفطنتهم وحماسهم وغير ذلك من الخصال الحميدة .

وكان الاجانب يستغربون من تصرف القيصر مع عامة الناس حيث يقربهم ويصطحبهم فى روسيا وفى رحلاته الى الخارج . ففى البيت مثلا يلعب الشطرنج مع القس بيتكا . وسافر معه هذا القس الى الخارج فى ١٧١٦ — ١٧١٧ . واثناء وضع ميثاق «مجمع المرح والسكر والعربدة» السالف الذكر استفاد بطرس من معارف القس بيتكا فى الانشاد والمراتب الكنسية . ثم ان مدير جوقة البلاط القيصرى بيليايف شماس من المنشدين وهو ، مثل بيتكا غالبا ما يتردد على بيت القيصر ويتجول معه فى اوربا . اما الامير يورى شاخوفسكوى الذى نعته اعضاء «مجمع المرح والسكر والعربدة» بالارشمندريت غيديون فهو من اعز الناس على القيصر . فهو مهرج ذكى واسع الاطلاع وشجاع لاذع الكلمة ، يثير غضب الوجهاء الذين يفضح تصرفاتهم ويسخر منها ، وخصوصا الرشـــوة

والاختلاس . وكان بطرس يقدره رفيع التقدير ويصطحبه فى حله وترحاله ، وغالبا ما يدعوه الى بيته . وكان موقف الامير كوراكين منه مزدوجا حيث يعتبره ذكيا واسع الاطلاع لكنه سكير عربيد يسيىء الى الجميع .

كان شاخوفسكوى بمثابة المدعى العام الشخصى للقيصر . يراقب كل شيء ويتحدث عن كل الامور بصراحة وفطنة وحدة . واعجب القيصر بذلك ، فصارت ملاحظاته الشخصية ومراقبته للناس ولطبيعتهم وعيوبهم ونقاط ضعفهم تحظى بتأكيدات فى اقوال وتصرفات الامير المهرج الحادة الخشنة .

وقد احتفظ بطرس حتى النهاية بموقف طيب من الاميرال ابراكسين . وقبل وفاته بقليل حاول بطرس اقناعه وهو المريض بالامتناع عن السفر الى موسكو :

— لا ترحل ، والا ستهلك . . . خذ قسطا من الراحة ، وعندما يرى الطبيب انه لا خطر عليك يمكنك ان ترحل .

كان لدى بطرس كل ما تتطلبه الحياة الهانئة : اسرة تتفهمه ، وزوجة تحرص عليه واطفال يحبونه وبيت فيه الراحة والدفء والحنان والاستقرار . لكنه فى هذا المجال ايضا تلقى ضربة هى الاخيرة ، وكانت قاسية جدا دون ريب : كانت زوجته و«رفيقة حياته» يكاترينا امله الاخير من حيث الوئام الروحى ومن حيث مخططات المستقبل . وكما هو شأن مينشيكوف ، غدت هذه الغسالة التى انتشلها من الحضيض انسانا هو بأمس الحاجه اليه . واشار الاشخاص الذين راقبوهما من عام لآخر الى ان مارتا سكافرونسكايا « يكاترينا » ، صارت بسهولة وبشكل طبيعى تماما صديقة ورفيقة وزوجة لانسان فذ عظيم . وكانت تجيد التصرف كامبراطورة ، كعقيلة لامبراطور

روسيا ، وكانت تفعل ذلك ايضا بشكل طبيعى لا اثر فيه للتظاهر والتكلف والجمود . ولم تكن تنسى ماضيها ، حيث ذكرت مرارا انها كانت غسالة ثياب ولا تستحى من ذلك مثل بعض العصاميين الآخرين الذين يصعرون خدودهم للناس حالما يرتقون من الاوحال الى الجبال . لم تكن عقيلة القيصر من هذا النوع من البشر ، فهى تتصرف ببساطة وبلا تكلف . ولا تنقصها الطيبة والاريحية ، فتعمد الى انقاذ هذا او ذاك من غضبة القيصر . كانت هى الوحيدة التى تستطيع ان تهدئ بطرس وتخفف من غضبه وهياجه اللذين لا يندر ان يستوليا عليه بشدة . فهى تتفوه بكلمة طيبة وتمسد شعره وتضغط رأسه بصمت الى صدرها حتى يخف غضب القيصر ، ويتنفس الجميع الصعداء .

وبعد وفاة ولديه اصدر بطرس مرسوما حول ولاية العهد (١٧٢٢) . وبدلا من «العادة السيئة» لانتقال العرش عفويا الى الابن الاكبر استحدث نظام جديد يعين بموجبه «القيصر الحاكم» نفسه وفقا لارادته اى شخص يريده ليكون وليا للعهد . وفيما بعد يمكنه ان يغير رأيه ويعين وليا جديدا . وبعد الاستماع الى المرسوم اقسم كبار موظفى الامبراطورية الروسية بايعاز من القيصر على تنفيذ ارادته المطلقة .

فمن الذى يعينه وليا للعهد يا ترى ؟ هل يعين ابناءه ؟ لم يبق منهم سوى بنتين ، الكبرى ، آنّا ، مخطوبة لدوق هولشتين ، والصغرى غير متزوجة ، ولم تبلغ الخامسة عشرة . ولذا تردد بطرس فى تسليم دفة الدولة اليهما . اما حفيده ، ابن الكسى ، الامير الخائن والمعادى لاعمال ومطامح بطرس ، فهو يخشى ان يسير على سنّة ابيه . ولم يبق هناك سوى زوجته

الحبيبة العزيزة على قلبه ، ونصيرته التى رافقته فى حله وترحاله . صحيح انها ، بعد حياة مشتركة مع بطرس استمرت عشرين عاما ، لم تكتسب قدرة على تصريف شؤون الدولة . ومع ذلك فهى دوما جنبه وجنب اشياعه ، ويمكنها بعده ان تترأس الدولة وتواصل نهجه بمساعدتهم (فمهما كانت خصالهم فهم يجيدون تصريف الامور) . ولعل الامبراطور قد فكر على هذه الصورة مرارا وتكرارا وهو يتوقع قرب نهايته . وهذا هو ما جعله يصدر فى عام ١٧٢٣ بيانه الـــذى برر فيه لقبها كامبراطورة وامتدحها كنصيرة له تحملت مثله مرارا متاعب الرحلات والحملات . وهذا هو ايضا سبب تتويجها فى موسكو فى احتفال رائع مهيب فى مطلع ربيع العام التالى . وحضر الاحتفال كل الوجهاء فى حلة السهرة ، حتى الامبراطور ارتدى تلك الحلة وهو نادرا ما يرتديها . فقد حضر فى قفطان ازرق مطرز بالفضة وجوارب حريرية حمراء وقبعة بيضاء . ووضع التاج على رأس يكاترينا ، وفى اليوم التالى هنأها بوصفه احد الجنرالات . وتكرمت الامبراطورة يكاترينا على بيوتر تولستوى بلقب الكونت ، فقد خدم القيصر وروسيا سنين طويلة بولاء واخلاص .

وفى ذلك العام اشتد عليه المرض بسرعة . لكنه تمالك نفسه ولم يستسلم ، وظل يعمل كالسابق ، ويتعالج احيانا . وفى شباط (فبراير) سافر الى مصيف العلاج الطبيعى فى كاريليا . ورافقته يكاترينا . وبعد احتفالات التتويج فى موسكو سافر من جديد للعلاج بالمياه المعدنية التى اكتشفت قرب مصانع اوغودسكيه . وفى ٧ حزيران (يونيو) قال القيصر لزوجتـــه الامبراطورة :

ـــ هذه المياه والحمد لله تفعل مفعولها ، وتزيد الادرار لا اقل من مياه اولونيتس ، لكن شهيتي ليست جيدة .

ولم يطق صبرا فجاء الى الورشة التى تصنع فيها الصفائح الحديدية وعمل بنفسه فى صنع كمية منها . ودمغ المصنوعات باسمه واستفسر عن اجرة العمل وحسب ما يستحقه وطالب بان يسددوا له ما كسب . واشترى بتلك النقود جزمة وتباهى كثيرا بها لانها من عرق الجبين .

وعاد الى العاصمة . ولم يزايله المرض . وقلل من اعماله ، لكن طباعه دفعته الى المشاركة فى انزال فرقاطة الى الماء فى اواخر آب (اغسطس) ، ثم تجاهل نصيحة الاطباء وتوجه الى شليسيلبورغ للمشاركة فى الاحتفالات السنوية بذكرى تحريرها . وزار مصانع اولونيتس ، والتقط المطرقة من جديد ومارس الحدادة . كما زار ستارايا روسّا حيث يعد الاهالى ملح الطعام ، وتفقد قناة لادوغا التى يعمل فى شقها زهاء ٢٠ الفا من الفلاحين واهالى المدن .

وعاد مريضا الى بطرسبورغ فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) . وآنذاك اندلع حريق جزيرة فاسيليفسكى ، فاسرع بطرس راكبا الى هناك ، فهو يحب اطفاء الحرائق منذ الطفولة . وفى ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) حضر حفلة زفاف احد الخبازين الالمان . وسرعان ما تلقى تلك الضربة المفاجئة الفظيعة التى عجلت فى مماته دون شك . والقضية مرتبطة «برفيقة حياته» يكاترينا . ولا احد يعرف ما حدث على وجه التحديد . فحسب الظاهر كانت الزوجة محتشمة . وعندما عاد القيصر الى البيت لم يجدها . فقد ارتحلت . وكتب اليها يقول : «حالما ادخل القصر اشعر برغبة فى الفرار منه . فهو موحش

بغيابك» . وبعد ذلك تبدلت الامور بسرعة . ففى ٩ تشرين الثانى (نوفمبر) اعتقل فجأة وليم مونس البالغ الثلاثين من العمر ، وهو شقيق محبوبة القيصر السابقة آنّا مونس . كان مُؤتمن يكاترينا المهندم الشاب هذا يدير مكتب ضياعها . وقال بيرخهولتس الآنف الذكر مندهشا ، شأنه شأن الكثيرين ممن استغربوا لتطور الاحداث بهذه الصورة :

— لقد ادهش هذا الاعتقال الجميع بمباغتته ، لا سيما وانه كان فى المساء السابق لذلك اليوم يتناول طعام العشاء فى البلاط وقد تشرف بالتحدث مع الامبراطور طويلا دون ان يشعر بما يشير الى غضبته .

الا ان حجب الاسرار تتبدد . فقد سرت اشاعات واقاويل عن سلوك الامبراطورة المستهجن وعلاقاتها الغرامية مع الشاب المعتقل . ولم يستمر التحقيق مع الرجل المنحوس اسبوعا ، فقطع الجلاد عنقه بحكم المحكمة لاستلامه الرشاوى من المحتاجين الذين يراجعون الامبراطورة ، وسوء استخدام ثقتها واختلاس اموال الدولة . بهذه الصورة جاءت الصيغة الرسمية التى لم يقتنع بها كثيرون .

ولم يرد اسم يكاترينا طبعا بالارتباط بالاعتقال والتحقيق والاعدام . فان زوجة القيصر — منزهة عن الشبهات ! وظلت محافظة على هدوئها ورباطة جأشها ، لكنها حاولت فى الحقيقة ، مثلما فعلت كثيرا فى السابق ، ان تقنع بطرس بالرأفة بالسجين . الا ان الامبراطور كان فى سورة من الغضب الاعمى فحطم مرآة جميلة وثمينة جدا وقال عبارة كبيرة الدلالة :

— هذه حلية رائعة تزين قصرى ، وقد حطمتها بارادتى .

فاجابت يكاترينا بتحفظ كعادتها فى مثل هذه الاحوال :

ــــ وهل غدا قصرك بذلك افضل ؟

لكنها فهمت التلميح الشفاف الواضح ، وهي تعرف طباع زوجها وقسوته . ولذا اذعنت ورافقته عندما امرها بالذهاب للتفرج على رأس محسوبها المقطوع .

وانتهى الحادث عند هذا الحد . لكن العلاقات الودية الطيبة التي كانت تعم القصر انتهت ولم يعد لها وجود . وما كان بوسع ذلك ألا يؤثر على الامبراطور . فقد لازم الفراش اكثر الوقت ، والمرض يعذبه . وعندما يتلاشى الالم او يخف ينهض ويمضي لقضاء بعض الشؤون . وفي تشرين الثاني (نوفمبر) حضر حفل قران وزفاف ابنته آنـّا من دوق هولشتين . وفي ١٨ كانون الاول (ديسمبر) احتفل بعيد ميلاد ابنته الصغرى يليزافيتا . وبعد يومين حضر مراسيم انتخاب «القيصر–الاب الروحي» الجديد بعد وفاة بوتورلين . واهتم بامور اخرى أهم ، حيث وضع وحرر مراسيم وتوجيهات ، بما فيها توجيه الى فيتوس بيرينغ مدير البعثة التي توجهت الى كامتشاتكا بعد وفاة الامبراطور. واسرع كثيرا في انجاز هذا التوجيه الذي ترتبط به خطط جريئة تحدث عنها الى أبراكسين :

ــــ تدهور صحتي جعلني الازم المنزل . وقد تذكرت قبل ايام ما كنت افكر فيه من زمان واعاقتني عنه اشغال اخرى ، واعني الطريق عبر البحر المتجمد الى الصين والهند .

وفي السنوات الاخيرة اهتم بطرس الاكبر كثيرا بالعمل مع سكرتير مكتبه ماكاروف في وضع «تاريخ حرب الشمال» . كان يقرأ النص ويصححه ويغير صياغاته طول الوقت . وظل يمارس هذا العمل حتى وفاته .

وقد قضى نحبه في آلام مبرحة فظيعة في الثامن والعشرين

من كانون الثانى (يناير) ١٧٢٥ . وقبل ان تعاجله المنية ظل عدة ايام يصرخ من شدة الالم ، ثم خارت قواه فأخذ يئن . وظل جثمانه اربعين يوما دون ان يوارى التراب ، وكانت زوجته المفجوعة يكاترينا تبكيه وتندب عليه . ولم يتسنَّ الوقت لبطرس الاكبر ان يعينها رسميا وريثة له (وربما لم يعد راغبا فى ذلك) . وقبيل الوفاة تمكن ان يخط على الورق بيد واهنة : «سلموا كل شىء . . .» — لمن ؟ لا احد يعلم . . .

. . . يا ويلنا ! ما هذا ؟ الى اين انحدرنا ، يا ابناء روسيا ؟ ماذا نفعل ؟ اننا ندفن بطرس العظيم — هتف اثناء دفن الامبراطور احد المقربين اليه .

* * *

دفن بطرس الاكبر فى ٣ آذار (مارس) ١٧٢٥ فى كاتدرائية بطرس وبولص ، فى بطرسبورغ ، واكتنفه تراب ارض البلطيق التى كان يحلم بها منذ الفتوة وكرس حياته كلها للنضال فى سبيلها .

كلمة اخيرة

عندما يفارق الحياة رجل فذ عظيم يشعر المحيطون به بفراغ كبير جدا فى بعض الاحيان ، اذ يختفى مركز الجذب الذى يتحلق حوله الجميع ويحرك الجميع . وفى آخر المطاف يتوقف تقييم الاسلاف له على عظمة شخصيته وسعة الانجازات المرتبطة بها . كانت شخصية بطرس عظيمة لدرجة جعلت غيابه يؤثر ليس فقط فى الذين التقوه بهذه المناسة او تلك وارتبطوا به على نحو او آخر . بديهى ان الحياة تسير فى مجراها . وعلى اثر وفاة بطرس الاكبر اعلن عن تنصيب يكاترينا امبراطورة لروسيا ، فقد كان من اللازم سد فراغ السلطة بأسرع ما يمكن . واستمرت ، كما هى العادة من قديم الزمان ، المخططات والحسابات والهفوات السياسية القديمة والجديدة فى البلاط . ولاحت بوادر انقلابات القصر وتبدل الحكام وتعسف الالمان الذين تقاطروا على روسيا (فى عهد آنّا ايفانوفنا وبيرون) كالزبل من كيس مثقوب ، على حد تعبير المؤرخ كلوتشيفسكى . وقد خلف بطرس الاكبر حكام نعتهم بوشكين بدقة وصواب بالورثة التافهين لعملاق الشمال .

شخصية بطرس شخصية عملاقة حقا . فان انصاره

واشياعه الميتمين واقرب احفاده الذين واصلوا قضيته بنحو او بآخر ، والساسة والمؤرخين والفلاسفة والشعراء والكتاب والصحفيين البعيدين عن عصره يعودون دوما الى شخصية واعمال امبراطور روسيا الاول ، و«غالبا ما تقتصر فلسفة تاريخنا بالكامل على تقييم اصلاحات بطرس» كما يقول كلوتشيفسكى .

ان عصر بطرس والتحويلات التى اجراها وقسطه الشخصى فى بناء الدولة وتعزيز مواقعها وزيادة امجاد روسيا لا بد وان تحظى باهتمام متواصل . فرغم كل النواقص والاخطاء والتشويهات ، الخطيرة جدا فى بعض الاحيان ، تقدمت روسيا فى عهد بطرس بشكل ملحوظ على طريق التطور وتقلص تخلفها عن البلدان المتقدمة فى اوربا الغربية . وحققت روسيا انجازات كبيرة جدا فى الصناعة ــ ٢٠٠ مانوفاتورة جديدة فى مختلف فروع الانتاج . وتحقق تقدم مماثل فى ما يسمى بالتراكم الاولى الذى تسارع فيما بعد وهيأ المقدمات لاسلوب الانتاج الرأسمالى . صحيح ان تراكم الرساميل الذى جرى فى روسيا فى ظل القنانة (التى اختفت من بريطانيا وفرنسا ، مثلا ، قبل قرن من ذلك) كان بطيئا . ومع ذلك فان الاموال تراكمت فى جيوب الافراد (من الصفقات التجارية والاعمال الصناعية وهلمجرا) وفى الخزينة (من الضرائب التى ازدادت ثلاثة امثال من عام ١٦٨٠ حتى عام ١٧٢٤ ومن سك النقود واحتكار الملح والخمور والتبغ وغيرها) . وجرى توظيف تلك الاموال فى المؤسسات الانتاجية وغيرها من الاعمال . واعتمدت الدولة مبالغ كبيرة للبناء الصناعى وقدمت القروض لارباب العمل واصحاب المعامل . وفى الوقت ذاته انفصل عدد متزايد من الناس عن الارض ، وعن البيئة المعتادة ،

فاصبحوا شغيلة فى المانوفاتورات . ونشأت نواة ما قبل البروليتاريا فى روسيا .

وقد شجع بطرس الاكبر التنمية الاقتصادية فى البلاد بقدر كبير ، وكان يدرك تماما ان التخلف ينطوى على عواقب وخيمة كالتبعية للبلدان المتطورة والمتقدمة ، وضياع الاستقلال الوطنى فى آخر المطاف . كانت الدولة التى رعاها وعززها دولة بيروقراطية ذات حكم مطلق لطبقة النبلاء المسيطرة والبرجوازية الوليدة . وكانت على حد تعبير لينين امبراطورية الموظفين والنبلاء ذات الجيش والاسطول القويين وجهاز الدولة والهيئات البوليسية التأديبية مما اسسه بطرس نفسه . وكانت تلك الهيئات فى رأى بطرس والنبلاء تؤدى مهماتها فى الدفاع عن الوطن وقمع احتجاجات الناس بصورة مقبولة تماما .

وبالاضافة الى حل المهمات الطبقية (حماية مصالح النبلاء والتجار وتعزيز مواقعهم واخماد الانتفاضات الشعبية) طرح بطرس وجهازه ونفذا مهمات وطنية عامة . ومن هذه الناحية لا بد من احترام خدمته الشخصية «لمصلحة الدولة» و«الصالح العام» . فالتحويلات التى اجراها ، وبعضها استمرار واكمال لما بدأ قبله ، قد جعلت روسيا بلدا اقوى بكثير واكثر تطورا وتحضرا ، وادخلتها مجتمع الدول العالمية الكبرى ، مع انها لم تستطع ان تخلصها من التخلف تماما . ولم يكن ذلك ممكنا فى ظل نظام القنانة والاقطاع الذى كان بطرس من مفكريه ومؤيديه المتحمسين . كان بطرس الاكبر ابن عصره ، وقد تلقى تربيته على ايدى كبار الاقطاعيين ، فلم يتمكن من تحقيق شيء اكثر مما حقق . لكن ما حققه خلال حياته غير الطويلة (مع ان فترة حكمه طويلة جدا)

فى تطوير الاقتصاد والتشريعات وبناء الجيش والاسطول والسياسة الخارجية والفن العسكرى والثقافة والمعيشة تقبّلته روسيا وتبنّته بامتنان وظلت تتقنه وتواصله على امتداد قرنين من الزمان تقريبا . وقد ادرج بعض من ذلك ، وهو غير قليل ، فى تراثنا الوطنى الى الابد ، مثل الاراضى المسترجعة وتأمين منافذ البحار والمحيطات وبناء المدن وشق القنوات ومنجزات الحضارة الصناعية والحياة الروحية والمآثر البطولية فى العمل وفى سوح القتال ، واخيرا قسطه فى الوعى الوطنى الأشم الصادق لشعوب روسيا .

بطرس الاكبر شخصية معقدة متناقضة ، كما تأكد القارئ الكريم ولا بد . وتلك هى سمة العصر الذى ولد فيه . فقد تلقى من ابيه وجده ومن الساسة والعاملين الذين سبقوه سجايا الطبع ونمط الافعال والنظرة الى العالم ومخططات المستقبل . لكنه فى الوقت ذاته شخصية فريدة لها طابعها الخاص فى كل شيء ، وهذا بالذات ما جعله يحطم التقاليد والعادات والاعراف الجامدة رغم احترامه للاجداد وخبرتهم التى انتفع منها ، ومكنه من اغناء تلك الخبرة القديمة بافكار وانجازات جديدة اصيلة خاصة به ، واقتباس ما هو ضرورى ونافع من الشعوب الاخرى .

كان القيصر–الشغيل والاسطة ، كما نعتوه احيانا ، فى عجلة من امره على الدوام . كل ما قام به طول حياته قام به بسرعة فائقة : العاب مارس والابحار بالقوارب ، وحملتا آزوف و«البعثة الكبرى» ، والسنوات الاولى المتوترة جدا من حرب الشمال (استمرت تلك السنوات العصيبة المحمومة حتى النصر فى بولتافا) والاصلاحات المتعاقبة والمفاوضات

الدبلوماسية والرحلات الى الخارج وحلق اللحى واللهو الذى هو المجون بعينه فى غالب الاحيان فى «مجمع المرح والسكر والعربدة» وتعذيب واعدام «العصاة» و«اللصوص» و«الاشرار» (هذه هى النعوت التى اطلقها هو وانصاره على الذين انتفضوا احتجاجا على ظروف العمل التى لا تطاق والضرائب الفاحشة والعنف) . وقد تجلت فى ذلك كله ، وكثير غيره ، نفسية بطرس وطبيعته بالكامل . فهو يؤدى كل الاعمال فى منتهى التوتر وكأنما يخشى ان يتخلف ويفوت شيئا هاما وضروريا .

وكان معاصروه يدركون بان احدا لا يستطيع ان يضاهى بطرس من حيث مستوى معارفه وكثرة مهاراته التقنية العملية التى جمعها بفضل حبه الشديد للمعرفة وتوقه الذى لا ينضب الى الاستيعاب والفهم وبفضل الفطنة الفائقة والمواهب العبقرية التى فطر عليها . ومنذ ان كان الامبراطور على قيد الحياة وبعد مماته كانت الألسن تتناقل والاقلام تسجل «طرائفه» (اطلقت هذه التسمية على روايات الاحداث الشهيرة ذات العبر والدروس التى جرت لبعض الناس) . وفيما بعد صدر كتاب «طرائف من حياة واعمال امبراطور روسيا بطرس الاكبر» بصياغات متعددة .

واكد شهود العيان لابناء الاجيال اللاحقة ان القيصر الروسى يتميز من جهة بالبساطة فى المعاملة والتواضع والقناعة فى الحياة المعيشية . ولم تكن المنازل والقصور التى بنيت له كبيرة الحجم ، وكانت تخلو من الابهة . فهو طبقا للذوق الروسى القديم لا يطيق السقوف العالية ، وقد اوعز ببناء سقوف اخرى اوطأ من تلك حيثما وجدت ، فكانت تبنى من الخشب او تصنع من القماش الخشن . وكان طيب

القلب بالفطرة ، فتراه يلاطف النجار والحداد والبحار ، فضلا عن الوجيه النبيه ، وكان يتقاسم معهم المأوى والمأكل ويحضر حفلات تعميد اطفالهم . ولم يكن يحب الطقوس والمراسيم ، وبذلك اثار دهشة المراقبين الاجانب ، وخصوصا ممثلى الارستقراطية . ولكن التعود على السلطة وتزلف الحاشية من جهة اخرى يوضحان (ولا يبرران طبعا) بعض خصائص بطرس مثل الغلظة والقساوة والاستهتار والاستهانة بالكرامة البشرية والتعسف فى السياسة والحياة المعيشية . وقد ادرك واكد مرارا انه حاكم مطلق وكل ما يفعله ويقوله غير خاضع لحكم البشر ، فهو مسؤول امام الله وحده عن كل شيء ، عن الصالح والطالح . وهو واثق تماما من ان كل ما يصدر عنه انما يصدر لصالح الدولة والشعب . ولكن هل ادرك بطرس ان جهوده تعود بالخير ليس على الجميع (ليس «للصالح العام») ، او ، على الاقل ، ليس على الجميع بالتساوى ؟ وعلى اية حال فان اغلبية الشعب البسيط استلمت القليل او لم تستلم شيئا ، بل فقدت الكثير (فان مئات الآلاف وقعت تحت نير القنانة ، وتعرض عدد اكبر من الناس لزيادة الضرائب والمستقطعات والتجنيد الاجبارى واعمال السخرة وهلمجرا) .

ومن ابرز سمات بطرس الاكبر كحاكم مطلق مساهمته الشخصية الهائلة فى ادارة الدولة وجهوده واعماله السياسية الخارجية والعسكرية واشراك الكثير من الرجال الموهوبين القديرين فيها من الاداريين والقادة العسكريين والدبلوماسيين ومدراء مختلف المؤسسات الانتاجية المتضلعين فى معرفة الامور . كان يبحث عنهم دون كلل ويربيهم ويوجههم . بديهى ان حدة طباعه وتسلطه قد تركا اثرا فى علاقاته مع انصاره واشياعه .

ورغم ديمقراطيته وتواضعه الهزلى (عندما يتوسل الى «الامير الحاكم» رومودانوفسكى ويكتب له او للاميرال أبراكسين فى مسألة ما باسم الطبال الحقير بطرس ميخائيلوف) فهو لا يطيق اعتراضا من احد عندما يتخذ القرار ، ويشتاط غضبا لاتفه الاسباب . وكان يخشاه حتى انصاره واصدقاؤه ، مع انهم كانوا ، فى حالات اهدأ ، يعترضون عليه ويناقشون المسائل الهامة ويجادلونه . وتجلى ذلك فى تقلب اطواره واستحالة التكهن بتصرفه فى المآدب والولائم وحفلات الرقص . فقد كشف بطرس هنا ايضا عن تسلطه ، باشكال حادة منفلتة احيانا ، حيث كان يقدم على نكات وتصرفات خشنة ومهينة . واحتفظ شهود العيان من معاصريه بالكثير من تلك النكات فى مفكراتهم ومذكراتهم .

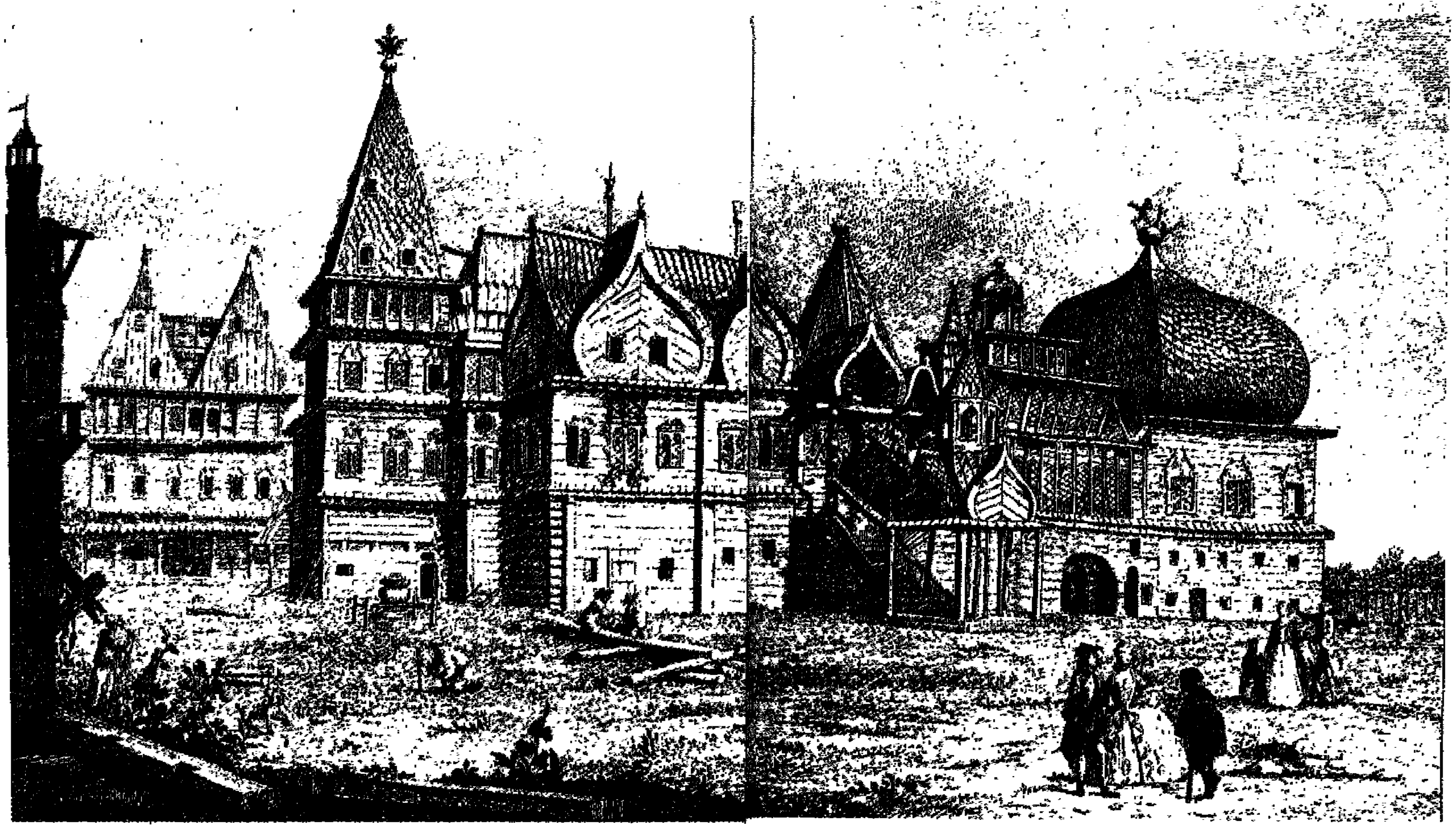
«الجميع يرتجفون امامه ويذعنون له بصمت» — بهذه الكلمات تحدث بوشكين عن طبيعة بطرس القيصر والانسان . وكان بطرس واثقا من ان تصرفاته صحيحة تنفع كل الناس والدولة جمعاء . وكان واثقا بنفس القدر من ان «كل الفضائل» تصدر عن القيصر ، عنه شخصيا . ولذا فان نظرته وارادته يجب ان تصلا الى الجميع وتبلغا كل اطراف الدولة وكل قطاعات الادارة وتدركا نفوس وامانى الرعية . فبدون رعايته وتوجيهاته تتدهور كل الامور وتنقلب شر منقلب . وهذا هو السبب فى كثرة المراسيم والايعازات التى كتبها بنفسه (وهى الاهم) او التى راجعها وحررها وعدلها بعد ان كتبها مساعدوه . فيجب ان يرشد كل رعاياه «كالاطفال» فى كل الامور صغيرها وكبيرها ، من المهد الى اللحد . وكان يرشدهم فى كيفية جنى القمح وبناء المنازل ونصب الافران وعقد القران والزواج

ودفن الموتى وهلمجرا . وقد وضع قائمة تفصيلية لدرجات العقوبة . وكان للاصول والقواعد فى كل ميادين الحياة واشاعة البيروقراطية فى ادارتها فى عهد بطرس ، وبفضل منزلته لدرجة كبيرة ، تأثير بالغ فى واقع الحياة فى روسيا لاحقا .

بديهى ان حياة بطرس الاكبر واعماله ليست ثورة ، وهو نفسه ليس ثوريا متربعا على العرش ، كما تصور سولوفييف فى حينه . ويجانب الصواب كذلك تلميذه كلوتشيفسكى عندما يقول ان اصلاحات بطرس هى نضال الحاكم المستبد ضد الشعب وتحجره . فقد اراد القيصر ، على حد تعبير هذا المؤرخ ، «ان يجعل العبد يعمل بوعى وحرية ويبقى عبدا مع ذلك . فالفعل المشترك للاستبداد والحرية ، للتنوير والعبودية ، هو اللغز السياسى الذى استمر حله عندنا قرنين كاملين ، من عهد بطرس ، ولم يحل حتى الآن» . لقد انعكست فى هذين الرأيين المتطرفين ، فى كل منهما على طريقته الخاصة ، الحصيلة المتناقضة لنشاط بطرس وسمات عصره . فهى رغم تعقدها وتعارضها تكشف بوضوح عن نمو روسيا وتعززها . وحظى حاكمها بامتنان الاحفاد ، حتى الذين لا يؤيدونه فى كل شىء ، حظى بامتنانهم لجهوده العسيرة المتواصلة من اجل اعلاء مجد روسيا . وحتى كلوتشيفسكى ذلك المؤرخ القديم الذى يتحلى بالحكمة والفطنة والظرافة ويلوم بطرس احيانا (بحق وبغير حق) يضفر له ، باسلوبه الخاص ، اكليلا من الغار :

— السلطة المطلقة بحد ذاتها مكروهة كمبدأ سياسى ، والشعور الوطنى لا يعترف بها اطلاقا ، لكنه يسكت على شخص

تقترن فيه هذه القوة غير العادية مع التفانى ونكران الذات ، حيث يتقدم الحاكم المطلق بلا كلل ويتقحم من اجل الصالح العام ويخاطر بالارتطام بعوائق منيعة ، بل وحتى بالقضية التى نذر لها نفسه .



واجهة قصر فى قرية كولومنسكويه على بعد اكثر من سبعة كيلومترات عن موسكو . فى هذا القصر ولد بطرس الاكبر . نقش للفنان غيلفيردينغ ، عام ١٧٦٣ .



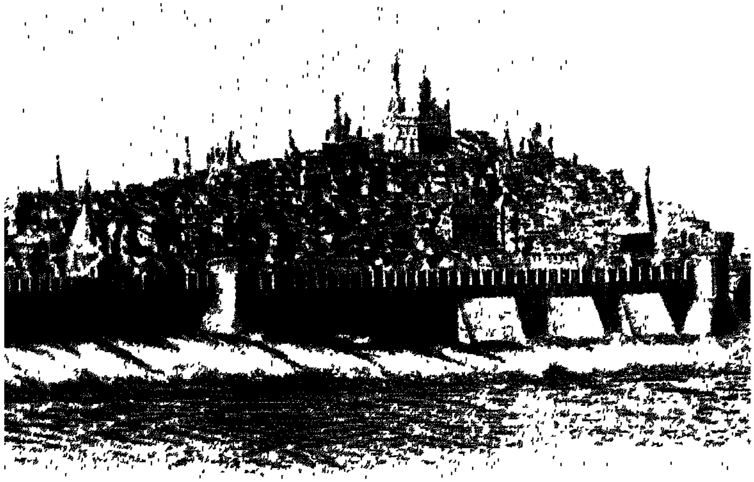
القيصر الكسى ميخائيلوفيتش . نقش اعده فورتمان عام ١٧٣٩ عن اصل روسى قديم لاجل الطبعة الثانية من قوانين الكسى ميخائيلوفيتش .





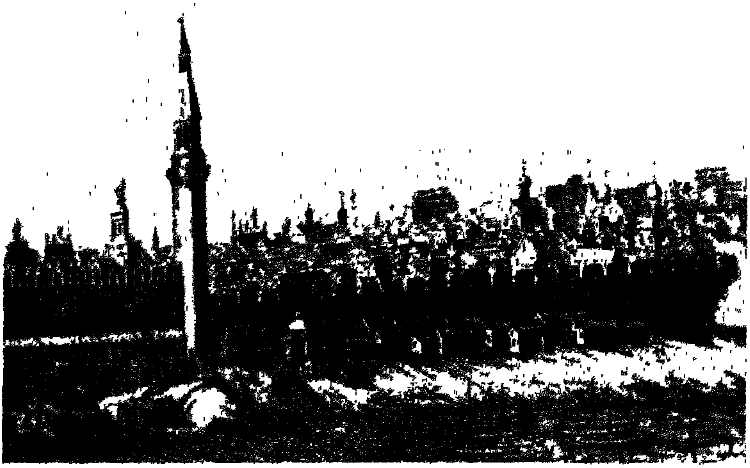
صوفيا الكسيفنا . نقش اعده افاناسيف عن اصل رسمه تاراسيفيتش في ١٦٨٩ .

صورتان نصفيتان لايفان الكسييفيتش واخيه بطرس نقشهما لارميسين على لوحه خشبية واحدة في باريس ١٦٨٥ .





منظر موسكو .
نقش اعده بيكار فى
١٧١٥ .
صورة فينيوس .





فرانتس ليفورت .
نقش عن صورة
بفرشاة ارغونوف .



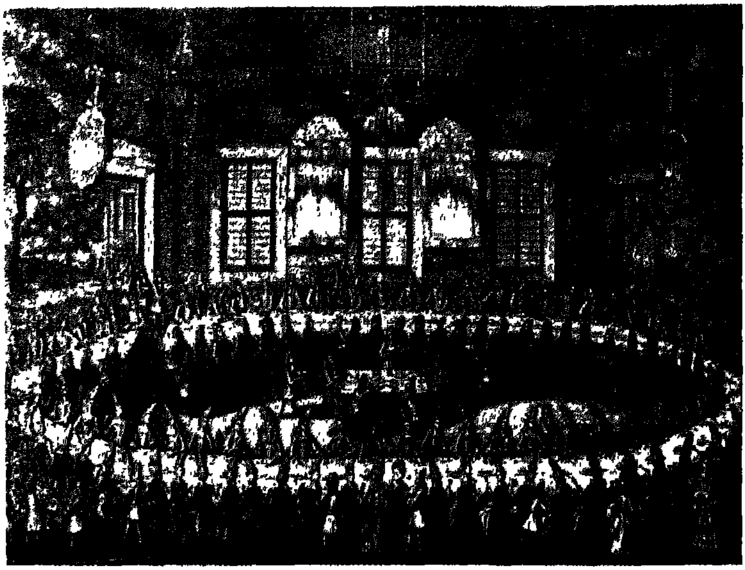
فاسيلي غوليتسين . نقش اعده تاراسيفيتش فى ١٦٨٩ .



بطرس الاكبر . نقش اعده فايتورن فى ١٦٩٨ .



صورة لبطرس الاكبر وزوجته يكاترينا ، فى بزتين فرنسيتين . ايار (مايو) ١٧١٧ ، اثناء تواجد بطرس الاكبر فى باريس .





مأدبة قران بطرس الاكبر ويكاترينا فى ١٧١٤ . نقش فى نهاية العقد الثانى من القرن الثامن عشر .

الكسى بتروفيتش . نقش .





مازيبا . نقش ١٧٩٦ .

بطرس الاكبر على حصان . طبع هذا النقش فى هولندة من قبل آلار وقدم الى بطرس الاكبر فى روسيا فقدره حق قدره . استخدم النقش مرتين فى سك نوطين تكريما للنصر فى معركة بولتافا ومعركة كاليش .



بطرس الاكبر فى شبابه . مقطع من لوحة ، القرن الثامن عشر .





سيدة وفارس فى ثياب اوربية وفلاحان . مقطع من لوحة ، القرن الثامن عشر .

لوحة من القرن الثامن عشر : «حلاق يهمّ بحلق لحية احد المنشقين» .



مينشيكوف . نقش اعده سيموف فى لندن بعد عام ١٧٠٩ .



بطرس الاكبر . خلافا لصور استعراضية كثيرة رسمت هذه الصورة بطريقة واقعية ، وتعتبر الصورة الاصدق . نقشها افاناسيف نقلا عن اصل رسمه كارافاك فى ١٧١٦ .

المراجع

بالروسية

رسائل واوراق الامبراطور بطرس الاكبر . المجلدات ١ — ١٢ ، طبعة بطرسبورغ ، ١٨٨٧ — ١٩١٢ ، وطبعة موسكو — لينينغراد ، ١٩٤٦ — ١٩٧٧ .

فوسكريسينسكى ن . تشريعات بطرس الاكبر . موسكو — لينينغزاد ، ١٩٤٥ .

اوستريالوف ن . تاريخ حكم بطرس الاكبر . المجلدات ١ — ٤ ، ٦ . بطرسبورغ ، ١٨٥٩ — ١٨٦٣ .

تارلى ى . حرب الشمال . موسكو ، ١٩٥٣ .

تاريخ الاتحاد السوفييتى من اقدم العصور حتى الوقت الحاضر . المجلد الثالث . تحول روسيا الى دولة كبرى . الحركات الشعبية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . موسكو ، ١٩٦٧ .

بافلينكو ن . بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٧٦ .

بحوث فى تاريخ الاتحاد السوفييتى . مرحلة الاقطاع . روسيا فى الربع الاول من القرن الثامن عشر . اصلاحات بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٥٤ .

بوديابولسكايا ى . انتفاضة بولافين . ١٧٠٧ — ١٧٠٩ . موسكو ، ١٩٦٢ .

بوغانوف ف . انتفاضات موسكو فى اواخر القرن السابع عشر . موسكو ، ١٩٦٩ .

بوغانوف ف . الحروب الفلاحية فى روسيا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . موسكو ، ١٩٧٦ .

بوغوسلوفسكى م . اصلاحات بطرس الاكبر فى المقاطعات . موسكو ، ١٩٠٢ .

بوغوسلوفسكى م . بطرس الاكبر . مواد فى سيرة حياته . المجلدات ١ — ٥ ، موسكو ، ١٩٤٠ — ١٩٤٨ .

بيسكروفنى ل . الجيش والاسطول الروسيان فى القرن الثامن عشر . دراسات . موسكو ، ١٩٥٨ .

بيكارسكى ب . العلوم والآداب فى روسيا فى عهد بطرس الاكبر . المجلدان الاول والثانى . بطرسبورغ ، ١٨٦٢ .

روسيا فى فترة اصلاحات بطرس الاكبر . مجموعة مقالات . موسكو ، ١٩٧٣ .

زاوزيرسكايا ى . المانوفاتورة فى عهد بطرس الاكبر . موسكو — لينينغراد ، ١٩٤٧ .

سولوفييف س . تاريخ روسيا من اقدم العصور . الكتابان السابع والثامن ، المجلدات ١٤ــ١٨ . موسكو ، ١٩٦٢ــ١٩٦٣ .

سولوفييف س . محاضرات عامة عن بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٨٤ .

غوليكوف ا . اعمال بطرس الاكبر . المجلدات ١ ــ ١٤ ، موسكو ، ١٨٣٧ ــ ١٨٤١ .

غوليكوفا ن . المحاكمات السياسية فى عهد بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٥٧ .

كلوتشيفسكى ف . بطرس الاكبر بين معاونيه . مجموعة مقالات (المجموعة التانية) . موسكو ، ١٩١٣ .

كلوتشيفسكى ف . محاضرات فى التاريخ الروسى . المؤلفات ، المجلد الرابع . موسكو ، ١٩٥٨ .

مولتشانوف ن . دبلوماسية بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٨٤ .

ميليوكوف ب . الدولة الروسية فى الربع الاول من القرن الثامن عشر واصلاحات بطرس الاكبر . موسكو ، ١٨٩٢ .

نيكيفوروف ل . السياسة الخارجية فى روسيا فى السنوات الاخيرة من حرب الشمال . صلح نيشتادت . موسكو ، ١٩٥٩ .

نيكيفوروف ل . العلاقات الانكلوروسية فى عهد بطرس الاكبر . موسكو ، ١٩٥٠ .

بلغات اخرى

Anderson M.S. Peter the Great.—London, 1978.

Bagger H. Peter den stores reformer. En forskningsoversidt. Jysk Selskab for Historie, 1979.

Cracraft J. The Church Reform of Peter the Great.—Stanford univ. press, Stanford, 1971.

Lentin A. Russia in the Eighteenth Century. From Peter the Great to Catherine the Great (1696-1796).—London, Heinemann educational Books, 1973.

Mediger W. Mecklenburg, Russland und England-Hannover. 1706-1721. Ein Beitrag zur Geschichte des Nordischen Krieges.—Hildeshelm, 1967.

Oliva L. J. Russia in the Era of Peter the Great.—Englewood Cliffs, New Jersey, 1969.

Peter the Great. Reformer or Revolutionary? Edit. Raeff M.—Boston, 1963.

Peterson C. Peter the Great's Administrative and Judicial Reforms. Swedisch Antecedents and Process of Reception.—Stockholm, 1979.

Pierre le Grand. Edit. Blanc S.—Paris, 1974.

Portal R. Pierre le Grand.—Paris, 1961.

Putnam P. Peter, the revolutionary Tsar.—New York, Harper, 1973.

Raeff M. Comprendre l'ancien Regime Russe. Etat et Société en Russie Imperiale.—Paris, 1982.

The Eighteenth Century in Russia.—Oxford, 1973.

Troayt H. Pierre le Grand.—Paris, Flammarion, 1979.

Wittram R. Peter 1, Czar und Kaiser. Zur Geschichte Peters des Grossen in seiner Zeit. Bd. 1-II.—Göttingen, 1964.

محتويات

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وموضوعه ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكي بولفار ، ١٧
موسكو — الاتحاد السوفييتي

دار التقدم

قيد الطبع

اغناتنكو . بحثا عن السعادة

يعطى الكتاب تصورا كاملا ، معمما ، عن مذاهب التركيب الاجتماعى السياسى ، التقدمية بالنسبة لعصرها ، عند الفارابــى ، واخوان الصفا ، وابــن سينا ، وابن باجه ، وابن طفيل ، وابن رشد ، وابن خلدون . الكتاب موضوع لدائرة واسعة من القراء ، وهو مكتوب بلغة سهلة ومفهومة ، ومزود بحواش ادبية فنية وغنى بالصور.

دار التقدم

قيد البيع

دراسات في تاريخ الثقافة العربية (القرون ٥ — ١٥)

الفت الكتاب مجموعة من المستعربين في القسم اللينينغرادى لدى معهد الاستشراق التابع لاكاديمية العلوم السوفييتية . وهو سلسلة من المقالات المكرسة لنواح مختلفة من تاريخ الثقافة العربية فى القرون الوسطى . وهى تتحدث عن تركيب اللغة العربية ، والمخطوطات والمكتبات العربية . وخصص فيها مكان كبير لحياة المدينة العربية القروسطية وايديولوجيا سكان المدن .

دار التقدم

قيد البيع

عزيز خودابيرديف . الاستعمار البريطاني وتقسيم اليمن

استنادا الى وثائق نادرة محفوظة فى الارشيف الوطنى الهندى يستعيد المؤرخ السوفييتى تاريخ تقسيم المستعمرين البريطانيين لليمن . يحلل الكتاب سياسة السلطات الاستعمارية البريطانية حيال السلاطين والقبائل والمنظمات السياسية فى اليمن ، ويتحدث عن آلية انشاء الادارة الاستعمارية والجيش وجهاز الدولة . ويحتل مكانا كبيرا فى البحث تحليل اسباب انبثاق تنظيمات سياسية تقدمية فى اليمن هبت للنضال فى سبيل التحرر الوطنى .

استخدم الكتاب عدة وثائق تدخل التداول العلمى لاول مرة فى الاستشراق العالمى .